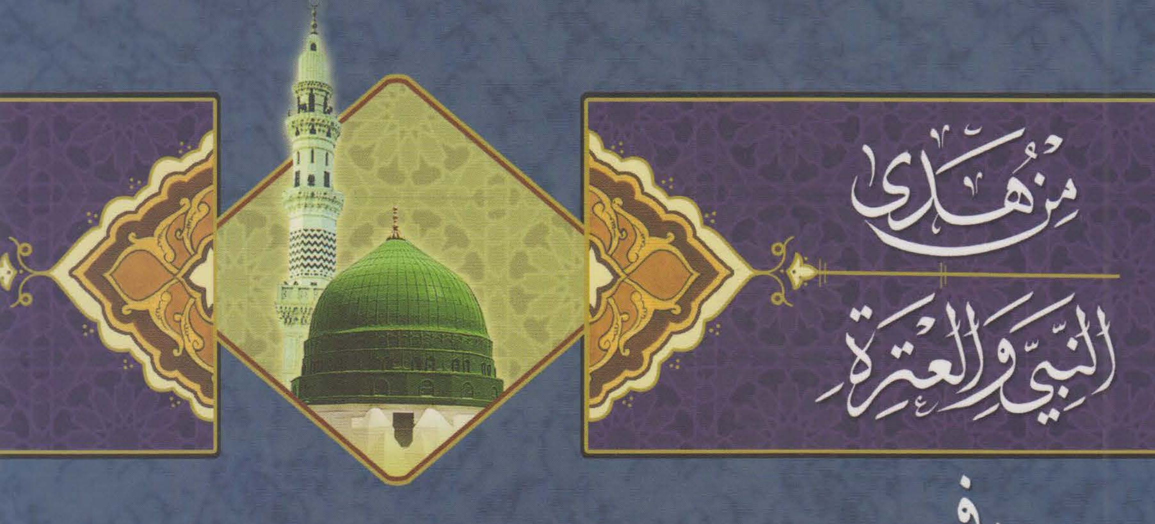
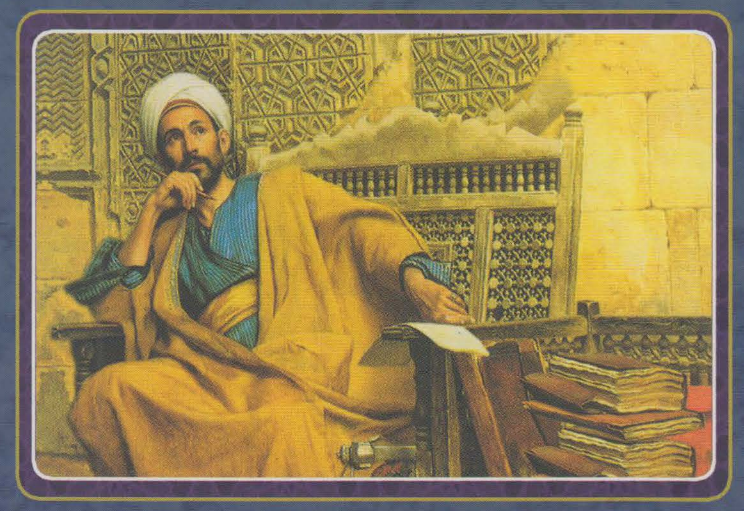


من هدى النبي والعترة

في

تهذيب النفس



الجزء الثاني



الشيخ محمد كاظم البهادلي

من هدى النبي والعترة

في

تهذيب النفس وآداب العشرة



تأليف

الشيخ أحمد كاظم البهادلي

الجزء الثاني

تحقيق

الشيخ علي الأسدي

مكتبة فدك

من هدى النبي والعترة في

تهذيب النفس وآداب العشرة

الشيخ أحمد البهادلي



- تحقيق: الشيخ علي الأسدي
- الناشر: باقيات
- الكمية: ١٥٠٠ نسخة
- الطبعة: الاولى
- المطبعة: سرور
- الزينكغراف: تيز هوش
- تاريخ الطبع: ٢٠٠٥م - ١٤٢٦ق
- القطع وعدد الصفحات: وزيري - ٥٢٨ صفحة

شابك الجزء الثاني: ٩٦٤-٩٦٣٥-١١-٤

شابك الدورة: ٩٦٤-٩٦٣٥-١٩-X

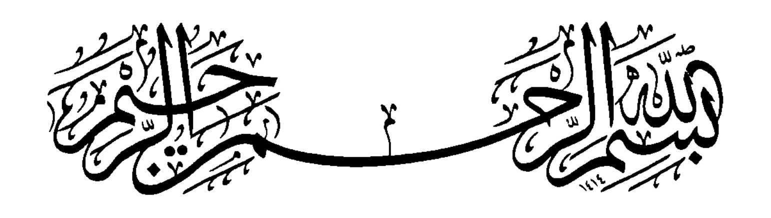
عنوان الناشر: ايران - قم - شارع معلم - رقم ٤٤ - تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع: ايران - قم - مجمّع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي

رقم ١١٦،١١٧ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤







﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

سورة الشمس: الآيات ٧ ـ ١٠

﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

سورة التحريم: الآية ٨

المقدّمة

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصي نعماءه العادّون ، ولا يـؤدّي حقّه المجتهدون ، وأعوذ بتوحيده من كلّ شرك وشكّ ، وأعتصم بنيّر برهانه ونواحي فضله وامتنانه من حبائل الشيطان ومخاتله ، ومن اتّباع هوىً يصدّ عن الحقّ ، وطول أمل يُنسي الآخرة.

والصلاة والسلام على أمين الله المأمون ، وخازن علمه المـخزون ، وشـهيده يـوم الدين ، ورسوله إلى الخلق أجمعين ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، حبيب إله العالمين محمّد المصطفى صلّى الله عليه وآله .

كما أُصلّي وأُسلّم على جميع الأنبياء والرسل ، قدوة المتّقين ، ومـنار المـهتدين ، وعلى أوصـيائهم أجمعين.

وعلى أصحابهم البررة المخلصين ، وعلى مَن اتّبع هداهم إلى يوم الدين ، وبعد :

فأُقدّم للقارئ الكريم الجزء الثاني من هدى النبيّ والعترة ، وهو القسـم الخـاصّ بتهذيب النفس.

وكما ذكرت في مقدّمة الجزء الأوّل أنّ موضوع الكتاب هو الأخلاق من حيث كونها ملكات نفسيّة ، وتجلّيها في التعامل مـع الآخـرين. ودواعـي كـتابته لا يـلاحظ مـن تدنّي الأخلاق وبعدها عن منهج الرسالة المطهّرة. وأنّ منهج هذا الكتاب هو عـرض ما ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وعترته عليهم السلام في موضوع تهذيب النفس وآداب العشرة ، مع بيان

موضوعات هذين الموضوعين ، وبيان ما يحتاج القارئ إلى بيانه ـ غالباً ـ من غامض بعض ألفاظ ما أرويه من أخبار. واكتفيت بالإحالة على مصادر الأخبار عن ذكر أسانيدها رعاية للاختصار.

منهج الكتاب:

الكتاب ـ كما يبدو من عنوانه وقصّة دواعي كتابته ـ مهمّته عرض ما ورد من أحاديث وسيرة النبيّ وعترته الطاهرة في موضوع تهذيب النفس وآداب العِشرة بين النّاس ؛ لذا فقد جعلت الجزء الثاني في تهذيب النفس ووضّحته في فصلين :

الأوّل منهما في تنقية النفس من شوائبها ، والثاني في إصلاحها وبناء ملكات الخير فيها ؛ وذلك لأنّ البناء على الرين والصدأ لا يؤمن استقراره.

وقدّمت على الفصلين مدخلاً تناولت فيه بيان معاني مفردتَي العنوان (تهذيب ، النفس) ، وبيان أهميّة معرفة النفس ، وهل أنّها ممكنة أم مستحيلة ، ثمّ بعد إثبات وقوع معرفتها فضلاً عن إمكانها استعرضت وسائل معرفة النفس ومناهج هذه المعرفة والأهداف التي ينشدها طلاب هذه المعرفة على اختلاف مناهجهم وطوائفهم ، ثمّ أفضل الوسائل والأهداف من بين ما استعرضته منها.

وفي آخر فقرات المدخل تحدّثت بإيجاز عن تهذيب النفس ، ورويت ما يثبت أنّ ترك تهذيبها لا يحسن من عاقل ذي دين فضلاً عن الدعاة إلى الله تعالى وتطبيق شريعته المقدّسة.

أمّا الفصل الأوّل من الجزء الثاني ، فقد جعلته في خمسة مطالب :

الأوّل : مراقبة النفس ومجاهدتها.

الثاني : محاسبة النفس وتشخيص عيوبها.

الثالث : كبائر الذنوب التي هي عيوب نفسيّة.

الرابع : الأثر الوضعي والتكويني لكبائر الذنوب .

الخامس : أهمّ المصادر في ارتكاب الكبائر ، فذكرت منها : حبّ الدنيا ، واتّباع الهوى ، والتعصّب ، والغضب ، والتكبّر ، والتجبّر ، والحسد ، والظلم والإعانة عليه ، والبغي ، والسفه ، والطمع ، والحرص ، وسوء الخُلق .

وفي الفصل الثاني من هذا الجزء تناولت بعد التمهيد خمسة مطالب أيضاً :

أوّلها التوبة ، وثانيها العقل وطاعته ، وثالثها : التفكّر والاعتبار ، ورابعها : اليقين بالله في النفع والضرر ، والآثار المترتّبة على اليقين بالله تعالى ، وهي : التوكّل على الله تعالى ، والاعتصام به ، وقطع الرجاء عن غيره ، والرجاء والخوف والجمع بينهما ، وحسن الظنّ بالله عزّ وجلّ ، والاعطاء والمنع فيه سبحانه ، والتخلّق بمكارم الأخلاق .

وذكرت من مكارم الأخلاق : الورع ، والعفّة ، والحلم ، والرفق ، والصبر ، والتواضع ، وإنصاف النّاس من النفس ، والتقوى ، وخامس هذه المطالب : الإيمان ، ببيان معناه ، ودرجاته ، وخصال المؤمن ، وما عليه من واجبات وما له من حقوق ومنزلة . وبهذا ينتهي الجزء الثاني بذكر مصادره وفهرسة موضوعاته مفصّلة .

واعتمدت أساساً لرواية أخبار هذه المطالب كتاب وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة للمحدّث المحقّق الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي (المتوفّى سنة ١١٠٤هـ) ، باعتباره قد جمع أخبار المعصومين عليهم السلام من الكتب الأربعة : الكافي ، ومن لا يحضره الفقيه ، والتهذيب ، والاستبصار ، وغيرها من الكتب الحديثيّة المعتبرة .

فاخترت ممّا رواه ما يتناسب وموضوع البحث ، بحيث لا يلزم منه التكرار ، ولا يحتاج في فهمه إلى مزيد من البيان ، وحذفت أسانيد الأخبار ، مكتفياً بالإشارة إلى مصادر الخبر من الوسائل ومصادرها ليتسنّى لمن يريد تحقيق السند أن يرجع إليها ويطّلع هناك على سندها ؛ وذلك من أجل أن أذكر أكبر عدد ممكن من الأخبار بحجمٍ يسهل تناوله ، لا سيّما وأنّ الضعيف من هذه الأخبار على قلّته لا يحسن تركه لقاعدة

التسامح في أدلّة السنن[١]. مضافاً إلى أنّ ذكره من باب التأييد لما دلّ عليه الخبر الصحيح أو الحسن أو الحجّة بشكل عامّ.

ولهذين السببين أيضاً رويت في بعض المطالب من مصادر أُخر غير الوسائل، مثل مستدرك الوسائل والبحار ومكارم الأخلاق وتحف العقول وبعض كتب التفسير، ما يدعم ويؤيّد مضمون ما وجدتُ له خبراً معتبراً في الوسائل.

واستعنت لتعريف موضوعات هذه الأخبار مثل: النفس، والغضب، والظلم، والإيمان، والكبيرة، وغيرها ممّا ورد من هذه الموضوعات بكتب أُخرى، مضافاً للروايات التي تشرح موضوع حكمها، مثل كتب اللغة وتفسير القرآن الكريم، وكتب النفس والفلسفة، وأُصول الفقه وغيرها، كما استأنست أحياناً بذكر بعض أقوال الفقهاء ليطمئنّ القارئ إلى أنّ ما استفدته من الخبر كان من حكم قد أفتى به بعض الفقهاء أو أجمعوا على الفتوى به.

أمّا القرآن الكريم فقد اعتمدتُ الكثير من آياته الشريفة المحكمة لإثبات ما ورد في الأخبار من أحكام أو لبيان موضوع تلك الأحكام، مع الإشارة إلى ما قاله المفسّرون في معناها، كما لم يفتْني أحياناً التنبيه على ما أُلمحتْ إليه بعض الأخبار من معانٍ عرفانية يمكن طرحها في مثل هذه الساحة.

ومن كتب علم الأخلاق استفدت من كتاب المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، وكتاب جامع السعادات.

وعلى هذا المنهج تمّ هذا الكتاب كما تراه، ونظراً لقصور كاتبه وقِصَر فترة إنجازه، قياساً لما يتطلّبه الكاتب في مثل هذا الموضوع من إيمان وتقوى وصفاء نفس، وما يتطلّبه هذا الحجم من الكتابة ومستلزماتها، لا بدّ وأن يجد بعض قرّائه ـ على الأقلّ ـ

---

(١) قاعدة التسامح في أدلّة السنن منشؤها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله من مضمون هو: «من بلغه ثواب على عمل فعمله رجاء ذلك الثواب، كان له من الأجر ما رجاه وإن لم أقله».

كثيراً من الفجوات والهفوات ، ومع هذا فإنّي لا أعتذر عن كلّ ما حصل ؛ **لأنّي قمت** بتكليفي وبذلت كلّ ما بوسعي ، و**﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾**[١] ، **﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾**[٢] ، ورفع عن أُمّة محمّد ﷺ ما لا يطيقون[٣] .

وإن كنت قد دخلت فيما لا أُطيق فالعذر إليه وحده ، فإن قَبِله من عبده فهو أهل للقبول ، وإن ردّه ـ وحاشاه ـ فالعبد الذليل بين يديه أهل للعقوبة ، **﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾**[٤] .

اللّهمّ إنّي أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء أن ترحمني وتتجاوز عن هفواتي ، وأسألك أن تجعل هذا العمل نافعاً **﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾**[٥] .

النجف الأشرف

أحمد كاظم البهادلي

٨ / ربيع الثاني / ١٤١٤هـ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ٧ .

(٣) في الحديث عن النبيّ ﷺ ، قال : « **رفع عن أُمّتي تسعة : الخطأ ، والنسيان ، وما أُكرهوا عليه ، وما لا يطيقون ، وما لا يعلمون ، وما اضطرّوا إليه ، والحسد ، والطيَرة ، والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة** » . راجع بحار الأنوار : ٢/٢٨٠ ، الباب ٣٣ (ما يمكن أن يستنبط من الآيات والأخبار) ، الحديث ٤٧ .

(٤) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(٥) سورة الشعراء : الآيتان ٨٨ و ٨٩ .



المدخل



١ ـ التهذيب لغةً

التهذيب في اللغة بمعنى التنقية ، قالوا : هذّب النخلة ، بمعنى نقّى عنها الليف ، مأخوذ من هذّبه يهذّبه هذباً ، أي قطعه ونقّاه وأخلصه وأصلحه . والهذَب بمعنى الصفاء والخلوص ، ومنه رجل مهذّب ، أي مطهّر الأخلاق[١] .

٢ ـ النفس لغةً

مادة النفس تأتي بفتح الفاء ، فيكون معناها : سحب الهواء من كلّ ذي رئة ، وتستعمل أيضاً بمعنى التبلّج . يقال في المعنى الأوّل تنفّس الإنسان ، وفي المعنى الثاني تنفّس الصبح ، وجمع الكلمة بهذين المعنيين أنفاس .

وتأتي بسكون الفاء ، ومعانيها بهذه الهيئة :

١ ـ الروح ، فحيث يقولون خرجت نفسه ، يعنون موته بخروج روحه عن بدنه .

٢ ـ الدم ، فتجدهم يصفون بعض الحيوانات بذوات النفس السائلة ، والبعض الآخر منها بذوات النفس غير السائلة ، ويعنون بالوصف الأوّل ما يجري دمها في عروق ، كالإنسان والأنعام ، ويعنون بالوصف الثاني ما يرشح دمها رشحاً ، كالأسماك .

---

(١) القاموس المحيط : ١٤٤ ، مادة « هذب » ، كلمة « هذبه » .

٣ ـ الجسد ، وقد استعملت فيه كلمة النفس في تعداد البشر ؛ إذ يقولون : ثلاثة أنفس ، فيذكرون المعدود بقرينة إلحاق التاء بالعدد ، بلحاظ كون معناه الجسد أو الإنسان . ولو أرادوا به النفس بمعنى الروح لقالوا : ثلاث أنفس ، ولعلّ استعمال النفس في الجسد استعمالاً مجازياً بعلاقة الحال والمحلّ .

٤ ـ عين الشيء وذاته ، فعندما يقال : جاء فلان نفسه أو بنفسه ، يريدون بذلك : جاء عينه أو بعينه وبذاته ، تأكيداً لمجيئه هو ، ونفي احتمال مجيء رسوله أو رسالته[١] .

وكلمة النفس بهذه المعاني تجمع على نفوس وأنفس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾[٣] .

هذا عن معنى النفس لغةً ، أمّا معناها عند غير أهل اللغة من ذوي التخصّص في معرفتها أو دراستها ، فيبدوا لمن تتبّع استعمالاتهم لها ، أنّهم عندما يطلقونها إنّما يريدون بها روح الكائن الحيّ .

فالقدماء من علماء النفس عرّفوا علم النفس بـ(عالم الروح)[٤] .

وقدماء الفلاسفة يتعاملون مع كلمتي الروح والنفس تعامل المترادفتين ، فيستعملونهما بالمعنى الذي عرّفوه بـ(الجوهر الشفّاف السجين في الجسم)[٥] .

ومفسّرو القرآن الكريم في مباحث الروح والنفس يوردون الكلمتين بمعنى واحد . يقول صاحب الميزان : « هذا النوع ـ ويعني به الإنسان ـ حينما أنشئ مركّباً

---

(١) القاموس المحيط : ١٢١٨ ، مادة « عين » . مختار الصحاح : ٥٥٧ ، مادة « ع ي ن » .
(٢) سورة التكوير : الآية ٧ .
(٣) سورة الزُّمر : الآية ٤٢ .
(٤) علم النفس / الدكتور أحمد حسن الرحيم : ٤ وما بعدها .
(٥) جمهورية افلاطون : ١٣٤ ، ترجمة حنّا خبّاز ، ط . دار العلم .

من جزأين ، ومؤلّفاً من جوهرين : مادّة بدنيّة ، وجوهر مجرّد هو النفس والروح »[١] .

أمّا علماء الأخلاق فهم كغيرهم في معنى النفس . يقول صاحب جامع السعادات ـ وهو يتحدّث عن النفس وأسمائها ـ : « إنّها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته ، وهو حقيقة الإنسان وذاته ، والإعطاء والقوى آلاته التي يتوقّف فعلها عليه ، وله أسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمّى روحاً لتوقّف حياة البدن عليه ، وعقلاً لإدراكه المعقولات ، وقلباً لتقلّبه في الخواطر »[٢] .

٣ ـ أهمّيّة معرفة النفس

الإنسان ـ وفق مقاييسه ـ عندما يصف أمراً مهمّاً أو أهمّ ، إنّما يصفه بلحاظ ما يحقّق له من غرض ، وبمقدار ذلك الغرض ، ومهما تفاوتت الأغراض بتفاوت أصحابها فإنّها تصبّ في مصبّ واحد ، هو أن يحقّق الإنسان لنفسه السعادة ، ومن المتّفق عليه لدى جميع العقلاء أنّ السعادة إنّما تتحقّق ببلوغ الكمال ، فتكون تامّة بتمامه ، وناقصة بمقدار ما يلحق الكمال من النقص ؛ ولإنّ اختلف النّاس فإنّما يختلفون في معنى الكمال ومصداقه ، وأمّا ملازمة مفهومه للسعادة فلم يختلف فيها عاقلان منهم .

وممّا لا شكّ فيه أنّ معرفة الحقّ ومعرفة السبل الموصلة إليه هو الكمال وبه السعادة ، كلّما دخل هاتين المعرفتين من نقص هبطت السعادة بقدرِهِ حتّى تصل في هبوطها إلى الجهل المطلق وهو الظلام المطبق .

والمعرفة من حيث ما تتعلّق به على ثلاثة أنحاء :

معرفة الإنسان بنفسه ، ومعرفته بغيره ، ومعرفته بغيره على نحوين : معرفته

---

(١) الميزان في تفسير القرآن : ٢/١١٤ ، سورة البقرة : الآية ٢١٣ ، ط . الأعلمي ـ بيروت .

(٢) جامع السعادات : ٦١/٦ ، النفس وأسماؤها وقواها الأربع .

بربّه ، ومعرفته بما يدركه من حوله . وإذا أجّلنا الحديث عن معرفة الإنسان بربّه للخلاف في إمكانها واستحالتها ، يبقى الحديث فعلاً عن معرفة الإنسان بنفسه ومعرفته بما يدركه من حوله .

وهاتان المعرفتان قد أشار إليهما القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾[١] .

ولنبدأ بالمعرفة الآفاقيّة لننظر هل تحقّق للإنسان كمالاً وسعادة ؟ وتحديداً للسؤال : هل أنّ معرفة الكون المادي بأدقّ ما يمكن أن تصل إليه دون أن توصل إلى ما وراءه تحقّق كمالاً وسعادة بهذا الكمال ؟

وممّا يغني عن عناء البحث لاستنباط الإجابة عن هذا السؤال ، تجارب الإنسان عبر آلاف القرون في أن يحقّق لنفسه سعادة من خلال معرفته الكونيّة مهما تعمّق فيها وطاف حتّى في كواكبها ، فلم يزدد بهذه المعرفة إلّا عناءً وشقاءً ، والأدلّة على تدنّي الكمال وهبوط السعادة وفشل التجارب بقدر الشواهد المعاصرة على ويلات البشرية وكوارثها في الحياة الدنيا ، فضلاً عمّا أُعدّ لهم ممّا يجهلونه من عذاب أليم بعدها . ومردّ هذا الفشل في تحقيق السعادة البشريّة بالمعرفة الكونيّة الماديّة وحدها ، هو بكلّ بساطة أنّ السعادة والكمال من شؤون النفس ، والجهلُ بحقيقتها وبأحوالها يستلزم الجهل بما يسعدها ويشقيها وبما يضرّها وينفعها ، فالطبيب ما لم يعرف من يعالجه لا يمكنه تشخيص دائه ودوائه . ولو افترضنا ـ وفرض الحال ليس محالاً ـ أنّ الإنسان يوماً ما استطاع أن يحقّق لنفسه من خلال معرفته الماديّة فحسب سعادة في الحياة الدنيا ، فهل أنّ النفس قد انتهى وجودها بانتهاء هذه المرحلة ؟ أم أنّ لها وجوداً مستمرّاً بعد الموت وشعوراً بالسعادة والشقاء ؟ إنّ العلوم الآفاقيّة ما لم تتجاوز أُفقها المحسوس لم تقدّم ولن تستطيع أن تقدّم أي دليل ينفي وجود

---

(١) سورة فصّلت : الآية ٥٣.

النفس المجرّد بعد الموت؛ لقصور أدوات استدلاله الحسّي على نفي ما ليس محسوساً، وكلّ ما لديه أن يقول: لا أدري؛ لأنّ الحسّ لا يدرك ما وراء الطبيعة، ويبقى عنده ـ إن كان موضوعيّاً ـ احتمال بقاء النفس بعد الموت، ولربّما كانت خالدة، وهي حينئذٍ كما هي في البدن ينغّص على المرء كلّ سعادة في الدنيا، سيّما والكثرة الكاثرة من العلماء والمفكّرين يقولون بتجرّد النفس بعد الموت، وخلودها، وسعادتها أو شقائها وفق صفاتها التي تكون عليها في هذه الحياة الدنيا.

أجل، للمعرفة الآفاقيّة قيمتها الطريقيّة، أي لها أهميّتها حينما تكون وسيلة لمعرفة الحقّ في ما وراء هذه المعرفة الحسّيّة، بل ما عرّفنا الله تعالى إلّا من أجل أن نعرفه، ولذا جعلت الآية الكريمة: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ** ﴾ غاية هذه المعرفة، معرفة الحقّ ﴿ **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾، فإذا اقتصرنا على معرفة الآفاق دون معرفة الحقّ كنّا لاهين في الوسائط دون غاياتها.

ولكن من غير المعلوم أنّ المعرفة الآفاقيّة وحدها توصل إلى الحقّ، فالآية الشريفة جعلت بيان الحقّ مترتّباً على المعرفتين معاً، معرفة الآفاق ومعرفة النفس؛ إذ قال تعالى: ﴿ **فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾، وحتّى مع مشاركة المعرفة الآفاقيّة لمعرفة النفس في الوصول إلى الحقّ، تبقى المعرفة الآفاقيّة دون معرفة النفس في هذا المجال؛ للأخبار الكثيرة المفضّلة لمعرفة النفس على المعارف الكونيّة قاطبة، وسيأتي ذكر طائفة منها. ولعلّ ما يروى عن الإمام عليّ عليه السلام يشير إلى هذا التفضيل؛ إذ يقول عليه السلام: «**المعرفة بالنفس أفضل المعرفتين**»[١]. وبناءً على صحّة هذا المعنى من بين معاني الحديث الأخرى، فإنّ منشأ التفضيل هو أنّ المعرفة الآفاقيّة حتّى وإن أوصلت صاحبها إلى معرفة الحقّ، فإنّ الميسّر في طريقها طويل، والغاية في السير فيه بعيدة، بخلاف معرفة النفس، فإنّها وإن كانت على رأي البعض معرفة للآثار أيضاً

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/١٦٩، سورة المائدة: الآية ١٠٥، ط. الأعلمي ـ بيروت.

إلّا أنّ معرفة الحقّ تلازمها أو قريبة منها .

ومضافاً لهذه الميزات لمعرفة النفس على المعرفة الآفاقيّة ، فإنّ لها ميزة أُخرى ، فالمعرفة الآفاقيّة كما استفدناه من الآية يتبيّن بها الحقّ مقرونة بمعرفة النفس ، أمّا معرفة النفس فقد دخلّت جملة من الأخبار على أنّ معرفة الحقّ تحصل بها وإن تجرّدت عن المعرفة الآفاقيّة ، وفيما يأتي أورد بعض ما عثرت عليه من الأخبار المرويّة في تفضيل معرفة النفس ، وإيصالها إلى معرفة الربّ من دون اقترانها بأيّة معرفة كونيّة آفاقيّة :

١ ـ روي أنّه دخل على رسول الله ﷺ رجل اسمه مجاشع ، فقال : يا رسول الله ، كيف الطريق إلى معرفة الحقّ ؟ فقال ﷺ : « **معرفة النفس** »[١] .

وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ـ وهو مَن قال فيه رسول الله ﷺ : « **عليّ مع الحقّ ، والحقّ مع عليّ ، ولن يفترقا حتّى يردا علَيّ الحوض** »[٢] ـ عدّة مرويات في النفس ومعرفتها وآثار معرفتها نوردها فيما يلي[٣] :

١ ـ « **أعظم الحكمة معرفة الإنسان نفسه** » .

٢ ـ « **من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كلّ معرفة وعلم** » .

٣ ـ « **معرفة النفس أنفع المعارف** » .

٤ ـ « **غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه** » .

٥ ـ « **نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس** » .

٦ ـ « **من عرف نفسه تجرّد** » .

---

(١) مستدرك الوسائل : ١٣٨/١١ ، الحديث ٥/١٢٦٤٣ ، أبواب جهاد النفس وما يناسبه ـ باب وجوبه .

(٢) بحار الأنوار : ٣٤٣/٢٩ ، الحديث ١١ ، فصل في الكلام على ما يستفاد من أخبار الباب .

(٣) الميزان في تفسير القرآن : ١٧٢/٦ ، سورة المائدة : الآية ١٠٥ ، ط . الأعلمي ـ بيروت .

٧ ـ « أفضل العقل معرفة المرء بنفسه ، فمن عرف نفسه عقل ، ومن جهلها ضلّ » .

٨ ـ « كفى بالمرء معرفة أن يعرف نفسه ، وكفى بالمرء جهلاً أن يجهل نفسه » .

٩ ـ « لا تجهل نفسك ، فإنّ الجاهل معرفة نفسه جاهل بكلّ شيء » .

١٠ ـ « من لم يعرف نفسه بعُد عن سبيل النجاة ، وخبط في الضلال والجهالات » .

١١ ـ « عجبت لمن ينشد ضالّة وقد أضلّ نفسه فلا يطلبها » .

١٢ ـ « من عرف نفسه عرف ربّه » .

١٣ ـ « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه » .

١٤ ـ « عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربّه » .

١٥ ـ « كيف يعرف غيره من يجهل نفسه » .

١٦ ـ « أكثر النّاس معرفة لنفسه أخوفهم لربّه » .

١٧ ـ « الكيّس من عرف نفسه وأخلص أعماله » .

١٨ ـ « من عرف نفسه جاهدها ، ومن جهل نفسه كان بغيره أجهل » .

١٩ ـ « العارف من عرف نفسه فأعتقها ، ونزّهها عن كلّ ما يبعدها » .

هذا بعض ما روي عن سيّد العارفين عليه‌السلام بشأن معرفة النفس ، فهي كما قال عليه‌السلام أفضل المعرفتين ، وأنفع المعارف ، وأعظم الحكمة ، وغاية كلّ معرفة وعلم ، والجهل بها جهل بكلّ شيء ، وخبط في الضلالة ، وحرمان من الفوز الأكبر ، وبعدٌ عن التعقّل والإخلاص في العمل ، والخوف من الله تعالى . ومن هنا تبرز أهمّية معرفة النفس ، بل لا مهمّ سواها ، ويبرز أيضاً سؤال هو :

هل بإمكان الإنسان أن يعرف نفسه فينال هذه الفضائل المذكورة في هذه الأحاديث ؟

في التمهيد اللّاحق استعرض الأقوال في الإجابة عن هذا السؤال .

٤ ـ المعرفة بين الاستحالة والوقوع

ذهب بعض العلماء إلى القول باستحالة معرفة الإنسان نفسه، واستدلّ هؤلاء بدليلين:

الدليل الأوّل: الحديث المشهور لدى جميع المذاهب والفِرق الإسلاميّة، وهو ما روي عن النبيّ ﷺ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[١].

وجه الاستدلال

الحديث الشريف أناط معرفة النفس بمعرفة الربّ، وعلّق الأُولى على الثانية وربطها بها، وبما أنّ معرفة الربّ سبحانه وتعالى مستحيلة، فمعرفة النفس منوطة بالمستحيل ومعلّقة عليه ومرتبطة به، فتكون مستحيلة أيضاً.

أمّا استحالة معرفة الإنسان لربّه؛ فلأنّ المعرفة التامّة للشيء هي الإحاطة العلميّة به، والله سبحانه وتعالى لا يمكّن الإنسان المحدود علماً وقدرة أن يحيط به علماً؛ لأنّه لا حدود له، فمحال على المحدود أن يستوعب اللّامحدود، وإلّا لزم أن يكون اللّامحدود محدوداً، والمحدود لا محدوداً ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾[٢]، ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾[٣]. وأمّا التلازم بين المعرفتين فبنصّ الحديث المتّفق على روايته.

ومعلوم أنّ استحالة أحد المتلازمين تستدعي استحالة الآخر، وإلّا لما تحقّق حينهما التلازم.

---

(١) الحديث النبوي فيه كلمة «قد»، والحديث الإمامي بدونها، انظر الحديث رقم ١٢ من الأحاديث السابقة الصفحة ١٩ من هذا الكتاب.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة طه: الآية ١١٠.

مناقشة الاستدلال

يمكن مناقشة الاستدلال بالحديث الشريف بثلاث مناقشات :

١ ـ لو سلّمنا بإناطة معرفة النفس بمعرفة الربّ وتعليقها عليها ، لا يلزم تعليق معرفة النفس على محال ، ما لم تثبت استحالة معرفة الربّ مطلقاً ، ولم تثبت الاستحالة لمعرفتنا به مطلقاً ؛ وذلك لأنّ المعرفة أيّة معرفة من المفاهيم التي تقبل الشدّة والضعف ، والكمال والنقص ، وبتعبير منطقي : أنّ مفهوم المعرفة من المفاهيم المشكّكة[1] . ولذا ورد في الحديث رقم (١٢) : « **أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه** » ، وفي الحديث رقم (١٦) : « **أكثر النّاس معرفة لنفسه أخوفهم لربّه** » .

فهذان الحديثان وغيرهما يثبتان تفاوت المعرفة البشريّة ، ويثبت الأوّل منهما وجود عارف وأعرف بالله تعالى ، وحيث كانت معرفة الإنسان بربّه متفاوتة ، فلا يلزم من تعذّر الإحاطة التامّة بمعرفته تعذّر معرفته مطلقاً ؛ لإمكان حصول مقدار من المعرفة على قدر حال العارف وأفقه سعة وضيقاً ، ومثل هذا التفاوت يحصل حتّى في العلوم الطبيعيّة ، فالعلم بالمادة كيمياويّاً أو فيزياويّاً يتفاوت من شخص لآخر ، ومن حال لآخر بالنسبة لشخص واحد ، ولا يلزم من انتفاء الإحاطة التامّة بالعلم بتركيب الذرّة أو تحليلها أن تنفي العلم عن العلماء الذين عرفوا عنها الكثير أو القليل .

فالإحاطة التامّة وإن كان مستحيلة في حقّ عامّة النّاس ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً** ﴾ ، إلّا أنّ مقداراً من المعرفة على قدر ما أنار الله قلبه بها ، لا يدلّ الحديث ولا الآيتان على استحالتها .

---

(١) **المشكّك** : وصف للمفهوم الذي يكون انطباقه على بعض مصاديقه أوّل وسابق على انطباقه على المصاديق الأُخرى ، كانطباق مفهوم الوجود على العلّة والمعلول ، أو الذي يكون انطباقه على بعض المصاديق أوْلى من انطباقه على الأُخرى ، كانطباق مفهوم البياض على شديد البياض وما دونه . راجع رسائل السيّد المرتضى : ٢/٢٨٦.

٢ـكما جاز للمستدلّ على الاستحالة أن يفهم من الحديث الشريف تعليق معرفة النفس على معرفة الربّ المستحيلة ،لِمَ لا يجوز أن يكون له فهم آخر ، وهو أنّ معرفة النفس مترتّبة على معرفة الربّ ، بمعنى أنّ الموصوف بأنّه قد عرف نفسه لا بدّ وأن يكون قد عرف ربّه ، فلا تحصل معرفة النفس إلّا بمعرفة الربّ .

ويؤيّد هذا الفهم لهذا المعنى من الحديث ، ما ورد عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام برواية أبي حمزة الثمالي : «**بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَني عَلَيْكَ وَدَعَوْتَني إِلَيْكَ ، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ ما أَنْتَ**»[1] .

ومفاد هذا الحديث أنّ معرفة الله بالله ، لا بالنفس أو غيرها من الآيات الآفاقيّة ، أو أيّة معرفة اُخرى تترتّب عليها دون العكس .

ولعلّ في ما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أكثر وضوحاً حين يقول :

« **من زعم أنّه يعرف الله بتوهّم القلوب فهو مشرك ، ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى ، فقد أقرّ بالطعن ؛ لأنّ الاسم محدث ، ومن زعم أنّه يعبد الاسم والمعنى ، فقد جعل مع الله شريكاً ، ومن زعم أنّه يعبد الصفة لا بالإدراك ، فقد أحال على غائب ، ومَن زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة ، فقد صغّر بالكبير ، وما قدروا الله حقّ قدره** » .

قيل : فكيف سبيل التوحيد ؟

قال عليه السلام : « **باب البحث ممكن ، وطلب المخرج موجود ، وأنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته ، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه** » .

قيل : وكيف يعرف عين الشاهد قبل صفته ؟

قال عليه السلام : « **تعرف وتعلم علمه ، وتعف نفسك به ، ولا تعرف نفسك بنفسك من**

(١) مفاتيح الجنان من الدعاء المعروف بدعاء السحر لأبي حمزة الثمالي .

نفسك ، وتعلم أنّ ما فيه له وبه ، كما قالوا ليوسف : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي ﴾[١] **، فعرفوه به ، ولم يعرفوه بغيره ، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب »**[٢].

وفي خبر ثالث عن الحسين عليه‌السلام في دعائه يوم عرفة وهو يناجي ربّه :

« كَيْفَ يُسْتَدلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتّىٰ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتىٰ غِبْتَ حَتىٰ تَحْتاجَ إِلىٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتىٰ بَعُدْتَ حَتّىٰ تَكُونَ الْآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إِلَيْكَ »[٣].

وواضح من خلال هذه الأحاديث ، وبخاصّة الأخيرين منها ، أن معرفة النـفس مترتّبة على معرفة الربّ سبحانه (وتعرف نفسك به) « **أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ** » ، فتكون معرفة النفس باعتبارها ـ أي النفس ـ أثراً ومعلولاً من آثاره ومعلولاته ، من باب معرفة الأثر والمعلول ، بمعرفة مؤثّره وعلّته ، ومعنى ذلك أنّ معرفة النفس قائمة بمعرفة الربّ ، فإذا لم تحصل معرفة الربّ لا تحصل معرفة النـفس ، وليس العكس كما فهمه المستدلّ ، وترتّب على فهمه دعوى الاستحالة ، وإذا أمكن الفهم الثاني للحديث كان محتملاً ، وإذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال ؛ لأنّ الاسـتدلال كان مبنيّاً على الفهم الأوّل ومنحصراً به .

٣ ـ إنّ من الجائز أن يكون معنى الحديث تلازم المعرفتين وتعلّق كلّ منهما على الآخرى . ولكن تعلّق معرفة النفس على معرفة الربّ على نحو اللم[٤] ، فلا تحصل معرفة النفس إلّا إذا حصلت معرفة الربّ ، وأمّا تعلّق معرفة الربّ على معرفة النفس

---

(١) سورة يوسف : الآية ٩٠.

(٢) تحف العقول : ٢٣٨ ، كلام الصادق عليه‌السلام في وصف المحبّة لأهل البيت عليهم‌السلام ، ط . الأعلمي .

(٣) مفاتيح الجنان : ٣٥٥ . بحار الأنوار : ٢١٦/٩٥ ، دعاء الإمام الحسين عليه‌السلام في يوم عرفة .

(٤) **اللم** : تعبير منطقي عن العلّة الخارجيّة ، بمعنى توقّف وجود الشيء على وجود آخر .

فعلى نحو الأنّ[١]، فلا يحصل العلم بأنّ المرء عرف ربّه إلّا من خلال العلم بأنّه قد عرف نفسه، فالمعرفتان متلازمتان بنحوين من التلازم.

وممّا يؤيّد هذا التلازم بنحويه، المناجاة المرويّة عن النائب الأوّل للحجّة عليه السلام، وهي:

«اللّهُمَّ عَرِّفْني نَفْسَك فَإِنَّك إِنْ لَمْ تُعَرِّفْني نَفْسَك لَمْ أَعْرِفْ رَسُولَك، اللّهُمَّ عَرِّفْني رَسُولَك فَإِنَّك إِنْ لَمْ تُعَرِّفْني رَسُولَك لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَك، اللّهُمَّ عَرِّفْني حُجَّتَك فَإِنَّك إِنْ لَمْ تُعَرِّفْني حُجَّتَك ضَلَلْتُ عَنْ دِيني، اللّهُمَّ لَا تُمِتْني مِيْتَةً جاهِلِيَّةً، وَلَا تُزِغْ قَلْبي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَني...»[٢].

فمفاد هذا أنّ معرفة ما عدا الله متوقّفة على معرفته، فلا يمكن أن تحصل أيّة عرفة دون معرفته وتعريفه. والعلم بحصول معرفة الله تعالى يحصل من العلم بمعرفة النفس، فما لم نعلم بأنّ المرء عارف بنفسه لا نعلم بأنّه عارف بربّه.

ويدعم هذا التلازم على هذين النحوين قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾[٣]، فالجهل والغفلة عن الله تعالى علّة خارجيّة للجهل والغفلة عن النفس، ومفاده بعكس النقيض الموافق[٤]: أنّ ذكر الله سبحانه والعلم به كاشف عن التفات المرء إلى نفسه ومعرفته بها وبأحوالها.

ويعزّز هذا المعنى جملة من الأخبار التي رويناها في تفضيل معرفة النفس، وأنّها غاية المعرفة وأعظم الحكمة، وأنّ الجهل بالنفس تيه وضلال وجهالة[٥].

---

(١) **الأن**: تعبير آخر عن توقّف العلم بالشيء على العلم بشيء آخر.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٦٣، الدعاء في غيبه القائم عليه السلام.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٩.

(٤) وهو عند المنطقيّين تحويل القضيّة إلى قضيّة أُخرى موضوعها نقيض محمول الأصل، ومحمولها نقيض موضوع الأصل، مع بقاء الصدق والكيف. راجع المنطق: ٢/٢٠٢، عكس النقيض.

(٥) انظر الأحاديث ١ و ٢ و ٧ و ٨ و ١٠ و ١٨ ممّا رويناه في النفس: ص ١١ و ١٢.

وخلاصة دليل القائل بالاستحالة ومناقشته

إنّه فهم من الحديث الشريف تعليق معرفة النفس على معرفة الربّ ، والثانية محالة ، فالأُولى كذلك .

ومناقشته : أنّ مفاد الحديث لا ينحصر بهذا المعنى ، وعلى فرض انحصاره فلا يدلّ الحديث بنفسه على استحالة معرفة الربّ ، لا سيّما وأنّ المعرفة من المفاهيم المشكّكة ، وقد دلّت بعض الأخبار على تفاوتها والحثّ عليها ، ولو كانت مستحيلة لكان الحثّ عليها عبثاً ، كما دلّت الأخبار على ضلالة فاقد المعرفة وجهالته ، فلو كانت المعرفة محالة لكان النّاس كافّة جهلة ضُلّالاً .

الدليل الثاني على الاستحالة

استدلّ القائلون باستحالة معرفة النفس بقوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾[(١)] .

وجه الاستدلال بالآية

إنّ اليهود أو قريش سألوا النبيّ ﷺ عن الروح الذي هو في بدن الإنسان ، ما هو ؟ ولم يجبهم ، مكتفياً بالقول بأنّ الروح من أمر الله تعالى ، معلّلاً ترك الجواب أنّ ما لديهم من العلم لقلّته لا يستوعب فهم حقيقة الروح ، وأنّ الله استأثر بالعلم بحقيقتها .

وحيث إنّ الروح هي النفس ، فإنّ معرفة النفس قد اختصّ بها الله تعالى دون خلقه .

مناقشة الاستدلال

يناقش الاستدلال بالآية الشريفة بثلاث مناقشات :

الأُولى : إنّ الروح وإن كان أحد معانيها النفس ، إلّا أنّها مستعملة في القرآن الكريم

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٥.

بمعانٍ أُخرى ، وهذا ما تسبّب في اختلاف المفسّرين في المقصود من الروح المسؤل عنها في هذه الآية ، وإليك بعض أقوالهم فيه :

١ ـ قول المستدلّ بالآية على استحالة معرفة الروح ، وهو أنّ المقصود بها النفس الإنسانيّة .

٢ ـ المقصود هو الروح الذي ذكر الله تعالى بقوله : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً** ﴾[١] ، وقوله : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ** ﴾[٢] .

٣ ـ إنّ المراد بالروح : القرآن ؛ لأنّ الله سمّاه روحاً ؛ إذ قال تعالى : ﴿ **وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَا** ﴾[٣] .

٤ ـ إنّ المراد به جبرائيل ؛ لتسميته روحاً بقوله تعالى : ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾[٤] .

٥ ـ المراد بالروح مطلق الروح الوارد استعماله في القرآن الكريم[٥] .

وروى بعض المفسّرين أخباراً متعدّدة المفاد :

فمنها : ما يفيد أنّ المسؤول عنه ملك من الملائكة[٦] .

ومنها : أنّه خلق عظيم أعظم من جبرائيل وميكائيل ، كان مع رسول الله ﷺ ،

---

(١) سورة النبأ : الآية ٣٨ .

(٢) سورة المعارج : الآية ٤ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

(٤) سورة الشعراء : الآيتان ١٩٣ و ١٩٤ .

(٥) انظر الأقوال في مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢٤٧/١٠ ، سورة النبأ : الآية ٣٨ ، ط . الأعلمي ـ بيروت .

(٦) نقل هذه الأخبار وغيرها صاحب الميزان في تفسير القرآن : ٢٠٩/١٣ ، تفسير سورة الإسراء : الآية ٨٥ ـ بحث روائي .

وهو مع الأئمّة عليهم السلام ، وهو من الملكوت[١] .

ومنها: ما يفيد أنّه ما في الدواب والنّاس من النفوس[٢] .

ومع هذه الكثرة من الأقوال ، ومع اختلاف الأخبار في تشخيص المسؤول عنه في الآية الكريمة ، لا يلزم من ترك الإجابة عن السؤال ـ على فرض أنّ تركها لتعذّر القدرة على استيعاب فهم الجواب ـ أن يكون المتعذّر هو معرفة الروح بمعنى النفس الإنسانيّة ، ما دامت الاحتمالات الأُخرى المقصودة بالروح قائمة .

غير أنّ المستدلّ بالآية رجّح القول الأوّل وبنى استدلاله على هذا الترجيح ، ورجّحه بالتبادر[٣] بأن يكون المعنى الأوّل هو السابق إلى الذهن من إطلاق كلمة الروح ما لم يصرف الذهن عنه إلى غيره صارف من قرينة لفظيّة أو حالية أو عقليّة ، وحيث لم تثبت القرينة ، يتعيّن أن يكون المقصود بالروح النفس الإنسانيّة .

ولكن تشبّث المستدلّ بالتبادر لا يصلح لترجيح ما اختاره من الأقوال ؛ لأمرين :

الأمر الأوّل: أنّ التبادر ـ مع فيه من خلاف ـ بناءً على اعتباره ، إنّما يعتبر لإثبات وضع اللفظ للمعنى المتبادر منه لدى الشكّ في وضعه له ؛ نظراً إلى أنّ استناد فهم المعنى المعيّن من اللفظ مع فقد القرائن لا بدّ وأن ينحصر بالوضع لانتفاء الدلالة الطبعيّة من الألفاظ على معانيها ، فإذا أطلقت كلمة ماء ولم توجد قرينة تشخّص له معنى معيّن ، وفهم منه السائل المعروف ، تعيّن أن يكون هذا الفهم مستنداً إلى وضع

---

(١) الميزان في تفسير القرآن : ١٣/٢٠٩ ، تفسير سورة الإسراء : الآية ٨٥ ـ بحث روائي .

(٢) نقل هذه الأخبار وغيرها صاحب الميزان في تفسير القرآن : ١٣/٢١٠ ، ط . الأعلمي ـ بيروت .

(٣) التبادر كما يستفاد معناه من الأُصول اللفظيّة هو : سبق المعنى من اللفظ إلى الذهن بدون قرينة بعد افتراض علم السامع بوضع اللفظ للمعنى . انظر كفاية الأُصول : ١/٣٣ ، الأمر السابع ، مؤسّسة النشر الإسلامي ، جامعة المدرّسين ـ قم المقدّسة .

الكلمة لهذا المعنى .

أمّا تشخيص مراد المتكلّم بمعنى معيّن من بين معانيه المتعدّدة الوضع ، أو بتعدّد المصاديق تحت مفهوم واحد وضع له اللفظ بوضع واحد ، فلم يقل أحد بأنّ التبادر يعيّن هذا المراد الاستعمالي ، فلو قال شخص (عين) ، وعلمنا أنّها موضوعة للباصرة وللنابعة ولغيرهما ، أو قال إنسان وهو موضوع لما يشمل العالم والجاهل ، ولم ينصب قرينة تشخّص مراده ، فإنّ انصراف الذهن إلى بعض المعاني أو بعض المصاديق ، وإن أمكنت تسميته تبادراً ، إلّا أنّه لا يثبت مراد المتكلّم ، وحيث لم ينصب قرينة على تعيين المراد يبقى الكلام مجملاً؛ لأنّ الانصراف ينشأ من اُنس الاستعمال لكثرته وهو يتغيّر بتغيّر المكان والزمان .

الثاني : لو صحّ اعتبار التبادر مشخّصاً لمراد المتكلّم ، فإنّما يصحّ مع فقد القرينة على خلافه ، وأمّا معها فيكون المراد ما صرفتْ إليه القرينة ، ومن يخالف المستدلّ لديه من القرائن الدالّة على ما ذهب إليه ، مثل الآيات والأخبار المؤيّدة لمذهبه ، مضافاً إلى أنّ التبادر المدّعى نسبي ، فقد يكون المعنى المتبادر إلى ذهن شخص غير المعنى المتبادر إلى ذهن غيره ، والآية المستدلّ بها نزلت في واقعة ، والمرجع في مثل هذه الحالة هو المتبادر من المعنى عند السائل والمجيب ، لا المتبادر عند المتأخّرين ، وحينئذٍ فالأخبار المرويّة في هذه الواقعة هي التي تكشف عن المراد من الروح المسؤول عنها ، فإن لم يصحّ منها خبر فالكلام يبقى على إجماله إن لم يكن للفظ الروح ظهور في أحد المعاني المحتملة ؛ لأنّ مرجع الشكّ في مراد المتكلّم هو الظهور عند السامع ، وبه تكون الحجّة لكلّ منهما على الآخر .

الثانية : بعد التسليم بأنّ المسؤول عنه في الآية المستدلّ بها هو روح الإنسان ، لم يثبت أنّ السائلين سألوا عن كنهها وحقيقتها ، بل المنقول أنّهم سألوا عن حالة من حالاتها وشأن من شؤونها ، وقد أجابهم تعالى عمّا سألوه ، وهذا ما نقله الطبرسي عن

بعض المفسّرين ، ومفاد ما نقله :

« إنّ الذين سألوا محمّداً ﷺ سألوه عن الروح أهي مخلوقة محدثة ، أم ليست كذلك ؟ فأجابهم تعالى : ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي** ﴾ ، أي من فعله وخلقه ، فكان هذا جواباً لهم عمّا سألوه عنه بعينه »[١] .

وأمّا التعقيب في الآية بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ ، فهو ملائم لهذا السؤال وأمثاله ؛ نظراً إلى أنّ السائلين لم يعرفوا حتّى هذه الحالة عن الروح ، فضلاً عن الحالات الأُخرى عنها ، وفضلاً عن معرفة جوهرها وحقيقتها . وبهذا المعنى لا يكون هذا التعقيب قرينة على ترك الإجابة كما يدّعيه المستدلّ .

الثالثة : على فرض التسليم بأنّ الذين سألوا النبيّ ﷺ عن الروح عنوا به الروح الإنسانيّة ، والتسليم بأنّ الله سبحانه أعرض عن الإجابة التفصيليّة عن سؤالهم ؛ لأنّهم لم يؤتوا من العلم إلّا قليلاً ، على فرض التسليم بهذا وذاك ـ وهو أقصى ما يطلبه المستدلّ في بناء مقصوده عليه ـ فإنّه لا يفيد المستدلّ أكثر من أنّ السائلين عن الروح لا يتّسع أُفق معرفتهم للإجابة المفصّلة المطابقة لجوهر السؤال .

والسائلون هم جماعة من اليهود ، كما عن ابن عبّاس وابن مسعود وآخرين ، واختاره الجبائي . أو هم جماعة من قريش لقّنهم بعض اليهود هذا السؤال ، كما روي عن بعض الصحابة[٢] . ولا يلزم من وصف هؤلاء أيّاً كانوا من الفريقين بالعجز عن معرفة الروح ، أن ينسحب هذا الوصف على غير هؤلاء من أفراد البشريّة على طول الزمان وعرضه ، وفيهم الأنبياء والأوصياء والعارفون والعلماء .

وبعبارة أوجز : لا يلزم من نفي المعرفة عن البعض ، وبخاصّة البعض الداني .

---

(١) انظر تفسير مجمع البيان : ٦/٢٨٨ ، القول الثاني ، ط . الأعلمي ـ بيروت .

(٢) المصدر المتقدّم : القول الأوّل . وانظر الميزان في تفسير القرآن : ١٣/١٩٧ ، ط . الأعلمي ـ بيروت .

نفيها عن الكلّ بما فيهم العالي القدر في مجال المعرفة، كالأنبياء والأوصياء ومن انتهل من فيض علمهم وهداهم.

بل لا يلزم من نفي القدرة على المعرفة عن شخص بحال معيّنة ووقت مخصوص، نفيها عنه في حال أُخرى ووقت آخر، فضلاً عن القول باستحالتها، كما يدّعيه المستدلّ.

ومحصّل ما تنتجه مناقشات الاستدلال بالحديث وبالآية ـ ولا يوجد استدلال بغيرهما ـ أنّ معرفة الإنسان بنفسه لم تثبت استحالتها.

وإذا صحّ القول بأنّ الأصل في الأشياء هو الإمكان، ما لم يمنع منه ساطع البرهان، فالقول بإمكان هذه المعرفة هو الصحيح[١]. أمّا إذا ثبت وجود هذه المعرفة وتحقّقه خارجاً، فالوقوع أدلّ دليل على الإمكان ـ كما قيل ـ فهل أنّ معرفة النفس متحقّقة ولو لبعض أفراد البشر؟

وقوع المعرفة

المعروف عن قدماء الفلاسفة سعيهم المتواصل لمعرفة النفس فـ «لكلّ من افلاطون وأرسطو وغيرهم آراء في النفس البشريّة تمثّل جهد الروّاد بهذا الحقل»[٢].

ولسقراط كلمته المشهورة: «اعرف نفسك»[٣]، واستمرّ من تلاهم من فلاسفة وعلماء نفس يحثّون السير للتوغّل في معرفتها.

أمّا النصوص الدينيّة فقد روينا منها ما يحثّ على معرفة النفس، ويصف من

---

(١) المعروف هو انحصار الصور الذهنيّة إذا نسبت إلى الوجود الخارجي بثلاثة أنواع: **مستحيلة الوجود، وواجبة الوجود، وممكنة الوجود**، وحيث إنّ الاستحالة لم تثبت، والوجوب لا يقول به أحد، تعيّن أن تكون المعرفة ممكنة، مضافاً إلى أنّ ما عدا الإمكان يحتاج إلى دليل.

(٢) و (٣) علم النفس / د. أحمد حسن الرحيم: ١٠.

فقدها بالقصور والجهل بكلّ شيء وبالضلالة والبعد عن سبيل النجاة .

ومن الواضح جدّاً أنّ سعي هذه الجمهرة من العقلاء نحو المستحيل غير معقول ، ولو لم يكن واقعاً لما بذلوا لتحصيله جلّ أعمارهم ،كيف ولو كان غير واقع لوصفوا هم وجميع الأنبياء والأوصياء ومن تبعهم من العلماء والأبرار بما وصفت به الأحاديث فاقد المعرفة ؟

وإذا صحّ ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « **مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه** » ، أو « **عرف ربّه** » ، فالقائل عليه السلام : « **بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَني عَلَيْكَ وَدَعَوْتَني إِلَيْكَ** »[١] عارف بنفسه قطعاً.

وكذا القائل عليه السلام : « **لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً** »[٢] ، أو « **عرفت ربّي بفسخ العزائم ، ونقض الهمم** »[٣].

وما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « **يا عليّ ، ما عرف الله إلّا أنا وأنت** »[٤] ، فهو وإن دلّ على وقوع المعرفة لبعض البشر ، وهو يكفي شاهداً لما نروم إثباته هاهنا من وقوع العرفة للبشر في الجملة ، إلّا أنّ ظاهر الحصر فيه يستدعي وقفة ولو قصيرة ؛ لأنّ ظاهر الحصر فيه يدلّ على نفي المعرفة عن غيرهما من البشر ، ومفهوم الحديث القائل : « **مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه** » ـ على بعض مفاداته ـ أنّ مَن لم يعرف ربّه لم يعرف نفسه ، ومنطوق كثير من الأحاديث يصف مَن لم يعرف نفسه بالجهل والضلالة ،

---

(١) مفاتيح الجنان : ٢٥٠ ، أعمال شهر رمضان ، من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي .

(٢) بحار الأنوار : ١٣٤/٤٦ ، باب أحوال أهل زمانه من الخلفاء ، لكن بدون : « لي » ط.

(٣) بحار الأنوار : ٤٢/٣ ، باب إثبات الصانع والاستدلال .

(٤) مختصر بصائر الدرجات / الحسن بن سليمان الحلّي : ١٢٥ ، باب في أئمّة آل محمّد (صلوات الله عليهم أجمعين) .

ولازم هذا الأُمور، أنّ غير محمّد ﷺ وعليّ عليه السلام جميعاً في جهالة وضلالة؛ لهذا لا بدّ أن نفهم من الحصر في الحديث الحصر للمعرفة المطلقة، بحيث لو كشف لهما عنها لما ازدادا معرفة غير ما عرفاه؛ ولما ازدادا يقيناً فيما عرفاه، ومعرفتهما بالله تعالى لم تكن طارئة بعد أن لم تكن، ولم تكن في حال دون حال، ولا تطرأ عليها زيادة أو نقصان؛ لأنّها الحقيقة بعينها. وهذا النمط من المعرفة محصور بهما عليهما السلام.

أمّا غيرهما ممّن خرج عن الحصر فمعرفتهم بالله تعالى دون معرفتهما بمقدار ما في نفوسهم من حجب، وبمقدار كثافة تلك الحجب وشفافيّتها.

٥ ـ وسائل معرفة النفس

إنّ معرفة وجود النفس الإنسانيّة لا تتطلّب بحثاً أو استدلالاً، بل يكفي لحصولها مجرّد الالتفات إلى الذات، دون الحاجة إلى أكثر من استحضار «أنا أُفكّر إذن أنا موجود»[١].

وهذا المقدار من الالتفات إلى النفس لا يحتاج حتّى إلى الحواسّ الخمس أو التفكير بأكثر من الحسّ الباطني بأنّي أُفكّر؛ ولذا سمّي العلم بوجود النفس بـ(العلم الحضوري)، مقابل العلم المسمّى (العلم الحصولي)، وهو ما يحتاج المرء في تحصيله إلى وسائل، ووسائله الحواسّ والفؤاد، وما يحصل بالحواسّ من العلم يسمّى (العلم التصوّري)، وما يحصل بالفؤاد يسمّى (العلم التصديقي)، وكلا العلمين كسبي حصولي، وإليها أشار الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ **وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[٢].

---

(١) الموسوعة الفلسفيّة المختصرة: ١٤١، ترجمة ديكارت.

(٢) سورة النحل: الآية ٧٨.

وتلفتنا الآية الشريفة إلى أنّ العلم الحصولي بقسميه: التصوّري والتصديقي يحتاج إلى كسب بالحواسّ والفؤاد، وبدونهما فنحن لا نعلم شيئاً، ومعنى هذا أنّ العلم الحضوري حيث لا يحصل بأداة من حواسّ أو فؤاد، ولم يكن مكتسباً فهو ليس علماً، وإن سُمّي بالعلم فعلى نحو المسامحة أو التجوّز.

ويعزّز هذه الاستفادة من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[١].

نفت الآية الكريمة العلم عمّن وصل إلى أرذل العمر نفياً مطلقاً، كما نفته الآية السابقة عمّن هبط إلى الدنيا من بطن أُمّه نفياً مطلقاً قبل جعل وسائل العلم له. والحال أنّ مَن يبلغ أرذل العمر لا يفقد العلم بوجود نفسه والاحساس الباطني بها حتّى ولو فقد عقله وكلّ حواسّه الظاهريّة. ولعلّ الجنين ما قبل استخدام حواسّه وعقله كذلك. ومع هذا فقد نفى عنهما الله سبحانه العلم نفياً مطلقاً لوقوع النكرة في سياق النفي، وإفادة العموم من هكذا استعمال[٢].

ومن هذا التقريب يتّضح أنّ ما يسمّى بـ(العلم الحضوري) هو ليس علماً على نحو الحقيقة[٣]، ويجدر بنا أن نطلق عليه اسم المعرفة، وكذا يجدر إطلاق المعرفة على كلّ ما لا يحصل للإنسان بكسب حسّي أو عقلي، مثل ما يحصل لبعضٍ من معرفة الله تعالى، ومثل ما يحصل من الإيمان به تعالى وبرسله على ما هو الأرجح من كون الإيمان غير العلم كما يأتي في محلّه إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة النحل: الآية ٧٠.

(٢) النكرة (شيئاً) والنفي (لا)، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم. انظر معالم الدين وملاذ المجتهدين: ١٠٢، المطلب الثالث من العموم والخصوص، الفصل الأوّل: في الكلام على ألفاظ العموم.

(٣) راجع الميزان في تفسير القرآن: ٦/١٧٠ ـ ١٧٢، تفسير سورة المائدة: الآية ١٠٥، بتصرّف.

ولنعد إلى أصل الموضوع ، فالإنسان منذ أن عرف نفسه بدون كسب ، معرفة بحدود الاحساس الذاتي بوجودها ، دأب على معرفة المزيد عنها وعن شؤونها وأحوالها ، وكثرت تساؤلاته :

تساءل عن ماهيّتها ، وعن قواها ، وعن أحوالها ، وعن فنائها وخلودها ، ونتج عن هذه التساؤلات جهد كبير من البحوث والدراسات .

ولست الآن بصدد عرض تاريخي لهذه البحوث ونتائجها ، وإنّما يهمّني ضمن عنوان هذا التمهيد ذكر بعض المناهج المتّبعة للدراسات النفسيّة :

١ ـ المنهج المادّي

وهو الذي يدرس النفس بصفتها مجموعة خواصّ طبيعيّة وإدراكات عصبيّة ناتجة من التأثير والتأثّر بين المادة الخارجية وبين المركّب العصبي ، فهي وحدة اجتماعيّة لا حقيقيّة[١] . وبمقتضى هذا المنهج يتّجه ذووه في دراستهم للنفس إلى دراسة آثارها فحسب .

٢ ـ المنهج الفلسفي

وهو ما يتناول دراستها لمعرفة حقيقتها وصفاتها وآثارها ؛ لأنّ الفلسفة من ناحية اشتقاق اسمها تعني (حبّ الحكمة)[٢] ، والحكمة ـ كما يقول الفارابي ـ : « استكمال النفس الإنسانيّة بتصوّر الأُمور والتصديق بالحقائق النظريّة والعمليّة على قدر الطاقة الإنسانيّة »[٣] .

---

(١) راجع الميزان في تفسير القرآن : ٣٦٤/١ ، سورة البقرة : الآية ١٥٧ ، بحث فلسفي حول النفس ، بتصرّف .

(٢) رسائل الكندي الفلسفيّة : ١٧٢ ، تحقيق وتقديم محمّد عبدالهادي أبو ريده .

(٣) انظر شرح مئة كلمة / ابن ميثم البحراني : ١٧ ، البحث الثالث : في الكمالات العقليّة الإنسانيّة .

٣ ـ المنهج الأخلاقي

وهو ما يبحث عن المثل العليا في صفات النفس، التي يهتدي بها الإنسان في سلوكه وتصرّفاته، فهو إذن يهتمّ بدراسة الملكات النفسيّة وقوها من أجل تهذيب النفس من رذائلها وترسيخ فضائلها.

٤ ـ المنهج الذاتي

وهو المنهج الذي يعتمد المعرفة النابعة من النفس ذاتها بعد الخلوة والسلوك الذي يهذّبها من جميع الشوائب الواردة إليها من خارجها.

٥ ـ المنهج الديني

وهو ما يستمدّ معرفة النفس وأحوالها وصفاتها وآثارها من النصوص الدينيّة.

وتولّدت من كلّ من هذه المناهج البحثيّة للنفس مدارس كثيرة ونظريات متعدّدة، ولم تزل ولا تزال الدراسات النفسيّة تجدّ السير حثيثاً لاستكشاف المزيد عن هذه النفس الإنسانيّة العجيبة.

غير أنّ بعض الفِرق والمذاهب الدينيّة وغيرها، لم تعتمد منهجاً واحداً محدّداً من بين تلكم المناهج أو غيرها، فحصل لها الخلط في المعارف النفسيّة وما يترتّب عليها من سلوك.

فالصابئة أصحاب الروحانيّات، مثلاً، يستخدمون في سبل المعرفة منهجاً يقرب من منهج البراهمة والبوذيّة من حيث الرياضات النفسيّة، ويقرب من منهج الأخلاقيّين في كيفيّة ترسيخ الملكات النفسيّة، ويتّبعون المنهج الديني في تزكية النفس بالصيام عن المطعم والمشرب، والصلاة والزكاة، ومع هذا وذاك يقومون بما يقوم به بعض الكهنة من بخورات وعزائم وأمثالهما، فهو منهج ملفّق من مناهج متعدّدة، معرفيّة وسلوكيّة ودينيّة.

وإذا تجاوزنا الحديث عن المذاهب القديمة من برهمانيّة وبوذيّة وجوكيّة

ومانويّة ، والمذاهب النفسيّة الحديثة ، ومذاهب أهل الكتب السماويّة من يهود ونصارى ومجوس ، ونظرنا إلى مذاهب المعرفة النفسيّة لدى المسلمين فقط ، لوجدنا طرقهم فيها بحسب أُصولها تصل إلى خمس وعشرين سلسلة ، تتشعّب من كلّ سلسلة سلاسل ، ومع أنّ هذه السلاسل تنتهي ـ فيما تدّعيه ـ عدا الاويسيّة ، إلى عليّ عليه‌السلام ، فإنّ طرق المعرفة عندها بسبب ما دخل بعضها من تلفيق منهجها بمناهج مختلفة ، هذا عمّن وسم طريقته باسم خاصّ ، ومن العارفين من لا يتّسم باسم ولا يتظاهر بشعار ، ولم يحدّد لسلوكه منهجاً محدّداً.

ويلاحظ أنّ معظم المذاهب النفسيّة مجمعة على أنّ كمال المعرفة لا يحصل بالعلم النظري ، وإنّما يتمّ بالسلوك العملي وتهذيب النفس بهذا السلوك[١].

٦ ـ أهداف معرفة النفس

من المناهج المتقدّم ذكرها ما يعتمد المعرفة الحصوليّة الكسبيّة في معرفة النفس وأحوالها وآثارها ، كالمنهج المادي والفلسفي والأخلاقي والديني ، ومنها ما يعتبر المعرفة نابعة من النفس ذاتها دون أن يتكلّف صاحبها كسباً زائداً على تهذيب النفس من شوائبها ، كالمذهب الذاتي.

والمعرفة الكسبيّة تتطلّب إرادة لهذا الكسب ، ولا بدّ لكلّ عمل إرادي من هدف وغرض ، وإلّا لكان عبثاً ومن حيث الهدف يمكننا تقسيم روّاد المعرفة بالنفسيّة إلى فريقين ، يضمّ كلّ فريق منهما عدّة طوائف :

١ / الفريق الأوّل

وهم المشتغلون بمعرفة الآثار الغريبة للنفس ، سواءً أكانت هذه الآثار لفعل النفس وانفعالها في اطار الأسباب والمسبّبات الماديّة وقوانين المادة ، كما هو الحال

---

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن : ٦/١٩٢ ، بحث علمي ، بتصرّف.

في الدراسات النفسيّة الحديثة ، أم كانت الآثار ملفّقة من ماديّة وروحيّة معاً ، كما هو الحال عند أصحاب السحر والطلاسم ، وتحضير الأرواح وتسخيرها ، والتنويم المغناطيسي ، وقراءة الكفّ .

وباستثناء الأهداف الشخصيّة لكلّ من هؤلاء ، فأهداف هذا الفريق متفاوتة ومتعدّدة من حيث ما يترتّب ويحصل من كلّ نوع من أنواع هذه الدراسة أو تطبيقاتها ، فما يحصل من علم نفس الطفل غير ما يحصل من علم النفس العسكري أو علم نفس المرأة ، أو غيرها من تخصيصات الدراسات النفسيّة ، وهي جميعاً في نتائجها تختلف عمّا يحصل من التنويم المغناطيسي أو تحضير الأرواح ، أوغيرها من فروع دراسات هذا الفريق .

ومع هذا التفاوت في الهدف وفي نوع الدراسة المؤدّية إليه ، يوجد لدى جميع طوائف هذا الفريق جامع مشترك وقاسم مشترك ، هو أنّهم جميعاً لا يعنون بجوهر النفس وحقيقتها ، وأقصى ما ينشدونه في دراساتهم هو المزيد من معرفة آثارها الغريبة ، والاستفادة من هذه المعرفة في التطبيقات العمليّة .

٢ / الفريق الثاني

وهم المشتغلون بمعرفة النفس بما هي معرفة ؛ نظراً إلى أنّ المعرفة بذاتها هي الكمال وبه السعادة ، ومثل هذا الهدف لا يقف صاحبه عند حدّ في مجال المعرفة ، ما دام فوق كلّ ذي علم عليم ، وفوق كلّ ذي كمال كمال ، فالسعادة عند هذا الفريق إنّما هي بالمعرفة لذاتها ؛ لأنّ السعادة ببلوغ الكمال ، ولا كمال بدون المعرفة . أمّا الآثار النفسيّة فمهما كانت مثيرة لعامّة النّاس فما هي إلّا حجب عن نقاء النفس وعن إدراك جوهرها ومبدئها ؛ ولأن تصدّى بعض هذا الفريق لبحث الآثار فإنّما لأجل استكناه حقيقة المؤثّر .

إلّا أنّ مناهج هذا الفريق وطرائق بحثه مختلفة ، ونتيجة لاختلافها اختلفت نتائج هذه البحوث :

أ ـ فطائفة من هذا الفريق استقلّت بنفسها لوضع منهج للتفكير والسلوك من أجل المعرفة، وتشعّبت طرقها وتعدّدت مناهجها، وتبعاً لهذا تعدّدت، بل تناقضت، النتائج التي وصلت إليها.

فالبعض منهم آل أمره إلى الشكّ في كلّ شيء حتّى في بديهيّات المعرفة، بل حتّى بالمنهج الذي اعتمده في بادئ البحث، والبعض الآخر لم يتجاوز الإيمان بوجوده، وشكّ في كلّ ما عداه، وثالث غالى في نفسه حتّى اعتقد أنّ كلّ ما يسمّى موجوداً، حتّى الإله، هو منطوٍ في نفسه ولا وجود له خارجها، ورابع آمن ببعض الوجودات خارج النفس وكفر بالبعض الآخر. وهكذا جاءت هذه النتائج وغيرها نتيجة لتعدّد مناهجها[١]. ومَن عرف النفس بطريق معصوم عن الزلل لا يستغرب منها إقحام مَن ركن إليها وحدها بمثل هذه النتائج، فهي التي قال عنها خالقها: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾[٣].

من هنا نهى الإمام الصادق عليه السلام عن معرفة النفس بالنفس، فقال: « **ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك** »[٤].

ب ـ وطائفة أُخرى أدركت قصورها، وأدركت افتقارها في وجودها وفي جميع أطوارها، فوجدتها متعلّقة بالعظمة والكبرياء، ومتّصلة بكلّ أطوارها وأحوالها بما لا يتناهى بهاءً وسناءً وجلالاً وجمالاً وكمالاً، فانصرفت نفوس هذه الطائفة عن جميع الحجب والآثار إلى خالق النفس وآثارها.

---

(١) انظر محاضرات في العقيدة الإسلاميّة / أحمد البهادلي: ٨٨ ـ ١٥٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٣.

(٣) سورة الشمس: الآيتان ٧ و ٨.

(٤) تحف العقول: ٢٣٨، من كلام الصادق عليه السلام في وصف المحبّة لأهل البيت عليهم السلام.

ويشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا الصنف من طلّاب المعرفة بقوله[١] :

« **سبحانك ملأت كلّ شيء ، وباينت كلّ شيء ، فأنت لا يفقدك شيء ، وأنت الفعّال لما تشاء. تبارك يا مَن كلّ مُدرَك من خلقه ، وكلّ محدود من صنعه ، .. سبحانك أيّ عين تقوم نصب بهاء نورك ، وترقى إلى ضياء نور قدرتك ؟ وأيّ فهم يفهم ما دون ذلك إلّا أبصار كشفت عنها الأغطية ، وهتكت عنها الحجب العميّة ، فرقّت أرواحها إلى أطراف أجنحة الأرواح ، فناجوك في أركانك ، وولجوا بين أنوار بهائك ، ونظروا من مرتقى التربة إلى مستوى كبريائك ، فسمّاهم أهل الملكوت زوّاراً ، ودعاهم أهل الجبروت عمّاراً** » .

هذه الطائفة عرفت نفوسها بربّها ، وعرفته به ، فلم ترَ وسيطاً بينها وبين معرفتها بربّها كي يتسرّب الشكّ فيه ، بل عرفته مباشرة بقلوب لم تحجبها عنه غفلة الغافلين ، فهو سبحانه وتعالى كما قال عنه سيّد العارفين عليه السلام : « **أجلّ مَن أن يحتجب عن شيء أو يحتجب عنه شيء** »[٢] ، إلّا أنّه كما قال عنه عليه السلام : « **لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان** »[٣] .

بل إنّ العارف المتلفت يقول : « **ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله** »[٤] ، فرؤية الفعل حسّاً وإن سبقت رؤية الفاعل ، إلّا أنّ التصديق والإيمان بالفعل لا يسبق التصديق والإيمان بالفاعل ، ما دام الفعل قائماً بالفاعل .

وطالما تقطع الغفلة صاحبها عن الالتفات إلى الفاعل فهو محجوب عنه بغفلته

---

(١) بحار الأنوار : ٢٨/٢٥ ، الحديث ٤٦ ، تتمّة كتاب الإمامة ، أبواب خلقهم وطينتهم وأرواحهم ـ باب ١ بدو أرواحهم وأنوارهم.

(٢) بحار الأنوار : ٣٠٩/٣ ، باب ١٤ (نفي الزمان والمكان والحركة والانتقال عنه تعالى) ، الحديث ٣ ،

(٣) بحار الأنوار : ٢٧/٤ ، باب ٥ (نفي الرؤية وتأويل الآيات فيها) ، الحديث ٢ .

(٤) شرح الأسماء الحسنى / ملّا هادي السبزواري : ٧٨/١ .

أو بانشغاله بفعله «**ليس بين الله وبين خلقه حجاب غير خلقه**»[١].

وإذا كان خلقه تعالى هو الحجاب بينه وبينهم، فكلّ معرفة بخلقه لا توصل إلى كمال معرفته.

يقول الإمام الصادق عليه‌السلام: «**مَن زعم أنّه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك؛ لأنّ الحجاب والمثال والصورة غيره. وإنّما هو واحد متوحّد، فكيف يوحّده مَن زعم أنّه يعرفه بغيره، إنّما عرف الله مَن عرفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه، إنّما يعرف غيره، ليس بين الخالق والمخلوق شيء، والله خالق الأشياء لا من شيء**»[٢].

وكما أنّ الله سبحانه لا يعرف بخلقه وأفعاله، فإنّ الانشغال فيها والتفكير بها وحدها يحول دون معرفته، ويبعد عن الوصول إليها وعن بلوغ الهدف الأسمى للمعرفة. وبهذا المعنى يروى عن الإمام الحسين عليه‌السلام قوله: «**إلٰهي تَرَدُّدِي فِي الْآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزارِ فَاجْمَعْني عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُني إِلَيْكَ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتّىٰ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتىٰ غِبْتَ حَتىٰ تَحْتاجَ إِلىٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتىٰ بَعُدْتَ حَتّىٰ تَكُونَ الْآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إِلَيْكَ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقِيباً وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكِ نَصِيباً**»[٣].

ويعزّز هذا ما عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه‌السلام إذ يقول: «**خلق الله الخلق حجاباً بينه وبينهم**»[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢٧/٣، باب ١٤ (نفي الزمان والمكان والحركة والانتقال عنه تعالى)، الحديث ٢٧.

(٢) الكافي: ١٣٥/١، الحديث ٣٠٦ ـ ٤، باب حدوث الأسماء، دار أُسوة للطباعة والنشر.

(٣) إقبال الأعمال: ٣٤٨، فصل فيما نذكره من أدعية يوم عرفة، دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه‌السلام: ١٥١/١، الحديث ٥١، خطبة الرضا عليه‌السلام في التوحيد.

وتعقيباً على هذه الأخبار المثبتة لكون الخلق والتفكير فيه والتردّد بين هذا **وذاك** من شؤونه وأحواله، هو حجاب عن معرفة الله تعالى. أقول: إنّ رؤية الله تعالى ومعرفته وإدراكه ـ عبّر ما شئت ـ هي رؤية قلبيّة لا حسيّة؛ لأنّه لا يدرك بالحواسّ، وهذا أمر لا يحتاج إلى استدلال، وإلّا لكان جسماً أو جسمانيّاً، ولكان مخلوقاً لا خالقاً، وبهذا أخبار كثيرة[1].

وإنّ الله تعالى قال: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾[2]، وهذا القول كناية عن أنّه تعالى أقرب إلى الإنسان من أقرب شيء إلى نفسه وهو حبل الوريد.

ومع هذا القرب تجد الإنسان يبحث عن الله ويطلب لمعرفته الدليل! فهل هو جاهل به حقّاً؟

توجد بعض الأخبار تصرّح بأنّ الله تعالى غير مجهول لأحد على الإطلاق، ومن هذه الأخبار ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول فى كلام له في التوحيد: «**واحد صمد، أزلي صمدي، لا ضلّ له يمسكه، وهو يمسك الأشياء بأظلّتها، عارف بالمجهول، معروف عند كلّ جاهل، لا هو في خلقه، ولا خلقه فيه**»[3].

فقوله عليه السلام: «**معروف عند كلّ جاهل**» يفيد أن لا أحد يجهله! فما معنى نسبة الجهل بالله إلى الكثيرين؟ يبدو من هذا الخبر وغيره، ومن ملاحظة الأخبار التي تثبت أنّ رؤيته تعالى رؤية قلبيّة، أنّ الله تعالى محجوب عن خلقه بغفلتهم عنه

---

(١) منها ما عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان**»، ومنها ما عن الرضا عليه السلام، قال: «**وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون**».

(٢) سورة ق: الآية ١٦.

(٣) التوحيد / الصدوق: ٥٧، الحديث ١٥، مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

لا غير، وأنّ التفاتهم إلى أنفسهم وما فيها من صور للآثار هو الحائل دون الالتفات إليه تعالى. وإلّا فهم يعرفونه ولكنّهم لا يعرفون أنّهم يعرفونه، فهو تعالى مشهود لخلقه غير غائب عنهم، إلّا أنّهم محجوبون عنه بالتفاتهم إلى ذواتهم دونه، فالعلم به موجود حتّى عند الجاهل منهم، ولكنّ العلم بهذا العلم مفقود عندهم.

ولنعد إلى صلب الموضوع، ونخلص ممّا سبق إلى أنّ أهداف معرفة النفس متنوّعة ومناهجها متعدّدة:

فمنها: ما يكتفي في البحث عنها بمعرفة آثارها وأفعالها.

ومنها: ما يغور في أعماقها ليعرف كنهها وحقيقتها، أمّا لما يترتّب على معرفة الحقيقة من أثر خارجي لها ولأفعالها، وأمّا من أجل المعرفة بما هي كمال وسعادة.

ومنها: ما يتجاوز بمعرفته نفسه هذه الحدود كلّها ليعرف مبدأها ومصدرها وعلاقتها بهذا المبدء أو المصدر.

٧ ـ أفضل الوسائل والأهداف

لعلّ ممّا لا يحتاج إلى بيان أنّ أفضليّة الوسيلة في مجال المعرفة تناط بما تُوصل إليه من حقائق، كما أنّ أفضليّة الهدف تعني أفضليّة الغاية التي تحقّق للسالك كمالاً وسعادة، وما توجده الغاية من محفّزات نحو المعرفة.

وعلى أساس من هاتين المسلّمتين عندما نستقرئ المناهج المتّبعة لمعرفة النفس، والغايات المترتّبة على هذه المعرفة، لا نجد في معظمها ما هو مأمون الخطأ ومضمون الوصول إلى الهدف الأسمى، وهو الكمال والسعادة.

أ ـ فلو تتبّعنا المنهج المادي وطرقه في البحث للتوصّل إلى اكتشاف القوانين النفسيّة، كالطريقة التجريبيّة، والطريقة التتبّعيّة أو النشوئيّة، أو الطريقة الإحصائيّة، أو الوسائل المساعدة في المجالات النفسيّة، لوجدناها جميعاً لا توصلنا إلى يقين

في أيّ نتيجة من نتائجها[١] ، وإلّا لما بقيت جميع نتائجها حتّى اليوم في عِداد النظريّات . ولعلّ خير شاهد على هذا ما بيّن علماء النفس ، قديماً وحديثاً ، من الاختلاف الكبير في كلّ فرع من فروع علم النفس ، مثل علم النفس العامّ ، وعلم النفس التربوي ، وعلم النفس الصناعي ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس العسكري ، وعلم النفس التجاري ، وعلم نفس الفروق الفرديّة ، وعلم نفس الطفل ، وعلم النفس الجنائي[٢] .

أمّا المنهج الفلسفي ، فهو الآخر لم يفلح في طرقه الطبيعيّة والتجريديّة والملفّقة منهما في تحقيق قوانين ثابتة لمعرفة النفس أو أحوالها ، ولم تسلم نتائج أبحاث هذا المنهج بجميع طرقه عن النقد والمؤاخذة .

فمنذ عهد طاليس (٦٢٤ ـ ٥٤٦ق . م) ، ومروراً بآخرين مثل : انكسيندر (٦١٠ ـ ٥٤٧ق . م) ، وانكسيمانس (٥٨٨ ـ ٥٢٤ق . م) ، وهرقليطس (٥٤٠ ـ ٤٧٥ق . م) من فلاسفة أيونيا ، وفيثاغورس (٥٧٢ ـ ٤٩٧ق . م) ، وفلاسفة المدرسة الطبيعيّة ، مثل : انباذوقليس (٤٩٠ ـ ٤٣٠ق . م) ، وديمقريطس (٤٧٠ ـ ٣٦١ق . م) ، ونكساغوراس (٥٠٠ ـ ٤٢٨ق . م) وغيرهم ، وكذا سقراط (٤٧٠ أو ٤٦٩ ـ ٣٩٩ق . م) ، وافلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ق . م) ، وأرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق . م) ، وابيقور (٣٤٢ ـ ٢٧٠ق . م) ، وافلوطين (٢٠٥ ـ ٢٧٠ق . م) وغيرهم من فلاسفة ما قبل الميلاد[٣] ، وكذا فلاسفة القرون الوسطى والحديثة ممّا يطول الكلام بذكرهم منذ ذلك العهد حتّى اليوم لا يزال الخلاف محتدماً بين أرباب هذا المنهج في حقيقة النفس وفي القوانين التي تحكم تصرّفاتها وأحوالها .

---

(١) علم النفس / د . أحمد حسين الرحيم : ١٣ ـ ٣٢ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٣٣ ـ ٤٢ .

(٣) راجع النفس الإنسانيّة / محمّد جلوب فرحان : ٥٨ ـ ١٤٩ ، ط . جامعة الموصل .

وأمّا المنهج الأخلاقي فمهمّته السلوك بالنفس إلى الاتّصاف بالفضيلة ، وتجنّب الرذيلة ، فهو في الحقيقة مرحلة في طريق معرفة النفس إذا تنزّهت عن شوائبها ، فقد تحصل به المعرفة وقد لا تحصل ، ومع هذا القصور في هذا المنهج ، فإنّ وسائل تهذيب النفس ممّا اختلف فيها الأخلاقيّون تبعاً لاختلاف خلفيّاتهم في معرفة النفس .

وكم أوقع المنهج الذاتي ذويه في أوهام وخرافات ظنّوا أنّها مكاشفات ، وما هي إلّا ما تنطوي عليه النفس من أفكار ظنّوا أنّها حقائق ، وهي إلى الأحلام أقرب منها إلى الواقع الخارجي .

وبقي من أهمّ المناهج المنهج الديني ، وهو ما يستند في معرفة النفس وأحوالها إلى نصوص عن خالقها ، أو إلى من أوحى إليه خالقها . وهو بعد التسليم والقطع بصدور هذه النصوص عنهم ، والقطع بعصمة مصدرها ، لا يبقى مجال للشكّ والتردّد في صحّة المعارف النفسيّة التي دلّت عليها هذه النصوص .

وإذا كان البعض يتطلّب ـ من أجل الوثوق بهذا المنهج ـ ما يثبت وجود الله وعلمه وحكمته ووحيه ورسله ، وهو ما لا يتّسع لهذا التمهيد أن يستوعبه ، فالبعض الآخر الذي قطع مرحلة الإيمان بهذه المعتقدات كيف لا ينتهل من هذا النبع النقي ؟ وكيف حاد إلى غيره ممّا لم يقم على عصمته ونقائه ما يفيد الوثوق به والركون إليه ؟ والحال أنّ مسألة معرفة النفس الإنسانيّة تختلف عن المسائل التي تنتهي سلبيات الخطأ فيها في الحياة الدنيا بانتهائها ، وإنّما هي ـ في رأي المنهج الديني وغيره من بعض المناهج الأُخرى ـ مستمرّة بعد هذه الحياة ، وخالدة بما للخلود من معنى إلّا أن يشاء الله ، وهي سعيدة أو شقيّة وفق تزكيتها وتدنيسها ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾[١] .

---

(١) سورة الشمس : الآيتان ٩ و ١٠ .

وهذا الطرح عن معرفة النفس وتكامل هذا الطرح بكلّ تفصيلاته وفروع المعرفة النفسيّة فيه، لا يوجد إلّا في المنهج الديني أو عند مَن أخذ عنه من فلاسفة وأخلاقيّين وذاتيّين.

فميزة المنهج الديني إذن هي:

١ ـ عصمة مصادره.

٢ ـ شموليّته لمعرفة النفس جوهراً وصفاتٍ وأحوالاً وآثاراً.

٣ ـ عمق ما ورد فيه في معرفة النفس؛ لأنّ المعرّف لها هو صانعها، وصانع الشيء أعرف به وبشؤونه من غيره.

٤ ـ تغطية المعارف النفسيّة لجميع مراحل النفس، أي مرحلة ما قبل الحياة الدنيا أو ما يسمّى بعالم الذرّ، ومرحلة الحياة الدنيا، ومرحلة ما بعد الدنيا إلى يوم القيامة، أو ما يسمّى بعالم البرزخ، ومرحلة القيامة والخلود فيها، في الجنّة ابتداءً، أو في العذاب ابتداءً، أو في العذاب ابتداءً، ثمّ الجنّة خالداً فيها لمن خلط عملاً سيّئاً وآخر حسناً، ولم تلحقه توبة أو شفاعة أو عفو أو مغفرة.

أجل.. قد يحصل بعض الاختلاف في بعض جزئيّات المعرفة النفسيّة عند بعض ذوي المنهج الديني، ولكن منشأ هذا الاختلاف هو تحريف بعض نصوصه، أو تفاوت فهم الدارسين لها، وهذا غير ضائر في صواب أصل المنهج، وغير مخلّ بأساسيّات نتائجه المتّفق عليها.

لهذا فالمنهج الديني هو أفضل المناهج لمعرفة النفس الإنسانيّة.

ب ـ وأمّا أفضليّة هذا المنهج من حيث الهدف الذي يحقّقه، فهي نابعة ممّا تؤول إليه هذه المعرفة ـ وفق هذا المنهج ـ من الولوج في أنوار البهاء الكامل، والرقيّ إلى نور الضياء المطلق، وهتك الحجب العميّة والجهالات المضلّة. وهذه المرتبة من المعرفة هي بنفسها عين الكمال ونفس السعادة، وفي النصّ التالي جانب من

جوانب هذه المرتبة: ففي الحديث القدسي، كما يرويه المجلسي في البحار عن أهل البيت عليهم السلام: «**فمن عمل برضائي الزمه ثلاث خصال: أعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين. فإذا أحبّني أحببته، وافتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أُخفي عليه خاصّة خلقي، وأُناجيه في ظلم الليل ونور النهار، حتّى ينقطع حديثه عن المخلوقين، ومجالسته معهم، وأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأُعرّفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وأُلبسه الحياء حتّى يستحي منه الخلق كلّهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أُخفي عليه شيئاً من جنّة ولا نار، وأُعرّفه ما يمرّ على النّاس في القيامة من الهول والشدّة، وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء، والجهّال والعلماء، وأُنوّمه في قبره، وأُنزل عليه منكراً ونكيراً حتّى يسألاه، ولا يرى غمّ الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطّلع، ثمّ أنصب له ميزانه، وانشر ديوانه، ثمّ أضع كتابه في يمينه فيقرؤه منشوراً، ثمّ لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفة المحبّين**»[١].

وهذه الصفة بما لها من آثار مترتّبة على العمل برضا الله تعالى، ومفتاح العمل معرفة الله سبحانه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه، ونال الفوز الأكبر، وانتهى إلى غاية كلّ معرفة وعلم[٢].

وهذا الهدف لا يصل إليه، بل لا يقرب منه من سلك منهجاً غير هذا المنهج.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٨/٧٤، الباب ٢ (مواعظ الله عزّ وجلّ في سائر الكتب السماوية)، الحديث ٦.

(٢) فقرات مقتطعة من الأحاديث الشريفة التي مرّ ذكرها في الصفحة ٢٠ ـ ٢١ من هذا الكتاب.

(٣) سورة المائدة: الآيتان ٥٥ و ٥٦.

٨ ـ تهذيب النفس

هذا آخر تمهيدات هذا الفصل، نخلص فيه إلى استحضار حصيلة التمهيدات السابقة، وهي: معنى كلّ من التهذيب والنفس، وأنّ مفاد تركيب الكلمتين: تنقية الروح وتطهيرها عن شوائب صفائها؛ لتدرك حقيقتها وافتقارها إلى الحقيقة الكبرى المطلقة عن كلّ صفة وقيد حتّى قيد الإطلاق، ثمّ أهمّية معرفة النفس من خلال دلالة الأخبار على أنّها غاية كلّ معرفة، وملازمتها لمعرفة الربّ والبعد عن كلّ جهل وضلال.

وفي التهذيب الرابع أبطلت القول باستحالة معرفة النفس وأثبتّ وقوعه فضلاً عن إمكانه، ثمّ استعرضت وسائل المعرفة ومناهج المعرفة وأهدافها، وأخيراً أفضل هذه الوسائل والأهداف، منتهياً إلى أنّ أفضلها وسيلة وهدفاً هو ما ثبت وروده عن معصوم وأدّى إلى كمال السعادة بكمال المعرفة.

وإذا كان هذا الهدف وبهذا المنهج، فلا يحسن بأي عاقل أن يفرّط به ويحرم نفسه منه، فالأحرى بمن نصب نفسه داعية لخير الإنسانيّة وسعادتها أن لا يكون كذلك.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**من نصب نفسه للنّاس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلّم النّاس ومؤدّبهم**»[(١)].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**يا أبا ذرّ، يطّلع قوم من أهل الجنّة إلى قوم من أهل النّار، فيقولون: ما أدخلكم النّار وإنّما دخلنا الجنّة بفضل تعليمكم وتأديبكم؟**

---

(١) الوسائل: ١٥٠/١٦، الباب ١٠ من باب وجوب الإتيان بما يأمر به من الواجبات، الحديث ٦/٢١٢١٣.

فيقولون: إنّا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله»[١].

وعنه ﷺ، قال: «**رأيت ليلة أُسري بي إلى السماء قوماً تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، ثمّ ترمى، فقلت: يا جبرائيل، مَن هؤلاء؟ فقال: خطباء أُمّتك، يأمرون النّاس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»**[٢].

---

(١) الوسائل: ١٥٢/١٦، الباب ١٠ من باب وجوب الإتيان بما يأمر به من الواجبات، الحديث ١٢/٢١٢١٩.

(٢) المصدر المتقدّم: ١٥١، الحديث ١١/٢١٢١٨.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

تنقية النفس





مراقبة النفس ومجاهدتها

تمهيد

يسترسل الكثيرون منّا في حياتهم اليوميّة بتصرّفاتهم وفق ما هو مألوف في مجتمعهم ، من دون التفات وتأمّل في أنّ هذا المألوف خطأً أو صواب ، بل ربّما كان الحكم عليه بالخطأ أو بالصواب ناشئاً عن كونه غير مألوف للنّاس أو للنفس أو كونه مألوفاً لديهم ولديها .

وإذا ما علمنا أنّ ما أَلِفَته النّاس إن هو إلّا مجموعة من الاعتبارات التي تعمّقت في نفوسهم نتيجة للجري عليها مدّة طويلة ، ممّا صيّرها قواعد وقوانين وعادات مستقرّة تصعب على النفوس مخالفتها ويشقّ عليها الخروج عليها ، ولربّما كان مصدرها حادثة أو شخص لا يحسن الاقتداء به وبما سنّه .

إذا ما علمنا هذا فأوّل ما يتعيّن علينا فعله في مجال إصلاح نفوسنا ، أن نراجع هذه المجاميع الهائلة من الاعتبارات المألوفة ، ونتتبّع مصادرها ، من أجل القيام بعملية فرز ما هو صحيح منها عمّا هو باطل ، بَيْد أنّ عمليّة الفرز هذه ـ مع انغمار الإنسان بهذه المفاهيم وأُلفه بها ـ تحتاج إلى البحث أوّلاً عن المقياس الذي على أساس منه يميّز الحقّ والباطل والصواب والخطأ .

وإذا كان هذا المقياس مفقوداً لدى البعض ويحتاج للحصول عليه إلى عناء في

البحث ، فإنّه لدى المسلم ـ إكان مسلماً حقّاً ـ لا يتعذّر تحصيله ولا استخدامه لعمليّة الفرز هذه.

فالمسلم آمن بإله عليم عادل بعث محمّداً ﷺ نبيّاً ليبلّغ النّاس ما هو الحقّ وينهاهم عمّا هو الباطل ، ويعرّفهم ما يصلحهم في الدنيا وما يؤول إليه أمرهم في الآخرة ، وما ترك الكتاب والسنّة شيئاً من أمر الدارين إلّا وقد بيّنه.

إنّ المؤمن بهذا كلّه لا يفتقد معيار الفرز ، ولكن ليست مشكلة الإنسان هي هذه فقط كي يكون المؤمن بالإسلام لم يعد يواجه أيّة مشكلة في الجري والتصرّف المتخبّط ، فكم ممّن ميّز الحقّ من الباطل كما يميّز الشمس عن الظلام وهو سادر بغيّه !! فالمدمن على الخمرة يدرك تماماً ما فيها من أضرار نفسيّة وصحيّة ودنيويّة وأُخرويّة ، وينهى كلّ من يحبّ من أبنائه وأصدقائه عن شربها ، إلّا أنّه مع كلّ هذا مستمرّ على معاقرتها.

من هنا ندرك أنّ مسألة تهذيب النفس والجري وفق الصحيح من الأفعال هي مسألة تبلغ من التعقيد حدّاً لا يشبهه أيّ تعقيد في المسائل الرياضيّة والطبيعيّة.

وإنّ البشريّة بدون استثناء لعاجزة عن حلّ هذا التعقيد. قال تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾[١].

وإذا كان سيّد المرسلين بدون هدي الله تعالى لا يهدي من أحبّ ، فما هو شأن غيره في الهداية إلى الحقّ. وعلى هذا تنحصر الهداية إلى تصفية النفس ممّا يشينها ويرديها بخالقها سبحانه وتعالى. وينحصر اهتداؤنا إلى تهذيبها وإلى الصواب في القول والفعل بما يردنا عنه تعالى بطريق أهل العصمة عليهم الصلاة والسلام. وإذا كانت الهداية معرفة وانقياداً ، راقبنا النفس وتصرّفاتها في ضوء المعرفة ، وجاهدناها

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٦.

لتنقاد لهداها ، وقد تكفّلت التعاليم الدينيّة جانبي الهداية النظري والعملي . وقد حثّت على الجانبين معاً ، حثّت على الجانب النظري بما ورد من نصوصها في فضل العلم والعلماء ، كما حثّت على الجانب العملي بتوجيه الإنسان إلى مراقبة نفسه ومجاهدتها في ضوء المنهج الذي رسمه الله تعالى لهذين السلوكين . وسنورد بعضاً ممّا ورد في الحثّ على هذين الجانبين للهداية .

١ ـ الحثّ على تحصيل العلم :

حثّ القرآن الكريم ، وحثّت سنّة المعصومين عليهم السلام على العلم ، وسأذكر جملة ممّا ورد فيهما بهذا المجال :

أ ـ الحثّ القرآني :

وهو يتمثّل بالآيات الكريمة التالية :

١ ـ **﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾**[١] .

وبناءً على قول أكثر المفسّرين من أنّ هذه السورة هي أوّل ما نزل على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله من القرآن[٢] نجدها قد بدأت بأوّل أمر إلهي هو الأمر بالقراءة ، وقرنت نعمة تعليمه تعالى للبشر بنعمة خلقه لهم ، أو أنّها قد جعلت أوّل نعمة بعد الايجاد هي نعمة العلم ، ممّا يدلّ على أنّ العلم هو أفضل النعم الممنوحة للموجود .

٢ ـ **﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْمَاً ﴾**[٣] .

---

(١) سورة العلق : الآيات ١ ـ ٥ .

(٢) انظر الميزان في تفسير القرآن : ٣٦٩/٢٠ ، تفسير سورة العلق .

(٣) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

فاللّام في قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا ﴾ لام الغاية، وسواء قلنا إنّ ما بعدها هو الغاية لما قبلها، أو إنّه من الغايات المترتّبة عليه، فكون العلم بالله تعالى غاية لخلق السموات السبع والأرضين، وما يتنزّل من الملائكة أو التشريع، يدلّ هذا على أهمّية علم الإنسان بربّه تعالى، وأهمّية ما يترتّب على هذا العلم من نتائج استدعت هذا الخلق كلّه[١].

٣ ـ ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[٢].

والحكمة ـ كما قال الفارابي ـ: «هي استكمال النفس الإنسانيّة بتصوّر الأُمور والتصديق بالحقائق النظريّة والعمليّة على قدر الطاقة الإنسانيّة»[٣]، وقد وصفت الآية الحكمة بالخير الكثير.

٤ ـ ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾[٤].

استفهام استنكاري؛ استنكاراً للمساواة بين مَن يعلم ومَن من لا يعلم، للتفاوت الكبير بينهما.

٥ ـ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[٥].

فإنّ خشية الله هي خشية مخالفة أوامره ونواهيه، ومن لم يعرف الله حقّ معرفته لا يبالي بمخالفته، غير أنّ العلماء الذين أدركوا عظمة الله تعالى هم الذين يخشونه، فامتدحهم ربّهم وشرّفهم بهذه الآية لهذه الخاصة، وهي الخشية، ومن خشي الله لم يخش أي شيء سواه، ولازم هذا أن لا يحيد بحال عن الصراط المستقيم.

---

(١) راجع الميزان في تفسير القرآن: ٣٤١/١٩، تفسير سورة الطلاق: الآية ١٢، بتصرّف.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(٣) راجع الصفحة ٣٦ هامش رقم ٣ من هذا الكتاب.

(٤) سورة الزُّمر: الآية ٩.

(٥) سورة فاطر: الآية ٢٨.

٦ ـ ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

قرنت الآية الكريمة أهل العلم بالله تعالى وملائكته في معرفة توحيده وعدله ، وهو تشريف لأهل العلم ليس فوقه تشريف .

٧ ـ ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[2].

وهي كسابقتها من حيث الاقتران .

٨ ـ ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[3].

قرنت الآية الكريمة الإيمان الصحيح والعلم في الرفعة عند الله تعالى ، وهل بعد هذه الرفعة رفعة .

٩ ـ ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾[4].

وإذا ما علمنا أنّ المخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، علمنا ما للعلم ولطلب المزيد منه من فضل عند الله تعالى ، فلم يرشد الله سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله أن يطلب منه أي شيء على الإطلاق سوى المزيد من العلم .

١٠ ـ ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾[5].

جعل تعالى صدور أهل العلم محلّاً لآياته البيّنات ، وشرف المحل بشرف ما فيه ، أمّا غيرهم ممّن لم يؤت العلم وحفظ نصوصاً دون وعي فقد شبّهه الله تعالى في آية اُخرى بالحمار يحمل أسفاراً .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨.

(٢) سورة الرعد : الآية ٤٣.

(٣) سورة المجادلة : الآية ١١.

(٤) سورة طه : الآية ١١٤.

(٥) سورة العنكبوت : الآية ٤٩.

١١ ـ ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾[١].

لا يعقلها ولا يفهمها إلّا ذوو العلم، وما أكثر الأمثال والعِبر، إلّا أنّ من لا نور عنده لا ينتفع بها.

هذه بعض الآيات التي تعطي للعلم والعلماء من المنزلة الرفيعة ما يدعو كلّ عاقل إلى أن يبذل قصارى جهده لنيلها.

ب ـ حثّ السنّة الشريفة على تحصيل العلم:

وهو يتمثّل بما روي عن النبيّ ﷺ، وعن أهل بيته المعصومين عليهم السلام، وممّا ورد فيه عنهم[٢]:

١ ـ قال رسول الله ﷺ: « **طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة، ألا أنّ الله تعالى يحبّ بغاة العلم** ».

وإنّما صارت فريضة لأنّ العلم بالأُصول علم بمبدأ الوجود وبصفاته وبرسله وبافتقار الإنسان إلى ربّه ومعاده إليه، وأمّا العلم بالفروع فلا يمكن الإتيان بالعمل الصحيح والطاعة لله إلّا به، ومن هنا فإنّ الله تعالى يحبّ طلب العلم ويوجبه أكثر ممّا يوجب طلب غيره، ولذا روي:

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: « **أيّها النّاس، اعلموا أنّ كمال الدين طلب العلم والعمل به، ألا وأنّ طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، ... والعلم مخزون عند أهله، وقد أُمرتم بطلبه من أهله، فاطلبوه** ».

٣ ـ وقال عليه السلام: « **تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه**

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٢) مصدر ما نقلته منها جميعاً هو: معالم الدين وملاذ المجتهدين: ١٣، فضيلة العلم ـ فصل: وأمّا السنّة.

جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وهو عند الله لأهله قربة ؛ **لأنّه معالم الحلال والحرام ، وسالك بطالبه سبيل الجنّة ، وهو أنيس في الوحشة ، وصاحب في الوحدة ، وسلاح على أعداء ، وزين الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمّة يقتدى بهم ، وترمق أعمالهم ، وتقتبس آثارهم ، وترغب الملائكة في خلّتهم ، فيمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم ؛ لأنّ العلم حياة القلوب من الجهل ، ونور الأبصار من العمى ، وقوّة الأبدان من الضعف . ينزل الله حامله منازل الأبرار ، ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة** » .

٤ ـ وقال عليّ بن الحسين عليه السلام : « **لو يعلم النّاس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج ، وخوض اللجج . إنّ الله تبارك وتعالى أوصى إلى دانيال : إنّ أمقتَ عبيدي إليّ الجاهل المستخفّ بحقّ العلم ، التارك للاقتداء بهم ، وأنّ أحبّ عبيدي إليّ التقيّ الطالب للثواب الجزيل ، اللّازم للعلماء ، التابع للحلماء ، القابل عن الحكماء** » .

وفي صدر هذا الحديث ما يفيد أن لطلب العلم من الفضل ما لم يدركه النّاس ، وأنّ هذا الفضل يستحقّ لمن عرفه سفك المهج وخوض اللجج ، وحيث لم نلمس هذه التضحية في سبيل طلب العلم ، نستشكف أنّ فضله غير معروف حتّى عند أهله ، وبتعبير أكثر دقّة عند من يدّعي أنّه من أهله .

٥ ـ وقال أبو جعفر عليه السلام : « **عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد** » .

فالعابد إن صحّت عبادته فلا يفيد إلّا نفسه ، ولربّما كانت عبادته بعامّة تفتقر إلى الصحّة ؛ لأدائها بدون علم . أمّا العالم فمضافاً إلى صحّة أعماله لعلمه بما يجب وبشرائط صحّته ، فإنّه يفيض على النّاس من علمه ويهديهم لرشدهم ، وربّ عالم هدى أُمّة بعلمه ، ومن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل عليها إلى يوم القيامة .

ويعزّز هذا الحديث ما يرويه معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام . قال الراوي :

٦ ـ قلت لأبي عبدالله عليه السلام : رجل راوية لحديثكم يبثّ ذلك في النّاس ويشدّده في قلوبهم وقلوب شيعتكم ، ولعلّ عابداً من شيعتكم ليست له هذه الرواية ، أيّهما أفضل ؟

قال عليه السلام : « **الراوية لحديثنا يشدّ به قلوب شيعتنا أفضل من ألف عابد** » .

٧ ـ وقال أبو عبدالله عليه السلام : « **من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة ، وأنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به ، وأنّه ليستغفر لطالب العلم من في السموات ومن في الأرض حتّى الحوت في البحر ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر ، وأنّ العلماء ورثة الأنبياء ، وأنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، ولكن ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر** » .

٨ ـ وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام ، قال : « **إنّ العلماء ورثة الأنبياء ، وذلك أنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً ، وإنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم ، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظّ وافر ، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذون ؟** » .

وفي الفقرة الأخيرة وما قبلها دلالة واضحة على أنّ العلم الذي ذكر له الفضل العظيم في الكتاب والسنّة إنّما هو العلم النافع للبشرية في جميع مراحل وجودها في الدنيا والآخرة ، أمّا ما يعميها عن نور هداها ويحجبها عن إدراك حقيقتها وسعادتها فهو ضلال وظلمة ، وإن سمّاه البعض علماً ، ولذا ورد عن أبي عبدالله عليه السلام :

٩ ـ أنّه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾[1] ، قال : « **معرفة الإمام واجتناب الكبائر** » .

معرفة الإمام لأنّه الدالّ على العلم النافع ، ثمّ العمل بهذه الدلالة فيجتنب ما يكدّر صفاء النفس من الذنوب .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٩ .

٢ ـ الحثّ على مجاهدة النفس

النفس التي نريد التحدّث عن مجاهدتها ليست هي النفس في جميع أحوالها ، وإنّما نقصدها في حالة كونها غافلة عن ربّها وعن هداها ، وهي في هذه الحالة لا تريد غير اللذة الآنيّة دون أن تحسب لآثارها حساباً ، والنفس في هذه الحالة هي المعبّر عنها في القرآن الكريم : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾[١] ، وإذ يطلب من الإنسان أن يراقب نفسه ويجاهدها ، إنّما يطلب منه أن يفعل ذلك مع هذه الحالة من النفس ، وإلّا فكيف يجاهد نفسه بنفسه ويراقب نفسه بنفسه .

وأمّا النفس في حالة استقرارها على طريق الهدى فهي مؤهّلة لكلّ تكريم وتجلّة . وقد ورد مدحها في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾[٢] . وقد تتقلّب النفس من حال الهوى إلى حال التقى بين حين وآخر ، والنفس في حالها هذا تسمّى بالنفس اللوّامة ، فهي عندما تصحو من غفلتها تلوم نفسها على هذه الغفلة ، ثمّ تعود إليها فيكثر منها اللوم بقدر ما يكثر منها العود بعد الندم ، وهي المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾[٣] . وإذا عرفنا أنّ النفس التي وردت الأخبار في الحثّ على مجاهدتها ومراقبتها هي النفس في حالة رداها دون حالة هداها نورد من هذه الأخبار ما يتّسع المقام لايراده :

١ ـ عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام : « **أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بعث سريّة ، فلمّا رجعوا قال : مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر . فقيل : يا رسول الله ، ما الجهاد**

---

(١) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(٢) سورة الفجر : الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

(٣) سورة القيامة : الآيتان ١ و ٢.

الأكبر ؟ قال : جهاد النفس »[(١)].

٢ ـ وعن النبيّ ﷺ فيما يرويه عنه الرضا عليه‌السلام : « **أنّه** ﷺ **رأى بعض أصحابه منصرفاً من بعث كان بعثه ، وقد انصرف بشعثه وغبار سفره وسلاحه يريد منزله ، فقال** ﷺ : **انصرفت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، فقال له : أوَجهاد فوق الجهاد بالسيف ؟ قال : نعم ، جهاد المرء نفسه »**[(٢)].

٣ ـ وعنه ﷺ ، قال : « **إنّ الشديد ليس من غلب النّاس ، ولكنّ الشديد من غلب نفسه »**[(٣)].

تصف هذه الأخبار جهاد النفس بأنّه أكبر من جهاد العدوّ ، وأنّ من غلب نفسه فهو الشديد ، ولعلّ منشأ أرجحيّة جهاد النفس لأُمور :

منها : أنّ جهاد العدو مع ما فيه من صعوبات ومحن إنّما ينهض به المجاهد بعد أن يغلب نفسه وطوّعها لحمل تلك المشاقّ وتجاوز تلك الصعوبات والمحن ، ولو غلبته نفسه وأبت عليه أن يجاهد لما جاهد ، فجهاد العدوّ ما هو إلّا فرع من أصل بالنسبة إلى جهاد النفس .

ومنها : أنّ جهاد العدوّ له مدّة محدودة وينتهي ، أمّا جهاد النفس فهو مستمرّ ما دامت النفس أمّارة بالسوء .

ومنها : أنّ جهاد العدو تكليف واحد من التكاليف الشرعيّة ، ومع أنّه مصحوب بجهاد النفس وحملها على تحمّله ، فهو فعل واحد . أمّا جهاد النفس فهو يشمل

---

(١) **الوسائل** : ١٥/١٦١ ، الحديث ١/٢٠٢٠٨ و : ١٥/١٦٣ ، الحديث ٩/٢٠٢١٦ من أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه .

(٢) **مستدرك الوسائل** : ١١/١٤٠ ، الحديث ١٣/١٢٦٥١ ، من أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه .

(٣) **المصدر المتقدّم** : ١٣٩ ، الحديث ٨/١٢٦٤٦ .

جميع أفعالها وجميع التكاليف المتعلّقة بهذه الأفعال ، ففي كلّ يوم ، بل في كلّ فعل ، معركة وصراع بين من يجرّ المرء إلى هداه ، ومن يجره إلى رداه.

ومنها: أنّ العدوّ ظاهر معروف بعدده وعدّته ، أمّا النفس في خداعها ومخاتلاتها ، وخفاء هذه الوسائل على من لم يراقبها بدقّة في ضوء مصباح الهداية أدّى إلى مصرع الكثيرين على مرّ العصور.

ومهما تكن وجوه الأرجحيّة فإنّ جهاد النفس قدخسر الجولات فيه الكثيرون ، ولم ينتصر فيه إلّا عباد الله المخلصين ، فهو أكبر من كلّ جهاد ، نصرنا الله وإيّاكم في جهاد أنفسنا صباحاً ومساءً ، وفي كلّ حين في كلّ حركة أو سكون.

٤ ـ عن أمير المؤمنين عليه‌السلام ، قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **إنّ أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه** ».

وقال عليه‌السلام : « **والمجاهد من جاهد نفسه** »(١).

٥ ـ وقال عليه‌السلام : « **النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة حسن الأدب ، والنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة ، والعبد يجهد بردها عن سوء المطالبة ، فمتى أطلق عنانها فهو شريك في فسادها ، ومن أعان نفسه في هوى نفسه فقد أشرك نفسه في قتل نفسه** »(٢).

٦ ـ وقال عليه‌السلام : « **جهاد النفس مهر الجنّة ، جهاد النفس ثمن الجنّة ، فمن جاهدها ملكها ، وهي أكرم ثواب الله لمن عرفها ، لا عدوّ أعدى على المرء من نفسه ، ولا عاجز أعجز ممّن أهمل نفسه فأهلكها** »(٣).

---

(١) الوسائل : ١٥ / ١٦٣ ، الحديث ٢٠٢١٦ / ٩ و ٢٠٢١٧ / ١٠ ، من أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه.

(٢) مستدرك الوسائل : ١١ / ١٣٧ ، الحديث ١٢٦٤٢ / ٤ من أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه.

(٣) المصدر المتقدّم : ١٣٩ ، الباب المتقدّم ، الحديث ١٢٦٤٨ / ١٠ و ١٢٦٤٩ / ١١.

٧ ـ عن جعفر بن محمّد عليهما السلام ، قال : في وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام ، قال : « **يا عليّ ، أفضل الجهاد من أصبح لا يهمّ بظلم أحد**[١] **. وإيّاك وخصلتين : الضجر والكسل ، فإنّك إن ضجرت لم تصبر على حقّ ، وإن كسلت لم تؤدّ حقّاً. يا عليّ ، من استولى عليه الضجر رحلت عنه الراحة** »[٢].

وفي هذه الوصية الجليلة بيان لمعان جهاد النفس ؛ لأنّ مجاهدتها إنّما تطلب وتحمد إذا كانت ظالمة ، فتجاهدَ للكفّ عن ظلم الآخرين ، وهي كما قال القائل عنها :

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

ولا علّة أفضل من علّة جهادها امتثالاً لأمر خالقها .

ثمّ نهت الوصيّة عن الضجر عن التزام الحقّ والكسل عن أداء الحقوق ، وهما أي الضجر والكسل خصلتان يتنافيان مع ملكة الصبر على الحقّ ؛ لقول أمير المؤمنين عليه السلام : « **علامة الصابر في ثلاث : أوّلها أن لا يكسل ، والثانية أن لا يضجر ، والثالثة أن لا يشكو من ربّه عزّ وجلّ ؛ لأنّه إذا كسل فقد ضيّع الحقوق ، وإذا ضجر لم يؤدّ الشكر ، وإذا شكا من ربّه عزّ وجلّ فقد عصاه** »[٣].

والضجر مدعاة للكسل ، فمن ضجر من عمل تكاسل عن أدائه ، وقصر عن القيام به ، ومع استمرار هذه الحالة تتراكم الحقوق والواجبات ، ويتعذّر حينئذٍ أداؤها والقيام بها ، وتسلب نتيجة لذلك راحة النفس ؛ لأنّ الراحة ليست بالكسل وإنّما هي بأداء الواجبات ، وللكسل والضجر عوامل ، ولهذه العوامل ونتائجها معالجات في علم الأخلاق تحول دون رسوخهما في النفس .

---

(١) الوسائل : ١٦٢/١٥ ، الحديث ٧/٢٠٢١٤ من أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه .

(٢) الوسائل : ٢٢/١٦ ، باب كراهة الضجر والكسل ، الحديث ٢/٢٠٨٦١ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٢٣ ، باب كراهة الضجر والكسل ، الحديث ٣/٢٠٨٦٢ .

٨ ـ عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام ، قال في وصيّته لبعض ولده : « **وإيّاك والكسل والضجر ، فإنّهما يمنعانك حظّك من الدنيا والآخرة** »[١].

٩ ـ وعنه عليه السلام قال لهشام : « **جاهد نفسك لتردّها عن هواها ، فإنّه واجب عليك كجهاد عدوّك** » . قال هشام : فأي الأعداء أوجبهم مجاهدة ؟ قال عليه السلام : « **أقربهم إليك وأعداهم لك ، وأضرّهم بك ، وأعظمهم لك عداوة ، وأخفاهم لك شخصاً مع دنوّه منك** »[٢].

١٠ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال لرجل : « **اجعل قلبك قريناً برّاً وولداً واصلاً ، واجعل علمك والداً تتّبعه ، واجعل نفسك عدوّاً تجاهده ، واجعل مالك عارية تردّها** » .

وأنّه عليه السلام قال : « **إنّك قد جُعلت طبيب نفسك ، وبيّن لك الداء ، وعرفت آية الصحّة ، ودللت على الدواء ، فانظر كيف قيامك على نفسك** » .

وقال عليه السلام : « **مَن ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا رضي حرّم الله جسده على النّار** » .

و« **من لم يكن له واعظ من قلبه ، ولم يكن له قرين مرشد ، استمسك عدوّه من عنقه** »[٣].

---

(١) الوسائل : ٢٢/١٦ ، باب كراهة الضجر والكسل ، الحديث ١/٢٠٨٦٠ .

(٢) مستدرك الوسائل : ١٤١/١١ ، أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه ، الحديث ١٦/١٢٦٥٤ .

(٣) الوسائل : ١٦٢/١٥ ، أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه ، الحديث ٤/٢٠٢١١ والحديث ٨/٢٠٢١٥ والحديث ٦/٢٠٢١٣ و ٣/٢٠٢١٠ .



محاسبة النفس وتشخيص عيوبها

تمهيد

المحاسبة مفاعلة من الحساب معنى العدّ[1]، فالشريك يحاسب شريكه بعدّ ماله وما عليه من أرباح التجارة، والنفس في الحياة الدنيا تفعل الخير وضدّه، فإذا أهمل المرء محاسبتها فلربّما طغت فيها السيّئات حتّى استولت على آخر رصيد للخير فيها، ولم تعدُّ قادرة على مجاهدة حالة الزيغ والشطط.

١ ـ فعن أبي جعفر عليه السلام، قال: « **ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج من النكتة البيضاء نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض، فإذا غطيّ البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾**[2]»[3].

٢ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: « **إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت، حتّى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً** »[4].

---

(١) القاموس المحيط: ٧٤، مادة « حَسَبَ »، بتصرّف.

(٢) سورة المطفّفين: الآية ١٤.

(٣) الوسائل: ٣٠٣/١٥، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب، الحديث ١٦/٢٠٥٨٠.

(٤) المصدر المتقدّم: ٣٠٢، الحديث ١٢/٢٠٥٧٦.

٣ ـ وعنه عليه السلام ، قال : كان أبي عليه السلام يقول : « **ما من شيء أفسد من خطيئة. إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال حتّى تغلب عليه ، فيصبح أعلاه أسفله** »[(١)].

والنكتة لغة من النكت ، وهو ضرب الأرض بقضيب فيؤثّر فيها[(٢)]. والرين صدأ يعلو الشيء الجليل.

فالحديث الأوّل يفيد أنّ النفس بحسب أصلها الأوّلي فيها النكتة البيضاء ، فيها الأثر المدرك للخير وحسن الفعل ، وأنّ النكتة السوداء هي أثر طارئ من الذنب الذي تقترفه ، وأنّ هذا النقش والصورة الحاصلين في النفس من الذنب هو الرين العارض عليها ، كعروض الصدأ على المعدن ، فإذا تراكم هذا الصدأ حجب النفس عن رؤية الخير وفعله ، كما يحجب الصدأ ما طرأ عليه عن أن يبدو بهاؤه وحسنه وجلاله.

وتؤكّد هذه الأخبار على ضرورة المبادرة إلى تهذيب النفس من رين الذنب وأثره ونقشه قبل أن تتراكم إلى الحدّ الذي لا يفيد معه تهذيب ، كالمعدن الذي يتآكل بالصدأ ، بحيث يؤدّي العمل على إزالته عنه إلى إتلافه.

والوسيلة ـ بحسب هذه الأخبار وغيرها ـ إلى الحفاظ على النفس من أن تصل إلى هذه الحالة ، هي المبادرة إلى إزالة الأثر قبل أن تصعب إزالته أو تتعذّر ، وذلك بالتوبة من الذنب ، كي يبقى للنفس صفاؤها أو شيء من صفاتها عساها ـ يوماً ما ـ أن تستعيد ما كانت عليه بحسب طبعها الأوّلي من صفاء تدرك به الحقّ كما هو.

وبناءً على هذا ، فعلى من يريد تهذيب نفسه أن يشخّص عيوبها بالتعرّف على هذه العيوب أوّلاً عن طريق التعرّف على الصفات الذميمة والأفعال القبيحة من خلال ما ورد عن المعصومين عليهم السلام ، ومن ثمّ يجعل تعاليمهم : مرآة لنفسه ، ليرى فيها عيوبها ، ويحاسبها عليها كلّ يوم ، ليجلو أثرها عنها قبل تراكمه.

---

(١) الوسائل : ١٥ / ٣٠١ ، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب ، الحديث ٢٠٥٧٢ / ٨.

(٢) القاموس المحيط : ١٦٢ ، مادة « نكت ».

وفي الأخبار التالية مزيد من الحثّ على هذه المحاسبة :

١ ـ الحثّ على المحاسبة :

١ ـ عن النبيّ ﷺ في وصيّته لأبي ذرّ ؓ ، قال : « **يا أبا ذرّ ، حاسب نفسك قبل أن تُحاسب ، فإنّه أهون لحسابك غداً ، وزن نفسك قبل أن تُوزن ، وتجهّز للعرض الأكبر يوم تعرض لا تخفى على الله خافية** » ـ إلى أن قال : ـ « **يا أبا ذرّ ، لا يكون الرجل من المتّقين حتّى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه ، فيعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، ومن أين ملبسه ، أمِن حلال أو من حرام ؟**

يا أبا ذرّ ، مَن لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النّار »(١) .

تناول الحديث جانباً من جوانب محاسبة النفس ، وهو جانب المكاسب المالية ، ذلك الجانب الذي ترتبط به كثير من العبادات وتترتّب عليه آثار وضعيّة ذات أهمّية . فالصلاة ـ مثلاً ـ والصيام وطواف الحجّ واجبات مشروطة بالطهارة ، والطهارة بأنواعها مشروطة بإباحة الطهور وأوانيه ومكان استعماله . فلو كان في أحد هذه الأُمور حقّ مغصوب بطلت الطهارة ، سواء أكان الحقّ عامّاً أو خاصّاً . وكذا اشتراط إباحة ملابس المصلّي ومكانه وما يحمله أثناء صلاته ، فإن لم تتحقّق الإباحة في هذه الأُمور بطلت الصلاة ، ناهيك عن كون الشخص ـ مع ما سبق ـ هو دوماً على غير طهارة حتّى من الحدث الأكبر فهو في ظلمة دائمة يأثم بدخوله مسجداً أو ضريحاً ، ويأثم بمسّه لكتابة القرآن أو اسماً من أسماء الله (تعالى) أو صفاته ، أو من أسماء الأنبياء والمعصومين على قول بعض الفقهاء(٢) .

ومع هذا فهو متلبّس بالمعصية ما دام المال الحرام في حيازته ، وهو آثم في

---

(١) الوسائل : ٩٨/١٦ ، باب وجوب محاسبة النفس من أبواب جهاد النفس ، الحديث ٧/٢١٠٨٠.

(٢) اللمعة الدمشقيّة : ٤٠/١ ، الفصل الثاني : في الغسل .

تصرّفه به ، أمّا أثر الأكل والشرب ، بل وحتّى المهر للزواج ، من المال الحرام ، فهو أثر وضعي ينعكس على السلوك وعلى النسل ، وسنتحدّث عن هذا الجانب تحت عنوان الأثر الوضعي للذنوب إن شاء الله تعالى .

ومن أهمّ أسباب المكسب الحرام هو جهل المكتسب بأحكامه الشرعيّة ، فنجد الكثير ممّن يكتسب ببيع وإجارة ومزارعة ومضاربة ، أو يؤجّر نفسه موظفاً أو عاملاً أو غير هذه الأنواع من أنواع التجارة والارتزاق ، دون أن يتعرّف على الأحكام الشرعيّة في نوع هذا الاكتساب ويجهلها ، يقع في أكل المال بالباطل من حيث يشعر أو لا يشعر . ومن هنا ورد في الحديث : « **الفقه ثمّ المتجر... التاجر فاجر ، والفاجر في النّار ، إلّا من أخذ الحقّ ، وأعطى الحقّ** » ، و« **من أراد التجارة فليتفقّه في دينه ليعلم بذلك ما يحلّ له ممّا يحرم ، ومن لم يتفقّه في دينه ثمّ اتّجر تورّط الشبهات** »[1] .

أمّا الجهل بما عليه من حقوق لله : من خمس أو زكاة أو غيرها ، ممّا يجعل ما لديه من المال الذي لم يخرج حقوقه مالاً مختلطاً بالحرام ، ولا يجوز التصرّف به ، فهو أيضاً لا يقلّ أثراً أو كثرة عن الجهل بأحكام المكاسب .

علماً بأنّ الجهل في مثل هذه الأمور لا يعذر صاحبه ؛ لما روي عن جعفر بن محمّد عليهما السلام ، وقد سُئل عن قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[2] ، فقال : « **إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : أكنت عالماً ؟ فإن قال : نعم ، قال : أفلا عملت بما علمت ؟ وإن قال : كنت جاهلاً ، قال : أفلا تعلّمت ، حتّى تعمل ؟ فيخصمه ، وتلك الحجّة البالغة** »[3] .

---

(١) الوسائل : ٣٨٢/١٧ ، باب استحباب التفقّه فيما يتولّاه من أبواب آداب التجارة ، الحديث ٤/٢٢٧٩٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤٩ .

(٣) بحار الأنوار : ١٧٨/١ ، باب فرض العلم ووجوب طلبه من أبواب العلم وآدابه ، الحديث ٥٨ .

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن خاف أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم** »[١] .

والعلاقة بين هذه المقاطع الجليلة وثيقة ، فمن خاف الله (تعالى) ، بل خاف سوء عمله وخسارة نفسه ، حاسب نفسه قبل أن يحاسَب وراقبها قبل أن يستولي عليها رين ذنوبها مستحضراً عبر الماضين ومعتبراً بما جاء عن الصالحين ، وإذا تمّت له المحاسبة والخوف والاعتبار كان منتبهاً من نومة الغافلين ، مبصراً هداه ، ومن أبصر هداه فقد فهم ما يهمّه من أُمور الدنيا والآخرة وما لا يهمّه . وصحّ إطلاق اسم العالم عليه ، وإنّما يخشى الله من عباده العلماء . وفي الكتاب المجيد من الحثّ على الاعتبار بقصص الماضين ، وما حلّ بهم من ذلّ وهوان ، بل خسران مبين ، بعد عزّ وكرامة ونعمة ، بسبب معاصيهم وغفلتهم عن تدارك أُمورهم ، آيات كثيرة[٢] .

٣ ـ عن عليّ بن الحسين عليه السلام ، قال : « **ابن آدم إنّك لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك ، وما كانت المحاسبة من همّك ، وما كان الخوف لك شعاراً ، والحزن لك دثاراً . ابن آدم ، أنت ميّت ومبعوث وموقوف بين يدي الله فأعدّ جواباً** »[٣] .

أناط الحديث الشريف خير الإنسان واستمرار هذا الخير بأُمور :

منها : كون واعظه من نفسه ، ففي حديث سابق : « **مَن لم يكن له واعظ من قلبه ... استمسك عدوّه من عنقه** » ، وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **مَن لم يجعل له من نفسه واعظاً ، فإنّ مواعظ النّاس لا تغني عنه شيئاً** »[٤] .

وثاني الأُمور كون المحاسبة همّاً من همومه ، يهتمّ بها ولا يستقرّ حتّى يحقّقها ،

---

(١) الوسائل : ٩٧/١٦ ، باب وجوب محاسبة النفس ، الحديث ٦/٢١٠٧٩ .

(٢) سورة يوسف : الآية ١١١ وسورة الحشر : الآية ٢ ، وغيرها من الآيات .

(٣) الوسائل : ٩٦/١٦ ، باب وجوب محاسبة النفس ، الحديث ٣/٢١٠٧٦ .

(٤) مستدرك الوسائل : ١٤١/١١ ، أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه ، الحديث ١٥/١٢٦٥٣ .

وحينئذٍ سيكون على دراية مستمرّة بما وصلت إليه نفسه ليبادر للمزيد إن كان خيراً ، وإلى التطهير والتهذيب بالتوبة إن كان عكس ذلك .

وثالثها : أن يكون شعاره الخوف من الله تعالى ، والشعار هو ما يلي البدن من الثياب ، والخوف الباطني دليل العبوديّة لله تعالى ، وهي أرقى درجات الإيمان ، ولها مظهر هو الحزن عقب أي مخالفة لحكم المولى جلّ جلاله . فإن كان شعار العبد هو الخوف حقّاً فلا بدّ أن يكون أثره هو الحزن الظاهر فوق الشعار ، وهو كالدثار من الثياب . ومن كان خائفاً باطناً ، حزيناً من المخالفة ظاهراً ، كان ذاكراً معتبراً دائماً ، محاسباً لنفسه ، تائباً ومستغفراً من ذنوبه ليعدّ الجواب ، فاليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم ، فإن عمل حسناً استزاد ، وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه** »(١) .

٥ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **من استوى يوماه فهو مغبون ، ومَن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط ، ومَن كان آخر يوميّه شرّهما فهو ملعون ، ومَن لم يرَ الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان ، ومَن كان إلى النقصان فالموت خير له** »(٢) .

ومعلوم أنّ معرفة الإنسان نفسه ، من حيث كونه مغبوناً أو مغبوطاً أو ملعوناً ، لا تحصل بدون المحاسبة اليوميّة ؛ ليستغفر ويستزيد من الخير ، ويسلم من البعد عن الله تعالى ، فإن عجز بسوء اختياره عن الاستزادة ، وصار أمره إلى النقصان ، فليتمنّ الموت ليواجه ربّه بذنوب أقلّ ، فإنّ مقياس حبّ الحياة الدنيا وبغضها عند المؤمن هو ما يؤول إليه أمره يوم القيامة ؛ لأنّ الدنيا مزرعة الآخرة ؛ ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **لا خير في العيش إلّا لرجلين : رجل يزداد في كلّ يوم خيراً ، ورجل**

---

(١) الوسائل : ١٦/٩٥ ، باب وجوب محاسبة النفس كلّ يوم ، الحديث ٢١٠٧٤/١ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٩٤ ، باب أنّه يجب على الإنسان . . . ، الحديث ٢١٠٧٣/٥ .

يتدارك منيّته بالتوبة »[١].

ونخلص من مجموع ما تقدّم إلى أنّ محاسبة النفس هي من الأعمال الواجبة، وهي من أركان الدين؛ لأنّ الحديث المروي عن رسول الله ﷺ يقول: « **لا يكون العبد مؤمناً حتّى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه، والسيّد عبده** »[٢].

وإذا كانت المحاسبة شرطاً من شروط الإيمان، والإيمان ـ كما ورد تعريفه عن رسول الله ﷺ ـ هو: « **عقد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان** »[٣]، فمن هذا واذك ينتج أنّ المحاسبة هي من أركان الدين الإسلامي، وشرط من شروط الإيمان.

٢ ـ تشخيص العيوب

توطئة

التشخيص تعيين الشيء من بين مشابهاته، والعيوب جمع عيب، وهو الوصمة، اسم من الوصم بمعنى الصدع، وجمعه: وصوم، وبمعنى العار أيضاً[٤].

فيكون تشخيص عيوب النفس على المعنى الأوّل للعيب، تعيين صدوع النفس ونقوشها الحاصلة ممّا ارتكبته من ذنوب.

وعلى المعنى الثاني، وهو العار، فمقصودنا منه هو العار في نظر الشريعة المقدّسة؛ وذلك لأنّ العار يختلف مصداقاً باختلاف الأعراف والاعتبارات والثقافات، فمن العار ـ مثلاً ـ عند بعضٍ أن يترك الشخص إعانة أخيه في خصومة ظالمة، أو يترك قتل اُخته المنحرفة، ولكنّ هذا الفعل في نظر الشارع المقدّس

---

(١) الوسائل: ١٦/٩٣، باب أنّه يجب على الإنسان...، الحديث ٢١٠٧١/٣.
(٢) المصدر المتقدّم: ٩٩، باب وجوب محاسبة النفس، الحديث ٢١٠٨٣/١٠.
(٣) بحار الأنوار: ٥/٣٢، باب نفي الظلم والجور عنه تعالى، الحديث ٣٩.
(٤) راجع القاموس المحيط: ١١٨، مادة « عيب ».

هو العار، وهو العيب النفسي ، ولكن كثيراً ما يتّفق أهل العرف مع الشرع في مصداقيّة العيب ، كما في الأُمور التي أجمعت عليها العقلاء ، كرفض ردّ الأمانة ، ومثل الأفعال المنافية للأخلاق بالاتّفاق .

ومن اختلاف الشرع عن العرف ، ولو في بعض المصاديق ، ومن إيماننا بأنّ الشارع هو المتفرّد بمعرفة حقيقة النفس ، ومعرفة أحوالها ، وما يصلحها وما يفسدها ـ كما مرّ في التمهيد (ص٣٧) ـ ، من هذا وذاك يتعيّن على مَن يريد تهذيب نفسه ، وتشخيص عيوبها أن يتعرّف على ما ورد عن الشارع المقدّس في تحديد العيوب النفسيّة ، وإلّا فقد يجاهد نفسه ويتعبها من أجل أن يضاعف عيوبها من حيث لا يعلم .

ومسألة معرفة العيوب النفسيّة لا تنحصر في باب أو فصل من أبواب وفصول العلوم الإسلاميّة ، ولا أُبالغ إذا قلت : إنّ جميع العلوم الإسلاميّة تشترك ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ في تهذيب النفس من العيوب ، لتجعلها راضية مرضيّة . ومن هنا كان فضل العلم والعالم كما مرّ بك .

وبعد هذه التوطئة نورد من الأخبار ما ورد في الحثّ على تشخيص العيب تمهيداً للاقلاع عنه ، سواءٌ أكان العيب صفة نفسيّة أم كان فعلاً خارجيّاً يصرّ عليه فاعله . أمّا ما هي العيوب ؟ فإنّ الحديث عنها طويل وطويل جدّاً ، كما ذكرنا . وإليك عدداً من هذه الأحاديث :

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **ثلاث خصال من كنّ فيه أو واحدة منهنّ ، كان في ظلّ عرش الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه : رجل أعطى النّاس من نفسه ما هو سائلهم ، ورجل لم يقدّم رِجلاً ولم يؤخر رِجلاً حتّى يعلم أنّ ذلك لله رضا ، ورجل لم يعب أخاه المسلم بعيب حتّى ينفي ذلك عن نفسه ، فإنّه لا ينفي منها عيباً إلّا بدا له عيب ، وكفى بالمرء شغلاً بنفسه عن النّاس** »[1] .

---

(١) الوسائل : ٢٨٨/١٥ ، باب استحباب اشتغال الإنسان بعيب نفسه ، الحديث ١/٢٠٥٢٨ .

أ ـ **فالخصلة الأُولى**: قاعدة عظيمة في التكافؤ الاجتماعي في الحقوق والواجبات، فليس المرء ـ وفق هذه القاعدة ـ أن يتخلّى عن إعطاء النّاس من نفسه مثل ما يريد أن يحصل عليه منهم، فهو يريد من الآخرين أُموراً، كاحترامهم إيّاه، ومساعدتهم له، وتعاطفهم معه، ومواساتهم في أفراحه وأتراحه، وما إلى ذلك من قائمة التوقّعات والمتطلّبات، فعليه ـ وفق هذه القاعدة ـ أن يعطي للنّاس مثل ما يطلبه منهم، وفي هذه الحالة تتحقّق وحدة اجتماعيّة يصبح الأفراد فيها كالأعضاء في الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[١].

ب ـ **والخصلة الثانية**: تبتني على التسليم التامّ لله سبحانه وتعالى، دون أن يكون للنفس أو للآخرين ـ عداه سبحانه ـ سلطان في كلّ حركة وسكون، لا يفعل إلّا لرضا الله تعالى، ولا يدع إلّا لرضاه سبحانه؛ لأنّه السيّد والمرء عبده، وهل يمتثل العبد غير سيّده؟ وهو سيّد عادل، وغني، وحكيم، لا يأمر بما يأمر، أو ينهي عمّا ينهى ظلماً لعبده أو لحاجة له، أو عبثاً دون هدف لصالح العبد وغاية إسعاده.

وهذه الخصلة تتطلّب المعرفة التامّة ـ بما أُوتي الإنسان من إمكانات ـ بهذا السيّد العظيم وبأوامره ونواهيه، وما يحقّق رضاه وما لا يحقّقه، ومن هنا كانت العبوديّة التامّة هي أعلى درجات الإيمان، إلّا أنّها عبوديّة لله تعالى، بها يخرج العبد من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة، وبها يحصل العلم والتقى والإيمان وسحق النفس الأمّارة.

ج ـ **الخصلة الثالثة**: أن يراجع نفسه حينما تريد أن تعيب الآخرين، هل فيها

---

(١) وهو مضمون الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام، رواه أبو بصير، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «**المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة**». راجع الكافي: ٢/١٩٤، باب اخوّة المؤمنين بعضهم لبعض، الحديث ٢٠٣٧/٤.

هذا العيب ؟ فإن كان فيها صبّ اهتمامه على تهذيب نفسه من عيبها قبل أن يهتمّ بعيب الغير؛ لأنّه مسؤول عن عيوب نفسه قبل أن يُسأل عن عيوب غيره ، أمّا إذا تصدّى لعيوبهم لا لأجل إصلاحها فهذا هو عيب آخر يحتاج إلى تهذيب نفسه منه.

فإذا اشتغل بعيبه عن عيوب الآخرين طهرت نفسه من هذا العيب ، ونقت ممّا كان له من أثر ، واستنارت بمقدار ما كان عليها منه من ظلمة ، وحينئذٍ أدركت ما لم تكن تدركه من عيب فيها ، فازداد نورها ليدرك فيها عيباً آخر ، وهكذا تتصاعد في الإدراك والتهذيب حيث تنشغل عن النّاس بالارتقاء والتسامي إلى الولوج في العالم العلوي.

٢ ـ عنه عليه‌السلام ، قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **طوبى لمن شغله خوف الله عزّ وجلّ عن خوف النّاس ، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه** »[1].

فمن آمن بمضمون لا حول ولا قوّة إلّا بالله ، وأنّ النّاس ، كلّ النّاس ، لا يملكون ضرّاً ولا نفعاً إلّا بإذنه ، لم يخش أحداً سواه ، ولم يخف غيره ، ولم ينشغل بمتطلّبات خوف مَن عداه ، وأخلص نفسه وقواها للانشغال بمستلزمات الخوف منه وحده سبحانه ، وإن هي إلّا الانشغال بتنزيه النفس من عيوبها لتقرب منه تعالى. ومَن كان هذا دأبه ، وهذه غايته وهمّته ، لم يلتفت للانهماك بعيوب الآخرين على حساب إهمال عيوب نفسه ؛ لأنّ هذا عيب آخر مضافاً إلى عيوبه السابقة ، ولذا ورد :

٣ ـ عن أبي ذرّ رحمه‌الله ، عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، قال : « ... **كفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال : يعرف النّاس ما يجهل من نفسه ، ويستحيي لهم ممّا هو فيه ، ويؤذي جليسه فيما لا يعنيه** »[2].

---

(١) الوسائل : ١٥/٢٨٩ ، باب استحباب اشتغال الإنسان بعيب نفسه ، الحديث ٢٠٥٣٩/٢.

(٢) المصدر المتقدّم : ٢٨٩ ، الحديث ٢٠٥٤١/٤.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام : «**كفى بالمرء جهلاً أن يجهل نفسه**»[١]، والجهل مبدأ كلّ عيب؛ ولذا :

٤ ـ ورد عنه عليه السلام : «**أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله**»[٢].

أمّا أن تعيب ما فيك أعظم منه، فهو غاية العيب في جسامته، وبمقتضى هذا يتّجه الإنسان بكلّه إلى عيوب نفسه، وبهذه الحالة سينشغل عن عيوب النّاس، وإلّا فهو أحمق كما روي :

٥ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : «**مَن نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومَن رضي رزق الله لم يحزن على ما فاته، ومَن نظر في عيوب النّاس ثمّ رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه**»[٣].

٦ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**إذا رأيتم العبد متفقّداً لذنوب النّاس، ناسياً لذنوبه، فاعلموا أنّه قد مُكر به**»[٤].

والمكر هو الخديعة، وكفى بالمرء خديعة أن ينسى نفسه بنسيان عيوبها، والانشغال عنها بتفقّد ذنوب النّاس، وبتفقّده هذا أضاف لعيوبه عيوب التفقّد، ثمّ إنّ نسيانه لنفسه يكشف عن أنّه قد نسي ربّه؛ لأنّ الذاكر لربّه متّجه لامتثال أوامره ونواهيه، ومن أهمّها تفقّد عيوب نفسه والتوبة منها. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٣٣، باب جهل النفس، الحديث ٤٦٦١.

(٢) الوسائل : ٢٩١/١٥، باب استحباب اشتغال الإنسان بعيب نفسه، الحديث ٢٠٥٤٥/٨.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٥٤٤/٧.

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٥٤٦/٩.

أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١].

هذه الأخبار وأمثالها نصّت على أنّ إهمال تفقّد عيوب النفس ، والانشغال بتتبّع عيوب الآخرين هو من أكبر العيوب ، أمّا ما هي العيوب في منظار الشارع المقدّس ؟ فقد ألمحتُ في التوطئة بأنّ التعرّف عليها يحتاج إلى تعلّم ما ورد في الشريعة من بيانها ، وانّ هذا التعلّم بنفسه عبادة ، بل هو أصل العبادات .

ومن باب لا يترك الميسور بالمعسور ، وما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه ، وبلحاظ أنّ الشريعة بكلّ ما احتوته من نظام وتشريع محوره النفس الإنسانيّة من حيث تهذيبها والسموّ بها إلى ما خُلقت لأجله من مقام يقرّبها من خالقها ، وهو أمر لا يحيط به كتاب واحد وموضوع واحد . آثرت أن أذكر ههنا بعض كبائر الذنوب ، باعتبارها عيوباً نفسيّة في منظار الشارع المقدّس ، وورد ذكر هذا البعض بالاسم والتنصيص عليه في الأخبار .

---

(١) سورة الحشر : الآيتان ١٨ و ١٩.



كبائر الذنوب

تمهيد

الذنوب لغة جمع ذنب ، والذنب هو الإثم ، وكلمة الإثم رديفة لكلمة الذنب؛ لأنهما لغةً بمعنى واحد[1] . وإن أُطلق الإثم على الخمر والقمار وعمل ما لا يحلّ ، في استعمالات القرآن الكريم وأهل اللغة[2] ، فهو من قبيل استعمال ما وضع للمفهوم العامّ في أظهر مصاديقه أو موضوع ذلك المصداق أو متعلّق الموضوع .

والكبائر جمع كبيرة ، من كبر فهو كبير ، بمعنى عظم وجسم فهو عظيم وجسيم ، وكبر ضدّ صغر ، فتكون الكبيرة ضدّ الصغيرة . وتعبير بعض اللغويّين بأنّ الكبر نقيض الصغر تعبير لغوي وليس تعبيراً منطقيّاً[3] . والكبيرة والصغيرة من الأوصاف الإضافيّة ، يوصف الشيء بأحدهما قياساً إلى شيء آخر وإن وصف بالضدّ قياساً إلى شيء ثالث . فالمدينة كبيرة قياساً إلى إحدى محلّاتها ، ولكنّها صغيرة قياساً إلى كوكب الأرض ، والنملة كبيرة قياساً إلى الذرّة ، إلّا أنّها صغيرة قياساً إلى النخلة ، وهكذا .

---

(١) القاموس المحيط : ٨٥ ، مادة « ذنب » ، و : ١٠٧٤ ، مادة « اثم » .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٠٧٤ ، مادة « اثم » ، وراجع سورة المائدة : الآية ٣ ، وسورة المجادلة : الآية ٨.

(٣) المصدر المتقدّم : ٤٦٨ ، مادة « كبر » .

وكما توصف الأجسام بأحد الوصفين قياساً إلى غيرها من الأجسام الأُخرى ، توصف الأفعال أيضاً بأحدهما قياساً إلى الأفعال الأُخرى ، فقتل النفس المحترمة ـ وبخاصة لو كانت نفس نبيّ أو إمام ـ كبيرة قياساً إلى غصب درهم من غنيّ ، وإن كان الأخير ـ مع كونه صغيراً قياساً لما قبله ـ كبيراً قياساً لغصب ما دون الدرهم من المال .

وربّ فعل واحد باعتبارات متعدّدة يكون كبيراً باعتبار وصغيراً باعتبار آخر ، كترك الأوْلى من الأنبياء يكون كبيراً ، ومن سائر النّاس يكون صغيراً ، بل قد يكون الفعل من شخص صغيراً في حال شبابه وجهله ، وكبيراً منه نفسه في حال نضجه وبلوغه مرتبة عالية من العلم . وهكذا توصف الأفعال بكونها كبيرة أو صغيرة باختلاف النسب والاضافات والأحوال والاعتبارات .

١ ـ كلمة الكبيرة في القرآن

ورد استعمال كلمة الكبيرة في القرآن المجيد في سبع آيات ، نوردها لنتبيّن معناها من خلال استعمالها فيه :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوْا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾[١] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ** ﴾[٢] .

٣ ـ ﴿ **وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ** ﴾[٣] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ**

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٢١ .

يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾[١].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[٢].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾[٣].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُم وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾[٤].

فالكبيرة في الاستعمال القرآني وردت فيما يثقل القيام به من الأعمال، كالصوم والصلاة على غير الخاشعين، كما في الآية الأُولى، وكالتوجّه لغير القبلة السابقة، كما في الآية الثانية.

ووردت أيضاً وصفاً للنفقة، وهي من القربات، كما في الآية الثالثة، كما وردت لما يعمّ الوصف للفعل الحسن والقبيح معاً، كما في الآية الرابعة؛ لأنّ كتاب المرء يوم القيامة يحتوي على الأفعال جميعاً، صغيرها وكبيرها.

أمّا الآيات الثلاث الأخيرة فقد استعملت الكبيرة وصفاً للذنب بقرينة الاضافة إلى الإثم في الآيتين الخامسة والسادسة، والاضافة إلى ما تُنهون عنه في الآية السابعة.

ومن مجموع هذه الاستعمالات يتبيّن أنّ معنى الكبيرة في القرآن الكريم لا يختلف عن معناها في اللغة، وإنّما يتعيّن المقصود منه ـ إن استعمل في الأفعال ـ

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٣٧.

(٣) سورة النجم: الآية ٣٢.

(٤) سورة النساء: الآية ٣١.

بالقرينة ، فهو وصف للجسيم من الأفعال ، حسنة كانت أم قبيحة .

٢ ـ الكبيرة في الاصطلاح

ويبدو أنّ كلمة الكبيرة صارت في وقت متأخّر عن عصر الرسالة حقيقة في الذنوب أو في جسيمها ، وبخاصّة عند المتكلّمين والمفسّرين والفقهاء ، فنزاعهم معروف في أنّ فاعل الكبيرة كافر أم فاسق ؟ وكذا نزاعهم في التمايز بين كبيرالذنوب وصغيرها ، حتّى أصبح لفظ الكبيرة إذا أُطلق في عرف هذه العلوم الثلاثة ودارسيها لا يفهم منه غير كبائر الذنوب دون غيره من معانيها الذي يحتاج إفهامه للمخاطب عندهم إلى قرينة .

ولا يعنينا الآن تحديد زمن صيرورة هذه الكلمة حقيقة في كبير الذنب فقط ، هل هو في عصر انفصال الخوارج أو في بدء الاعتزال وصراع المعتزلة مع الأشعريّة ، أو بعد ذلك أو قبله ، لا يعنينا هذا التحديد ؛ لأنّ كلمة الكبيرة في استعمالاتها على لسان الشارع أو المتشرّعة تكون دوماً محفوفة بما يوضّح كونها وصفاً للذنب أو وصفاً لغيره ، كما شاهدنا هذا بوضوح في الآيات السبع المتقدّمة .

والذي يعنينا فعلاً ما اهتمّ به المتكلّمون والمفسّرون والفقهاء من التمييز بين الكبيرة والصغيرة الواردة وصفاً للذنب .

ومعلوم أنّ اهتمام المتكلّمين في التمييز بينهما ناشئ من قول مَن قال بكفر مرتكب الكبيرة من جهة ، ومن كون مجتنب الكبيرة مغفوراً له فعل الصغائر وغير محاسب عليها يوم القيامة . وهذا الأخير كان منشأً لاهتمام المفسّرين لورود الآية المتضمّنة لهذه الجهة المتقدّم ذكرها برقم (٧) .

أمّا اهتمام الفقهاء فمنشؤه أخذهم اجتناب الكبائر في تعريف العدالة[1] ،

---

(١) لأنّ تعريفها عند الكثيرين منهم هو : ملكة نفسانيّة تبعث على ملازمة التقوى بترك ⇦

ولأهميّة موضوع العدالة عندهم باعتبارها شرطاً في الحاكم، والبيّنة، وفي الراوي، وإمام الجماعة، والمفتي والقاضي ـ على خلاف في بعض هذه الأُمور ـ لأهمّية الموضوع اهتمّ الفقهاء في بحث العدالة أيضاً.

ومعلوم أنّ مسألة كهذه تشترك في بحثها ثلاثة علوم بشكل رئيس، عدا العلوم التي تتناولها تناولاً أقلّ اهتماماً من هذه، كعلم الأخلاق وعلم أُصول الفقه.

إنّ مسألة كهذه مع تعدّد المذاهب، وتعدّد العلماء في كلّ مذهب، لا بدّ وأن تتكثّر فيها الأقوال، ويكثر القيل والقال، ويكثر النقض والإبرام.

وقد بلغ عدد الأقوال في تحديد معنى الكبيرة والصغيرة لدى علماء الإسلام ثلاثة عشر قولاً، ممّا يجعل الحديث عنها بحجج كلّ قول وتقويمه ومناقشته واختيار الراجح منها، يتطلّب كتاباً مستقلاً، كما فعله بعضهم[١].

٣ ـ الكبيرة في الحديث

الأخبار الواردة في بيان معنى الكبيرة والصغيرة مختلفة الظواهر، متعدّدة الدلالة، فإنّك تجد البعض منها يعدّ كلّ ذنب كبيرة[٢]، وبعضها الآخر يعدّ الكبائر بعدد محدّد، وأخبار التحديد مختلفة في مقداره، فبعضها يعدّ الكبائر خمساً، وبعضها يعدّها سبعاً، وآخر يعدّها ثماني، وآخر تسعاً، وآخر عشرين، وآخر

⇐ الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، وترك منافيات المروءة. راجع شرح اللمعة / الشهيد الثاني: ١/٧٩٢، فصل ١١: في الجماعة ـ في شروط الإمام.

(١) وهو محمّد بن أحمد المعروف بالحافظ الذهبي (٦٦٣ ـ ٧٤٨)، حيث ألّف كتاباً باسم (الكبائر)، وهو مطبوع متداول. انظر بعض هذه الأقوال فيه، وبعضها الآخر في كتب التفسير مثل مجمع البيان: ٣/٧٠، تفسير سورة النساء: الآية ٣١.

(٢) كالخبر المروي عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾. الوسائل: ١٥/٣٢٢، باب تعيين الكبائر، الحديث ٢٠٦٣٢.

سبعين ، وآخر يقول إنّ عدد الكبائر إلى السبعمائة أقرب منها إلى ما دونها[١].

وحيث لم أكن بصدد اختيار أرجح الأقوال في مسألة معنى الكبيرة ، فلا أُريد أن أُقحم القارئ في التحقيق في هذه الأخبار سنداً أو دلالة ، إلّا أنّ ما يمكن قوله ولا يصعب فهمه ، هو أنّ جميع ما نصّ منها على عدد معيّن من الذنوب ، أو أحالت السائل على استقراء ما توعّد الله في كتابه على فعله بالنّار ، أو ما توعّد رسوله ﷺ على فعله بالنّار ، لم تكن ظاهرة في الحصر ، بل بعضها مصرّح بعدّ البعض.

وعلى أساس من قاعدة : (الجمع بين الأخبار مهما أمكن فهو خير من الطرح) : فالجمع بين الأخبار التي عدّت الكبائر بعدد محدّد ، وبين الأخبار التي صرّحت بأنّ كلّ ذنب كبيرة ، يكون بحمل أخبار العدّ على بيان ذكر المصاديق وليس الحصر بما ذكرته من عدد ، أو أحالت السائل إلى عدّه في القرآن.

وممّا يؤيّد هذا الجمع ـ مضافاً لقاعدة تفضيله على الطرح ـ هو أنّ أخبار العدّ كثيرة ، وأعدادها المذكورة فيها أيضاً كثيرة كما أشرنا إليها ، فلو فهمنا الحصر من كلّ خبر ذكَر عدداً محدوداً ، لكانت أخبار العدّ كلّها متهافتة . والأخذ بالبعض دون ما سواه بدون مرجع ، بعد افتراض صحّة صدور الجميع عن المعصومين عليهم السلام ، أو حجّيّة هذه الأخبار على أقلّ تقدير.

ومن المستبعد جدّاً أن ينتهي التحقيق في سند هذه الأخبار إلى إثبات صحّة ما يُثبت عدداً معيّناً ، دون ما سواه من الأخبار المثبتة للأعداد الأُخرى ، وهي كثيرة.

٤ ـ شبهة وجواب

الشبهة

نسب الطبرسي في مجمع البيان إلى الإماميّة وابن عبّاس القول بأنّ المعاصي كلّها

---

(١) تجد هذه الأخبار في الوسائل : ٣١٨/١٥ ، باب تعيين الكبائر التي يجب اجتنابها ، فراجع.

كبيرة ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، وليس في الذنوب صغيرة ، وإنّما يكون الواحد منها صغيراً بالإضافة إلى ما هو أكبر ويستحقّ فاعله العقاب عليه أكثر[١].

ووجّه صاحب الميزان هذا القول ، بأنّ العصيان والتمرّد كيفما كان كبير وأمر عظيم بالنظر إلى ضعف المخلوق في جنب الله عظم سلطانه ، غير أنّ القياس في هذا الاعتبار بين الإنسان وربّه ، لا بين معصية ومعصية ، فلا منافاة بين كون كلّ معصية كبيرة باعتبار ، وبين كون بعض المعاصي صغيرة باعتبار آخر[٢].

ويردّ على هذا القول وتوجيهه : بأنّ المعاصي إذا كانت كلّها كبيرة ، وبعضها أكبر من بعض ، وليس فيها صغيرة ، فما هي الصغائر التي وعد الله بتكفيرها إذ قال تعالى : **﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُم وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾** ؟

لا أظنّ الشيخ الطبرسي يلتزم بهذا ، ولذا قال : « يستحقّ فاعله العقاب عليه أكثر » . ممّا يدلّ بمفهومه على أنّ فاعل ما دون الأكبر يستحقّ عقاباً كثيراً ، ولكنّ استحقاق فاعل ما هو أكبر أكثر .

أمّا توجيه صاحب الميزان فمفاده أنّ الذنوب تُلحظ بلحاظين واعتبارين ، فهي بلحاظ كونها تمرّداً من المخلوق الضعيف على خالقه العظيم ، تكون كلّها كبائر ، وبلحاظ قياس بعضها إلى بعض مع قطع النظر عن اللحاظ الأوّل ، فبعضها كبير وما دونه صغير . وعليه فكلّ المحرّمات سوى أكبر الذنوب صغائر بلحاظ ، وجميع الذنوب الصغائر كبائر بلحاظ آخر . وهذا التوجيه لا يتمشّى مع إشارة الآية الكريمة إلى أنّ من الذنوب ما هو كبير ، فإنّ تجنّبها العبد كفّر الله عنه الذنوب الصغيرة ، المعبّرعنها بالسيّئات المقابلة للكبائر ، ثمّ على أيّ اللحاظين يتمّ الحساب ؟

---

(١) مجمع البيان : ٣/٧٠ ، تفسير سورة النساء : الآية ٣١ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن : ٤/٣٣٠ ، تفسير سورة النساء : الآية ٣١ في قوله : « وثانياً » .

إن كان الحساب على اللحاظ الأوّل ، فكلّ الذنوب كبائر ولم يعدْ للآية مصداق لتكفير السيّئات التي وعد الله بالتكفير عنها ؛ إذ لا وجود لها على هذا اللحاظ .

وإن كان الحساب على اللحاظ الآخر فمن اجتنب أكبر المنهيّات غفر الله له كلّ ما دونه من منكرات ، ولا أظنّ أنّ صاحب الميزان يلتزم بهذا ، وإلّا لما احتاج المرء إلى توبة واستغفار وشفاعة وغيرها ممّا يقيّد الآية القائلة : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾**[١] .

الجواب

بعد قيام الدليل المعتبر ، وهو الأخبار الصحيحة ، على أنّ جميع الذنوب كبائر ، وحمل ما ورد فيها ، أو في بعض آي القرآن الكريم من عدّ بعضها[٢] على بيان المصاديق لا الحصر . بعد هذا كلّه يتعيّن القول بأنّ كلّ ذنب كبير ، واستيعاب وصف الكبير لجميع الذنوب لا يمنع من وصف بعضها ، بل جلّها بالصغائر ، ما دام الوصفان من الأوصاف النسبيّة ، وشأن الأوصاف النسبيّة أن تتوارد ـ وإن كانت متضادّة ـ على شيء واحد بلحاظين وإضافتين ، فالقلم الذي بيدي الآن كبير جدّاً بالإضافة إلى النقطة التي يضعها على الحرف ، وهو عينه صغير جدّاً بالنسبة إلى أعمدة الإنارة أو ما كان أكبر منها .

وهكذا الحال في الذنوب تكون كبيرة باعتبار وآخر ، مثل اعتبارها معصية من العبد لجبّار السموات والأرض وخالقها وخالق ما فيها وما عليها ، وتكون صغيرة باعتبار آخر أيضاً ، مثلما لو قيس بعضها إلى بعض من حيث حجم الضرر الناجم عنه ، أو من حيث كونها صادرة من العبد الضعيف قياساً إلى الله ، كما يقاس طنين

---

(١) سورة النساء : الآيتان ٤٨ و ١١٦ .

(٢) مثل الآيات التي توعّدت على بعض الذنوب بالنّار . انظر الوسائل : ٣٠/٤ ، باب تحريم إضاعة الصلاة .

الذباب إلى ملك الملوك. وهذا كلّه واضح ممّا سبق، وعليه فتقسيم صفات الأفعال إلى صغيرة وكبيرة لا يمنع من وحدة مصاديقها، وإن كانت الصفات متضادّة، وكان الضدّان لا يجتمعان؛ لأنّ التمانع بين الضدّين بالاجتماع إنّما هو مع وحدة الزمان والمكان، والإضافة ممّا ذكره المنطقيّون من الوحدات الثماني[1]. أمّا مع الاختلاف في إحدى هذه الوحدات فلا مانع من توارد الضدّين على محلّ واحد، بل لا مانع من توارد النقيضين وهما أشدّ تمانعاً من الضدّين.

فالمرض والصحّة، والغنى والفقر، والعلم والجهل، والنوم واليقظة، وكثير من مثل هذه الأوصاف بناءً على تضادّها يتوارد الضدّان منها على محلّ واحد باعتبار أو أكثر.

أمّا الاستدلال على الشبهة بالآية الشريفة فلا علاقة له بتقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة باختلاف النسب والاضافات؛ لأنّ الآية وإن ذكرت الكبائر وما يترتّب على اجتنابها، بَيْد أنّها لم تقابلها بالصغائر ولم تعِدْ بتكفيرها بالتنصيص عليها، وإنّما وعدت بتكفير السيّئات، وإذا ما علمنا أنّ معنى السيّئات هو الخطايا، وأنّ معنى تكفيرها كمعنى إحباط الحسنات[2]، عفوها وإزالة أثرها، فتكفير السيّئات إذن يشمل الخطايا، صغيرها وكبيرها، بمقتضى إطلاق هذه الآية، ولا يستثنى من هذا الإطلاق إلّا ما دلّ الدليل على عدم تكفيره، كالشرك على أصحّ الأقوال فيه. ولم يبق ـ على فهم هذا المعنى من الآية ـ إلّا أن نتعرّف على الكبائر التي لو تجنّبها العبد كفّر عنه سيّده كلّ خطاياه. وهو أمر أمكن أو لم يمكن لا علاقة له بمعرفة الفرز التامّ بين كبائر الذنوب وصغائرها، إلّا بحدود معرفة ما ينطبق عليه وصف الكبائر ليترتّب على اجتنابها تكفير الخطايا التي وعد الله بتكفيرها، وإن كانت هي الأُخرى من الكبائر،

---

(١) انظر المنطق / المظفّر: ١٦٧/٢، شروط التناقض.

(٢) القاموس المحيط: ٤٧١، مادة «كفر».

بل وحتّى لو وصفت ذات الأثر في التكفير بالصغائر قياساً إلى ما هو أعظم منها أو قياساً لمن عصيناه فيها .

أمّا ما هي هذه الكبائر التي يترتّب على اجتنابها أثر التكفير ؟

يحتمل أن تكون هي الكبائر التي لم يعقب فعلها استغفار ، أو توبة ، أو شفاعة من يتولّاه الفاعل ، أو حسن الظنّ بالله ورحمته ورأفته وعفوه . وفي جميع هذه العناوين وردت أخبار صحيحة سيأتي ذكرها في ضمن عناوينها المناسبة . ويحتمل أنّ الله سبحانه أخفى علينا بيان الكبائر التي يترتّب عليها تكفير الخطايا ، من أجل أن نجتنب ما هو أكثر ممّا لو بيّنها لنا بعدد أقلّ . مثلما أخفى علينا ليلة القدر ، وساعة استجابة الدعاء يوم الجمعة ، واسمه الأعظم ، وغيرها ممّا أخفاه عن عباده ليحتاطوا بإكثار الطاعة رجاء تحصيل ما اُخفي عنهم .

ويحتمل ـ بعيداً ـ ما ذكره أبو حامد الغزالي ، ومفاده : أنّ النظر إلى المرأة الأجنبيّة كبيرة وخطيئة من شأنها أن يعاقب عليها فاعلها ، فإن اجتنب ما هو كبيرة أعظم ، كالابتسامة لها لغرض سيئ كفّر الله عنه الكبيرة السابقة ، وإن فعل الثانية واجتنب الكلام مع الأجنبيّة بسوء كفّر الله عنه ما دونه من خطيئة النظر والابتسامة ، وهكذا كلّما اجتنب الأعظم كُفّر عنه ما دونه ، حتّى يصل إلى مرحلة الزنا ، فإن اجتنبه كفّر عنه ما قبله من الخطايا التي ذكرها هذا العالم الجليل [1] ، فتترتّب الكبائر ترتّب البيت التالي :

نظرة فابتسامة فسلام ــــ فكلام فموعد فلقاء

فإذا اجتنب الأكبر ، وهو ما يحصل في اللقاء ، كفّر عنه ما قبله من الكبائر .

وإنّما استبعدتُ هذا الاحتمال من احتمالات توجيه فهمنا للآية ؛ لأنّه ناظر إلى

(١) المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء : ٣٤/٧ ـ ٣٦ ، بيان أقسام الذنوب بالنسبة إلى صفات العبد ـ القسمة الثالثة .

نوع من الذنوب ، أي إلى قياس المقدّمات الكبيرة المؤدّية عادة إلى نتيجة أكبر ، أمّا بين ذنب وآخر من نوعين ، كالشرك ولعب القمار ، أو كالغصب وترك الصلاة ، فلم ينطبق عليه هذا الاحتمال ، مع أنّ الآية بإطلاقها شاملة لجميع الأنواع .

ويحتمل أيضاً أن تكون الآية ناظرة إلى نيّة السوء ، كنيّة ترك الواجب ، ونيّة فعل المحرّم ، فإنّ نوايا السوء من السيّئات والخطايا بالاتّفاق ، بل أثرها على النفس أكثر وأكبر من أثر الفعل السيئ بدونها .

وقد دلّت الأخبار الصحيحة المشهورة -إن لم أقل المتواترة معنىً - على أنّ من نوى سوءً ولم يفعله لم يعاقب على نيّته ، على العكس من نيّة الخير ، فإنّه مأجور ومثاب عليها ، كما هو مثاب على الفعل نفسه .

وسواءً صحّت هذه الاحتمالات كلّها أو بعضها ، أم لم تصحّ بأجمعها ، فهي ليست بصدد بيان التمييز بين الصغائر والكبائر ، بل هي إلى موضوع التوبة وأمثالها من موجوبات العفو أقرب .

ومهما يترتّب على عدم صحّة أحد محتملاتها المذكورة ، فهي من الآيات المتشابهات التي يرجع فيها إلى أهل الذِّكر : .

قال تعالى : **﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾**(١) .

وقال تعالى : **﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُم لَا تَعْلَمُونَ ﴾**(٢) .

وإذا علمنا عن أهل الذِّكر : من مثل قولهم : « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له** » ، « **ولا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار** » ، وغيرهما ممّا يفيد بمجموعه أنّ

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٧.

(٢) سورة النحل : الآية ٤٣.

جميع الخطايا كبائر، ومنها ما هو أكبر من بعض، علمنا بأنوارهم: أنّ من الكبائر ما يكون اجتنابها كفّارة لمن عداها، ومنها ما يكون بحسب ذاته أو بمقتضى الإصرار عليه ما يحجب فاعله عن أن يكفّر الله سبحانه خطاياه.

٥ـ الكبائر المنصوص عليها في الأخبار:

أورد صاحب الوسائل سبعة وثلاثين حديثاً عن أهل البيت عليهم السلام تنصّ على تسمية بعض الذنوب بالكبائر، ونظراً لورود بعضها في عدّة أخبار، ممّا يستلزم من إيرادها جميعاً التداخل والتطويل والتكرار، آثرت أن أضع قائمة بهذه الذنوب، مشيراً بازاء كلّ منها إلى رقم الحديث المتضمّن لها بموجب ترقيم صاحب الكتاب لهذه الأخبار في باب (تعيين الكبائر) ص٣١٨ ـ ٣٣١، من الجزء الخامس عشر من الكتاب.

وهذه الذنوب الكبيرة هي:

	الأحاديث
١ ـ الشرك:	٢، ٥، ٦، ٨، ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧.
٢ ـ الكفر بالله:	٤، ٥.
٣ ـ القنوط من رحمة الله:	٥، ١٣، ٣٣، ٣٦.
٤ ـ الأمن من مكر الله:	٢، ٥، ٦، ٧، ١٣، ٢١، ٢٤، ٣٢، ٣٣، ٣٦.
٥ ـ الأياس من روح الله:	٢، ٥ ـ ٧، ١٣، ٢١، ٢٤، ٣٢، ٣٣، ٣٦.
٦ ـ إنكار حقّ أهل البيت عليهم السلام:	٥، ٢٢.
٧ ـ قتل النفس الحرام:	١ ـ ٦، ١٣، ١٦، ٢٠ ـ ٢٢، ٢٤، ٢٧، ٣٠، ٣٢ ـ ٣٧.
٨ ـ عقوق الوالدين:	١، ٢، ٤، ٥، ٧، ١٣، ١٦، ١٧، ٢٠ ـ ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٥ ـ ٣٧.

٩ ـ التعرّب بعد الهجرة: ١، ٤ ـ ٦، ١٣، ١٦، ٢٦، ٣٥.

١٠ ـ قذف المحصنة: ١، ٢، ٥، ٦، ١٣، ١٦، ٢٠ ـ ٢٢، ٢٤، ٢٧، ٣٠، ٣٢ ـ ٣٧.

١١ ـ الفرار من الزحف: ١، ٢، ٤ ـ ٦، ١٣، ١٦، ٢٠ ـ ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٣٣ ـ ٣٧.

١٢ ـ أكل الربا: ١ ـ ٦، ١٣، ١٦، ٢١، ٢٤، ٢٧، ٣٢ ـ ٣٧.

١٣ ـ أكل مال اليتيم: ١، ٢، ٤ ـ ٦، ١٦، ٢٠ ـ ٢٢، ٢٤، ٢٧، ٣٣ ـ ٣٧.

١٤ ـ أكل الميتة والدم: ٥، ٣٣، ٣٦.

١٥ ـ أكل لحم الخنزير: ٥، ٣٣، ٣٦.

١٦ ـ أكل ما أُهلّ لغير الله به: ٥، ٣٣، ٣٦.

١٧ ـ شرب الخمر: ٢، ٣، ٩، ٢١، ٢٤، ٣٢، ٣٣.

١٨ ـ الإفطار في شهر رمضان دون عذر: ٩.

١٩ ـ المحاربة لأولياء الله: ٣٣، ٣٦.

٢٠ ـ استحلال البيت الحرام: ٣٧.

٢١ ـ الاستخفاف بالحجّ: ٣٣، ٣٦.

٢٢ ـ حبس الحقوق من غير عسر: ٣٣، ٣٦.

٢٣ ـ منع الزكاة المفروضة: ٢.

٢٤ ـ إنكار ما أنزل الله: ٢٠.

٢٥ ـ ترك الصلاة متعمّداً: ٢، ٦، ٢١، ٢٤، ٣٢.

٢٦ ـ نقض العهد: ٢، ٦، ٢١، ٢٤، ٣٢.

٢٧ ـ اليمين الغموس: ٢، ٦، ٢١، ٢٤، ٣٢، ٣٣، ٣٦.

٢٨ ـ الخيانة : ٣٣ ، ٣٦.

٢٩ ـ الكذب[١]: ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٦.

٣٠ ـ الغلول[٢]: ٢ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٦.

٣١ ـ شهادة الزور: ٢ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٦.

٣٢ ـ كتمان الشهادة : ٢ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ .

٣٣ ـ معونة الظالمين : ٣٣.

٣٤ ـ الركون إلى الظلمة : ٣٣ ، ٣٦.

٣٥ ـ ترك معاونة المظلومين : ٣٦.

٣٦ ـ التجبّر : ٣٦.

٣٧ ـ الكبر: ٣٣ ، ٣٦.

٣٨ ـ الإسراف : ٣٣ ، ٣٦.

٣٩ ـ التبذير: ٣٣ ، ٣٦.

٤٠ ـ قطيعة الرحم : ٢ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ .

٤١ ـ السرقة: ٣ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٣ ، ٣٦ .

٤٢ ـ السحر: ٢ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧ .

٤٣ ـ الميسر القمار: ٣٣ ، ٣٦.

٤٤ ـ السحت[٣]: ٣٣ ، ٣٦.

---

(١) وبخاصّة على الله ورسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله وعلى الأوصياء عليهم‌السلام .

(٢) **الغلول**: كلّ شيء غلّ من الإمام وأكل مال اليتيم ـ الوسائل: ٩٢/١٧، الحديث ٣/٢٢٠٥٩ عن فروع الكافي: ٢٤٥/٧، الحديث ٦، والتهذيب: ١٠٧/١٠، الحديث ٦٦/٤٤٩، والاستبصار: ٢٥٠/٤، الحديث ٣/٩١٢، عن أبي عبدالله عليه‌السلام .

(٣) وهو ـ كما قال أبو عبدالله عليه‌السلام ـ أنواع كثيرة، منها كسب الحجّام إذا شارط وأجّر الزانية ⇦

٤٥ ـ البخس في المكيال والميزان : ٣٣، ٣٦.

٤٦ ـ الزنا: ٢، ٣، ٦، ٩، ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٤، ٣٢، ٣٣، ٣٦.

٤٧ ـ اللواط : ٣٣، ٣٦.

٤٨ ـ الحيف في الوصيّة : ٢٣.

٤٩ ـ الملاهي[١]: ٣٦.

٥٠ ـ الاشتغال بالملاهي : ٣٣.

٥١ ـ كلّ ما أوجب أو أوعد الله تعالى عليه النّار :

١، ٦، ٢١، ٢٤، ٢٨، ٣٢.

هذه هي الكبائر المذكورة في الأخبار التي تنصّ عليها بالاسم وتصفها كبيرة. ويحسن بنا هنا التنبيه إلى أُمور:

١ ـ إنّ بعض هذه المنصوصات خطايا ذات مفهوم خاصّ بخطيئة فرعيّة واحدة، مثل قذف المحصنة وعقوق الوالدين، وبعضها الآخر ذو مفهوم يشتمل على خطايا كثيرة أخصّ منه، مثل الكفر بالله أو ما أوجب الله عليه النّار؛ لاندراج كثير من الخطايا تحت كلّ من هذين المفهومين.

٢ ـ إنّ ذكر بعض هذه الكبائر يدلّ بالأولويّة على كبائر اُخرى لم تذكر في باب عدّ الكبائر، مثل معونة الظالمين والركون إليهم، الدالّين بالأولويّة على أنّ الظلم من الكبائر. وعلى هذا فإنّ الذنوب جميعاً من أكبرها وهو الشرك، إلى أصغرها من مظالم

⇦ وثمن الخمر. وأمّا الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم ـ المصدر المبيّن لمعنى الغلول وغيره. الوسائل: ٩٢/٧، الحديث ٢/٢٢٠٥٨.

(١) التي تصدّ عن ذكر الله عزّ وجلّ، كالغناء وضرب الأوتار.

الإنسان لنفسه ولغيره ، مندرجة تحت مفهوم الظلم الموصوف بكونه كبيرة بالأولويّة .

٣ ـ إنّ بعض هذه الكبائر أفعال نفسيّة ، مثل القنوط من رحمة الله ، والأياس من روحه ، وبعضها الآخر أفعال جوارحيّة ، مثل لعب القمار والاشتغال بالملاهي .

٤ ـ إنّ هذه المذكورات مع شمولها لخطايا اُخرى تندرج تحت عنوان الكبائر بالأولويّة أو بعموم المفهوم ، فإنّ في أخبار اُخرى تصريح بما هو أكبر من بعض هذه المذكورات ، وإن لم تصفه تصريحاً بوصف الكبيرة ، مثل ما في قول أبي عبدالله عليه السلام : « **حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة** »[١] ، ومثل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي الخبر : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : اخبرني أي الأعمال أبغض إلى الله ؟ قال : « **الشرك** » ، قال ثمّ ماذا ؟ قال : « **قطيعة الرحم** » ، قال : ثمّ ماذا ؟ قال : « **الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف** »[٢] . والحال أنّه مع جعله في الدرجة الثالثة في تسلسل الكبائر لم تذكره أخبار التنصيص .

بل لم تذكر بعض الذنوب التي نصّت بعض الأخبار على خروج صاحبها عن صفة الإسلام ، كما روى أبو عبدالله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **مَن أصبح لا يهتمّ بأُمور المسلمين فليس منهم ، ومَن سمع رجلاً ينادي : يا للمسلمين ، فلم يجبه فليس بمسلم** »[٣] .

٥ ـ إنّ الأخبار حيث أسمت بعض الذنوب كبيرة ، عدّت الإصرار على فعلها أيضاً كبيرة ، بل إن كان الذنب صغيراً لبعض الاعتبارات فالإصرار عليه بما هو إصرار خطيئة وكبيرة . وينعكس الحال في الإصرار على ترك الفعل وبخاصّة العزم على

---

(١) الوسائل : ٩/١٦ ، باب تحريم حبّ الدنيا المحرّمة ووجوب بغضها ، الحديث ٤/٢٠٨٢٤ .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٢١ ، أبواب الأمر والنهي ، باب وجوبهما وتحريم تركهما ، الحديث ١١/٢١١٣٧ .

(٣) الكافي : ١٩٢/٢ ، باب الاهتمام بأُمور المسلمين ، الحديث ٥/٢٠٢٤ . الوسائل : ٣٣٧/١٦ ، باب وجوب الاهتمام بأُمور المسلمين ، الحديث ٣/٢١٧٠٢ .

الترك، فإنّه يؤثّر في محو الكبيرة. ولذا ورد في الخبر: «**لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار**»[١]. ومن هنا يتّضح لنا قول الإمام أبي عبدالله عليه السلام: «**كلّ ذنب عظيم**»[٢]، والعظيم هو الكبير[٣].

٦ ـ يبدو من أخبار تعيين الكبائر أنّ المعيار في اتّصاف الذنب بالكبير والأكبر هو مقدار ما يحدثه في نفس فاعله من أثر، كمّاً وكيفاً، وسعةً وعمقاً، وهذا الأثر هو المعبّر عنه في لسان الأخبار بالنكتة السوداء أو الظلمة أو الحجاب، وهي تعبيرات تؤدّي معنى واحداً هو الحيلولة دون إدراك النفس ومعرفتها للحقّ. وكلّما تراكمت هذه الظلم والحجب أو ازدادت مساحتها أخذ نور النفس المدرك للحقّ بالانحسار حتّى ينتهي الأمر بتزايد الذنوب وأثرها هذا إلى حجب النفس حجباً كاملاً حتّى عن إدراك حقيقتها، فضلاً عن غيرها، مثلما يحصل من تراكم الغيوم السوداء، واتّساع رقعتها حتّى تسدّ الأُفق وتحجب الباصرة عن رؤية أشعة الشمس.

وهذا المعنى هو بعينه البعد عن الله تعالى والضلال عن الهدى. وإلّا فكيف يبعد الإنسان من ربّه وهو أقرب إليه من حبل الوريد[٤]، وإن كان ما كان.

وكما تفعل السيّئات هذا الأثر من الحجب والبعد بالمعنى الذي ذكرته، تفعل الحسنات فعلاً معاكساً في تنوير النفس وكشف حجبها، ومن ثمّ القرب من الحقّ بمعنى معرفته ورؤيته وإدراكه بهذا النور، معرفة تتناسب مع حجم هذا النور، كمّاً وكيفاً، وسعة وعمقاً، ومن هنا فإنّ «**الصلاة قربان كلّ تقي**»[٥]، باعتبارها معراج

---

(١) الوسائل: ١٥/٣٣٧، باب تحريم الاصرار على الذنب، الحديث ٢٠٦٨١/٣.

(٢) المصدر المتقدّم: ٣٢٢، باب تعيين الكبائر التي يجب اجتنابها، الحديث ٢٠٦٣٢/٥.

(٣) القاموس المحيط: ١١٣٨، مادة «عظم».

(٤) انظر الآية ١٦ من سورة ق.

(٥) الوسائل: ٤/٤٣، باب استحباب ابتداء النوافل، الحديث ٤٤٦٩/١ و: ٤٤٧٠/٢.

المؤمن لمعرفة ربّه[١].

ومن هنا أيضاً وُصفت الحسنات بالكبيرة والصغيرة. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾[٢]، وتوصف بالأكبر بحسب ما تحدثه من نور أكبر.

٧ ـ يستفاد من بعض أخبار الكبائر من الذنوب، ومن غيرها، أنّ البعض منها يتسبّب في الإقدام على ارتكاب ذنوب أُخرى. وهكذا يستمرّ التوغّل في الذنوب حتّى تطبق ظلمتها على النفس كإطباق الشرنقة على دودة القزّ.

٨ ـ ولبعض كبائر الذنوب أيضاً أثر سلبي على مرتكبها في الحياة الدنيا ـ مضافاً لما سبق ولما لها من أثر أُخروي ـ وهو أثرها التكويني أو الوضعي في صحّته وطمأنينته ونسله ومعاشه، بل وحتّى في مجتمعه وكوكبه الذي يعيش عليه بما يحدث فيه من كوارث طبيعيّة.

وخصّ هذا الاثر باسم التكويني[٣] أو الوضعي تمييزاً له عن الأثر التشريعي من عقوبات قضائيّة، كالحدود والتعزيرات أو العقوبات غير القضائيّة، كالكفّارات المترتّبة على قتل النفس أو الإفطار المتعمّد أو حنث العهد واليمين وغيرها.

ونظراً لغفلة الكثيرين عن الأمرين السابع والثامن من هذه التنبيهات، مع ورود الكثير من الآيات القرآنيّة ومرويّات الأخبار عن النبيّ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام، آثرت إبرازهما بعنوان مستقلّ والتحدّث عنهما بحدود ما تسمح به منهجيّة الكتاب.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥/٨١، باب ١٦: آداب الصلاة، الحديث ٥٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢١.

(٣) كتب العلّامة السيّد عدنان البكاء بحثاً قيّماً بعنوان (الأثر التكويني لمخالفة القوانين الطبيعيّة والتشريعيّة كرادع عن الجريمة)، وألقى ملخّصه في المؤتمر العلمي الرابع المنعقد في كلّية الفقه للفترة ١٢ ـ ١٣ شوّال ١٤٠٩هـ.



الأثر الوضعي والتكويني لكبائر الذنوب

أتحدّث ضمن هذا العنوان ـ كما أشرت في نهاية الموضوع السابق ـ عن أثر الكبائر في فاعلها وأحواله وما يتعلّق به أو يحيطه، عدا العقاب الأُخروي أو العقاب التشريعي، كالعقوبات القضائيّة والكفّارات.

وسيكون الحديث عن هذا الموضوع في خمس نقاط:

١ ـ أثر الكبائر في الإقدام على كبائر أُخرى.

٢ ـ الأدلّة العامّة للأثر التكويني.

٣ ـ الأدلّة التي حدّدت آثار بعض الكبائر.

٤ ـ فلسفة الأثر التكويني للذنوب.

٥ ـ شموليّة الأثر الوضعي للذنوب.

١ ـ الكبائر وإحداثها ذنوباً أُخرى:

يظهر من بعض الأخبار المتحدّثة عن النفس وتفاعلها مع أفعالها، بأنّ لصفاء النفس أو كدورتها أثراً في فعل الخير أو ضدّه، كما أنّ فعل الخير أو فعل الشر يؤثّر في النفس صفاءً أو كدورة، وهكذا التأثير والتأثّر بين النفس وأفعالها. وفي ص(**٦٢**) ذكرت بعض ما يدلّ على هذا التفاعل من الآيات والمرويّات عن المعصومين عليهم السلام.

وكلّما كان التبادل في التأثير والتأثّر بين النفس وأفعالها الخيّرة ، كانت النفس ترتقي نحو الحقّ ومعرفته ، وعلى العكس تماماً لو كان التبادل بين النفس وفعل السوء ، فإنّ انحدارها إلى العمى عن الحقيقة يتزايد كلّما تزايد هذا التفاعل . وقد مرّت بعض الإيماءات إلى هذا النوع من تبادل التأثير والتأثّر .

وأعزّز هذه الحقيقة بمرويّات أُخرى تبيّن كيف تستدعي الذنوب الكبيرة ذنوباً غيرها ، وكيف يتزايد الانحدار .

فعن عبدالله بن عبّاس ، قال : حججنا مع رسول الله ﷺ حجّة الوداع ، فأخذ بحلقة الكعبة ، فقال : « **ألا أُخبركم بأشراط الساعة ؟** » ـ وكان أدنى النّاس يومئذٍ منه سلمان ؓ ـ فقال : « **إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلاة ، واتّباع الشهوات ، والميل مع الأهواء ، وتعظيم المال ، وبيع الدنيا بالدين** » .

ثمّ قال : « **إنّ عندها يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين ، ويصدّق الكاذب ويكذّبّ الصادق** » .

ثمّ قال : « **فعندها إمارة النساء ، ومشاورة الإماء ، وقعود الصبيان على المنابر ، ويكون الكذب ظرفاً ، والزكاة مغرماً ، والفيء مغنماً ، ويجفو الرجل والديه ، ويبرّ صديقه** » .

ثمّ قال : « **فعندها يكتفي الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أُهلها ، ويشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، ويركبن ذوات الفروج السروج ، فعليهنّ من أُمّتي لعنة الله** » .

ثمّ قال : « **إنّ عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البِيع والكنائس ، وتحلّى المصاحف ، وتطوّل المنارات ، وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة ، والألسن مختلفة** » .

ثمّ قال : « **فعند ذلك تحلّى ذكور أُمّتي بالذهب ، ويلبسون الحرير والديباج ،**

ويتّخذون جلود النمر صفاقاً» .

ثمّ قال : «**فعندها يظهر الربا ، ويتعاملون بالغيبة والرشا ، ويوضع الدِّين ، وترفع الدنيا**» .

ثمّ قال : «**وعندها يكثر الطلاق ، فلا يقام لله حدّ ، ولن يضرّ الله شيئاً**» .

ثمّ قال : «**وعندها تظهر القينات والمعازف ، وتليهم شرار أُمّتي**» .

ثمّ قال : «**وعندها حجّ أغنياء أُمّتي للنزهة ، ويحجّ أوساطها للتجارة ، ويحجّ فقراؤها للرياء والسمعة ، فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير الله ، فيتّخذونه مزامير ، ويكون أقوام يتفقّهون لغير الله ، ويكثر أولاد الزنا يتغنّون بالقرآن ويتهافتون بالدنيا**» .

ثمّ قال : «**وذلك إذا انتهكت المحارم ، واكتُسب المآثم ، وتسلّط الأشرار على الأخيار ، ويفشو الكذب ، وتظهر الحاجة ، وتفشّي الفاقة ، ويتباهون في النّاس ، ويستحسنون الكوبة والمعازف ، وينكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» .

إلى أن قال : «**فأُولئك يُدعون في ملكوت السماء الأرجاس الأنجاس**»[١] .

وهذا الخبر نموذج من أخبار مماثلة دالّة على ترتّب بعض الذنوب على بعض ، وهذا التفصيل في ترتّب بعض الذنوب على البعض مصداق لقانون إلهي عامّ ، وهو تفاعل النفس مع الخطيئة تأثّراً وتأثيراً ، وإليه يشير ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول : «**ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة . إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما يزال به حتّى يغلب عليه ، فيصير أعلاه أسفله**»[٢] .

وفي بعض آي الذِّكر الحكيم ما يشير إلى هذا ، أذكر منه إضافة لما سبق في مبحث

---

(١) الوسائل : ٣٤٨/١٥ ، باب جملة ما ينبغي تركه من الخصال المحرّمة ، الحديث ٢٢/٢٠٧٠٥ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٣٠١ ، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب ، الحديث ٨/٢٠٥٧٢ .

محاسبة النفس ص(٦٦) وما بعدها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[١].

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[٢].

٢ ـ الأدلّة العامّة للأثر التكويني

أعني بهذه الأدلّة ما ورد في الكتاب والسنّة دالاًّ على ترتّب آثار تكوينيّة وضعيّة على الذنوب دون تحديدها لنوع الذنب أو الأثر أو تشخيصه ، وهي كثيرة أورد منها :

أ ـ من الكتاب المجيد :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[٣].

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٤].

٣ ـ قوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[٥].

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ

---

(١) سورة الرُّوم : الآية ١٠.

(٢) سورة الصفّ : الآية ٥.

(٣) سورة الشورى : الآيتان ٣٠ و ٣١.

(٤) سورة الرُّوم : الآية ٤١.

(٥) سورة الرعد : الآية ٣١.

كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[(١)].

٥ ـ قوله تعالى: **﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[(٢)].

٦ ـ قوله عزّ من قائل: **﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَوْعِداً﴾**[(٣)].

وجميع ما قدّمه القرآن من عِبر في قصص الأُمم الأُخرى وما حلّ فيهم وفي ديارهم من بلاءٍ وخراب يدخل في اطار الأثر التكويني المدلول عليه بالأدلّة القرآنيّة العامّة.

ب ـ من السنّة الشريفة:

١ ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**ما اختلج عرقٌ ولا عثرت قدم إلّا بما قدّمت أيديكم، وما يعفو الله عزّ وجلّ عنه أكثر**»[(٤)].

٢ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**أما إنّه ليس من عِرق يضرب، ولا نكبة، ولا صداع، ولا مرض إلّا بذنب؛ وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾**»[(٥)].

٣ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**مَن قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً**»[(٦)].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٩.

(٢) سورة النُّور: الآية ٦٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٩.

(٤) أمالي الطوسي ـ المجلس ٣١: ٦٣١، الحديث ٢/١٣٠٠، ط. مؤسّسة البعثة. بحار الأنوار: ٣٦٣/٧٠، الحديث ٩٤.

(٥) الوسائل: ٢٩٩/١٥، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب، الحديث ١/٢٠٥٦٥.

(٦) تذكرة الموضوعات / الفتني: ١٦٩، باب آفة الذنب والرضا به.

٤ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **ما من نكبة تصيب العبد إلّا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر** »[(١)].

٥ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ الله قضى قضاءً حتماً ، لا يُنعم على العبد بنعمة فيسلبها إيّاه ، حتّى يُحدث العبد ذنباً يستحقّ بذلك النقمة** »[(٢)].

٦ ـ ومثله عنه عليه السلام ، قال : « **ما أنعم الله على عبد نعمة فسلبها إيّاه حتّى يذنب ذنباً يستحقّ ذلك السلب** »[(٣)].

٧ ـ وعن الرضا عليه السلام ، قال : « **كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون ، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون** »[(٤)].

هذه النصوص من الكتاب والسنّة ، ومثيلاتها الكثيرة ، واضحة الدلالة على الارتباط الوثيق بين فعل كبائر الذنوب وبين ما تحدثه من أثر كوني سلبي ، وشواهد صدقها ـ مضافاً لعصمة مصدرها ـ ما حلّ في الأُمم السابقة من ويلات نتيجة لإعراضهم عن مصلحيهم ، وما يحلّ بنا الآن على مستوى أُمم وشعوب وأفراد .

بل تدلّ بعض تلكم النصوص وبوضح لا يقبل التأويل على حصر ما يحصل للإنسان من آلام دنيويّة وآثار سلبيّة في نفسه أو فيما يحيط به ، حصرها في فعله السيّئ ومردود هذا الفعل[(٥)].

٨ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **تعوّذوا بالله من سطوات الله بالليل والنهار** » ، فقيل :

---

(١) الوسائل : ١٥/٣٠١ ، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب ، الحديث ٧/٢٠٥٧١.

(٢) المصدر المتقدّم : ٣٠٣ ، الحديث ١٧/٢٠٥٨١.

(٣) المصدر المتقدّم : ٣٠٤ ، الحديث ١٨/٢٠٥٨٢.

(٤) المصدر المتقدّم : ٣٠٤ ، الحديث ٢١/٢٠٥٨٥ ، لكنّ الحديث خالٍ من لفظ الجلالة : « الله » ، وما أثبتناه موافق للأصل.

(٥) كالآية الأُولى ، والأخبار : الأوّل والثاني والرابع والخامس والسادس.

وما سطوات الله ؟ قال عليه‌السلام : « **الأخذ على المعاصي** »[١].

غير أنّ هذا الترابط وهذا التأثير لا يقرّه مَن لم تثبت عنده صحّته في المختبر ، ولا من قلّده فلم يؤمن إلّا بما أوحاه إليه صاحب المختبر. ولكن المختبر مهما تطوّرت أجهزته لا يمكنه أن يكشف اللّامحسوس ، ونتيجة هذا القصور فيه لا يمكن لمن اعتمد عليه وحده أن يمتلك معرفة شموليّة للعلاقات بين المحسوس واللّامحسوس ، وحينئذٍ تطرح الافتراضات والنظريات ، وتبذل عليها جهود وطاقات وتنتهي بعد حينٍ ـ طال أم قصرَ ـ إلى الفشل والهدر لتعود المحاولة من جديد بطرح آخر.

ولن يهتدي إلى الصواب من قصرَ نفسه على المحسوسات من الأسباب.

٣ ـ الأدلّة المشخّصة للذنوب وأثرها الخاصّ

وهي أيضاً نصّت عليها آيات من الكتاب المجيد والسنّة الشريفة ، أذكر منها :

أ ـ من الكتاب المجيد :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾[٢].

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ**

---

(١) الوسائل : ٣٠٥/١٥ ، باب وجوب اجتناب المعاصي ، الحديث ١/٢٠٥٨٨.

(٢) سورة النحل : الآية ١١٢.

جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[1].

٣ ـ قوله عزّ وجلّ : **﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾**[2].

٤ ـ قوله تعالى : **﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ * لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾**[3].

ب ـ من السنّة الشريفة :

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **خمس إن أدركتموهنّ فتعوّذوا بالله منهنّ : لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتّى يعلنوها إلّا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أُخذوا بالسنين وشدّة المؤونة وجور السلطان ، ولم يمنعوا الزكاة إلّا مُنعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم ، وأخذ بعض ما في أيديهم ، ولم يحكموا بغير ما أنزل الله إلّا جعل الله بأسهم بينهم** »[4].

٢ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة**[5] **، وإذا طفّف الميزان والمكيال أخذهم الله بالسنين والنقص ، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركاتها من الزرع والثمار والمعادن كلّها ، وإذا جاروا في الأحكام**

---

(١) سورة سبأ : الآيات ١٥ ـ ١٧.

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٥.

(٣) سورة الرعد : الآيتان ٣٣ و ٣٤.

(٤) الوسائل : ٢٧٢/١٦ ، باب تحريم التظاهر بالمنكرات ، الحديث ١/٢١٥٤٩.

(٥) ومثله عنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أُذن في هلاكها** ». راجع مستدرك الوسائل : ٣٣٢/١٣ ، من أبواب الربا ـ باب تحريمه ، الحديث ١١/١٥٥٠٦.

تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلّط الله عليهم عدوّهم، وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتي سلّط الله عليهم شرارهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم»[١].

٣ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه الذي يرويه عنه كميل بن زياد رضي الله عنه، قال:

«اللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ البَلَاءَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَقْطَعُ الرَّجاءَ...»[٢].

وهذه الفقرات تستدعي لبيانها وقفة قصيرة للتعرّف على ما ورد فيها عن أهل البيت عليهم السلام:

أ ـ «الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ»

العصم: جمع عصمة، وهي المنعة. يقال: عصم الله عبده، أي منعه ممّا يوبقه. وفي الحديث: **«ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته إلّا قطعت أسباب السماوات من بين يديه، وأسخت الأرض من تحته»**[٣].

وعليه فهتك العصم هو رفع الموانع عن الموبقات ليتردّى بها العبد دون أن يوفّقه الله للامتناع عنها بإحدى وسائل الامتناع، بحيث يوكله الى نفسه الأمّارة بالسوء، أمّا عقله فقد فارقه لمقارفته الذنوب التي تهتك العصم.

---

(١) الوسائل: ٢٧٣/١٦، باب تحريم التظاهر بالمنكرات، الحديث ٢/٢١٥٥٠.

(٢) المصباح / الكفعمي: ٥٥٥، الفصل الرابع والأربعون: فيما يعمل في شعبان.

(٣) الوسائل: ٢١١/١٥، باب وجوب الاعتصام بالله، الحديث ٢/٢٠٣٠٤.

أمّا ما هي الذنوب التي تؤثّر هذا الأثر، وتعمي صاحبها عن إدراك ما يكفي للارتداع عنها ؟ فهي كما عن الإمام الصادق عليه السلام : « **شرب الخمر، واللعب بالقمار، وتعاطي ما يُضحك النّاس من اللغو والمزاح، وذكر عيوب النّاس، ومجالسة أهل الريب** »[١].

ولعلّ ذكر هذه الذنوب بالذات يقيّد ما ورد من إطلاق المعاصي في الحديث القدسي المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو: « **أيّما عبد أطاعني لم أكِلْهُ إلى غيري، وأيّما عبد عصاني وكّلته إلى نفسه، ثمّ لم أُبالِ في أيّ وادٍ هلك** »[٢].

ب ـ « الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ »

ومعنى النقم واضح، فإنّها جمع نقمة، وهي المكافأة بالعقوبة[٣].

والذنوب التي تنزل النقم هي ما ذكرها الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: « **نقض العهد، وظهور الفاحشة، وشيوع الكذب، والحكم بغير ما أنزل الله، ومنع الزكاة، وتطفيف الكيل** ».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **خمس بخمس!!** ». قالوا: يا رسول الله، ما خمس بخمس ؟

قال صلى الله عليه وآله : « **ما نقض قوم العهد إلّا وسلّط الله عليهم عدوّهم. وما ظهرت عنهم الفاحشة إلّا وقد فشا فيهم الموت. وما شاع فيهم الكذب والحكم بغير ما أنزل الله إلّا وقد فشا فيهم الفقر. وما منعوا الزكاة إلّا حُبس عنهم القطر. وما طفّفوا الكيل إلّا منعوا النبات وأُخذوا بالسنين** »[٤].

---

(١) الوسائل: ٢٨٢/١٦، باب تحريم التظاهر بالمنكرات، الحديث ٨/٢١٥٥٦.

(٢) الوسائل: ٢٣٥/١٥، باب وجوب طاعة الله، الحديث ٦/٢٠٣٦٥.

(٣) القاموس المحيط: ١١٦٤، مادة « نَقَمَ »، كلمة « النقمة ».

(٤) أضواء على دعاء كميل/ عزالدين بحر العلوم: ١٢٧، وانظر بحار الأنوار: ٣٧٠/٧٠، باب علل المصائب والمحن.

جـ ـ « الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ »

النعم : جمع نعمة ، ومعناها اللغوي الدعة والمال[١] ، ولكنّها تستعمل في كلّ ما تفضّل الله به على عباده من علم وغيره ممّا يتعذّر إحصاؤه ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾[٢].

والذنوب التي تغيّر النِّعم ما ذكرها الإمام الصادق عليه‌السلام بقوله : « **ترك شكر المنعم ، والافتراء على الله ورسوله ، وقطع صلة الرحم ، وتأخير الصلاة عن أوقاتها ، والدياثة ، وترك إغاثة الملهوفين المستغيثين ، وترك إعانة المظلومين** »[٣].

د ـ « الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ »

الدعاء لغةً الرغبة إلى الله تعالى[٤] ، أو هو طلب الداني من العالي[٥]. والمقصود به هاهنا طلب العبد من ربّه.

ومن الذنوب التي تحبس الدعاء أو تحجب إجابته هي ما عن الإمام الرضا عليه‌السلام ؛ إذ قال : « **لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهنّ عن المنكر ، أو ليستعملنّ عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم** »[٦].

وإذا لم يستجب دعاء الأخيار لا يستجاب دعاء من دونهم.

وفي المصباح للكفعمي ذكر عدّة أُمور تحول دون استجابة الدعاء ، فقال : « مَن لا يستجاب دعاؤه : مَن جلس في بيته فاغراً فاه يقول : ربّ ارزقني ، ومَن دعا على

---

(١) القاموس المحيط : ١١٦٣ ، مادة « نعم ».

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٤ وسورة الكهف : الآية ١٨.

(٣) أضواء على دعاء كميل / عزّالدين بحر العلوم : ١٢٧.

(٤) القاموس المحيط : ١٢٨٢ ، مادة « دعا » ، كلمة « الدعاء ».

(٥) انظر أضواء على دعاء كميل / عزّالدين بحر العلوم : ١٣ ـ ١٤.

(٦) الوسائل : ١١٨/١٦ ، باب وجوب الأمر والنهي ، الحديث ٢١١٣٠/٤.

زوجته وقد جعل الله تعالى بيده طلاقها ، ومَن دعا على غريم جحده وقد ترك ما أُمِر به من الأشهاد عليه ، ومَن رزق مالاً فأفسده ثمّ دعا ليرزقه ثانياً ، ومَن دعا على جارٍ يقدر على التحوّل من جواره ، ومَن لم يتقدّم بالدعاء حتّى نزل به البلاء ، ومَن دعا وهو مصرٌّ على المعاصي ، والمتحمّل لتبعات المخلوقين وأكل الحرام ، والظّلمة وإن اجتمعوا للدعاء لعنوا ، ومَن دعا على نفسه في حال ضجره ، ومَن دعا بقلب قاسٍ أو ساهٍ ، ومَن دعا وظنّه عدم الإجابة ، ومَن دعا على أهل العراق ، ومَن دعا على ردّ مملوك قد أبق ثلاثاً ولم يبعه ، ورجل مرّ بحائط مائل ولم يسرع المشي حتّى سقط عليه »[١].

هـ ـ « الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ البَلَاءَ »

البلاء هو الغمّ ، وقيل في سبب تسمية الغمّ بلاءً ؛ لأنّه يبلي الجسم كما يبلي الثوب[٢].

والذنوب التي تنزل البلاء هي : « ترك معاونة المظلوم ، وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والشرك بالله ، وقتل النفس التي حرّم الله تعالى ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، والزنا ، والفرار من الزحف ، والسرقة »[٣].

وإذا كان الحزن بمعنى الغمّ أو من مصاديقه ، فإنّ كثرة الذنوب من دواعي نزول البلاء ، فقد روي عن الإمام الصادق عليه‌السلام قوله : « **إنّ العبد إذا كثرت ذنوبه ، ولم يكن عنده من العمل ما يكفّرها ، ابتلاه الله بالحزن ليكفّرها** »[٤].

---

(١) المصباح / الكفعمي : ٧٦٥ ، الباب الثاني : الداعي .

(٢) القاموس المحيط : ١٢٦٤ ، مادة « بلىٰ » ، كلمة « ي . بلي » .

(٣) أضواء على دعاء كميل / عزّالدين بحر العلوم : ١٣٢ ، عن أسرار العارفين : ٤٢ .

(٤) إرشاد القلوب : ١/١٨١ ، الباب الحادي والخمسون : في أخبار عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمّة الأطهار عليهم‌السلام .

كما أنّ إحداث فعل الذنوب بعد أن لم تكن من موجبات البلاء؛ لما روي عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «**كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون**»[١].

و ـ «الذُّنُوبَ الَّتِي تَقْطَعُ الرَّجاءَ»

الرجاء ضدّ اليأس، وهو الأمل[٢].

ومن الواضح أنّ الكبائر التي تلازم قطع الرجاء أو هي عينه: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والثقة بغير الله، والتكذيب بوعيد الله[٣].

٥ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**الذنوب التي تغيّر النعم: البغي، والذنوب التي تورث الندم: القتل، والتي تنزل النقم: الظلم، والتي تهتك الستر: شرب الخمر، والتي تحبس الرزق: الزنا، والتي تعجّل الفناء: قطيعة الرحم، والتي تردّ الدعاء وتُظلم الهواء: عقوق الوالدين**»[٤].

٦ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**إنّ الرجل ليذنب الذنب فيُدرأ عنه الرزق**»[٥].

وقال عليه السلام: «**إنّ العبد ليذنب الذنب فيُزوى عنه الرزق**»[٦].

٧ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام في الحديث القدسي: «**يقول الله عزّ وجلّ: إذا عصاني مَن**

---

(١) الوسائل: ٣٠٤/١٥، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب، الحديث ٢١/٢٠٥٨٥، لكنّ الحديث خالٍ من لفظ الجلالة: «الله»، وما أثبتناه موافق للأصل، وقد مرّ ذكره في الصفحة ١٠١ من هذا الكتاب.

(٢) القاموس المحيط: ١٢٨٧، مادة «رجا».

(٣) الوسائل: ٢٨١/١٦، باب تحريم التظاهر بالمنكرات، الحديث ٨/٢١٥٥٦.

(٤) المصدر المتقدّم: ٢٧٤، الحديث ٣/٢١٥٥١.

(٥) المصدرالمتقدّم: ٣٠١/١٥، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب، الحديث ١١/٢٠٥٧٥.

(٦) المصدر المتقدّم: الحديث ٩/٢٠٥٧٣.

يعرفني سلّطت عليه مَن لا يعرفني»[١].

والظاهر أنّ المعرفة في هذا الحديث هي المعرفة الناقصة ، وإلّا كيف يعصي الله مَن عرفه حقّ معرفته ؟ أو أنّ المعصية هاهنا بالمعنى الأعمّ من مخالفة أوامر الشريعة ونواهيها ، فتشمل غفلة العارف عن ربّه وإن كان مُلتفتاً إلى أوامره ونواهيه ، ومنشغلاً بها عنه سبحانه . وبهذا المعنى للمعصية يكون الحديث ناظراً لعموم المعرفة ، وحينئذٍ تكون معصية ذوي المعرفة الناقصة مخالفتهم للأوامر والنواهي ، ومعصية العارفين بالله تعالى غفلتهم عنه ولو بمقدار طرفة عين .

كما أنّ سلب المعرفة عمّن يسلّطه الله تعالى على مَن عصاه يظهر منه سلب الالتفات إلى الله سبحانه وسلب ذكره ، وإلّا فمتى غاب عنّا سبحانه حتّى نجهله ؟ والغافل عن الله وعن وعده ووعيده ومجازاته في الدنيا وفي الآخرة إذا تسلّط عَمِل بهواه وبما توحي إليه نفسه الأمّارة بالسوء ، فلا يكون له مبدأ يتصرّف على أساسه حتّى في الظلم وطرقه ، ولا يسلم من شرّه حتّى مَن أعانه على ظلمه ما دام الهوى لا يستقرّ له قرار .

٨ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : «**مَن ظلم مظلمة أُخذ بها في نفسه أو في ولده**»[٢].

٩ ـ وعنه عليه السلام ـ وهو يشير إلى المعنيّين بقوله تعالى : ﴿ **فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ...** ﴾[٣] ـ فقال : «**هؤلاء قوم كانت لهم قرى متّصلة ينظر بعضها إلى بعض ، وأنهار جارية ، وأموال ظاهرة ، فكفروا نعم الله ، وغيّروا ما بأنفسهم من عافية الله ، فغيّر الله ما بهم من نعمة الله ، و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا**

---

(١) الوسائل : ٣٠٧/١٥ ، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب ، الحديث ٥/٢٠٥٩٢.

(٢) الوسائل : ٤٧/٦ ، باب تحريم الظلم ، الحديث ٤/٢٠٩٤٣ ، ولكن بعد : «في نفسه» عبارة : «أو في ماله».

(٣) سورة سبأ : الآية ١٩.

مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[(١)] ، **فأرسل الله عليهم سيل العرم فغرّق قراهم ، وخرّب ديارهم ، وأذهب بأموالهم ، وأبدلهم مكان جنّاتهم جنّتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل »**[(٢)] ، ثمّ قال : « **﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾**[(٣)] »[(٤)] .

١٠ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **وأيمُ الله ، ما كان يوم قطّ في غضّ نعمة من عيش فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها ؛ لأنّ الله ليس بظلّامٍ للعبيد ، ولو أنّ النّاس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربّهم بصدق من نيّاتهم ووله في قلوبهم لردّ عليهم كلّ شارد ، وأصلح لهم كلّ فاسد** »[(٥)] .

١١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **كسب الحرام يبين في الذرّيّة** »[(٦)] .

٤ ـ فلسفة التأثير التكويني للذنوب :

أ ـ ترتبط معرفتنا لفلسفة التأثير التكويني للذنوب بعدّة مرتكزات اُشير إلى بعضها ، وأتحدّث عن الأُخرى بشيء من التفصيل ، والمرتكزات هي :

١ ـ الإيمان بأنّ الخالق للنفس الإنسانيّة وما يعاصرها من أكوان وأحوال . وكذا الخالق لخصائص كلّ منهما هو الله سبحانه وتعالى .

٢ ـ الاعتقاد بنظام خاضع لقوانين بالغة الدقّة ، ظاهرة أو لا تزال مجهولة ، مرتبط

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١.

(٢) **الجنّة** : الحديقة ذات النخل والشجر . **الخمط** : الحامض أو المرّ . **الأثل** : الشجر الصحراوي المعروف . **السدر** : شجر النبق .

(٣) سورة سبأ : الآية ١٧ .

(٤) الوسائل : ٣١٤/١٥ ، باب تحريم كفران نعمة الله ، الحديث ١/٢٠٦١٧ .

(٥) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٧٨ : ٢٥٦ ، في الشهادة والتقوى ، تحقيق د . صبحي الصالح .

(٦) الوسائل : ٨١/١٧ ، أبواب ما يكتسب به ، باب تحريم التكسّب بأنواع المحارم ، الحديث ٣/٢٢٠٤٣.

بعضها ببعض ، ومُرتبطة بها كلّ حادثة ، بحيث لو لم تُعلم أسبابها اعتقد العلماء بأنّ لها سبباً مجهولاً يتعيّن على مَن أراد معرفته أن يبحث عنه . وأنّ هذا النظام وقوانينه الطبيعيّة شامل لجميع مفردات الكون دون استثناء . وليس للصدفة مجال ولا مصداق في خلق الأكوان وما يحدث من تركيب جزئيّاتها أو تحليلها إلى عناصرها وأُصولها قياساً إلى خالقها تعالى ، وهو العالم بكلّ شيء وبكلّ تغيير في الأشياء دون استثناء لشيء أو لحالة من أحواله .

٣ ـ الاعتقاد بأنّه تعالى حكيم لم يخلق مَن خلق وما خلق عبثاً دون غاية .

٤ ـ الاعتقاد بأنّه سبحانه لم يخلق الخلق لحاجة منه إليه ؛ لأنّه الغني المطلق حتّى عن قيد الاتّصاف والتقييد بصفة ، وإنّما نصفه بما نصفه به من حكمة وغنى وغيرهما نسبة إلى إدراكنا ومعرفتنا التي نتحدّث في اطارها . وعليه فلا تكون الغاية من الخلق إلّا من أجل الخلق ، ولا يحتاج هو سبحانه إلى الخلق كي تكون الغاية عائدة إليه ، تعالى عن هذا علوّاً كبيراً .

٥ ـ إنّ الإنسان روحاً وجسماً هو تعيّن من تعيّنات هذا الكون ، وتجلٍّ من تجلّيات قدرة خالقه ، وهو فيما نسمّيه بالحياة الدنيا مركّب من روح وبدن ، وما موته حينما يموت إلّا تحليل هذين العنصرين وافتراقهما بعد اجتماع ، وإطلاق كلّ منهما عن التقييد بالآخر ، مثلما يتحلّل الماء المركّب من عنصرين ، ليتحرّر كلّ منهما عن الآخر ويصبحان طليقين في الفضاء ليمتدّ وجودهما بعد هذا الافتراق المسمّى بالموت .

٦ ـ إنّ الروح (النفس الإنسانيّة) بعد تجرّدها عن البدن لها من الشعور بالسعادة أو الشقاوة المطلقتين أو المحدودتين ، مثلما لها في الحياة الدنيا من هذه الحيثيّة ، ولكلّ من سعادتها وشقائها أسباب قد خفيت عن الإنسان في الدنيا ، فضلاً عن الآخرة ، إلّا بتعريف مَن عرّفه الله بذلك .

هذه مجموعة مرتكزات يفترض فيمن كتب لهم هذا الكتاب أنّهم آمنوا بها

وتجاوزوا مرحلة الاستدلال عليها.

واستناداً إليها، وتفريعاً على الثالث والرابع منها، ينبثق السؤال التالي: ما هي الغاية ـ بالتحديد ـ من خلق الله عزّ وجلّ للإنسان؟

وممّا لا ريب فيه أنّ خالق الشيء أعرف بغايته من خلقه، وقد أعرب سبحانه عنها بقوله تعالى: **﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾**[١].

ولا شأن لنا فيما تعرّضت له الآية من أمر الجنّ، والغاية من خلقهم، وكيفيّة عبادتهم، وإنّما نريد استظهار ما تعرّضت له الآية الشريفة من بيان الغرض من خلق الإنسان موضوع البحث.

فالعبادة وردت في الآية الأُولى بعد لام التعليل[٢] ممّا يفيد أنّ العلّة الغائيّة لما قبل اللام ـ وهو خلق الإنس ـ هي عبادتهم لله سبحانه، بل يفيد الحصر بـ« ما » و« إلّا » في الآية: إنّ خلقهم ليست له غاية إلّا عبادتهم لله. ومن المرتكز الرابع نفهم أنّ الغاية تعود للعباد لا لخالقهم الغني عنهم؛ ولذا عبّرت الآية بـ **﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾** ولم تعبّر بـ« لأعبدَ ». فالغاية أن يعبدوا الله لا أن يُعبد الله. ويعزّز هذا المعنى ما بعد هذه الآية من الآيتين النافيتين لاستفادة الله من عباده؛ لأنّه الرزّاق ذو القوّة المتين.

والعبادة هي طاعة الإنسان لربّه، وهي بهذا المعنى أعمّ من العبادة بالمصطلح الفقهي[٣]، فهي تشمل كلّ طاعة تقرّب من الله تعالى. وإذا ما علمنا أنّ الدين هو

---

(١) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) انظر الميزان في تفسير القرآن: ١٨/٣٩٠، تفسير سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) لأنّ العبادة في المصطلح الفقهي ما يقابل الطاعة التوصّليّة، كالمعاملات والإيقاعات والأحكام والتوصّليّات الأُخرى، فهي ما يشترط في صحّته نيّة القربة، مثل الصلاة والصيام.

الطاعة[١]، علمنا أنّ الصلاة عمود الطاعات؛ لما روي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **«الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبتت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب»**[٢].

ومن هنا ينبثق سؤال آخر هو: هل أنّ الغاية من خلق الإنسان هي الصلاة وما دونها من طاعات؟

ظاهر الآية ذلك، ولكن يبدو من ملاحظة نصوص أُخرى أنّ الدين كلّه من عموده إلى أوتاده وأطنابه إنّما هو وسيلة وسبب إلى الغاية القصوى لخلق الإنسان وتشريع الدين له، تلك الغاية هي معرفة الربّ وتوحيده، إن لم نقل إنّما الدين هو التوحيد كما هو معناه لغة أيضاً[٣].

ذلك لما روي عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: **«إنّ علّة الصلاة أنّها إقرار بالربوبيّة لله عزّ وجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبّار جلّ جلاله بالذلّ والمسكنة والخضوع والاعتراف والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كلّ يوم إعظاماً لله عزّ وجلّ، وأن يكون ذاكراً غير ناسٍ ولا بطر، ويكون خاشعاً متذلّلاً طالباً للزيادة في الدين والدنيا، مع ما فيه من الايجاب والمداومة على ذكر الله عزّ وجلّ بالليل والنهار، لئلا ينسى العبد سيّده ومدبّره وخالقه فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي، ومانعاً له عن أنواع الفساد»**[٤].

---

(١) راجع القاموس المحيط: ٢٩٦٠، مادة «عبد».

(٢) الوسائل: ٢٧/٤، باب تحريم الاستخفاف بالصلاة والتهاون بها، الحديث ١٢/٤٤٢٤، ومثله عن أبي عبدالله عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود نفعت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا تكسّر العمود لم ينفع طنب ولا وتد ولا غشاء»**. الوسائل: ٣٣/٤، باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها، الحديث ٦/٤٤٣٨.

(٣) القاموس المحيط: ١١٩٨، مادة «الدين».

(٤) الوسائل: ٨/٤، باب وجوب الصلاة، الحديث ٧/٤٣٨٢، بزيادة كلمة «راغباً» بعد «متذلّلاً».

وفي خبر آخر عنه عليه السلام ، قال : « **إنّما أُمروا بالصلاة ؛ لأنّ في الصلاة الإقرار بالربوبيّة وهو صلاح عامّ ؛ لأنّ فيه خلع الأنداد ، والقيام بين يدي الجبّار** »[١] .

فإذا كانت الصلاة ـ وهي عمود الدين ـ إنّما وجبت من أجل القيام بالربوبيّة وخلع الأنداد ، والمداومة على ذكر الله تعالى ، وتطهير النفس عن الفحشاء والمنكر ، فهي إذن وسيلة لهذه الغاية ، وليست غاية لخلق الإنسان . وأنّ الغاية القصوى وغاية الغايات هي المعرفة ومستلزماتها من تطهير النفس بعبوديّتها وتوحيد الربّ وعدم الغفلة عنه .

ولذا ورد أنّ أبا عبدالله عليه السلام سُئل عن أفضل ما يتقرّب به العباد إلى ربّهم ، وأحبّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ ما هو ؟

فقال : « **ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة ، ألا ترى أنّ العبد الصالح عيسى بن مريم عليه السلام قال : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً ﴾**[٢] »[٣] .

وكأنّ موضوع المعرفة لا يحتاج إلى التدليل على أفضليّته ، والصلاة تحتاج لإثبات أفضليّتها للاستشهاد بالآية .

وأشار صاحب الميزان إلى ما رواه القمّي في تفسير قوله تعالى : **﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾** ، وقال : « إنّ هناك أغراضاً مترتّبة : التكليف والعبادة والمعرفة »[٤] ، ممّا يؤكّد ما انتهينا إليه من أنّ المعرفة هي الغاية القصوى للخلق باعتبار أنّ ما قبلها وسيلة لها ، فهي مترتّبة عليه[٥] .

---

(١) الوسائل: ١٠/٤ ، باب وجوب الصلاة ، الحديث ٩/٤٣٨٤.

(٢) سورة مريم : الآية ٣١.

(٣) المحجّة البيضاء : ٣٣٩/١ ، كتاب أسرار الصلاة ـ فضيلة المكتوبة .

(٤) الميزان في تفسير القرآن : ٣٩٤/١٨ ، في تفسير الآية ـ البحث الروائي .

(٥) ويدلّ على هذا الترتّب الجمع بين الأخبار ، ومنها : ⇦

وقال في خلاصة ما انتهى إليه من تفسير الآية : « فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة ، وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كلّ شيء ، ويذكر ربّه »[(١)].

هذا كلّه بناءً على أنّ معنى ليعبدون ، هو ليطيعوا الله بالعبادات في امتثال أوامره ونواهيه.

أمّا إذا كان معناها هو : ليقرّوا بالعبوديّة ، كما عن ابن عبّاس[(٢)]، فإنّ دلالته على معرفة الربوبيّة لا يحتاج إلى ما ذكرناه من وسائط ومقدّمات لإثبات أنّ المقصود بالآية هو أنّ المعرفة غاية الخلقة.

ب ـ من وسائل المعرفة : من مجموع مرتكزات الفقرة السابقة ، انتهينا إلى أنّ غرض الله سبحانه من خلق الجنّ والإنس هو معرفته وتوحيده بما لهما من سموّ ، وفائدة للعارف لا للمعروف ، وللعابد لا للمعبود.

ومن شأن العالم الحكيم القادر أن لا يهمل غرضه الذي خلق الخلق من أجله. وقد اقتضت حكمته تعالى أن يخلق عباده متفاوتين ، ولا يتّسع مجال الكتاب لتعليل هذا التفاوت ، إلّا أنّ هذا التفاوت محسوس ، ودلّت عليه عدّة أخبار[(٣)] ، أذكر منها

⇐ ١ ـ ما عن الحسين عليه‌السلام ، قال : « **إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلّا ليعرفوه** ».

٢ ـ عن موسى بن جعفر عليهما‌السلام ، قال : « **إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه ، ولم يخلقهم ليعصوه** ».

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **خلقهم ليأمرهم بالعبادة** » ، فالجمع بين هذه الأخبار : يأمرهم فيعبدوه ، ولا يعصوه ، فيعرفوه ، فترتيب المعرفة على العبادة ، والعبادة على الأمر بها.

(١) الميزان في تفسير القرآن : ١٨/٣٩٢ ، في تفسير الآية.

(٢) مجمع البيان : ٩/٢٦٩ ، سورة الذاريات : الآية ٥٦.

(٣) أوردها صاحب الوسائل : ١٦/١٥٩ ، باب استحباب الرفق بالمؤمنين ، من الحديث ٢١٢٤٠/١ إلى الحديث ٢١٢٤٨/٩.

ما روي عن أبي عبدالله عليه السلام إذ يقول:

«لو علم النّاس كيف خلق الله تبارك وتعالى هذا الخلق لم يلم أحد أحداً... إنّ الله خلق أجزاء بلغ بها تسعة وأربعين جزءً، ثمّ جعل الأجزاء أعشاراً، فجعل الجزء عشرة أعشار، ثمّ قسّمه بين الخلق، فجعل في رجل عُشر جزء، وفي آخر عُشري جزء حتّى بلغ به جزءً تامّاً، وفي آخر جزءً وعُشر جزءٍ، وفي آخر جزءَ وعُشري جزءٍ، وآخر جزءً وثلاثة أعشار جزءٍ، حتّى بلغ جزئين تامّين، ثمّ بحساب ذلك، حتّى بلغ رأرفعهم تسعة وأربعين جزءً، فمن لم يجعل فيه إلّا عُشر جزءٍ لم يقدر أن يكون مثل صاحب العُشرين، وكذلك صاحب العُشرين لا يكون مثل صاحب الأعشار، وكذلك مَن تمّ له جزء لا يقدر أن يكون مثل صاحب الجزأين. ولو علم النّاس أنّ الله عزّ وجلّ خلق هذا الخلق على هذا لم يلم أحدُ أحداً»[1].

وفي بعض هذه الأخبار ما يفيد إمكان ترقّي الأدنى إلى أعلى بالاختيار والإرشاد، ومنها ما عن عبدالعزيز القراطيسي، قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: **«يا عبدالعزيز، إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء، حتّى ينتهي إلى العاشرة، فلا تُسقط من هو دونك، فيسقطك مَن هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة، فارفعه إليك برفق، ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره»**[2].

فالإيمان درجات وما دونه درجات وما فوقه درجات، وهذه الدرجات في الإنسان من شؤون نفسه من حيث موهّلاتها للمعرفة، وهو أمر ـ مضافاً لما دلّت عليه أخبار المعصومين عليهم السلام ـ ملموس لمن التفت إليه، فإنّنا ندرك التفاوت بين النّاس في

---

(١) الوسائل: ١٦/١٦١، باب استحباب الرفق بالمؤمنين في أمرهم بالمندوبات، الحديث ٢١٢٤٣/٤.

(٢) الوسائل: ١٦/١٦٢، باب استحباب الرفق بالمؤمنين، الحديث ٢١٢٤٤/٥.

هذا المجال ، وإن تساووا في ظروف حياتهم الدنيا في المؤهّلات الطبيعيّة للمعرفة من أسباب وراثيّة وبيئيّة وتربويّة وتعليميّة وغذائيّة وغيرها ممّا يعدّه من لم يلتفت إلى هذه الحقيقة الغيبيّة في خلق الخلق.

نعم ممّا لا ينكر وأقرّته الأخبار: أنّ الأسباب الطبيعيّة لها الأثر، إيجاباً أو سلباً، في رفع أو خفض الإنسان في أُفق درجته التي حدّدت له، ما دامت هذه الدرجة ذات أجزاء ومراتب، وإلّا لما بعث الله الأنبياء، ولما وجب الأمر بالمعروف والنهي عن النكر، ولما وجبت تربية الأولاد، وهكذا الحال في الجانب المعاكس من ذمّ المبتدعين والمضلّين والمهملين للتربية والتعليم، وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بالحثّ على العلم والمعرفة، والتنديد بالجهل.

ولكن هذه الأسباب وإن تظافرت، إيجاباً أو سلباً، لا تغيّر ذات ما هو محدّد الخصائص في طرفي الصعود والنزول، ولا تتعدّى هذين الطرفين في الحياة الدنيا؛ لأنّ «**النّاس معادن كمعادن الذهب والفضّة**»[1]، كما جاء في السنّة النبويّة.

فالذهب لا يصير فضّة، والفضّة لا تصير ذهباً، ومن حاول تغيير الإنسان عن معدنه كسره وأفسده دون جدوى، ومن كسره فعليه جبره، ولذا كان الهداة المصلحون يكلّمون النّاس على قدر عقولهم، وينهون عن تحميلهم ما لا يطيقون. فعن رسول الله ﷺ، قال: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم النّاس على قدر عقولهم**»[2].

وعن الإمام أبي عبدالله عليه‌السلام قال لعمر بن حنظلة: «**يا عمر، لا تحملوا على شيعتنا، وارفقوا بهم، فإنّ النّاس لا يحتملون ما تحملون**»[3].

وعن الإمام السجّاد عليه‌السلام، قال: «**والله لو علم أبو ذرّ ما في قلب سلمان لقتله،**

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/٦٥، كتاب السماء والعالم ـ باب حقيقة النفس والروح، الحديث ٥١.

(٢) أُصول الكافي: ١/٣٨، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٥.

(٣) الوسائل: ١٦/١٥٩، باب استحباب الرفق بالمؤمنين، الحديث ٢١٢٤٠/١.

ولقد آخى رسول الله بينهما فما ظنّكم بسائر الخلق »[١].

وعن عليّ عليه السلام قال: « **يا أبا ذرّ، إنّ سلمان لو حدّثك بما يعلم لقلت رحم الله قاتل سلمان** »[٢].

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: « **لا تحملوا على صاحب السهم سهمين، ولا على صاحب السهمين ثلاثة، فتبهضوهم** »[٣]. ومن هنا كانت مسؤوليّة الدعوة إلى الهدى مسؤوليّة لا ينهض بها إلّا ذوو الخبرة الذين ينظرون بنور الله، فيتحدّثون على قدر من يحدّثون، لا يقولون كلّ ما يعرفون، ولعلّ هذا هو الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدرج في أشراط الساعة من المنكرات: إمارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر[٤].

وإذا تحصّل لنا ممّا تقدّم أنّ النفوس متفاوتة في صفائها وكدورتها كتفاوت المعادن في أصل خلقتها، أدركنا أنّ الغرض من خلقتها ـ وهو معرفة الربّ، والإقرار بعبوديّة العبد ـ يتفاوت حصوله لدى المخلوقين أيضاً.

فالنفوس النقيّة نقاءً مطلقاً أغناها الله سبحانه باليقين بمعرفته عن توسّل الأسباب لتحصيلها، فلم يبق فيها، بل لم يكن فيها من أوّل الأمر من الحجب ما يحول دون معرفته، أو ما يحتاج إلى تنقيتها منها، بل لم تكن حتّى النفس ذاتها حائلاً دون إدراك الحقّ كما هو؛ لأنّها في القرب منه أدنى من قاب قوسين، وهي حتّى في عالم المحسوسات التي من شأنها الحجب على نفس مستواها في عالم العروج والنور،

---

(١) الكافي: ٤٥٥/١، باب فيما جاء أنّ حديثهم صعب مستصعب، الحديث ٢/١٠٤٦.

(٢) معجم رجال الحديث: ٢٠١/٩، ترجمة سلمان الفارسي.

(٣) الوسائل: ١٥٩/١٦، باب استحباب الرفق بالمؤمنين، الحديث ٢/٢١٢٤١. الكافي: ٦٨/٢، باب درجات الإيمان، الحديث ١/١٥٢٣.

(٤) هذا مقطع من حديث طويل مرّ ذكره في الصفحة ٩٧ و ٩٨، فراجع.

بحيث لو كشف لها الغطاء وتجرّدت لم تزدد يقيناً. وهذه النفوس بهذا المستوى من النقاء والمعرفة والغنى عن الوسائل والوسائط، إنّما تعمل ما يعمله الآخرون لشكر الله وتعظيمه بما هو أهله.

ولذا عندما نزل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً** ﴾[1] كان ﷺ يصلّي حتّى تورّم قدماه أو ساقاه، وكان ﷺ يجيب من يستكثر عليه عبادته بعد نزول هذه الآية: «**أوَلم أكن عبداً شكوراً**»[2].

وكان عليّ عليه السلام يقول في مناجاته: «**إلهي ما عَبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[3].

فلم تكن عبادتهما عليهما الصلاة والسلام لتنزيه النفس عن الشوائب التي تُنقص من إدراكها الحقيقة؛ لأنّها ستكون والحالة هذه منهما تحصيلاً للحاصل، ولم تكن تجنّباً من العذاب وظلمة الجهالة والضلالة، كما لم تكن من أجل ملاذّ النفس في الجنّة، وهما لم يريا نفسيهما ولم يتحسّساها بعد أن أدركا كماله المطلق سبحانه، وهو ما لا تبقى معه نفس فضلاً عن لذّتها وسعادتها وألمها وشقائها. وما جمال يوسف عليه السلام إلّا دون القطرة ممّا لا حدود له من بحر الكمال والجلال والجمال، وقد أذهل ممّن أبصرنه فقطّعن أيديهنّ دون التفات إلى النفس ولذّتها وألم قطع السكّين.

وبهذا القدر من وصف هذه النفوس آمل أن لا أكون واعظاً غير متّعظ، فأكون قد بهضت القارئ الكريم بتحميله ما لا يحتمل، فيكون لي -إن كان مؤمناً-

---

(١) سورة الفتح: الآيتان ١ و ٢.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / الهيثمي: ٢٧١/٢، باب صلاة سيّدنا رسول الله ﷺ.

(٣) بحار الأنوار: ٦٦/٦٧، باب النيّة وشرائطها ومراتبها وكمالها وثوابها، الحديث ١.

كأبي ذرّ من سلمان .

هذا مستوى من النفوس ، ودونه مستويات أُخر متفاوتة في الدرجات ، وتبعاً لهذا التفاوت فهي متفاوتة في عبادتها وأهدافها منها .

فمن حيث العبادة كمّاً وكيفاً قد تكون الدرجات تفوق العدّ والاحصاء إذا ما لاحظنا فيها مقدار الخلوص والتوجّه والخشوع والإقبال على ذكر الله تعالى ومقدار عمق الشعور بالعبوديّة وتعظيم المعبود ، وغيرها من جهات الكيف ، وكذا مقدار ما يحقّقه المتعبّد من حيث الشروط وكيفيّاتها والأجزاء نوعاً وحجماً ، وما يرافق الأجزاء والشروط من كيفيّات .

هذا في عبادة واحدة نوعاً وشخصاً ، كالصلاة الواحدة في الوقت والمكان الواحد ، فكيف بجميع الصلوات ، ثمّ كيف بجميع العبادات . ومن حيث العابد في مقدار درجته في المعرفة أو في الإيمان وفيما دونهما من الدرجات التي تحتوي كلّ درجة منها على نسبة من أجزاء كلّ درجة .

كلّ هذا التفاوت في النفوس وصفاتها ، والتفاوت في أفعالها المناسبة لدرجة الفاعل ، إيجاباً أو سلباً ، يرتبط طرداً وعكساً في القرب والبعد عن الله تعالى ، أي عن معرفته سبحانه ؛ إذ هي غاية كلّ عبادة ، وعلّة كلّ تشريع وتكليف .

وأمّا من حيث الهدف ، فالمقاصد من عبادة العابدين أيضاً متفاوتة ، ولعلّ أكثر متفاوتاتها تندرج في نوعين :

الرغبة في الثواب ، والرهبة من العقاب ، وتسمّى عبادة النوع الأوّل عبادة التجّار ، وتسمّى عبادة النوع الثاني عبادة العبيد ، ويشترك هذان النوعان في كونهما عبادة مَن يؤمن بمعاد وثواب يرجوه ، أو عقاب يخشاه .

ولكنّ آخرين لم يؤمنوا وهم يتعبّدون استحساناً لفعل المتعبّدين أو رياءً للنّاس أو احتياطاً لاحتمال صدق القول بالمعاد ، أو خوف العقوبة على ترك العبادة ،

أو همج رعاع ينعقون مع كلّ ناعق[١]، وما أكثر هؤلاء ، أو يحوطون الدين ما درّت معايشهم ، فإذا محصّوا بالبلاء قلّ الديّانون.

والنفوس لدى هذه المستويات لا تخلو من أدران وشوائب ، أصيلة تبعاً لأصل المعدن ، أو مكتسبة كثيفة الحجب عن معرفة الله أو خفيفة ، فشرع الله سبحانه ما شرع لتطهير النفوس من هذه الحجب ليحصل القرب منه سبحانه ، فالصلاة ـ مثلاً ـ إن صحّت ـ من أهمّ المطهّرات للنفوس من أدرانها ، ومن أهمّ المقرّبات للعبد من مولاه . فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : « **تعاهدوا أمر الصلاة ، وحافظوا عليها ، واستكثروا منها ، وتقرّبوا بها ، فإنّها ﴿ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴾[٢] ، ألا تسمعون إلى جواب أهل النّار حين سألوهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ ؟ ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾[٣] ، وأنّها لتحطّ الذنوب حطّ الورق ، وتطلقها إطلاق الربق ، وشبّهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحمّة تكون على باب الرجل ، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرّات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن ، وقد عرف حقّها رجال من المؤمنين لا يشغلهم عنها زينة متاع ولا قرّة عين من ولد ولا مال . يقول الله سبحانه : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾[٤] ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة ؛ لقول الله سبحانه : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[٥] ، وكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه** »[٦]. وهكذا الحال في

---

(١) بحار الأنوار ١ : ١٨٧ ، باب أصناف النّاس في العلم و : ١١٦/٧٥ ، باب مواعظ الحسين ابن أمير المؤمنين عليهما السلام .

(٢) سورة النساء : الآية ١٠٣.

(٣) سورة المدّثر : الآيتان ٤٢ و ٤٣.

(٤) سورة النُّور : الآية ٣٧.

(٥) سورة طه : الآية ١٣٢.

(٦) الوسائل : ٣٠/٤ ، باب تحريم إضاعة الصلاة ، الحديث ٨/٤٤٣٢.

كلّ طاعة ، وإن تفاوتت في مقدار ما تحدثه في النفس من جلاء ونور وقرب ، أو تفاوتت طاعة عن طاعة أُخرى في الأثر النفسي ومدى القرب .

وينعكس الحال تماماً بفعل المعاصي وما تحدثه في النفس من رين وظلمة وبُعد ، وقد تحدّثنا عن هذين التأثيرين[١] .

هذا كلّه في غير النفوس التي أذهب الله عنها الرجس وطهّرها تطهيراً[٢] ، أمّا هذه النفوس الزكيّة فهي قريبة من ربّها ذاتيّاً لا يحتاج إلى توسّط الأسباب ، وإلّا لما استحقّت عهد الله قبل نزول التشريع بإمامتهم وقبل تنفيذه . قال تعالى :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[٣] ، فجعل الإمامة التشريعيّة لإبراهيم عليه السلام وأمثاله ، أو لمن هو أفضل كسيّد الأنبياء والرسل صلى الله عليه وآله لا يناله ملوّث النفس بالظلم بأي نوع من أنواعه أو شكل من أشكاله . فهم مطهّرون من الأرجاس جميعاً تطهيراً تكوينيّاً لما يعلمه الله تعالى من نقاء نفوسهم ، وهو خالقها ويعلمها علم إحاطة تامّة .

غير أنّ الإمامة التشريعيّة المجعولة من الله سبحانه ، بصفتها منصباً قياديّاً يقتدي النّاس طرّاً بسلوك صاحب هذا المنصب طريق الهداية ، مجانباً طريق الضلالة ، وإلّا لما كان إماماً لهم ، فهو إذن قدوة لفعل الخير لجميع المراتب والدرجات ، فلو لم يفعل ما يأمر به النّاس من الأفعال المطهّرة للنفوس من أدرانها لما كان إماماً لهم؛ لأنّ الإمام هو من أمّ القوم فاتّبعوه ، وحيث لم يدرك الكثيرون ممّن يأمرهم ما هو عليه من القرب ، ولم يعوا ما للطاعات من أثر ، فكان عليه بصفته إماماً أن يكون في القول والفعل منهلاً لكلّ ضامئ ، بل يكون فعل المندوب والأوْلى في حقّ غيره

---

(١) في الصفحة ٩٦ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) كما في الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

كفعل الواجب عليه لولا خشية فهمهم لوجوبه عليهم فيتركه أحياناً لغرض بيان حكمه الشرعي بحقّ الآخرين.

لهذا كان ترك الأوْلى من قِبل بعض الأنبياء معصية وذنباً، كما وصف القرآن الكريم بعضهم بهذه الصفة لذلك(١).

ونخلص ممّا تقدّم أنّ فعل الطاعات من المعصومين عليهم السلام إن هو إلّا لامتثال أوامر الله سبحانه حيث أوجبها عليهم، وهم أوْلى النّاس في امتثال أوامره باعتبارهم أئمّة هدى وقدوة للمأمومين ممّن وجب عليهم اتّباع الشريعة التي كلّفوا بها، وكلّف المعصومون بتبليغها. اللّهمّ إلّا أن يكون ترك الأوْلى بحقّهم معصية وذنباً باعتبار منزلتهم العليا ومعرفتهم بربّهم وقربهم منه تعالى، معرفة وقرباً لا يدانيهما غيرهم من النّاس.

ج ـ أثر الآلام الدنيويّة في صفاء النفس: بعد أن عرفنا أنّ الغرض من خلق الإنسان هو المعرفة، وأنّ الطاعات جميعاً قد شرّعها الله تعالى للقرب منه والاعتراف والإقرار بعبوديّة الخلق له، وأنّ حصول هذا الغرض إنّما هو للمخلوق المفتقر وليس للخالق الغني، ولا يتحقّق هذا الغرض دون تطهير النفس من كلّ رين وشائبة لتشرق بنور ربّها سبحانه. بعد هذا كلّه، وبعد أن لم يستقلّ التشريع بما هو تشريع بالنهوض بتحقيق هذا الغرض حيث شاء الله أن يخلق الإنسان مختاراً وألهمه فجوره وتقواه. أنعم الله تعالى عليه بنعمة رديفة لنعمة التشريع من بين نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى.

هذه النعمة هي نعمة تنقية النفس تكويناً؛ ذلك بأن قضى وقدّر لكلّ ذنب عقوبة تكوينيّة دنيويّة، غير أنّ هذا القضاء والتقدير في الطبيعيّات والتشريعيّات يتطلّب شروطاً وظروفاً قدّر الله تعالى أن يكون للإنسان واختياره دخل فيها.

فنعمة التنقية التكوينيّة نعمة عامّة بعموم رحمته التي وسعت كلّ نفس، بَيْدَ أنّ

---

(١) مثل الآية ١٢١ من سورة طه، وغيرها. وانظر كتاب تنزيه الأنبياء للسيّد المرتضى.

كفر هذه النعمة واختيار النفس لأسباب الظلمة في الدنيا قد يحول دون توفيق المرء لشمولها له في هذه الحياة ، فيستدرج ويملى له ويمهل لتشمله تنقية تكوينيّة أُخرى تميّز الخبيث عن الطيّب ، وتعيد كلّ معدن إلى عناصره الأُولى ، ألا وهي جهنّم. وعلى هذا فغرض الخالق سبحانه لا بدّ أن يتحقّق ، وإلّا لكان غير عالم بنتائج فعله ، أو كان عاجزاً عن تحقيقها ، إلّا أنّ حكمته اقتضت أن يكون لاختيار الإنسان دور مرحلي في تحقيق هذا الغرض ووفّر له ـ بعد منحة الاختيار ـ من العلم والقدرة وغيرهما من الشروط العامّة والخاصّة لتحقيق هذا الغرض طواعيّة ، فإن لم يحصل منه التطبيق الكامل للمنهج الذي يوصله إليه ، وقام بأساسيّات هذا المنهج من اعتقاد بالجنان وعمل بالأركان ، تفضّل عليه سبحانه بما يغطّي النقص ويمحو الرين والفساد ، من توبة وقبول الاستغفار والشفاعة والابتلاء ، ليكمل فيه ما لم يختر إكماله ويوصله بذلك إلى ما خلقه لأجله.

وهذه النعمة ـ أي نعمة الابتلاء ـ لا يدرك جسيم فضل الله فيها على عباده مَن لم يدركها في حياته الدنيا إلّا بعد أن يواجه الحقيقة بعد موته وينتبه من نومة الغافلين ، فحينئذٍ يقول ما حكاه عنه القرآن الكريم من قول: ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾[١] ، ويكون جوابه الحاسم: ﴿ **كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[٢] ﴿ **ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً * إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً** ﴾[٣].

أمّا المؤمن فتختلف نفسه عن نفس الكافر ، فنفس المؤمن كالأرض الطاهرة الطيّبة

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩ و ١٠٠.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

(٣) سورة النبأ: الآيتان ٣٩ و ٤٠.

حينما تدنّسها النجاسة تطهّرها الشمس ، ونفس المؤمن حينما تدنّسها الذنوب يطهّرها البلاء في الدنيا .

فعن عليّ بن الحسين عليهما السلام ، قال : « **حقٌّ على الله أنْ لا يُعصى في دار إلّا أضحاها للشمس حتّى تطهّرها** »[١] .

أمّا الكافر فقد أحال الكفرُ نفسَه إلى نجاسة عينيّة لا تطهّر إلّا بعد إحالتها في النّار إلى عين أُخرى ، كاستحالة الميتة إلى تراب .

من هنا كان ابتلاء المؤمن في الدنيا نعمة من الله تعالى ؛ ولذا قال أبو عبدالله عليه السلام فيما رواه عنه المفضّل بن عمر : « **يا مفضّل ، إيّاك والذنوب فحذّرها شيعتنا ، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم . إنّ أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان ، وما ذاك إلّا بذنوبه ، وإنّه ليصيبه السقم ، وما ذاك إلّا بذنوبه ، وإنّه ليحبس عنه الرزق وما هو إلّا بذنوبه ، وإنّه ليشدّد عليه عند الموت وما ذاك إلّا بذنوبه ، حتّى يقول مَن حضره : لقد غمّ بالموت** » . قال المفضّل : فلمّا رأى ما قد دخلني قال : « **أتدري لِمَ ذاك ؟** » ، قلت : لا ، قال : « **ذاك والله إنّكم لا تُؤاخذون بها في الآخرة ، وعجّلت لكم في الدنيا** »[٢] .

وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ، ويذكّره الاستغفار** »[٣] .

ولا ينسحب لزوم ترتّب البلاء على ذنب المؤمن على الأنبياء والأوصياء المعصومين عليهم السلام ، بعد أن قلنا بعصمتهم عن الذنوب ، كبيرها وصغيرها ؛ لأنّ لحوق الأذى في الدنيا وإن كان بسبب الذنوب كما تحدّثنا عنه ، بَيْد أنّ له غير هذا السبب أيضاً ، ومنه زيادة الأجر والكمال به ؛ لأنّ كلّ كمال دون كمال الله سبحانه محدود

---

(١) الوسائل : ٣٠٦/١٥ ، باب وجوب اجتناب المعاصي ، الحديث ٢/٢٠٥٨٩ .

(٢) الوسائل : ٣٠٥/١٥ ، باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب ، الحديث ٢٣/٢٠٥٨٧ .

(٣) الوسائل : ٨٢/١٦ ، باب استحباب تذكّر الذنب والاستغفار منه ، الحديث ٣/٢١٠٤٠ .

يقبل الزيادة والنقصان ، ويدخل في هذا النوع من تسبيب الأذى لزيادة المثوبة والكمال ما حصل للمعصومين من كلّ ذنب ، فعن عليّ بن الحسين ، عن أبيه : ، قال عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **ما زلت أنا ومَن كان قبلي من النبيّين مبتلين بمن يؤذينا ، ولو كان المؤمن على رأس جبل لقيّض الله له عزّوجلّ مَن يؤذيه ليأجره على ذلك** » .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « **ما زلت مظلوماً منذ ولدتني أُمّي ، حتّى أنّ عقيلاً ليصيبه رمد فيقول لا تذرّوني حتّى تذرّوا عليّاً ، فيذرّوني وما بي من رمد** »[١] .

وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **لو أنّ رجلاً مؤمناً على قلّة جبلة لبعث الله من يؤذيه ليأجره على ذلك** »[٢] .

٥ ـ شمولية الأثر الوضعي للذنوب

تحصّل لنا ممّا تقدّم أنّ ما يحلّ في البشريّة من آلام دنيويّة بشتّى مصادرها ، إنّما هو نعمة ورحمة من ربّهم سبحانه . فالمعصوم منهم ترتفع بذلك درجته ويزداد قربه ، والمؤمن المذنب تكفّر الآلام ذنوبه ليعود إلى القرب من سيّده بعد بُعده عنه بما ارتكب من ذنب ، كبير أو صغير . وهكذا تستمرّ الحياة الدنيا ووجود النوع الإنساني فيها ما دام الغرض من وجوده متحقّقاً ، ألا وهو الإقرار بالعبوديّة لربّ العالمين تنزيهاً للنفس عن جهلها وكدورتها وتجبّرها ؛ لتدرك نور الحقّ وتخرج من ظلمة الضلال عنها .

وممّا لا شكّ فيه عند من له أدنى عقل وإنصاف أنّ الحكيم إذا لم يتحقّق غرضه من فعله لم يفعله بل أبطله وألغاه ، فإذا كان الغرض من وجود النوع الإنساني هو

---

(١) الوسائل : ١٢٣/١٢ ، باب استحباب الصبر على أذى الجار ، الحديث ١٠/١٥٨٣٣ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٩/١٥٨٣٢ .

ما أشارت إليه الآية في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ ، وفشت المعاصي ، وعمّ الظلم ، ولم يؤمّل من عامّة الظالمين إلّا الاجهاز على النزر من المصلحين ، وأُبطل العمل بشرائع السماء ، وأخذ النّاس يبعدون عن الله سبحانه دون توقّف ودون رجعة أو أمل برجعة ، إذا حصل كلّ هذا انتفى الغرض من وجودهم بسوء اختيارهم بعد أن تمّت الحجّة عليهم .

وحينئذٍ لا بدّ من قيام القيامة ؛ لتوفّر أشراطها ، كما نصّ على هذا ما رويناه عن رسول الله ﷺ[١] .

وقد تحدّث القرآن الكريم في كثير من آياته عن هذه الحقيقة الحتميّة ، وما هي إلّا أثر شامل نتيجة الذنوب البشريّة ، ومن الآيات التي تصف هذا الحدث العظيم :

١ ـ ﴿ **الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ** ﴾[٢] .

٢ ـ ﴿ **كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ** ﴾[٣] .

٣ ـ ﴿ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ**

---

(١) الحديث بكامله في الصفحة : ٩٧ ـ ٩٨ من هذا الكتاب .

(٢) سورة القارعة : الآيات ١ ـ ٥.

(٣) سورة الفجر : الآيات ١٧ ـ ٢٦.

مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

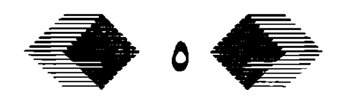
وبهذا الصدد وردت أخبار كثيرة أذكر منها ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **« يكون في آخر الزمان قوم يتبع فيهم قوم مراؤون... لو أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها، كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها. إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض هنالك يتمّ غضب الله عزّ وجلّ عليهم، فيعمّهم بعقابه، فيهلك الأبرار في دار الأشرار، والصغار في دار الكبار »**(٢).

وبهذه العاقبة الوخيمة يُبطل الله سبحانه نظامه التكويني المحسوس بأسره أرضاً وسماءً لإبطال الإنسان العمل بنظامه التشريعي، ممّا يدلّ على التلازم في الوجود بين هذين النظامين.

---

(١) سورة المرسلات: الآيات ٧ ـ ١٨.

(٢) الوسائل: ١١٩/١٦، باب وجوب الأمر والنهى، الحديث ٦/٢١١٣٢.



أهمّ المصادر في ارتكاب الكبائر

توطئة

تعرّفنا على كبائر الذنوب من حيث كونها مؤثّرة في ظلمة النفس ، ومبعدة لها عن القرب من سيّدها تعالى ، وعن كمالها بهذا القرب النوري المعرفي ـ وكما مرّ بنا ـ فإنّ كبائر الذنوب وإن شئت فعبّر عنها أنواع العيوب ، مختلفة فيما بينها في تأثيرها في النفس كمّاً وكيفاً ، وفي تفاعلها معها من حيث مقدار بعدها وقربها عن إدراك الحقّ .

ونظراً لكثرة هذه العيوب وكثرة ما ورد وما قيل في بيان خطورتها من أجل الحثّ على التخلّص منها [1] لا يسعني في اطار مهمّة هذا الكتاب إلّا أن أتناول أهمّ هذه العيوب ، وأكثرها خطورة من خلال ما ورد عن المعصومين عليهم السلام ، وتنشأ الأهمّية من لحاظ عمق وسعة ما تسبّبه من أثر نفسي يتسبّب في صدور كبائر أُخرى ، حتّى يطبق على النفس ويسدّ عليها كلّ منفذ للنور ، كما تنشأ من لحاظ كونها صفات نفسيّة ، وليست أفعالاً خارجيّة تصدر وقد لا تتكرّر .

وهذه الصفات التي سأتحدّث عنها بإيراد ما روي فيها عن المعصومين عليهم السلام ، هي :

---

(١) وقد تناولت ذلك بتفصيل كتب الأخلاق مثل جامع السعادات (٣ أجزاء) ، والمحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء (٨ أجزاء) ، وآداب النفس (مجلّدان) ، ومكارم الأخلاق .

١ ـ حبّ الدنيا ٢ ـ اتّباع الهوى ٣ ـ التعصّب
٤ ـ الغضب ٥ ـ التكبّر والتجبّر ٦ ـ الحسد
٧ ـ الظلم والإعانة عليه ٨ ـ البغي ٩ ـ الطمع والحرص
١٠ ـ سوء الخُلُق ١١ ـ السفه.

وقدمت الحديث عن هذه الصفات على الحديث عن الصفات والأفعال التي تقوّم النفس وتصلحها؛ لأنّ البناء على الرين والصدأ لا يستقرّ، والصحيح هو إزالة هذا الصدأ ثمّ البناء على أساس متين.

١ ـ حبّ الدنيا

الحبّ لغة هو الوداد[١]، وهو حال من أحوال النفس معروف بالوجدان، يصعب تصوّره وتحديده، ويدرك بلوازمه وآثاره، كالنفس التي هو حال من أحوالها.

ومن آثاره الانشداد إلى المحبوب بالقرب منه روحاً أو حسّاً، وعدم الغفلة عنه، وتلبية أوامره ونواهيه إن كان ذا أمر ونهي، واستحسان ما يَستحسن، واستهجان ما يستهجن، وهو ممّا يقبل الشدّة والضعف، وتختلف آثاره باختلاف مقداره، حتّى يكاد أن يصل بصاحبه عند اشتداده إلى الاندماج الكامل في محبوبه وإلغاء ذاته. ويقابل حبّ الشيء الزهد فيه، بمعنى عدم الرغبة فيه أو احتقاره[٢].

والدنيا لغة مشتقّة من دنا دنوّاً ودناوة، بمعنى قرب. وهي ـ كما قال بعض أهل اللغة ـ نقيض الآخرة[٣]، وسمّيت حياتنا هذه بالدنيا لقربها من إدراكنا الحسّي، كما سمّيت الموجودات المحسوسة كلّها بالدنيا لنفس السبب. فهي بهذا المعنى تقابل

(١) انظر القاموس المحيط: ٧٠، مادة «حبب»، ط. مؤسّسة الرسالة ـ بيروت.
(٢) المصدر المتقدّم: ٢٨٦، مادة «زهد».
(٣) المصدر المتقدّم: ١٢٨٣، مادة «دنا».

الحياة الآخرة وما فيها من موجودات ، وسمّيت الحياة وموجوداتها بالآخرة لبعدها عن حسّنا ؛ ولأنّها تلي الحياة الدنيا وموجوداتها ، في وجودنا زماناً ، ولذا يقال لها أيضاً الحياة الأُخرى .

وبجمع ذوو الأديان وكثير من الفلاسفة وبعض رجال العلم التجريبي المعاصر على أنّ النفس الإنسانيّة لا تفنى بموت الإنسان ، وإنّما هي باقية ، وأمّا بقاؤها على أيّة حالة أو كيفيّة ، مجرّدة أو مركّبة مع غيرها ، وهل الغير جسم مادي ملموس أو جسم أثيري شفّاف ، فكلّ هذه الأُمور مختلف فيها حتّى عند ذوي الأديان(١) .

ومهما اختلفوا في هذه الأُمور فهم متّفقون أيضاً على أنّ الوجود الدنيوي للنفس ، نسبة لوجودها الأُخروي أقلّ كثيراً من وجودها في الرحم نسبة إلى وجودها الحسّي في الدنيا خارج الرحم ، سواء منهم من قال بخلودها المطلق ، أم بخلودها المحدود ، بل وصَفها بعضهم بحلم في منام ، يفارقه المتحسّس به بالموت مثلما يفارق النائم حلمه باليقظة والانتباه ، مستشهداً على هذا الوصف بظاهر ما روي عن أحد المعصومين عليهم السلام أنّه قال : « **النّاس نيام فإذا ماتوا انتبهوا** »(٢) .

وشبّه الإمام أبو جعفر عليه السلام حال الإنسان في دنياه وهو منشغل في أُفقها فحسب ، بدودة القزّ ، فقال : « **مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القزّ ، كلّما ازدادت على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت غمّاً** »(٣) ، وهكذا هي في منظار من يؤمن بأنّها مرحلة قصيرة وقصيرة جدّاً إذا نسبت إلى الحياة الأُخرى بعد الموت ، بل بعد الولادة الجديدة ، ويؤمن بأنّ سعادة النفس الخالصة من كلّ شائبة إنّما تكون في

---

(١) انظر جامع السعادات : ١/٣٧ ـ ٤٠ ، فصل في تجرّد النفس وبقائها .

(٢) بحار الأنوار : ٤/٤٣ ، باب نفي الرؤية ، الحديث ١٨ و : ٥٠/١٣٤ ، أبواب تاريخ الإمام العاشر أبي الحسن الثالث (الهادي) ، ٣ ـ معجزاته وبعض مكارم أخلاقه ، الحديث ١٥ .

(٣) الوسائل : ١٦/١٩ ، باب كراهة الحرص على الدنيا ، الحديث ٢٠٨٥٣/١ .

الآخرة ، فتكون من خلال هذين المنظارين ـ مع العمل الموصل لتلك السعادة ـ سجناً لا يُطاق لولا أن شاء الله المكث فيه . ففي وصيّة النبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام : « **يا عليّ ، الدنيا سجن المؤمن ، وجنّة الكافر** »(١) ، جنّة المتنعّم بها دون أن يدرك ما أُعِدّ له بعد الموت من عذاب أليم ، وما أُعدّ للمؤمنين من سعادة خالدة لا تساوي بعضها كلّ سعادة الدنيا ، بل انّ الدنيا بكلّ ما فيها من سعادة عاجلة مفترضة لا تساوي عند مَن يرى تلك الآخرة جناح بعوضة .

ولذا روي عن جعفر بن محمّد ، عن آبائه : في وصيّة النبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام ، قال : « **يا عليّ ، ما أحد من الأوّلين والآخرين إلّا وهو يتمنّى يوم القيامة أنّه لم يعط من الدنيا إلّا قوتاً** »(٢) ، ولعلّ منشأ هذه الأُمنية ما يدركه النّاس يوم القيامة من عظيم سعادة المقلّين من شأن الدنيا ، والعاملين للآخرة ، والمتذوّقين حلاوة حبّ الله تعالى بالقرب منه ، ولذا يقول أبو عبدالله عليه السلام فيما روي عنه :

« **إذا تخلّى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حبّ الله فلم يشتغل بغيره ، إنّ القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتّى يسمو** »(٣) .

أجل ، إنّ الدنيا كما قال عنها المعصومون : في هذه الأحاديث ومثيلاتها ـ قياساً لها بالآخرة زماناً وسعادة وقرباً من الله سبحانه ـ حلم وسجن ولا تعدل جناح بعوضة .

ولكن هل يعني هذا أنّ المؤمن لا يحبّ الدنيا أو يبغضها ؟ وبأيّ معنىً من معانيها ؟ أو بأيّة حال من أحواله يُطلب منه ذلك ؟ وهل أنّ الحبّ والبغض داخلان في اختيار المكلّف كي يرد بهما التكليف ؟

---

(١) و (٢) عن من لا يحضره الفقيه : ٤/٢٤٩ ، باب النوادر ـ وصيّة النبيّ ﷺ لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

(٣) الوسائل : ١٦/١٣ ، باب استحباب الزهد ، الحديث ٢٠٨٣٤/٨.

تلك أسئلة قلّ أن لا تختلج في ذهن من يهتمّ بنفسه ومفاهيمها ، أو هو يثيرها من أجل الجدل .

وفيما يلي أتحدّث عنها بإيجاز وافٍ إن شاء الله تعالى .

أ ـ المؤمن وحبّ الدنيا

الحبّ باعتباره حالة من حالات النفس ، وصفة من صفاتها ، وأنّه لا يتقوّم بطرف واحد ، لا بدّ ـ من أجل أن يوجد ـ من وجود طرفيه ، المحبّ والمحبوب ولو بوجود الاثنينيّة الاعتباريّة اللحاظيّة بينهما ، كما هو الحال في حبّ الإنسان ذاته ، ففي هذه الحالة يحصل الحبّ ولم توجد الاثنينيّة بين طرفيه ، المحبّ وهو الإنسان والمحبوب وهو ذاته ونفسه وعينه ، ولكن بلحاظ كونه محبّاً هو غيره بلحاظ كونه محبوباً ، مثلما نقول علم بذاته دون معلوم غيره ، أو دلّ بذاته على ذاته ، مع أنّ العالم والمعلوم واحد ، وكذا الدالّ والمدلول . وقد حصل العلم وحصلت الدلالة وهما يحتاجان في مقام التعبير عنهما وفي مقام تصوّرهما إلى طرفين . فكذا الحبّ في حبّ الإنسان لذاته فهو يكون محبّاً في حالة كونه منفعلاً بذاته ومحبوباً في حالة كون ذاته هي التي أوجدت فيها هذا الانفعال ، بناءً على أنّ هذا الانفعال مسبّباً عنها حسب الغرض .

ووجود الطرفين هذا كشرط في تقويم الحبّ ، سواء أكانت الأثنينيّة بينهما اعتباريّة أو حسّيّة أم حقيقيّة ، لا بدّ أن يتحقّق في إدراك المحبّ وفي اُفق فكره واطار تصوّره ، فلو كان المحبوب المفترض مجهولاً للحبّ ، أو خارجاً عن اُفق فكره وتصوّره لم يحصل الحبّ في نفس المحبّ في هذه الحالة فعلاً ، وإن صحّ القول بحصوله بالتقدير أو القوّة ، وإن أبيت فهو كامن ليس له أثر . وكذا الحال في جانب المحبّ ، فلو كان غير مدرك لنفسه وخارجاً عن الإحساس بها ، والالتفات إليها لم يتحقّق معنى الحبّ في هذه الحالة فعلاً لافتقاد طرفه الآخر ، وإن صحّ وجوده

بالقوّة والتقدير، بمعنى أنّه كامن لا أثر له ويحصل بمجرّد الالتفات والإحساس.

أمّا ما يحصل من فقد الإحساس بالذات والذهول عنها والاندماج الكامل في المحبوب نتيجة لاشتداد الحبّ وبلوغه أقصى مراتبه، فهذا أمر قد تجاوز فيه المحبّ حالة الحبّ وارتقى إلى حالة غير حالة الحبّ تفوق حتّى حالة الموحّد.

وإذا تبيّن لنا أنّ الحبّ الفعلي معنى متقوّم بالإحساس بطرفيه، علينا أن نتبيّن ثانية ـ وهو ما يؤكّد الاثنينيّة أيضاً ـ بأنّ منشأ الحبّ هو التوافق والانسجام وما يترتّب عليهما من أُنس بين الطرفين المدركين، أو لدى الطرف المدرك منهما؛ إذ مع فقد هذا التوافق أو فقد إدراكه لا يمكن أن يحصل الحبّ إن لم يحصل ضدّه. ومعلوم أنّ هذا المنشأ إنّما هو في الإنسان وليد فكره وإدراكه وإحساسه. والإنسان في هذه الحالة إنّما يدرك في حدود فكره وإحساسه صفات الأشياء، حسيّة كانت هذه الصفات ـ كاللون والرائحة والأشكال والطعوم وغيرها ـ أم كانت غير حسّيّة ـ كالعلم والقدرة والحياة وأمثالها ممّا أدرك الإنسان آثارها حسّاً فآمن بها عقلاً ـ.

أمّا حقيقة الأشياء كما هي مجرّدة عن أيّة صفة وأثر، فليس للفكر مصداقاً لما يقوّم الحبّ، مهما سمّيتها وبما شئت من اسم. وعليه فالمؤمن وغير المؤمن إن أحبّ من الدنيا شيئاً فإنّما يحبّ منها ما يدركه من صفاتها، أو فقل من صفاتها التي يدركها في الفترة ما بين ولادته من بطن أُمّة وحتّى موته بمفارقة روحه لجسده، بمقدار ما يدركه من توافق بينه وبين تلكم الصفات. وهذا التوافق بين الإنسان ومن أحبّ وما يحبّ متفاوت بتفاوت ما تؤثّره هذه الصفات فيه من إحساس بالسعادة، سواء أكان هذا الإحساس وهماً أو حقيقة في واقع الأمر، وسواء أكانت السعادة عاجلة أم آجلة كذلك.

ولهذا فإنّ السعادة لمّا كانت حسيّة فهي نسبيّة، وتبعاً لهذا فالحبّ المترتّب ترتّباً غائيّاً نسبي أيضاً. فربّ فعل أو صفة محبوبين لشخص وهما ليسا كذلك عند آخر؛

لاختلاف منظاريهما ونفسيهما ، وما ينتج عن هذا الاختلاف من رؤيةٍ للتوافق أو عدمه ، على المدى القريب أو البعيد . فالموت الذي يبغضه البعض ويعمل كلّ ما بوسعه أن يعمله ، ويبذل كلّ ما يملك ، ويظلم حتّى الآخرين ، من أجل أن لا يلقاه ، ترى البعض الآخر يراه فوزاً ويتمنّاه . فلمّا أحسّ أمير المؤمنين عليه‌السلام بالضربة المفاجئة القاتلة قال عليه‌السلام : « **فزت وربّ الكعبة** »[١] ، وكان عليه‌السلام قبل ذلك يردّد قوله المشهور : « **ما يحبس أشقاها لتخضبنّ هذه من هذا** »[٢] ، مشيراً إلى رأسه ولحيته .

ولكلمة الحسين عليه‌السلام مشهورة أيضاً ، وهي : « **خطّ الموت على ابن آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف** »[٣] ، وكلمته الأُخرى : « **إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلّا برماً** »[٤] .

وقد ورد عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهل بيته المعصومين عليهم‌السلام أنّهم أحبّوا أشياء من أُمور الدنيا كما يحبّها النّاس ، ولكن مع اختلاف الاعتبار والغرض .

فعن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال : « **حبّب إليَّ من الدنيا النساء والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة** »[٥] .

وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله هو وأهل بيته يحبّون أولادهم ويحبّ بعضهم بعضاً إلى الحدّ الذي يصل إلى البكاء على الفراق بالموت وغيره ، فقد بكى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لفقد ولده إبراهيم ، وبكى أهل البيت عليهم‌السلام لفقد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، بل حثّوا النّاس على البكاء على الحسين عليه‌السلام . وهذه مسألة لا تحتاج في وضوحها إلى شواهد ، وما ورد عنهم عليهم‌السلام

---

(١) بحار الأنوار : ٢/٤١ ، باب يقينه صلوات الله عليه وصبره على المكاره ، الحديث ٤.

(٢) الطبقات الكبرى / ابن سعد : ٣٣/٣ ، باب ذكر عليّ ومعاوية وقتالهما وتحكيم الحكمين.

(٣) بحار الأنوار : ٣٦٦/٤٤ ، باب ما جرى عليه عليه‌السلام بعد بيعة النّاس.

(٤) المصدر المتقدّم : ٣٨١.

(٥) النسائي في سننه : ٦١/٧ ، كتاب عِشرة النساء ـ باب حبّ النساء.

من حبّ بعض الأطعمة والأشربة أيضاً كثير ومشهور.

وبإمكانك أن تقول إنّ الحبّ والبغض قد جبل عليهما الإنسان في حياته الدنيا، روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «**جُبلت القلوب على حبّ مَن نفعها، وبغض من ضرّها**». وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام، قال: «**طُبعت القلوب على حبّ مَن أحسن إليها، وبغض من أساء إليها**»[١].

غير أنّ نسبيّة النفع والضرر والإحسان والإساءة ـ اللّاتي جعلها الخبران الأخيران موضوعاً للحبّ والبغض ـ تجعل المؤمن مختلفاً عن غيره في حبّهما معاً للدنيا. فالمؤمن يحبّ من الدنيا وما فيها ما يقرّبه إلى الله سبحانه، ويبغض منها وممّا فيها ما يحول دون هذا القرب أو ما يسبّب البعد عن ربّه تعالى. فالنفع والضرر والإحسان والإساءة في مقياس المؤمن يحدّده هذا الهدف، كما يحدّد تبعاً لذلك حجمه وحكم الحبّ المترتّب عليه، كما أنّ البغض تحديداً وحجماً يترتّب على أساسٍ من هذا الهدف سلباً. وغير المؤمن يختلف عنده المقياس فيختلف الهدف ويختلف تبعاً لاختلافهما في معنى النفع والضرر والإحسان والإساءة مصداقاً، ويختلف في حبّه وبغضه عن المؤمن من هذه الجهة.

فقد يكونان معاً يحبّان الطيب والنساء والمال والبنين وأمثال هذه ممّا وصفه الله تعالى بزينة الحياة الدنيا. ومع هذا فالمؤمن يحبّها لله تعالى، فمتى ما سبّبت له حجباً عنه تعالى، أو بُعداً، مقتها أشدّ المقت، وغير المؤمن إنّما أحبّها لنفسه في حدود وجودها الدنيوي فحسب.

ولذا عبّر صلى الله عليه وآله في بعض أحاديثه بقوله: «**أُحبّ من دنياكم ثلاثاً**»، ولم يقل من دنياي، أي إنّه لم يحبّ ما أحبّ لدنياه، وإنّما أحبّه لغير دنياه، مشيراً إلى

---

(١) الوسائل: ١٨٤/١٦، باب وجوب حبّ المطيع وبغض العاصي، الحديث ٢١٣٠٣/٤.

أنّهم يحبونها لدنياهم .

وكذا الحال فيما يحصل من آلام الحياة ، فالنّاس يعتبرونها شقاءً ومصائب فيبغضونها ، من دون نظر لعواقبها بعد الحياة الدنيا . أمّا المؤمن فهو ـ وإن شاركهم في الإحساس بآلامها دنيوياً ـ إلّا أنه يعتبرها تستوجب الحمد والشكر لله سبحانه ، وسعادة كبيرة من حيث ما يترتّب عليها من تزكية النفس من أدناسها ، أو من منح الدرجات المقرّبة إلى الله عزّ وجلّ بالصبر عليها .

ومن هنا كان رسول الله ﷺ يقول فيما يروي عنه عليّ بن الحسين عليه‌السلام : « **من أحبّ السبل إليّ جرعتان ، جرعة غيض تردّها بحلم ، وجرعة مصيبة تردّها بصبر** »[1] .

وروي عنه ﷺ : « **إنّ أسعد ساعاتي ساعات أذاي** » ، وقيل أيضاً : « **الحمد لله الذي لا يحمده على مكروه سواه** » .

ومن جهة اُخرى فإنّ المؤمن يرى أنّ الدنيا وما فيها ومن فيها ـ عدا ما ينسب إلى فعل الإنسان من شرور ـ جميعاً من خلق الله وفعله ، فكيف لا يكون المؤمن ـ وهو المحبّ لله تعالى ـ محبّاً لفعل محبوبه الحكيم العليم المحبّ لعباده ؟ ثمّ كيف لا يحب أولياء الله وأفعالهم التي أمر بها الله تعالى ؟

نعم ، يبغض المؤمن في الدنيا ما يبغضه سيّده ومحبوبه وخالقه من أفعال العباد ، كما يبغض حتّى أفعاله السيّئة ونفسه الأمّارة بالسوء للسبب نفسه ، ولما سوف يترتّب عليها من بعدٍ عن الله تعالى أو من عذاب في جهنّم .

وعلى هذا فالمؤمن يحبّ الدنيا لا للدنيا ، وإلّا لكان ممّن يدور في حلقة مفرغة ، يحبّ الدنيا ويعمل لها ليعيش فيها ، ويعيش فيها ليعمل لها ، ثمّ يخرج منها بنفس مظلمة مذموماً مجرّداً عن كلّ ما عمله وعمل له ، ولم يدرك منها حين موته إلّا ما

---

(١) الكافي : ٢/١٤٠ ، باب كظم الغيظ ، الحديث ٩/١٧٩٩ . الوسائل : ١٢/١٧٦ ، باب استحباب كظم الغيظ ، الحديث ٤/١٦٠٠٥ ، بتفاوت يسير .

يدركه المنتبه من منامه في حلمه.

بينما المؤمن يحبّ الدنيا كما يحبّها غيره، ولكنّه يحبّها بصفتها مزرعة لآخرته، ليجد بعد الموت ما وعده به ربّه من قرب ورضا وسعادة وجنّة نعيم خالداً فيها.

ب ـ حبّ الدنيا سلاح ذو حدّين

ممّا مرّ بنا في الفقرة (أ) يتبيّن أنّ الدنيا وإن كانت واحدة في كونها هي الوجود ما بين الولادة من البطن وبين الموت، وفي كونها مجموعة وجودات ذات أوصاف محسوسة أو منتزعة من المحسوس كالجمال والقبح، أو مفاهيم مترتّبة على هذه الوجودات، كالاعتقادات والقوانين الطبيعيّة أو الوضعيّة الجعليّة، سماويّة أو أرضيّة، وما إلى ذلك ممّا يقترن بوجود الإنسان في هذه الحياة. وأنّ اللذّة والألم والبغض والحبّ هي من الأُمور النسبيّة، فهي تختلف من شخص لآخر، ومن شخص في حالة عنه في حالة أُخرى، باختلاف مقياسه وهدفه، وتبتني على هذا أُمور:

١ ـ إنّ المؤمن بالله تعالى خالقاً لهذا الوجود، وجميع ما فيه من موجود، سواء أكان هو الأحاسيس التي تنطوي عليها النفس أم بواعث ومبادئ هذه الأحاسيس. فالمؤمن بهذا يرى أنّ كلّ محبوب في الوجود هو من فعل الله وخلقه، من علم وجمال وكمال وعزّة وكرامة وسعادة ودعة، ومن مال وبين وقرابة ووطن وماء وهواء وأرض وسماء، وما فيهما، ومَن فيهما ممّا يطلق عليها دنيا، وأنّها جميعاً قائمة به قيام المعلول بعلّته، لم تستغن عنه في وجودها طرفة عين أو أقلّ من ذلك.

فكيف يمكن مع هذه الرؤية أن لا يكون حبّه لله سبحانه أشدّ من حبّه للأشياء كلّها؟

إنّا نقول: نحبّ الزهور، وما حبّنا لها إلّا لأنّ ما نحبّه فيها قائم فيها من شذا أو لون أو نعومة أو غير ذلك. ونحبّ الإنسان العالم أو النافع أو الجميل أو ذوي الصفات الحميدة الداعية لحبّنا لهم، وما حبّنا لهم إلّا لأنّ هذه الصفات متقوّمة بهم،

وكلّما ازدادت ، كمّاً أو كيفاً ، ازداد حبّنا لهم كذلك ، حتّى يصل إلى حدّ الوله ، فكيف بمن كانت جميع الصفات الحميدة وجميع الموجودات المحبوبة متقوّمة به .

المؤمن الملتفت إلى إيمانه هذا يكاد أن يكون والهاً في حبّ ربّه . قال تعالى : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾**[1] .

فالقوّة جميعاً لله في كلّ شيء ؛ إذ (لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم) ، القوّة في العلم وفي العزّة وفي كلّ كمال محبوب للإنسان ، فكيف والحالة هذه لا يكون الحبّ للكمال اللّامحدود المطلق أشدّ من الحبّ للكمالات الضئيلة المحدودة التي لم تتّصف بهذا القدر من الكمال إلّا به سبحانه ؟

٢ ـ وبهذا التصوّر للحبّ ومنشئه يكون حبّنا لله تعالى لا حدود له إلّا بحدود ما أُتينا من قدرة .

وإذ كنّا نضحّي بكلّ ما نستطيع لصيانة ما نحبّ من نفس أو شرف أو عرض أو وطن أو أي شيء نقدّسه ونحبّه ، فالأحرى بنا أن نضحّي بكلّ ما نستطيع في سبيل الله تعالى ، وإن قدّمنا شيئاً ممّا نطيقُه أو كلّ ما نقدر على تقديمه لمن عداه سبحانه ، فليكن هذا من خلال أمره ليكون له ومنه وفي سبيله ، وإن لم يكن جزاؤه الأوفى مترتّباً عليه ؛ لأنّه تعالى أهل لذلك ، فكيف إذا كان هو عزّ وجلّ لا يضيع عمل عامل ؟ وهل أسمى من القرب منه جزاءً ؟ لهذا فإنّ حبّ المؤمن لكلّ شأن من شؤون دنياه إنّما يكون من خلال أمره تعالى ونهيه ، حبّاً أو بغضاً .

وبهذا الاستقطاب لجميع مفردات الحبّ والبغض حول محور واحد ، وهو حبّ الله سبحانه ، تتوثّق عُرى الإيمان ، ولا يحصل من هذه المفردات خارج هذا المحور

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

إلّا لمن غفل عن هذه الحقيقة ونقص ـ بهذه الغفلة ـ إيمانه بقدر غفلته.

وبهذا المعنى روي عن أبي عبدالله عليه السلام قوله: « **من أوثق عُرى الإيمان أن تحبّ في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله** »[١].

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام، قال: « **مَن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فهو ممّن كمل إيمانه** »[٢].

بل في بعض الأخبار ما يفيد نفي الإيمان عمّن لا يحبّ في الله ولا يبغض في الله، مثل ما روي عن أبي عبدالله عليه السلام: قال فضيل بن يسار: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الحبّ والبغض أمِنَ الإيمان هو: فقال: « **وهل الإيمان إلّا الحبّ والبغض، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[٣]** »[٤].

٣ ـ وممّا يؤكّد نفي الإيمان بانتفاء الحبّ والبغض من أجل الله المترتّبين على حبّ الله تعالى، ما ورد من الأخبار في إثبات معصية من أحبّ عاصياً أو أبغض مطيعاً. ومن هذه الأخبار:

١ ـ عن الرضا عليه السلام، قال: « **وحبّ أولياء الله عزّ وجلّ واجب، وكذلك بغض أعدائهم، والبراءة منهم، ومن أئمّتهم** »[٥].

ومعلوم أنّ ترك الواجب معصية.

٢ ـ وعنه عليه السلام أيضاً، قال: « **إنّما وضع الأخبار عنّا في الجبر والتشبيه الغلاة الذين**

---

(١) اُصول الكافي: ٢/١٥٤، باب الحبّ في الله، والبغض في الله، الحديث ٢/١٨٧٠. الوسائل: ١٦/١٦٥، باب وجوب الحبّ في الله، الحديث ٢/٢١٢٥٠.

(٢) المصدر المتقدّم: ١٥٣، الحديث ١/١٨٦٩.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٤) اُصول الكافي: ٢/١٥٤، باب الحبّ في الله، والبغض في الله، الحديث ٥/١٨٧٣.

(٥) الوسائل: ١٦/١٦٩، باب وجوب الحبّ في الله، الحديث ١٠/٢١٢٥٨.

صغّروا عظمة الله ، فمن أحبّهم فقد أبغضنا ، ومن أبغضهم فقد أحبّنا ، ومن والاهم فقد عادنا ، ومن عاداهم فقد والانا ، ومن قطعهم فقد وصلنا ، ومن وصلهم فقد قطعنا ، ومن جفاهم فقد برّنا ، ومن برّهم فقد جفانا ، ومن أكرمهم فقد أهاننا ، ومن أهانهم فقد أكرمنا ، ومن ردّهم فقد قبلنا ، ومن قبلهم فقد ردّنا ، ومن أحسن إليهم فقد أساء إلينا ، ومن أساء إليهم فقد أحسن إلينا ، ومن صدّقهم فقد كذّبنا ، ومن كذّبهم فقد صدّقنا ، ومن أعطاهم فقد حرمنا ، ومن حرمهم فقد أعطانا ، ... مَن كان من شيعتنا فلا يتّخذ منهم وليّاً ولا نصيراً »[١].

٣ ـ وعن الصادق عليه‌السلام ، قال : « **من أحبّ كافراً فقد أبغض الله ، ومن أبغض كافراً فقد أحبّ الله** » ، ثمّ قال : « **صديق عدوّ الله عدوّ الله** »[٢].

٤ ـ وعن الرضا عليه‌السلام ، قال : « **مَن أحبّ عاصياً فهو عاصٍ ، ومن أحبّ مطيعاً فهو مطيع ، ومن أعان ظالماً فهو ظالم ، ومن خذل ظالماً فهو عادل . إنّه ليس بين الله وبين أحد قرابة ، ولا تنال ولاية الله إلّا بالطاعة** »[٣].

هذه الأخبار ناظرة إلى مفردات محدودة تسبّب مخالفتها في مجال الحبّ والبغض معصية الله ، ومن ثمّ تنتفي صفة الأيمان عن العاصي بها ؛ لأنّ الإيمان يزول بالمعصية ولا يعود الاتّصاف به إلّا بعد التوبة منها .

أمّا مع انتفاء الحبّ في الله والبغض في الله انتفاءً مطلقاً فيتجاوز الأمر ذهاب الإيمان إلى ذهاب الاتّصاف بالدين ، فينتفي الدين عمّن لا يكون محبّاً لله وفيه . وبهذا المضمون عدّة أخبار أذكر منها :

ما رواه زياد الحذّاء عن أبي جعفر عليه‌السلام أنّه قال له فيما قال : « **يا زياد ، ويحك وهل**

---

(١) الوسائل : ١٨١/١٦ ، باب وجوب حبّ المؤمن وبغض الكافر ، الحديث ١٧/٢١٢٩٧ .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٨٠ ، الحديث ١٢/٢١٢٩٢ .

(٣) المصدر المتقدّم : ١٨٥ ، باب وجوب حبّ المطيع ، الحديث ٦/٢١٣٠٥ .

الدين إلّا الحبّ ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1] أوَلا ترى قول الله لمحمّد ﷺ : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[2] ، وقال : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾[3] ، فقال : الدين هو الحبّ ، والحبّ هو الدين »[4].

وفي خبر آخر عنه عليه السلام : « **مَن لم يحبّ على الدين ، ولم يبغض على الدين ، فلا دين له** »[5]. لهذا ورد الحثّ على الحبّ في عدّة أخبار أذكر منها :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **حبّ الأبرار للأبرار ثواب للأبرار ، وحبّ الأبرار للأبرار فضيلة للأبرار ، وحبّ الفجّار للأبرار زين للأبرار ، وبغض الأبرار للفجّار خزي على الفجّار** »[6].

٢ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **ما التقى مؤمنان قطّ إلّا كان أفضلهما أشدّهما حبّاً لأخيه** »[7].

٣ ـ عن الحسن العسكري عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام : أنّ رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه ذات يوم : « **يا عبدالله ، أحبب في الله ، وأبغض في الله ، ووالِ في الله ، وعادِ في الله ، فإنّه لن (لا) تنال ولاية الله إلّا بذلك ، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتّى يكون كذلك . وقد صارت مؤاخاة النّاس يومكم هذا أكثرها في الدنيا ، عليها يتوادّون ، وعليها يتباغضون ، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً** » .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١.

(٢) سورة الحجرات : الآية ٧.

(٣) سورة الحشر : الآية ٩.

(٤) الوسائل : ١٧١/١٦ ، باب وجوب الحبّ في الله ، الحديث ٢١٢٦٥/١٧.

(٥) المصدر المتقدّم : ١٧٧ ، باب وجوب حبّ المؤمن ، الحديث ٢١٢٨٥/٥. الكافي : ١٥٦/٢ ، باب الحبّ في الله ، الحديث ١٨٨٤/١٦.

(٦) المصدر المتقدّم : ١٧١ ، باب وجوب الحبّ في الله ، الحديث ٢١٢٦٨/٢٠.

(٧) المصدر المتقدّم : ١٧٦ ، باب وجوب حبّ المؤمن ، الحديث ٢١٢٨٢/٢.

فقال الرجل : يا رسول الله ،كيف لي أن أعلم أنّي قد واليت في الله ، وعاديت في الله ؟ ومَن وليّ الله حتّى أُواليه ؟ ومَن عدوّه حتّى أُعاديه ؟ فأشار رسول الله ﷺ إلى عليّ ، فقال : « **أترى هذا ؟** » . قال : بلى . « **قال وليّ هذا وليّ الله فوالِه ، وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده ، والِ وليّ هذا ولو أنّه قاتل أبيك وولدك ، وعادِ عدوّ هذا ولو أنّه أبوك وولدك** »[١] .

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « **أيّ عرى الإيمان أوثق ؟** » . فقالوا : الله ورسوله أعلم . وقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم الحجّ والعمرة ، وقال بعضهم : الجهاد . فقال رسول الله ﷺ : « **لكلّ ما قلتم فضل وليس به ، ولكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله ، والبغض في الله ، وتوالي أولياء الله ، والتبرّي من أعداء الله** »[٢] .

٥ ـ عن الرضا عليه‌السلام ، قال ـ فيما رواه عنه الخزّاز ـ : « **إنّ ممّن ينتحل مودّتنا أهل البيت من هو أشدّ فتنة على شيعتنا من الدجّال** » ، فقلت : بماذا ؟ قال : « **بموالاة أعدائنا ، ومعادة أوليائنا . إنّه إذا كان كذلك اختلط الحقّ بالباطل ، واشتبه الأمر ، فلم يُعرف مؤمن من منافق** »[٣] .

٦ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **مَن وضع حبّه في غير موضعه فقد تعرّض للقطيعة** »[٤] .

٧ ـ وعنه عليه‌السلام ، قال : « **مَن أحبّ الله وأبغض عدوّه لم يبغضه لوتر وتره في الدنيا ،**

---

(١) الوسائل : ١٧٨/١٦ ، باب وجوب حبّ المؤمن ، الحديث ٧/٢١٢٨٧ .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٧٧ ، الحديث ٤/٢١٢٨٤ . أُصول الكافي : ١٥٤/٢ ، باب في الحبّ في الله ، الحديث ٦/١٨٧٤ .

(٣) المصدر المتقدّم : ١٧٩ ، الحديث ٩/٢١٢٨٩ .

(٤) المصدر المتقدّم : ١٧٢ ، باب وجوب الحبّ في الله ، الحديث ٢١/٢١٢٦٩ .

ثمّ جاء يوم القيامة بمثل زبَدِ البحر ذنوباً كفّرها الله له»[١].

٤ ـ هذا ونخلص ممّا جاء في هذه الفقرة أنّ الحياة الدنيا لا تخلو من الحبّ والبغض، وإلّا لوصف الإنسان بالموت والخروج عن إحساسه ووعيه وتمييزه بين الحسن والقبح والكمال والنقص، ومن هنا كانت النفوس مجبولة على الحبّ والبغض، وأنّ التشريعات السماويّة لا تعارض الفطرة والجبلّة وإنّما توجّهها نحو الطريق السليم، وتجنّبها الشطط عنه؛ لتوصلها بحكمة وسلام إلى حقيقتها.

فأوجبت عليها حبّ مبدأ هذه الحقيقة، وهو الكمال المطلق، وتبعاً لحبّه وجب حبّ كلّ شيء في الدنيا يوصل صاحبه إلى هذا الغرض الذي خُلق من أجله. وحرّم عليه كلّ ما يحول دون الوصول إليه أو يعرقل هذا الوصول. وعلى هذا تحمل جميع الأخبار الواردة في ذمّ حبّ الدنيا ومدح الزهد فيها، تحمل على ذمّ حبّ الدنيا للدنيا؛ لأنّه يقصر عن الوصول إلى الغرض المنشود، وهو الكمال، بل يبعده عنه بعداً كبيراً.

٥ ـ أمّا ما ورد عن أبي الحسن عليه السلام أنّه قال: «**لا لوم على مَن أحبّ قومه وإن كانوا كفّاراً**»[٢]، فهو إن صحّ سنده فأقول فيه: إنّه يختلف عن الأخبار التي أخذت في عنوان ذمّ الحبّ الكفر أو المعصية، مثل مَن أحبّ كافراً، مَن أحبّ عاصياً، أو ظالماً أو معادياً لله، أو أمثال هذه الأوصاف التي يُشعر أخذها في موضوع القضيّة أنّها منشأ الذمّ، من قبيل: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾[٣] المشعر بأنّ منشأ القطع هو السرقة. أمّا هذا الحديث فوصفه العنواني كونهم قومه، وروابط المرء بقومه كثيرة

---

(١) الوسائل: ١٧١/١٦، باب وجوب الحبّ في الله، الحديث ١٩/٢١٢٦٧. المحاسن: ٢٦٥/١، باب الحبّ والبغض في الله، الحديث ٣٤١.

(٢) المصدر المتقدّم: ١٨٢، باب وجوب حبّ المؤمن، الحديث ١٨/٢١٢٩٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٨.

وداعية ـ بمقتضى جبلّة الإنسان ـ إلى حبّه لهم ، واتّصافهم بالكفر ليس هو المنشأ في الحبّ كي يكون منهيّاً عنه ، وما دام المنشأ هو القرابة ، فلا لوم على من أحبّهم من هذه الجهة التي سبق الحديث لبيانها .

جـ ـ اختياريّة الحبّ والتكليف به

الحبّ معنى وجداني قائم بنفس المحبّ ، فهو إذن صفة نفسيّة ، وليس فعلاً خارجيّاً ، وكلّ مظهر من مظاهره وتجلّياته ـ كالطاعة والتضحية والتولّي والتبرّي وغيره من الحركات والأحوال المترتّبة عليه ـ هي آثار له .

فمن وجد فيه حبّ العلم أو الجاه أو المال أو البنين أو النساء ، تصرّف بما يناسب هذا المحبوب ، لما يرى من تحقيق الكمال أو بعض الكمال في هذا التصرّف ، سواء أكانت هذه الرؤية حقيقيّة أم وهميّة في واقع الأمر . فالحبّ وهو التعلّق الخاصّ بين المحبّ ومحبوبه وانشداده له معنى يحصل في النفس ويدرك فيها وجداناً ، ومنشأ حصوله فيها رؤية الكمال في هذا التعلّق ، فمن يرى الكمال في العلم تحرّك لتلقّيه ، ومن رآه في المال سعى لكسبه ، ومن رآه بالجاه عمل للحصول عليه ، وهكذا الأمر في كلّ متعلّقات الحبّ .

وإذا تحقّقت هذه الرؤية بأيّ سبب من أسباب تحقّقها حصل الحبّ قهراً ، وتبعاً لحصوله تحرّك المحبّ نحو وسائل الارتباط به ونيل الكمال بهذا الارتباط ، وإن اختلف العمل وتفاوتت الحركة شدّة وضعفاً بما يختلف به الحبّ شدّة وضعفاً أيضاً . وكذلك يختلف الارتباط والانشداد بين المحبّ والمحبوب شدّة وضعفاً .

فالحبّ مهما كانت أسبابه هو علّة أو مقتضي قويّ التأثير على صاحبه في الحركة نحو آثاره ولوازمه .

وبناءً على أنّ الحبّ مقتضٍ للتأثير في الحركة يمكن للمشرّع ـ أي مشرّع ـ أن يأمر بهذه الحركة أو ينهى عنها ما دام ـ مع فرض الاقتضاء ـ المكلّف بهذا التشريع يملك

من الاختيار ما يمكنه معه من معاكسة آثار الحبّ المنهي عنها ،كمن أحبّ امرأة حبّاً يقتضي النظر إليها ، أو غير النظر من المحرّمات بين الأجنبيَّين ، فيمكنه تجنّب ما نهي عنه .

أمّا بناءً على علّيّة الحبّ بأن يبلغ درجة يُسلب فيها اختيار المكلّف سلباً تامّاً ، فهل يمكن للحكيم العادل أن يكلّفه بترك الحركة نحو لوازم الحبّ وهي لا تنفكّ عنه على هذا الافتراض ؟

ومن جهة أُخرى : هل للمشرّع العدل الحكيم أن ينهى عن الحبّ نفسه أو يأمر به ، كأن يأمر بحبّ العدل وأهله ،أو ينهى عن حبّ الظلم وأهله ؟ والحال أنّ الحبّ نتيجة قهريّة وصفة نفسيّة توجد برؤية المرء كما له فيما يحبّ ، سواء صدقت هذه الرؤية واقعاً أم كانت وهماً وخيالاً لا أساس لها من الصدق والصحّة .

وللإجابة على هذين السؤالين معاً أقول :

على فرض أن يكون الحبّ علّة تامّة للحركة نحو متعلّقه ، وعلى فرض أنّ وجود الحبّ في النفس يحصل فيها بدون اختيار ، غير أنّ وجوده وعلّيّته للحركة ـ كما ذكرنا ـ ناشئ من إدراك المرء كما له فيما أحبّ ، وحينئذٍ نركّز على هذا الإدراك والرؤية لنبحث عن مناشئها ، هل كانت اختياريّة أم هي الأُخرى قهريّة ؟

فالمجنون ـ مثلاً ـ بسبب عارض غير اختياري له ، يرى كماله بأُمور لا يراها العقلاء إلّا نقصاً وشذوذاً ، فيتحرّك ويتصرّف وفق ما يراه ، وشارب الخمرة كالمجنون في الرؤية والتصرّف ، ولكنّه يختلف عنه بأنّه اختيار شرب الخمرة ، فصار ـ باختياره هذا ـ مجبوراً على هذه الرؤية ، وما يترتّب عليها من تصرّف .

وما من شكّ في أنّ الأوّل مرفوع عنه القلم لدى جميع تشريعات السماء والعقلاء ، أمّا الثاني فما دام مختاراً بفعل ما أودى به إلى الجبر على الرؤية الخاطئة وما يستتبعها من خطأ في التصرّف ، فهو مؤاخذ على كلّ ما حصل خطأً منه بالاتّفاق

وإن لم يكن مختاراً في حصول الرؤية والفعل ؛ لأنّـه مـختار لهـا بـاختياره أسـبابها المودّية إليها .

وما دامت الرؤية ـ كلّ رؤية ـ لها أسباب اختياريّة واُخرى جبريّة ، كانت الرؤيـة نفسها توصف بالاختيار لاختياريّة أسبابها ، وبالجبر لجبريّة أسبابها ، وإن كانت هي ـ بما هي رؤية مجرّدة عن أسبابها ـ جبريّة في كلا الحالين بعد حصول أسبابها ، فهب أنّ الحبّ خارج عن الاختيار بما هو حبّ ، وهب أنّ تصرّفات المحبّ قهرية ما دام الحبّ علّة تامّة لها فرضاً ، ولكنّ الحبّ وما يصدر عنه يوصفان بالاختيار متى كان سبب الحبّ ، وهو الإدارك ، واقعاً تحت الاختيار . ثمّ إنّ الإدراك نفسه إن كان قهريّاً كان هو وجميع ما يترتّب عليه ـ لزوماً ـ ممّا لا يؤاخذ عليه صاحبه ، ولذا رفع القلم عن المجنون ، مثلما رفع القلم عن تصرّفات النائم إذا صدرت عن رؤية في منامه ، فضلاً عن صدور التروك ؛ لانعدام الإدراك ، وكذا رفع القلم عن الصبي حتّى يحتلم لعلم الله تعالى بنمط إدراكه في هذا العمر[١] .

وعلى أساس من هذا كلّه ، رفع القلم عن القـاصر فـي أيّ جـانب مـن جـوانب القصور ، فالقاصر تكويناً كالمعتوه والأبله ، أو من ورث من آبائه أو تسبّبت ولادتـه زماناً ومكاناً في أن يحاط ببيئة تجعل منه قاصراً في أمر من اُمـور مـعارفه وديـنه ، قصوراً لا اختيار له في تجاوزه ، وهو ممّن لا يؤاخذ على أيّ فعل أو ترك تسبّب عن هذا القصور .

ولعلّ هذا التفاوت في الخلقة مـن حـيث الـتركيب الجسـمي والتـأثير الوراثـي والمحيط الذي ولد فيه المـرء ، وكـلّ مـا مـن شـأنه التـأثير عـلى وعـيه وإدراكـه ،

---

(١) انظر حديث رفع القلم عن الثلاث في صحيح البخاري بشرح عـمدة القـارئ : ٢٩٢/٢٣ . بحار الأنوار : ٣٠٣/٥ ، باب مَن رفع عنه القلم ونـفي الحـرج ، الحـديث ١٣ . الخـصال : ٩٣/١ ، رفع القلم عن ثلاثة .

وهو خارج عن اختياره ، هو الذي أشارت إليه الأخبار التي صنّفت النّاس في تفاوت إيمانها إلى درجات ، وكلّ درجة إلى أجزاء[١] . وكذا الأخبار التي تضمّنت تفاوت حساب الله تعالى لخلقه بتفاوت درجاتهم[٢] .

ومن هذا كلّه يتّضح لنا إمكانيّة التكليف بالحبّ أو البغض وإن كان جبريّاً ، بسبب إدراك المرء لكماله الحقيقي أو الموهوم ، ما دام الإدراك نفسه خاضعاً لاختيار أسبابه .

وحيث أنّ إدراك الحقّ تعالى وإدراك أهل الحقّ من أوليائه وتمييز الحقّ عن الباطل فيما يفعله النّاس ، له أسبابه الاختياريّة بالوعي والتعلّم اللذين يسّرهما الله تعالى لعباده بما خلق لهم من قدرة على ذلك ، وخلق لهم ظروفاً تمكّنهم من ذلك ، كان الحبّ اختياريّاً لامكانية اختيار أسبابه والعمل على إيجادها .

أمّا مع القصور الذاتي ، أو الطارئ رغم المكلّف ، فهو معذور عمّا يفقده من حبّ للحقّ وبغض لضدّه ، وإن كان هذا النمط من القصور نادر الحصول لما أودع الله تعالى من فطرة يدرك فيها صاحبها ولو عمومات المفاهيم الداعية إلى إدراك الحقّ ومن ثمّ حبّه ، وإدراك الباطل ومن ثمّ بغضه .

ومتى كان الحبّ وما يتبعه من عمل واقعاً تحت الاختيار لوقوع مبادئه وأسبابها تحته ، كان الإلزام به في التكليف جائزاً عقلاً ولا محذور فيه .

وممّا يجدر التركيز عليه في هذا المجال هو أنّ من لوازم الحبّ الاتّباع والاطاعة للمحبوب ـ ولو اقتضاءً ـ إذا كان منشأ الحبّ هو إدراك الكمال برؤية موضوعيّة ؛

---

(١) تقدّم في الصفحة ١١٦ من هذا الكتاب .

(٢) مثل قوله عليه‌السلام : « **إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا** » . راجع أُصول الكافي : ٢٨/١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ٧ و : ٦٦/٢ ، باب السبق إلى الايمان ، الحديث ١/١٥٢٢ .

ولذا ورد قوله تعالى ـ وهو يوجّه الرسول ﷺ لمخاطبة المكلّفين ـ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴾[١].

فالجملة الشرطيّة الأُولى رتّبت اتّباع أوامر ونواهي رسول الله ﷺ على حبّ الله، ممّا يدلّ بالمفهوم على كذبهم في دعوى حبّ الله تعالى إن لم يتبعوا رسوله ﷺ؛ لأنّ الحبّ الصادق يستلزم العمل بمقتضاه، لينتج حبّ الله تعالى للمطيع الصادق بحبّه، فإن تولّى عن الطاعة بفعل مستلزمات الحبّ، فإنّ الله لا يحبّه ويحكم بكفره وبعده عنه. وهكذا الحال فيمن يدّعي حبّ الحقّ أو حب أهله، وهو مجانب للحقّ وأهله في السلوك والعمل، فإنّ دعوى الحبّ هذه لا نصيب لها من الصحّة، أو هي جهل لمعنى الحبّ أو جهل بمناشئه.

ولذاترى بعض الجهلة يسيئون فهم ما ورد عن النبيّ ﷺ من قوله: «**حبّ عليّ بن أبي طالب حسنة لا تضرّ معها سيّئة**»[٢]، فتجد بعضهم يردّ هذا الحديث الشريف لعدم تعقّله لما فهمه منه، قائلاً: لا يُعقل أن يحثّ النبيّ ﷺ على حبّ عليّ عليه السلام مقروناً بالاغراء بفعل جميع السيّئات؛ لأنها لا تضرّ بمن أحبّ عليّاً عليه السلام.

وبعضهم الآخر يتعبّد بما استظهره من الحديث بعد أن لم يجد مجالاً لردّه من حيث السند، فيسدر في فعل المنكرات، أو يهوّن على نفسه ما يفعله منها، عملاً بهذا الظاهر.

والحال أنّ كلا الفريقين لم يدركا حقيقة الأمر من خلال الكتاب والسنّة.

فعليّ هذا هو من قال فيه رسول الله ﷺ: «**عليّ مع الحقّ، والحقّ مع عليّ**

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٣١ و ٣٢.

(٢) المناقب / ابن شهرآشوب: ١٩٧/٣، فصل في محبّته عليه السلام.

ولن يفترقا حتّى يردا علَيّ الحوض »[1]، فلو اقتصرنا على هذا الحديث وحده، دون ما سواه ممّا يؤكّد مضمونه من كتاب وسنّة[2] لوجدنا الالتزام الوثيق الذي لا ينفكّ لحظة واحدة ـ ولو بخطرة ـ بين عليّ عليه السلام والحقّ بأيّ معنى فهمناه.

ومن كان هذا شأنه كيف يحبّه من لم يطع الله تعالى والرسول صلى الله عليه وآله، وكيف يحبّه من لا يحبّ الله ولا يحبّه الله وهو من الكافرين. أجل إنّ الحبّ ـ كما نصّت الآية وتواترت الأخبار بالمعنى ـ يستلزم المتابعة، ومن المعلوم من سيرة عليّ عليه السلام أنّه في سلوكه وفي أفكاره لم يعص الله تعالى بخطوة أو خطرة، وإلّا لما كان مع الحقّ والحقّ معه مطلقاً. فهل يكون صادقاً في حبّه من كان حرباً لعليّ عليه السلام صباح مساء في تصرّفه بالموبقات التي جاهد عليّ عليه السلام في سبيل انقاذ البشريّة منها، من صباه حتّى استشهد في محرابه على يد أشقاها؟

وهل يمكن أن يقرّ علَيّ هذه المخالفات الشرعيّة لو فعلها مدّعي حبّه بحضرته الشريفة، وقد أحرق بالنّار من نسب إليه صفة الربوبيّة؛ لأنه بهذا المعتقد قد تنكّب عن طريق الحقّ؟

ولكنّها النفس ومداخلها، أعاذنا الله تعالى من الجهل، ومن شرور أنفسنا الخفيّة.

نعم، حبّ عليّ عليه السلام حبّ لله، وحبّ لرسوله، وحبّ لما جاهد في سبيله من مقدّسات، فالصادق منه ما كان حبّاً للحقّ وحبّاً لأهله، وهذا ما وعد الله على الاتّباع بسببه مغفرة للذنوب، أمّا ما هي هذه الذنوب التي وعدنا بمغفرتها إنّ أحببنا الله وأولياءه والحقّ الذي بشّروا به، وما هي السيّئات التي لا تضرّ من أحبّ عليّاً عليه السلام،

---

(١) وقد ألف العلّامة الشيخ ضياء الدين زين الدين كتاباً يقرب من ٣٠٠ صفحة بعنوان: (عليّ في التزام الحقّ) جمع فيه ما ورد في هذا المضمون، ونال الجائزة الأُولى في مؤتمر الغدير في لندن؛ لما فيه من تحليل واستنتاج، والكتاب بعدُ لم يطبع.

(٢) انظر دلائل الصدق / محمّد حسن المظفّر: ٢٩٧/٤ وما بعدها.

ما هو نوعها وحجمها وزمان فعلها ، قبل الحبّ أو بعده ؟ فهذا أمر لسنا بصدده الآن .

هذا وبعد أن اتّضح المقصود من الدنيا التي ورد النهي عن حبّها والأمر بالزهد فيها ، سيتّضح لنا مفاد الأخبار التي وردت بذلك ، وهي كثيرة جدّاً ، سأذكر منها ما يناسب المقام في طائفتين :

الأُولى ـ في ذمّ الدنيا:

١ ـ عن رسول الله ﷺ ، قال : « **مَن أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ، ومَن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى** »[١] .

٢ ـ عن عليّ بن الحسين عليه السلام ، قال : « **ما من عمل بعد معرفة الله ومعرفة رسوله ٩ أفضل من بغض الدنيا ، فإنّ لذلك شُعَباً كثيرة ، وللمعاصي شعب . فأوّل ما عصي به الله الكبر ـ إلى أن قال : ـ ثمّ الحرص ، ثمّ الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله ، فتشعّب من ذلك حبّ النساء ، وحبّ الدنيا ، وحبّ الرئاسة ، وحبّ الراحة ، وحبّ الكلام ، وحبّ العلوّ والثروة ، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلّهنّ في حبّ الدنيا ، فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك : حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة ، والدنيا دنييان : دنيا بلاغ ، ودنيا ملعونة** »[٢] .

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة** »[٣] ، وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام : « **رأس كلّ خطيئة حبّ الدنيا** »[٤] .

٤ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **في مناجاة موسى عليه السلام : إنّ الدنيا دار عقوبة ، عاقبت فيها آدم**

---

(١) مجموعة ورّام : ١٢٨/١ ، باب ذمّ الدنيا .

(٢) أُصول الكافي : ٣٣١/٢ ، باب حبّ الدنيا والحرص عليها ، الحديث ٨/٢٥٨٣ ، وقد ورد في الحديث : « دنياءان » بدل « دنييان » ، وما أثبتناه هو الموافق .

(٣) الوسائل : ٩/١٦ ، باب تحريم حبّ الدنيا المحرّمة ووجوب بغضها ، الحديث ٤/٢٠٨٢٤ .

(٤) أُصول الكافي : ٣٢٩/٢ ، باب حبّ الدنيا والحرص عليها ، الحديث ١/٢٥٧٦ .

عند خطيئته ، وجعلتها ملعونة ، ملعوناً ما فيها إلّا ما كان فيها لي . يا موسى ، إنّ عبادي الصالحين زهدوا في الدنيا بقدر علمهم (بي) وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم »[١] .

الثانية ـ في مدح الزهد في الدنيا:

الزهد في الشيء يقابل الرغبة فيه ، وعليه فهو يقابل الحبّ من بعض الوجوه ، وإذ عرفنا أنّ حبّ الدنيا المذموم هو حبّها المقطوع عن الصلة بالله تعالى ، فالزهد المحمود هو ما كان زهداً فيما يقطع عنه تعالى . أمّا ما كان في الدنيا مقرّباً إليه فكيف يزهّد به العبد المحبّ لربّه ؟

إذن منشأ الزهد في الدنيا هو كونها مبعدة عن الله تعالى ، وهو راجع إلى حبّ الله وحبّ القرب منه عزّ وجلّ . وبما أنّ الحبّ يقبل الشدّة والضعف ، فالزهد الناشئ عنه كذلك ، ولذا أجاب الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام مَن سأله عن الزهد بقوله : « **عشرة أشياء ، فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين ، وأعلى درجة اليقين أدنى درجات الرضا ، ألا وأنّ الزهد في آية من كتاب الله: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾**[٢] »[٣] .

وإذا كان الزهد عشر درجات كما في بداية هذا الخبر ، فإنّ بداية هذه الدرجات تجنّب المحرّمات ، وعليه يحمل ما روي عن الإمام عليّ عليه السلام وقد سُئل عن الزهد فقال : « **تنكّب حرامها** »[٤] ، ولكن هذه المرتبة من الزهد ليست زهداً نسبة لمن هو أعلى إيماناً بالله تعالى وأكثر قرباً منه ، وهكذا حتّى يصل الحال إلى كون التفكير بشأن

---

(١) الوسائل : ٩/١٦ ، باب تحريم حبّ الدنيا ، الحديث ٣/٢٠٨٢٣ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٣ .

(٣) الوسائل : ١٢/١٦ ، باب استحباب الزهد في الدنيا ، الحديث ٦/٢٠٨٣٢ .

(٤) المصدر المتقدّم : ١٥ ، الحديث ١١/٢٠٨٣٧ .

من شؤون الدنيا بصفته غفلة عن ذكر الله جلّ جلاله ينافي الزهد.

فالأخبار التي سنرويها في الزهد بعضها ناظر إلى بعض مراتبه ، وبعضها عامّ شامل لمفهومه المنطبق على جميع مراتبه. والأخبار هي :

١ ـ عن رسول الله ﷺ ، قال : «**إنّ صلاح أوّل هذه الأُمّة بالزهد واليقين ، وهلاك آخرها بالشحّ والأمل**»[١].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : «**إنّ علامة الراغب في ثواب الآخرة . زهد في عاجل زهرة الدنيا ، أما أنّ زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه ممّا قسم الله له فيها وإن زهد ، وإنّ حرص الحريص على عاجل زهرة الحياة الدنيا لا يزيده فيها وإن حرص . فالمغبون من غبن حظّه في الآخرة**»[٢].

٣ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : «**إنّ من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا**»[٣].

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتّى تزهد في الدنيا**»[٤].

٥ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : «**إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدنيا . وفقّهه في الدين ، وبصّره عيوبها ، ومن أُوتيهنّ فقد أُوتي خير الدنيا والآخرة**». وقال : «**لم يطلب أحد الحقّ بباب أفضل من الزهد في الدنيا ، وهو ضدّ لما طلبه أعداء الحقّ**» ، قلت : جعلت فداك ، ممّا ؟ قال : «**من الرغبة فيها . ألا من صبّار كريم ؟ فإنّما هي أيّام قلائل ، ألا إنّه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتّى تزهدوا في الدنيا**»[٥].

---

(١) الوسائل : ١٥/١٦ ، باب استحباب الزهد في الدنيا ، الحديث ١٥/٢٠٨٤١.

(٢) المصدر المتقدّم : ١١ ، الحديث ٣/٢٠٨٢٩.

(٣) المصدر المتقدّم : ١٢ ، الحديث ٤/٢٠٨٣٠.

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٥/٢٠٨٣١.

(٥) المصدر المتقدّم : ١٣ ، الحديث ٨/٢٠٨٣٤.

٦ ـ عن عليّ بن الحسين عليهما السلام، قال: «**أيّها المؤمنون، لا يفتننّكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في هذه الدنيا، واحذروا ما حذّركم الله منها، وازهدوا فيما زهّدكم الله فيه منها، ولا تركنوا إلى ما في هذه الدنيا ركون من اتّخذها دار قرار ومنزل استيطان**»(١).

٧ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**لا تُشعروا قلوبكم الاشتغال بما قد فات، فتشلغوا أذهانكم عن الاستعداد لما لم يأت**»(٢).

٨ ـ عن موسى بن جعفر عليه السلام، قال ـ حينما وقف على قبرٍ ـ: «**إنّ شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوّله، وإنّ شيئاً هذا أوّله لحقيق أن يخاف من آخره**»(٣).

يشير الحديث الشريف إلى أنّ الحياة الدنيا آخرها الموت ثمّ القبر، والأشياء بعواقبها، فالدنيا التي آخرها القبر حقيقة بالزهد فيها، ثمّ في القبر وما عليه حال الإنسان فيه من افتقاد كلّ ما سعى إليه في الدنيا من شؤون الدنيا، لحقيق بالخوف من عواقبه التي لا يسلم منها إلّا من أتى الله بقلب سليم من غير الله تعالى، ومن كلّ مبعد عنه.

وفي هذا المعنى أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يروى عنه:

٩ ـ «**ما لي وللدنيا، إنّما مثلي كراكب رفعت له شجرة في يوم صائف، فقال تحتها ثمّ راح وتركها**»(٤).

فالتعامل مع الشجرة هذه في حدود ما تحقّقه للمسافر من تظليل يستعيد به قواه، ويدفع عنه حرّ الشمس ليستأنف السير نحو دار القرار، ومن كان كذلك يكون شعاره

---

(١) الوسائل: ١٦/١٠، باب استحباب الزهد في الدنيا، الحديث ٢٠٨٢٨/٢.

(٢) المصدر المتقدّم: ٢٠، باب كراهة الحرص على الدنيا، الحديث ٢٠٨٥٣/١.

(٣) المصدر المتقدّم: ١٥، باب استحباب الزهد، الحديث ٢٠٨٤٠/٤.

(٤) المصدر المتقدّم: ١٧، باب استحباب ما زاد عن قدر الضرورة، الحديث ٢٠٨٤٣/١.

في الدنيا ما قاله رسول الله ﷺ :

١٠ ـ « **ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وألهى** »[١] .

ومن كلّ ما تقدّم يستفاد أنّ الزهد ليس كما يفهمه البعض من إهمال شؤون الدنيا وترك الاشتغال بها مطلقاً ، بما في ذلك نظافة الملابس والبدن والمسكن ، وإنّما هو ـ وبكلّ درجاته العشر ـ أن لا تشغله دنياه عن الله تعالى ، وكم ممّن يبدو متنعّماً بنعم الله الكثيرة ولكنّها لم تشغله عن ربّه ، وكم ممّن حرّم عن كثير منها وهو بعيد عن ربّه تعالى ؛ لذا يروى عن أبي عبدالله عليه‌السلام : « **ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ، ولا بتحريم الحلال ، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عزّوجلّ** »[٢] .

إذن الزاهد من كان يقينه أنّه وما في يده في قبضة الله تعالى ، قد يحرمه ممّا في يده ، وقد يمتّعه بما لم يأمله ، وحينئذٍ لا يفرح بما أتى ولا يحزن على مافات ومضى.

بل قد تكون مزاولة الأعمال في الدنيا من مقوّمات الزهد ، بصفتها واجبات كفائيّة أو مستحبّات كذلك ، أو تكون واجبات عينيّة ، كالأعمال التي يتوقّف عليها نظام المجتمع من طبّ وهندسة وقضاء وعلوم ومهن وحِرف وغيرها .

٢ ـ اتّباع الهوى

معنى اتّباع الهوى : الانقياد لإرادة النفس[٣] ، ومعلوم أنّ النفس قد تريد الخير وقد تريد غيره ، إلّا أنّها إن أرادت خيراً بما أودع الله فيها من فطرة أو بما ألهمها الله من تقوى أو بما علمته عن طريق رسله سبحانه ، تصير والحالة هذه عقلاً أو نفساً

---

(١) الوسائل : ١٨/١٦ ، باب استحباب ما زاد عن قدر الضرورة ، الحديث ٥/٢٠٨٤٧ . مستدرك الوسائل : ٢٣١/١٥ ، باب استحباب الرضى بالكفاف ، الحديث ١١/١٨٠٩١ .

(٢) الوسائل : ١٥/١٦ ، باب استحباب الزهد في الدنيا ، الحديث ١٣/٢٠٨٣٩ .

(٣) القاموس المحيط : ١٣٤٧ ، مادة « هوا » .

مطمئنّة أو لوّامة ، وتكون إرادتها للخير منسوبة لمن هداها لها أو أمرها بها ، ونسبة الإرادة إليها كنسبة البناء إلى هامان ، والحال أنّ المريد له غيره ، أمّا إرادة النفس التي تعاكس الإرادة التشريعيّة لله تعالى ، أو تعاكس ما أودعه الله فيها من فطرة ، أو ألهمه من تقوى ، فيطلق عليها الهوى ، فالهوى إرادة النفس المباينة للحقّ .

وبهذا المعنى ورد في الكتاب والسنّة ما يؤكّد النهي عن اتّباعه ، فمن القرآن عشرات الآيات ، مثل قوله تعالى :

١ ـ ﴿ **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا** ﴾[(١)] .

٢ ـ ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ** ﴾[(٢)] .

٣ ـ ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾[(٣)] .

٤ ـ ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عن ذِكْرِهِم مُعْرِضُونَ** ﴾[(٤)] .

٥ ـ ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** ﴾[(٥)] .

ومن الأحاديث الشريفة نروي هذه المجموعة :

١ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **لا تدع النفس وهواها ، فإنّ هواها في رداها ، وترك النفس وما تهوى أذاها ، وكفّ النفس عمّا تهوى دواؤها** »[(٦)] .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٣٥ .

(٢) سورة ص : الآية ٢٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٠ .

(٤) سورة المؤمنون : الآية ٧١ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ١١٩ .

(٦) الكافي : ٣٤٨/٢ ، باب اتّباع الهوى ، الحديث ٢٦٦٥ . الوسائل : ٥٨/١٦ ، باب تحريم اتّباع الهوى ، الحديث ٣/٢٠٩٧٣ .

٢ ـ وعنه عليه‌السلام أيضاً ، قال : « **إنّما أخاف عليكم اثنتين : اتّباع الهوى ، وطول الأمل . أمّا اتّباع الهوى فإنّه يصدّ عن الحقّ ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة** »[١] .

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه‌السلام ، قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **يقول الله عزّ وجلّ : وعزّتي وجلالي وكبريائي ونوري وعلوّي وارتفاع مكاني ، لا يؤثر عبدٌ هواه على هواي إلّا شتّتْت عليه أمره ، ولبست عليه دنياه ، وشغلت قلبه بها ، ولم آته منها إلّا ما قدّرت له .**

وعزّتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوّي وارتفاع مكاني ، لا يؤثر عبد هواي على هواه ، إلّا استحفظته ملائكتي ، وكفلت السماوات والأرضين رزقه ، وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر ، وأتته الدنيا وهي راغمة »[٢] .

٤ ـ وعن أبي جعفر عليه‌السلام أيضاً ، قال : « **إنّ الله عزّ وجلّ يقول : وعزّتي وعظمتي وعلوّي وارتفاع مكاني ، لا يؤثر عبد هواي على هوى نفسه إلّا كففت عليه ضيعته ، وضمنت السماوات والأرض رزقه ، وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر** »[٣] .

٥ ـ وعنه عليه‌السلام أيضاً : « **قال الله عزّ وجلّ : وعزّتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلوّ ارتفاعي ، لا يؤثر عبد مؤمن هواي على هواه في شيء من أمر الدنيا ، إلّا جعلت غناه في نفسه ، وهمّته في آخرته ، وضمنت السماوات والأرض رزقه ، وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر** »[٤] .

٦ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم ، فليس**

---

(١) الكافي : ٢/٣٤٨ ، باب اتّباع الهوى ، الحديث ٣/٢٦٦٤. الوسائل : ١٦/٥٨ ، باب تحريم اتّباع الهوى ، الحديث ٢/٢٠٩٧٢.

(٢) الكافي : ٢/٣٤٨ ، الحديث ٢/٢٦٦٣. الوسائل : ١٥/٢٧٩ ، باب وجوب إيثار رضى الله ، الحديث ٣/٢٠٥١١.

(٣) الوسائل : ١٥/٢٧٩ ، الحديث ١/٢٠٥٠٩.

(٤) المصدر المتقدّم : ٢٧٨ ، الحديث ٢/٢٠٥١٠.

بشيء أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»[١].

٧ـ وعن أحدهم عليهم السلام: **«جاهد هواك كما تجاهد عدوّك»**[٢].

وواضح من مجموع الآيات والأخبار أنّ اتّباع الهوى يعني الخروج عن العبوديّة لله تعالى، وترك اختيار ما اختاره للإنسان من خير وسعادة وقرب، إلى اختيار هوى النفس التي تهوى زينة الحياة الدنيا مقطوعة عن خالقها بطغيانها. وإذا علمنا بأنّ لله في كلّ واقعة حكماً علمنا بأنّ تعمّد كلّ مخالفة لحكمه تعالى إنّما هو اتّباع لهوى النفس، سواء أكان هذا التعمّد تعمّداً لإهمال معرفة أحكامه عزّ وجلّ، أم كان تعمّداً لمخالفتها بعد العلم بها.

والنتيجة الحتميّة لاتّباع كلّ فرد هواه مع اختلاف الأهواء باختلاف مصادرها، هي التضادّ والتباين في الإرادات، ومن ثمّ وقوع الاختلاف والفساد بين النّاس في تشريعاتهم وتصرّفاتهم، وكلّ شأن من شؤونهم، وبذلك يخسرون السعادة في دنياهم قبل خسرانهم في آخرتهم بطغيانهم على ربّهم، وبعدهم عنه تعالى.

٣ ـ التعصّب

يأتي التعصّب في اللغة لعدّة معانٍ، **منها** شدّ العصابة، **ومنها** الإتيان بالعصبيّة، **ومنها** التقنّع بالشيء، والرضا به[٣].

والمراد منها بهذا العنوان هو «الإتيان بالعصبيّة»، وهي الإفراط في الحبّ بداعي هوى النفس، إلى الحدّ الذي يرى فيه الشرّ خيراً.

---

(١) الوسائل: ١٦/٥٧، باب تحريم اتّباع الهوى، الحديث ١/٢٠٩٧١. الكافي: ٢/٣٤٧، باب اتّباع الهوى، الحديث ١/٢٦٦٢.

(٢) الوسائل: ١٥/٢٨٠، باب وجوب إيثار رضى الله، الحديث ٥/٢٠٥١٣.

(٣) القاموس المحيط: ١١٥، مادة «عَصَبَ».

وقد مثّل لها الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام فيما روي عنه أنّه قال : « **العصبيّة التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه ، ولكنّ العصبيّة أن يعين الرجل قومه على الظلم** »[١].

وكما يكون التعصّب في المثالين اللذين وردا في هذا الحديث ، يكون أيضاً في أُمور أُخرى ، كالتعصّب للذات وللمعتقدات وللعادات .

فكم مَن دخل معركة أو صراعاً أو نقاشاً أو خلافاً مع الآخرين ، دون أن يكون المحفّز لهذا هو رؤية الحقّ أو أمر الشرع ، بل قد يلام أو يعاب مَن لا يعين صديقه أو قريبه أو رفيقه وإن كان ظالماً ، حتّى اشتهر في الجاهليّة قولهم : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أبان للنّاس بأنّ الانتصار لا ينبغي أن يكون إلّا للحقّ والعدل مهما كان مصداقه بعيداً بالاعتبارات الجاهليّة ، فقال صلى الله عليه وآله : « **انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً** » ، فقيل : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : « **تأخذ فوق يديه** »[٢]. هذا هو النصر الحقيقي ، بأن تحمله على ترك الظلم لينتصر على نفسه الأمّارة ويفلح بالسعادة الأبديّة ، أمّا أن أعينه على ظلمه لأنّه صديق أو لأنّه قريب فقد أغريته بالظلم وأرديته في الهاوية .

ومن هنا فالانتصار للحقّ على الباطل مهما كلّف من تضحيات ليس تعصّباً مذموماً ، بل هو الجهاد بعينه ، ومن هنا فالتعصّب المعيب شرعاً ما كان مجانباً للحقّ ومبعداً عنه ، وما كان نصراً للباطل وعوناً للظلم ، وهو حالة متخلّفة لا تجتمع مع الإيمان بالله وتوحيد الفعال باتجاه رضاه ، ووردت أخبار عدّة بذمّها أذكر منها :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **مَن كان في قلبه حبّة من خردل من عصبيّة بعثه الله**

---

(١) الكافي : ٣٢٣/٢ ، باب العصبيّة ، الحديث ٧/٢٥٥٠. الوسائل : ٣٧٢/١٥ ، باب تحريم التعصّب على غير الحقّ ، الحديث ٧/٢٠٧٧٨.

(٢) صحيح البخاري : ٩٨/٣ ، كتاب المظالم .

يوم القيامة مع أعراب الجاهليّة »[١] .

« مَن تعصّب أو تعصّب له ، فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه »[٢] .

« مَن تعصّب عصبه الله بعصابة من نار »[٣] .

٢ ـ عن عليّ بن الحسين عليه السلام ، قال : **« لم يدخل الجنّة حمية غير حمية حمزة بن عبدالمطلب ، وذلك حين أسلم غضباً للنبيّ صلى الله عليه وآله في حديث السلا الذي اُلقي على النبيّ صلى الله عليه وآله »**[٤] .

والحميّة هي الأنفة الداعية لحماية الشيء ، وهي نمط من أنماط العصبيّة[٥] ، غير أنّ حميّة حمزة هذه كانت انتصاراً للإسلام في وقت كان النبيّ صلى الله عليه وآله يواجه ألوان الأذى .

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : **« إنّ الملائكة كانوا يحسبَون أنّ إبليس منهم ، وكان في علم الله أنّه ليس منهم ، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب . وقال : خلقتني من نار وخلقته من طين »**[٦] .

وفي هذا الحديث إشارة إلى أمر لا يحسن بنا تجاوزه ، وهو : إنّ بعض النفوس المظلمة البعيدة عن الحقّ قد تصدر عنها أفعال توافق وتشابه ما أمر به الله تعالى

---

(١) الكافي : ٣٢٣/٢ ، باب العصبيّة ، الحديث ٣/٢٥٤٦ . الوسائل : ٣٧٠/١٥ ، باب تحريم التعصّب على غير الحقّ ، الحديث ٢/٢٠٧٧٣ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٢/٢٥٤٥ . الوسائل : ٣٧٠/١٥ ، باب تحريم التعصّب على غير الحقّ ، الحديث ١/٢٠٧٧٢ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/٢٥٤٧ . الوسائل : ٣٧١/١٥ ، باب تحريم التعصّب على غير الحقّ ، الحديث ٣/٢٠٧٧٤ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٥/٢٥٤٨ .

(٥) انظر القاموس المحيط : ١٢٧٦ ، مادة « حمى » .

(٦) الكافي : ٣٢٣/٢ ، باب العصبيّة ، الحديث ٦/٢٥٤٩ .

وما نهى عنه ، ولكنّها لم تفعلها بداعي أنّها حقّ أو بداعي أنّ الله أمرها بها ونهاها عنها ، وإنّما بداعي هوى النفس ، فما دامت هذه التكاليف منسجمة مع الهوى كانت هذه النفوس مطيعة لها ، ولكنّها طاعة للنفس ، ففي الظاهر من الأفعال المحسوسة يبدو أنّ هذا الشخص من الأخيار لأنّه يعمل ظاهراً كما يعملون من عبادات وغيرها ، ولا ينكشف حاله وخبث نفسه إلّا إذا اصطدمت هذه التكاليف بهواه ، وحينئذٍ يبين أمره ويتّضح أنّ ما كان عليه إنّما هو عبادة لنفسه لا لربّه .

وممّا يظهر حقيقة النفس على ما هي عليه : الحمية والغضب والتعصّب ، ـ فإبليس فيما يقصّ عنه الكتاب المجيد والسنّة الشريفة ـ قد عبد الله قرابة أربعة آلاف سنة ، وحينما أُمر أن يسجد لآدمعليه السلام أبى واستكبر ؛ لأنّه يرى نفسه أفضل من آدم عنصراً فكيف يسجد للمفضول[١] ؟

وبهذا المحكّ بان أنّ طاعته كانت لغير ربّه ، وإلّا لما تخلّف عن هذا الامتثال ؛ لأنّ الأمر في جميع الأحوال هو الله تعالى ، ومن كانت طاعته لله تعالى لا يكون لنفسه ترجيح لما وافق هواها على ما خالفه ، إلّا ما كانت عاجزة عنه ، والعجز رافع للتكليف ، ولو التفتنا لكثير من أعمالنا لوجدناها لا تختلف عن طاعة إبليس وإلّا لما اخترنا من الطاعات ما وافق النفس وتركنا ما خالفها ، اللّهمّ وفّقنا لأن نصدق في صلاتنا حينما نقول : إِيَّاكَ نَعْبُدُ ؛ لأنّ معناها لا نعبد إلّا إيّاك ، ولا نعبد غيرك ، ومَن كان كذلك لا يطيع نفسه وهواها في حال من الأحوال ، وإن كنّا نغفل عنك اللّهمّ فوفّقنا للاستغفار والتوبة من غفلتنا هذه وممّا يصدر عنها من مخالفات .

---

(١) انظر قصّة إبليس في كتب التفسير : سورة البقرة : الآية ٣٤ ، سورة الأعراف : الآية ١١ ، سورة الإسراء : الآية ٦١ وغيرها من الآيات .

راجع تفسير الميزان ٨ : ٢٥ ، تفسير سورة الأعراف : الآية ١١ . مجمع البيان : ١٦٢/١ ، تفسير سورة البقرة : الآية ٣٤.

٤ ـ الغضب

الغضب في الإنسان انفعال نفسي تصحبه أحياناً عوارض بدنيّة كاحمرار العينين وانتفاخ الأوداج.

وهو بهذا المعنى لا يوصف به الله عزّ وجلّ. وما ورد في الكتاب المجيد من وصفه به فهو محمول على عقابه على ما يصدر من العباد من سيّئات، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾[١].

ومن مصاديق العقاب بُعد المذنب عن ربّه وحجبه عن معرفته، فيكون إطلاق الغضب على الله سبحانه إطلاقاً مجازياً من باب إطلاق ما وضع للمؤثّر على أثره، وإلّا فإنّ الله لا ينفعل بذنوب عباده، ولا يتّصف بالأحوال التي تتّصف بها نفوس البشر ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾[٢].

أمّا البشر فهم جميعاً، ممّن فيهم الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون، يمكن أن يعرض عليهم الغضب. قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾[٣].

فالآية الكريمة وصفت موسى عليه السلام بالغضب من عبادة قومه للعجل.

وفي آية أُخرى وصف سبحانه المؤمنين بالغضب فقال: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾[٤].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٤.

(٤) سورة الشورى: الآيتان ٣٦ و ٣٧.

وفي الحديث عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حقّ ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، وإذا قدر لم يأخذ أكثر من ماله** »(١) .

بل ورد في بعض الأخبار الحثّ على الغضب لما يُغضب الله سبحانه ، فعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **أوحى الله إلى شعيب النبيّ عليه السلام : أنّي معذّب من قومك مئة ألف : أربعين ألفاً من شرارهم ، وستّين ألفاً من خيارهم فقال عليه السلام : يا ربّ ، هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار ؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي** »(٢) .

وعن عليّ بن الحسين عليهما السلام ، قال : « **قال موسى بن عمران عليه السلام : يا ربّ ، مَن أهلك الذين تظلّهم في ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلّا ظلّك ؟ فأوحى الله إليه : الطاهرة قلوبهم ، والبريئة أيديهم ، الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم** » -إلى أن قال : - « **والذين يغضبون لمحارمي إذا استُحلّت ، مثل النمر إذا جرح** »(٣) .

من هذه النصوص يستفاد أنّ الغضب ممكن ، بل واقع ، صدوره من المؤمن ، إلّا أنّ الإيمان يحول دون خروج صاحبه عن الحقّ ، ويجنّبه بذلك المحْق .

فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **أوحى الله عزّ وجلّ إلى بعض أنبيائه : يابن آدم ، اذكرني عند غضبك أذكرك في غضبي ، لا أمحقك فيمن أمحق ، وارضَ بي منتصراً ، فإنّ انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك** »(٤) .

---

(١) الكافي : ٢/٢٦٠ ، باب المؤمن وعلاماته ، الحديث ١١/٢٢٨٢ . الوسائل : ٣٥٨/١٥ ، باب وجوب تسكين الغضب ، الحديث ١/٢٠٧٣١ ، ولكن ورد فيها : « ممّا له » ، وما أثبتناه هو الصحيح .

(٢) الوسائل : ١٤٦/١٦ ، باب وجوب الغضب لله ، الحديث ١/٢١٢٠١ .

(٣) المصدر المتقدّم : ١٤٧ ، الحديث ٣/٢١٢٠٣ .

(٤) الكافي : ٣١٨/٢ ، باب الغضب ، الحديث ٨/٢٥٢٩ . الوسائل : ٣٦٤/١٥ ، باب وجوب ذكر الله عند الغضب ، الحديث ١/٢٠٧٥١ .

ومن هذه النصوص يستفاد أيضاً تقييد ما ورد في ذمّ الغضب من إطلاقات الأخبار الآتية، وهي:

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**الغضب مفتاح كلّ شر**»[1].

٢ ـ وعنه أيضاً، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخلّ العسل**»[2].

٣ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه رجل فقال له: يا رسول الله، علّمني عظة أتّعظ بها؟ فقال: انطلق فلا تغضب، ثمّ عاد إليه فقال: انطلق فلا تغضب ثلاث مرّات**»[3].

٤ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إنّ هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وأنّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض، فإنّ رجس الشيطان ليذهب عنه عند ذلك**»[4].

٥ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**إنّ الرجل ليغض حتّى ما يرضى أبداً ويدخل بذلك النّار، فأيّما رجل غضب وهو قائم فليجلس، فإنّه سيذهب عنه رجس الشيطان، وإن كان جالساً فليقم، وأيّما رجل غضب على ذي رحم فليقم إليه وليدن منه وليمسّه، فإنّ الرحم إذا مسّت الرحم سكنت**»[5].

٦ ـ وعنه عليه السلام أيضاً قال: «**أي شيء أشدّ من الغضب؟ إنّ الرجل ليغضب فيقتل**

---

(١) الوسائل: ٣٦٢/١٥، باب وجوب تسكين الغضب، الحديث ١٦/٢٠٧٤٦.

(٢) المصدر المتقدّم: ٣٥٨، الحديث ٢/٢٠٧٣٢.

(٣) المصدر المتقدّم: ٣٦٠، الحديث ٨/٢٠٧٣٨.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ١٢/٢٠٧٤٢.

(٥) المصدر المتقدّم: ٣٦٣، الحديث ١٩/٢٠٧٤٩.

النفس التي حرّم الله، ويقذف المحصنة»[١].

٧ـ وعن النبيّ ﷺ، قال: «**أركان الكفر أربعة: الرغبة والرهبة والسخط والغضب**»[٢].

فهذه الأخبار السبعة وأمثالها ممّا ورد فيها ذمّ الغضب مطلقاً، يقيّد إطلاقها بـ:

أ ـ بما لو كان الغضب لله، ومن أجل الحقّ الذي أمر به ونهى عن مجانبته؛ لأنّ هذا النوع من الغضب راجح.

ب ـ بما ورد من الحثّ على كفّ النفس عن القيام بما يترتّب على الغضب عادةً من أقوال وأفعال منكرة، وبهذا عدّة أخبار أذكر منها:

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**مَن كفّ نفسه عن أعراض النّاس كفّ الله عنه عذاب يوم القيامة، ومَن كفّ غضبه عن النّاس أقال الله نفسه يوم القيامة**»[٣].

٢ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**مَن كفّ غضبه ستر الله عورته**»[٤].

ومع أنّ الغضب لغير الله تعالى لا ينافي الإيمان إذا لم يترتّب عليه فعل منكر، إلّا أنّه ينافي الدرجات العليا منه فضلاً عمّا فوق الإيمان من درجات، كدرجة الورع أو اليقين أو الرضا؛ لأنّ نفوس ذوي هذه الدرجات السامية لا تنفعل لشيء إلّا من خلال ربّها فلا تغضب لغيره قطّ، بل قد تتسامى إلى الحدّ الذي لا تلتفت معه إلى نفوسها فضلاً عن كونها غير ملتفتة إلى حال من أحوال نفوسها. ولكنّ هذه الدرجة لا ينالها إلّا ذو حظّ عظيم في معرفة النفس ومعرفة الربّ[٥].

---

(١) الوسائل: ٣٥٩/١٥، باب وجوب تسكين الغضب، الحديث ٧/٢٠٧٣٧.

(٢) المصدر المتقدّم: ٣٣٩، باب جملة ممّا ينبغي تركه، الحديث ٢/٢٠٦٨٥. الكافي: ٣٠٦/٢، باب اُصول الكفر وأركانه، الحديث ٢/٢٤٦٥.

(٣) المصدر المتقدّم: ٣٦٢، باب وجوب تسكين الغضب، الحديث ١٧/٢٠٧٤٧.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ١٨/٢٠٧٤٨.

(٥) لأنّ أعظم الحكمة معرفة الإنسان نفسه، كما مرّ بك هذا الخبر عن عليّ عليه السلام في الصفحة ٢٠، والغضب لا يجتمع مع الحكمة، بل يمحقها من قلب من يحلّ فيه. ⇦

٥ ـ التكبّر والتجبّر:

أ ـ معناهما

التكبّر والتجبّر ـ كما تفيده صيغتهما ـ أن يرى المتّصف بهما نفسه كبيراً وجبّاراً، وذكر بعض اللغويّين أنّهما بمعنى واحد[١].

ولكن بملاحظة مبدأ اشتقاقهما يفهم اختلاف مفهوميهما وإن كان مصداقهما واحداً للملازمة بين معنييهما. فإنّ من يرى نفسه أكبر من غيره، يحمله بالإجبار على الانصياع والخضوع لتنفيذ إرادته، فالتجبّر من لوازم التكبّر.

وممّا يؤكّد اختلاف المفهومين ـ إضافة لاختلاف مبدأ الاشتقاق ـ ورودهما في القرآن الكريم اسمين من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ **هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[٢]، وأسماؤه عزّ وجلّ مختلفة المفاهيم وإلّا لما كانت تسعة وتسعين اسماً.

ويؤكّده أيضاً ورود الجبّار صفة للمتكبّر في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾[٣].

⇦ فعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**الغضب ممحقة لقلب الحكيم**»، و«**أفضل العقل معرفة المرء نفسه**» كما مرّ في الصفحة المذكورة أيضاً، و«**مَن لم يملك غضبه لم يملك عقله**» كما عن أبي عبدالله عليه السلام. انظر الوسائل: ١٥/٣٦٠، الحديث ١١/٢٠٧٤١، فكيف يجتمع الغضب والانفعال المترتّبة عليه مع معرفة النفس ومعرفة الربّ؟

(١) القاموس المحيط: ٣٦٠، مادة «جبر».

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٣) سورة غافر: الآية ٣٥.

ومعلوم أنّ الصفة مفهوماً غير الموصوف ، وهي لازم من لوازمه .

ولا يمنع تعدّد معناهما من وحدة منشئهما ووحدة أثرهما التي وردت فيها الأحاديث الشريفة .

وممّا دلّ على وحدة المنشأ ما روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : « **ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلّا لذلّة يجدها في نفسه** »[1] يفيد العطف بـ(أو) تغاير المفهومين ،كما يفيد الحديث حصر منشأ الوصفين بالشعور بالنقص الذي يحاول صاحبه إخفاءه بهما أو بأحدهما .

وممّا يدلّ على وحدة الأثر ما روي عن أبي عبدالله عليه السلام من قوله :

١ ـ « **الكِبَر أن تغمص النّاس وتسفّه الحقّ** »[2] .

٢ ـ « **إنّما الجبّار الملعون من غمص النّاس وجهل الحقّ** »[3] ، والأثر قد يكون متسبّباً عن شيئين كتسبّب الحمّى عن مرضين متغايرين .

وخلاصة القول في معناهما : أنّ التكبّر لدى الإنسان أن يدّعي المتّصف به الكبر لنفسه ، بأن يراها كبيرة على نحو الجهل المركّب ، أو يشعر بنقصها وحقارتها ، فظاهر بالكبر تعويضاً عن هذا الشعور ، والتجبّر صفة تتجلّى بإجبار الآخرين على تنفيذ الإرادة .

ب ـ دلالات الكبر

يدلّ الكبر على أنّ صاحبه ذو نفس شريرة مظلمة تزداد في تردّيها هبوطاً وسفالاً

---

(١) الوسائل : ١٥/٣٨٠ ، باب تحريم التجبّر والتيه والاختيال ، الحديث ٣/٢٠٨٠١.

(٢) الوسائل : ١٦/٦ ، باب حدّ التكبّر ، الحديث ٢/٢٠٨١٥. الكافي : ٢/٣٢٥ ، باب الكِبر ، الحديث ٨/٢٥٥٨.

(٣) المصدر المتقدّم : ٧ ، الحديث ٥/٢٠٨١٨. الكافي : ٢/٣٢٦ ، باب الكِبر ، الحديث ١٣/٢٥٦٣.

يوماً بعد يوم ، فعن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **الكبر قد يكون في شرار النّاس من كلّ جنس ، والكبر رداء الله ، فمن نازع الله رداءَه لم يزدد إلّا سفالاً . إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله مرّ في بعض طرق المدينة وسوداء تلقط السرقين**[١] ، **فقيل لها : تَنحّي عن طريق رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فقالت : إنّ الطريق لمعرض ، فهمّ بها بعض القوم أن يتناولها ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : دعوها فإنّها جبّارة** »[٢] ، ووصفت بعض الأخبار الكبر بانّه نوع من أنواع الإلحاد ودرجة من درجاته ، فعن بعض الرواة قال :

سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن أدنى الإلحاد ؟ قال : « **إنّ الكبر أدناه** »[٣] .

وعن بعضهم قال : سألت أبا الحسن عليه‌السلام عن أدنى الإلحاد ؟ قال : « **الكبر** »[٤] .

وعن أبي جعفر عليه‌السلام ، قال : « **الكبر رداء الله ، والمتكبّر ينازع الله رداءه** »[٥] .

ومن هذا كلّه يعرف أنّ الكبر دالّ على خلوّ صاحبه من أدنى مراتب الإيمان ، إن لم أقل بخلوّه من صفة الإسلام ، فعن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **إنّما الكبر إنكار الحقّ والإيمان الإقرار بالحقّ** »[٦] ، وهما ضدّان لا يجتمعان .

ج ـ عقوبة المتكبّر المتجبّر

العقوبة العاجلة للمتكبّر المتجبّر هي جهله بنفسه ، وما يترتّب على هذا الجهل من آثار دنيويّة ، فهو مبغوض لدى الآخرين ، منبوذ في مجتمعه ، حاقد على مَن

---

(١) السرقين : فضلات الماشية .

(٢) الكافي : ٢/٣٢٤ ، باب الكبر ، الحديث ٢/٢٥٥٢ . الوسائل : ١٥/٣٨٠ ، باب تحريم التجبّر والتيه ، الحديث ٤/٢٠٨٠٢ .

(٣) الكافي : ٢/٣٢٤ ، باب الكِبر ، الحديث ١/٢٥٥١ . الوسائل : ١٥/٣٧٤ ، باب تحريم التكبّر ، الحديث ١/٢٠٧٨١ .

(٤) الوسائل ١٥ : ٣٧٧ ، باب تحريم الكِبر ، الحديث ١٢/٢٠٧٩٢ .

(٥) المصدر المتقدّم : ٣٧٥ ، الحديث ٥/٢٠٧٨٥ .

(٦) الوسائل : ١٦/٧ ، باب حدّ التكبّر والتجبّر ، الحديث ٦/٢٠٨١٩ .

لا يخضع لإرادته ، فاقد للاستقرار ، يصارع النّاس حتّى يصرعه شرّه ، ثمّ ينتقل إلى ما قدّمه من شرور ليلقى هناك جزاءه .

فعن رسول الله ﷺ ، قال : « **يُحشر المتكبّرون يوم القيامة في خلق الذرّ في صور النّاس ، يوطئون حتّى يفرغ الله من حساب خلقه ، ثمّ يسلك بهم إلى النّار ، يسقون من طينة خبال من عصارة أهل النّار** »[١] .

وعنه ﷺ ، قال : « **لن يدخل الجنّة مَن في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر ، ولا يدخل النّار من في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان** »[٢] .

وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **العزّ رداء الله ، والكبر إزاره ، فمن تناول شيئاً منه أكبّه الله في جهنّم** » ، وفي خبر آخر : « **قصمه الله وأذلّه يوم القيام** »[٣] .

والعقوبة الأشدّ من كلّ هذه العقوبات هي البعد عن الله تعالى ، فقد روي عن أبي عبدالله عليه السلام قوله : « **الجبّارون أبعد النّاس من الله عزّ وجلّ يوم القيامة** »[٤] .

٦ ـ الحسد

الحسد لغة : تمنّي زوال نعمة الغير ، أو تمنّي تحوّلها إلى الحاسد ، ماديّة كانت النعمة أم معنوية .

وهو يختلف عن الغبطة ؛ لأنّ معناها تمنّي مثل ما عند الغير من نعمة ، مع بقاء نعمة الغير على حالها[٥] . ويطلق الحسد على معاينة شيء بإعجاب واستكثار ، معاينة تتسبّب في الأضرار به ، وهو المسمّى بـ(العين) ، وفي تأثير هذا النوع

---

(١) الوسائل : ١٥/٣٧٨ ، باب تحريم التجبّر والتيه والاختيال ، الحديث ١٥/٢٠٧٩٥ .

(٢) الوسائل : ١٦/٧ ، باب حدّ التكبّر والتجبّر ، الحديث ٦/٢٠٨١٩ .

(٣) الوسائل : ١٥/٣٧٤ ، باب تحريم التكبّر ، الحديث ٢/٢٠٧٨٢ و : ٩/٢٠٧٨٩ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٣٨١ ، باب تحريم التجبّر والتيه والاختيال ، الحديث ٧/٢٠٨٠٥ .

(٥) القاموس المحيط : ٦٧٩ ، مادة « غبط » .

من الحسد خلاف.

فانكره البعض لعدم ثبوته بحجّة، وجوّزه آخرون محتجّين عليه بأدلّة، منها:

١ ـ ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «**إنّ العين حقّ، والعين تستنزل الحالق**»(١).

والحالق المكان المرتفع من الجبل وغيره، فجعل صلى الله عليه وآله العين كأنّها تحطّ ذروة الجبل من قوّة أخذها وبطشها.

٢ ـ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بأن يقول: «**أُعيذكما بكلمات الله التامّة، من كلّ شيطان وهامة، ومن كلّ عين لامّة**»(٢).

وروي أنّ إبراهيم عليه السلام عوّذ ابنيه بهذه العوذة، وكذلك فعلها موسى عليه السلام لابني هارون عليه السلام.

٣ ـ روي أنّ بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله، إنّ العين إليهم سريعة، فاسترقي لهم من العين، فقال صلى الله عليه وآله: «**نعم**»، وأنّ جبرائيل رقى رسول الله وعلّمه الرقية، وهي: بسم الله، أُرقيك من كلّ عينِ حاسدٍ اللهُ يشفيك(٣).

٤ ـ روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «**لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين**»(٤).

٥ ـ وعن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**كاد الحسد أن يسبق القدر**». وفي رواية أُخرى عنه صلى الله عليه وآله: «**كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر**»(٥).

واختلف المجوّزون في كيفيّة تأثير الحسد ووجه التأثير، فالجاحظ علّله بانفصال أجزاء لطيفة من عين الحاسد تتّصل بالمحسود وتؤثّر فيه، وهي خاصّة ببعض

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/٦، باب تأثير السحر والعين وحقيقتهما.

(٢) مستدرك الوسائل: ٤/٣١٦، باب جواز العوذة والرقية والنشرة، الحديث ٤/٤٧٧١.

(٣) و (٤) بحار الأنوار: ٦٠/٧، باب تأثير السحر والعين وحقيقتهما.

(٥) الوسائل: ١٥/٣٦٥، باب تحريم الحسد ووجوب اجتنابه، الحديث ٤/٢٠٧٥٧.

الأعين دون بعض .

وقال القاضي وأبو هاشم أنّه فعل الله تعالى بالعادة لمصلحة عباده . وقال الشريف الرضيّ : أنّ الشيء إذا عظم في نفس العباد وضع الله قدره وصغر أمره وغيّر حاله ، وبالتعويذ رجوع إلى الله تعالى عن الركون إلى الدنيا وتعظيم ما فيها .

ومهما يكن أمر هذا النوع من الحسد فإنّه ليس موضوع بحثنا ، وينحصر غرضنا بالحسد بالمعنى الأوّل .

وهو تمنّي زوال نعمة الغير مطلقاً أو تحوّلها إلى الحاسد ، وهو بهذا المعنى صفة نفسيّة تكشف عن أنانيّة النفس وظلمها وعدوانيّتها ، أو عن عدم معرفة حكمة الله تعالى وعدله في توزيع نعمه على خلقه . ولذا فهو بالاعتبار الثاني أصل من أُصول الكفر ، وبالاعتبار الأوّل آفة الدين وآكلة الإيمان .

فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**أُصول الكفر ثلاثة : الحرص والاستكبار والحسد**»(١).

وعنه عليه السلام ، قال : «**آفة الدين الحسد والعجب والفخر**»(٢).

وقال عليه السلام : «**إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب**»(٣).

فلا يجتمع الإيمان والحسد في قلب واحد ، بل إنّ الحاسد ساخط لنعمة الله على عباده ، منافق في تعامله معهم .

فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد ، والمنافق يحسد ولا يغبط**»(٤).

---

(١) الوسائل : ٣٦٧/١٥ ، باب تحريم الحسد ووجوب اجتنابه ، الحديث ١٠/٢٠٧٦٣ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٣٦٦ ، الحديث ٥/٢٠٧٥٨ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٣٦٥ ، الحديث ١/٢٠٧٥٤ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٣٦٦ ، الحديث ٧/٢٠٧٦٠ . الكافي : ٣٢٢/٢ ، باب الحسد ، الحديث ٧/٢٥٤٣ .

وعنه عليه السلام أيضاً، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قال الله عزّ وجلّ لموسى بن عمران: يابن عمران، لا تحسدنّ النّاس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدّن عينك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك، فإنّ الحاسد ساخط لنعمي، صادٌّ لقسمي الذي قسمت بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّي**»(١).

وللحسد أثر وضعي في صدّ النعمة عن المحسود، كما تدلّ عليه عبارة «صادّ لقسمي»، وحديث: «**كاد الحسد أن يغلب القدر**»، وأمثالهما، وفي صحّة الحاسد، كما دلّ عليه ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال: «**صحّة الجسد من قلّة الحسد**»(٢) الدالّ بمفهومه على أنّ كثرة الحسد تذهب صحّة الجسم، نتيجة للحقد على الآخرين، وما يستتبعه من همّ وغمّ لعدم تحقّق آمانيه بزوال نِعم الآخرين أو تحوّلها إليه.

والحسد بما هو اُمنية كامنة في النفس من دون سعي بفعل أو قول مترتّب عليه، لا يعاقب عليه صاحبه؛ لما تفضّل الله سبحانه على عباده بعدم المؤاخذة على شرور النفس ما لم تتجلّ بالأفعال والأقوال، ويدلّ على رفع العقوبة بهذا الخصوص ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لأصحابه: «**ألا أنّه قد دبّ إليكم داء الاُمم من قبلكم، وهو الحسد، ليس بحالق الشعر، لكنّه حالق الدين، وينجى فيه أن يكفّ الإنسان يده، ويخزن لسانه، ولا يكون ذا غمز على أخيه المؤمن**»(٣).

وكذا ما روي عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**وضع عن اُمّتي تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطرّوا إليه، وما استُكرهوا عليه، والطيرة،**

---

(١) الوسائل: ٣٦٦/١٥، باب تحريم الحسد، الحديث ٦/٢٠٧٥٩. الكافي: ٣٢٢/٢، باب الحسد، الحديث ٦/٢٥٤٢.

(٢) المصدر المتقدّم: ٣٦٨، باب تحريم الحسد، الحديث ١٤/٢٠٧٦٧. نهج البلاغة: ٥١٣، باب المختار من حِكم أمير المؤمنين، الحكمة ٢٥٦.

(٣) المصدر المتقدّم: ٣٦٨، الحديث ١٥/٢٠٧٦٨.

والوسوسة في التفكّر في الخلق ، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد »[١] .

ومع هذا الوضع أو الرفع أو النجاة من العذاب ، فإنّ ظلمة الحسد في النفس تبعدها عن معرفة ربّها والقرب منه .

٧ ـ الظلم والإعانة عليه :

أ ـ الظلم لغة: وضع الشيء في غير موضعه[٢] ، ومنه الظلام ، باعتبار أنّ الأصل هو النُّور ، فيكون حجبه خلافاً للأصل ، فهو في غير موضعه .

وعلى أساس من أنّ الله سبحانه قد خلق الكون ووضع له نظاماً ، وخلق الإنسان مختاراً في أفعاله ووضع له نظاماً أيضاً ، يكون تغيير الإنسان للنظامين وضعاً للشيء في غير موضعه فيكون ظلماً .

وعلى أساس من أنّ الله عزّ وجلّ مالك الملك بما فيه الإنسان ، فتصرّف الإنسان في ملك ربّه دون إذن منه هو ظلم وعدوان أيضاً ، بل حتّى تصرف الإنسان نفسه ـ باعتباره ملكاً لمولاه تعالى ـ بدون إذنه يكون كذلك .

ومن جهة اُخرى ، فإنّ الله سبحانه خلق الإنسان لغرض ، وهو عبادته ، وأفضل أنواعها معرفته ، فأيّ فعل منه يحجبه عن هذا الغرض هو ظلم أيضاً .

وأنّ الله سبحانه جعل لنفسه حقّاً على عباده ، وجعل للمخلوقات حقوقاً بعضها على البعض ، فكلّما حصل تقصير ممّن جعل عليه الحقّ في أدائه كان هذا التقصير ظلماً ، بما في ذلك التقصير بحقّ نفس المكلّف بأداء الحقّ لنفسه .

وهكذا يمكننا من هذه الاُسس الاعتقاديّة أن نحدّد الظلم ونعرفه ونميّزه عن العدل .

---

(١) الوسائل : ١٥/٣٧٠ ، باب جملة ممّا عفي عنه ، الحديث ٢٠٧٧١/٣ .

(٢) القاموس المحيط : ١١٣٤ ، مادة « ظلم » .

أمّا إذا جهلنا هذه الأُسس أو أنكرناها ، فسنجهل تبعاً لذلك حقيقة الظلم . وحينئذٍ نبقى نتخبّط للبحث عن مقياس الظلم والعدل ، وتتعدّد المقاييس بتعدّد الآراء والأهواء ، حتّى يصف البعض فعلاً بالظلم ، ويراه آخرون عين العدل ، مع أنّ اختلافنا هذا هو الظلم بعينه ؛ لأنّ الله تعالى خلقنا لنوحّده ولنتوحّد على توحيده بعبادته وفق نظام وضع لكلّ ذي حقّ حقّه ، وحدّد لكلّ تصرّف موضوعاً وحكماً .

فحقيقة الظلم إذن : ما نحدثه في نفوسنا من ظلمات وحجب تحول دون معرفة الحقّ وإدراك النور الذي لا يحدّه حدّ . أمّا الإعانة عليه : فهي من العون بمعنى الظهير(١) ، كمن يغري الغير على وضع الشيء في غير موضعه ، أو يمكّنه من ذلك بمال أو سلاح أو أيّ فعل أو قول يساعده على الظلم والبعد عن الحقّ ورؤيته .

والمعين شريك للظالم ، فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **العامل بالظلم ، والمعين له ، والراضي به شركاء ثلاثتهم** »(٢) .

بل في بعض الأخبار أنّه شرٌّ من الظالم نفسه ؛ لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيّته لعليّ عليه السلام أنّه قال :

« **يا عليّ ، شرّ النّاس من باع آخرته بدنياه ، وشرّ منه من باع آخرته بدنيا غيره** »(٣) .

وهو ينطبق على المعين على الظلم لأنّه بهذه الإعانة بَعد عن الله تعالى من أجل لذّة غيره بدنياه ، من تسلّط أو غصب أو شهوات وغيرها من المظالم ، أمّا المعين فلم يحصل على شيء من ذلك إلّا خسران آخرته .

---

(١) القاموس المحيط : ١٢١٧ ، مادة « عون » .

(٢) الكافي : ٣٤٦/٢ ، باب الظلم ، الحديث ١٦/٢٦٥٤ . الوسائل : ٥٥/١٦ ، باب تحريم الرضا بالظلم ، الحديث ١/٢٠٩٦٥ .

(٣) الوسائل : ٣٤/١٦ ، باب تحريم الفحش ، الحديث ١١/٢٠٩٠٢ و : ٥٦ ، باب تحريم الرضا بالظلم ، الحديث ٤/٢٠٩٦٨ .

وبعد أن بان لنا مفهوم الظلم والإعانة عليه ، يسهل علينا معرفة مصاديقه ، وهي على الإجمال : مجمل التقصير في أداء الحقوق التي شرّعها الله سبحانه وتعالى .

وقد تضمّنت جملة منها رسالة الإمام زين العابدين عليه السلام الموسومة برسالة الحقوق ، يحسن بنا إيرادها هاهنا من أجل بلورة معنى الظلم قبل الحديث عن آثاره وعقوبته .

ب ـ رسالة الحقوق(١) : روى محمّد بن عليّ بن الحسين ، بإسناده عن إسماعيل بن الفضل ، عن ثابت بن دينار ، عن سيّد العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، قال :

« فَأَمّا حَقُّ اللهِ الْأَكْبَرُ فَإِنَّكَ تَعْبُدُهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، فَإِذا فَعَلْتَ ذلِكَ بِإِخْلَاصٍ جَعَلَ لَكَ عَلىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَكْفيَكَ أَمْرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَيَحْفَظَ لَكَ ما تُحِبُّ مِنْها .

وَأَمّا حَقُّ نَفْسِكَ عَلَيْكَ فَأَنْ تَسْتَوْفيها في طاعَةِ اللهِ ، فَتُؤَدّي إِلىٰ لِسانِكَ حَقَّهُ ، وَإِلىٰ سَمْعِكَ حَقَّهُ ، وَإِلىٰ بَصَرِكَ حَقَّهُ ، وَإِلىٰ يَدِكَ حَقَّها ، وَإِلىٰ رِجْلِكَ حَقَّها ، وَإِلىٰ بَطْنِكَ حَقَّهُ ، وَإِلىٰ فَرَجِكَ حَقَّهُ ، وَتَسْتَعينَ بِاللهِ عَلىٰ ذلِكَ .

وأَمّا حَقُّ اللِّسانِ فَإِكْرامُهُ عَنِ الْخَنىٰ ، وَتَعْويدُهُ عَلَى الْخَيْرِ ، وحَمْلُهُ عَلَى الْأَدَبِ ، وَإِجْمامُهُ إِلَّا لِمَوْضِعِ الْحاجَةِ وَالْمَنْفَعَةِ لِلدّينِ وَالدُّنْيا ، وَإِعْفاؤُهُ عَنِ الْفُضُولِ الشَّنِعَةِ الْقَليلَةِ الَّتي لَا يُؤْمَنُ ضَرَرُها مَعَ قِلَّةِ عائِدَتِها ، وَيُعَدُّ شاهِدَ الْعَقْلِ ، وَالدَّليلَ عَلَيْهِ ، وَتَزَيُّنُ الْعاقِلِ بِعَقْلِهِ حُسْنُ سيرَتِهِ في لِسانِهِ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظيمِ .

وَأَمّا حَقُّ السَّمْعِ تَنْزيهُهُ عَنْ أَنْ تَجْعَلَهُ طَريقاً إِلىٰ قَلْبِكَ إِلَّا لِفُوهَةٍ كَريمَةٍ تُحْدِثُ في قَلْبِكَ خَيْراً ، أَوْ تَكْسِبُ خُلُقاً كَريماً ، فَإِنَّهُ بابُ الْكَلَامِ إِلَى الْقَلْبِ يُؤَدّي إِلَيْهِ ضُرُوبُ الْمَعاني عَلىٰ ما فيها مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

---

(١) الوسائل : ١٧٢/١٥ ، باب جملة ما ينبغي القيام به من الحقوق ، الحديث ١/٢٠٢٢٦ . الفقيه : ٣٦٥/٢ ، باب الحقوق ، الحديث ١ .

وَأَمّا حَقُّ بَصَرِكَ فَغَضُّهُ عَمّا لا يَحِلُّ لَكَ، وَتَرْكُ ابْتِذالِهِ، إلّا لِمَوْضِعِ عِبْرَةٍ تَسْتَقْبِلُ بِها بَصَراً، أَوْ تَسْتَفيدُ بِها عِلْماً، فَإِنَّ الْبَصَرَ بابُ الإِعْتبارِ.

وَأَمّا حَقُّ رِجْلَيْكَ فَأَنْ لا تَمْشي بِهِما إِلىٰ ما يَحِلُّ لَكَ، وَلا تَجْعَلَهُما مَطِيَّتَكَ في الطَّريقِ الْمُسْتَخِفَّةِ بِأَهْلِها فيها، فَإِنَّها حامِلَتُكَ وَسالِكَةٌ بِكَ مَسْلَكَ الدينِ وَالسَّبْقُ لَكَ، وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ يَدِكَ فَأَنْ لَا تَبْسُطَها إِلىٰ ما لَا يَحِلُّ لَكَ، فَتَنالَ بِما تَبْسُطُها إِلَيْهِ مِنَ اللهِ الْعُقُوبَةَ في الآجِلِ، وَمِنَ النّاسِ بِلِسانِ اللّائِمَةِ في الْعاجِلِ، وَلَا تَقْبِضَها مِمّا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْها، وَلٰكِنْ تُوَقِّرَها بِقَبْضِها عَنْ كَثيرٍ مِمّا يَحِلُّ لَها، وَبَسْطِها إِلىٰ كَثيرٍ مِمّا لَيْسَ عَلَيْها، فَإِذا هِيَ قَدْ عُقِلَتْ وَشُرِّفَتْ في الْعاجِلِ وَجَبَ لَها حُسْنُ الثَّوابِ في الآجِلِ.

وَأَمّا حَقُّ بَطْنِكَ فَأَنْ لا تَجْعَلَهُ وِعاءً لِقَليلٍ مِنَ الْحَرامِ وَلَا لِكَثيرٍ، وَأَنْ تَقْتَصِدَ لَهُ في الْحَلالِ، وَلَا تُخْرِجَهُ مِنْ حَدِّ التَّقْوِيَةِ إِلىٰ حَدِّ التَّهْوينِ، وَذهابِ الْمُروَّةِ وَضَبْطُهُ إِذا هَمَّ بِالجُوعِ وَالظَّماَ، فَإِنَّ الشَّبَعَ الْمُنْتَهي بِصاحِبِهِ إِلَى التُّخَمِ مَكْسَلَةٌ وَمَثْبَطَةٌ وَمَقْطَعَةٌ عَنْ كُلِّ بِرٍّ وَكَرَمٍ. وَإِنَّ الرَّيَّ الْمُنْتَهي بِصاحِبِهِ إِلَى السُّكْرِ مَسْخَفَةٌ وَمَجْهَلَةٌ وَمَذْهَبَةٌ لِلْمُروَّةِ.

وَأَمّا حَقُّ فَرْجِكَ فَحِفْظُهُ مِمّا لا يَحِلُّ لَكَ وَالْإِسْتِعانَةُ عَلَيْهِ بِغَضِّ الْبَصرِ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْوَنِ الْأَعْوانِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَالتَّهَدُّدِ لِنَفْسِكَ بِاللهِ، وَالتَّخْويفِ لَهابِه، وَبِاللهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّأْييدُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِهِ.

فَأَمّا حَقُّ الصَّلَاةِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّها وِفادَةٌ إِلَى اللهِ، وَأَنَّكَ قائِمٌ بِها بَيْنَ يَدَي اللهِ، فَإِذا عَلِمْتَ ذٰلِكَ كُنْتَ خَليقاً أَنْ تَقُومَ فيها مَقامَ الذَّليلِ الرّاغِبِ الرّاهِبِ الخائِفِ الرّاجي الْمِسْكينِ الْمُتَضَرِّعِ الْمُعَظِّمِ، مَنْ قامَ بَيْنَ يَدَيهِ بِالسُّكُونِ وَالإِطْراقِ وَخُشُوعِ الأَطْرافِ، وَلينِ الْجَناحِ، وَحُسْنِ الْمُناجاةِ لَهُ في نَفْسِهِ، وَالطَّلَبِ إِلَيْهِ في فَكاكِ رَقَبَتِكَ الَّتي أَحاطَتْ بِهِ خَطيئَتُكَ، وَاسْتَهْلَكَتْها ذُنُوبُكَ، وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ.

وَأمّا حَقُّ الصَّوْمِ : فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ حِجابٌ ضَرَبَهُ اللهُ عَلىٰ لِسانِكَ وَسَمْعِكَ وَبَصَرِكَ وَفَرْجِكَ وَبَطْنِكَ لِيَسْتُرَكَ بِهِ مِنَ النّارِ ، وَهٰكَذا جاءَ في الْحَديثِ : « الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النّارِ » ، فَإِنْ سَكَنَتْ أَطْرافُكَ في حَجَبَتِها رَجَوْتَ أَنْ تَكُونَ مَحْجُوباً ، وَإِنْ أَنْتَ تَرَكْتَها تَضْطَرِبُ في حِجابِها ، وَتَرْفَعُ جَنَباتِ الْحِجابِ فَتُطَلِعُ إِلىٰ ما لَيْسَ لَها بِالنَّظْرَةِ الدّاعِيَةِ لِلشَّهْوَةِ وَالْقُوَّةِ الْخارِجَةِ عَنْ حَدِّ التَّقِيَّةِ لِلّٰهِ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ تَخْرِقَ الْحِجابَ وَتَخْرُجَ مِنْهُ ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَأَمّا حَقُّ الصَّدَقَةِ : فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّها ذُخْرُكَ عِنْدَ رَبِّكَ ، وَوَديعَتُكَ الَّتي لا تَحْتاجُ إِلى الْإِشْهادِ ، فَإِذا عَلِمْتَ ذٰلِكَ كُنْتَ بِما اسْتَوْدَعْتَهُ سِرّاً أَوْثَقَ بِما اسْتَوْدَعْتَهُ عَلانِيَةً ، وَكُنْتَ جَديراً أَنْ تَكُونَ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ أَمْراً أَعْلَنْتَهُ ، وَكانَ الْأَمْرُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فيها سِرّاً عَلىٰ كُلِّ حالٍ ، وَلَمْ تَسْتَظْهِرْ عَلَيْهِ فِيما اسْتَوْدَعْتَهُ مِنْها بِإِشْهادِ الْأَسْماعِ وَالْأَبْصارِ عَلَيْهِ بِها كَأَنَّها أَوْثَقُ في نَفْسِكَ لا كَأَنَّكَ لا تَثِقُ بِهِ في تَأْدِيَةِ وَديعَتِكَ إِلَيْكَ . ثُمَّ لَمْ تَمْتَنَّ بِها عَلىٰ أَحَدٍ ؛ لِأَنَّها لَكَ ، فَإِذا امْتَنَنْتَ بِها لَمْ تَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ بِها مِثْلَ تَهْجِينِ حالِكَ مِنْها إِلىٰ مَنْ مَنَنْتَ بِها عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ في ذٰلِكَ دَليلاً عَلىٰ أَنَّكَ لَمْ تُرِدْ نَفْسَكَ بِها ، وَلَوْ أَرَدْتَ نَفْسَكَ بِها لَمْ تَمْتَنَّ بِها عَلىٰ أَحَدٍ ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَأَمّا حَقُّ الْهَدْيِ : فَأَنْ تُخْلِصَ بِها الْإِرادَةَ إِلىٰ رَبِّكَ ، وَالتَّعَرُّضَ لِرَحْمَتِهِ وَقَبُولِهِ ، وَلا تُريدَ عُيونَ النّاظِرينَ دُونَهُ ، فَإِذا كُنْتَ كَذٰلِكَ لَمْ تَكُنْ مُتَكَلِّفاً وَلا مُتَصَنِّعاً ، وَكُنْتَ إِنَّما تَقْصُدُ إِلَى اللهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ يُرادُ بِالْيَسيرِ ، وَلا يُراد بِالْعَسيرِ ، كَما أَرادَ بِخَلْقِهِ التَّيْسيرَ وَلَمْ يُرِدْ بِهِمُ التَّعْسيرَ ، وَكَذٰلِكَ التَّذَلُّلِ أَوْلىٰ بِكَ مِنَ التَّدَهْقُنِ ؛ لِأَنَّ الْكُلْفَةَ وَالْمَؤُونَةَ في الْمُتَدَهْقِنينَ . فَأَمّا التَّذَلُّلُ وَالتَّمَسْكُنُ فَلا كُلْفَةَ فِيهِما وَلا مَؤُونَةَ عَلَيْهِما ؛ لِأَنَّهُما الْخِلْقَةُ وَهُما مَوْجُودانِ في الطَّبيعَةِ ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

فَأَمّا حَقُّ سائِسِكَ بِالسُّلْطانِ : فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ جُعِلْتَ لَهُ فِتْنَةً ، وَأَنَّهُ مُبْتَلىٰ فيكَ بِما

جَعَلَهُ اللهُ لَهُ عَلَيْكَ مِنَ السُّلْطانِ ، وَأَنْ تُخْلِصَ لَهُ في النَّصيحَةِ ، وَأَنْ لا تُماحِكَهُ ، وَقَدْ بُسِطَتْ يَدُهُ عَلَيْكَ فَتَكُونَ سَبَبَ هَلاكِ نَفْسِكَ وَهَلاكِهِ ، وَتَذَلَّل وَتَلطَّف لإِعْطائِهِ مِنَ الرِّضىٰ ما يَكُفُّهُ عَنْكَ ، وَلَا يَضُرُّ بِدينِكَ ، وَتَسْتَعينُ عَلَيْهِ في ذٰلِكَ بِاللهِ ، وَلا تُعازَّه وَلا تُعانِدَهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ عَقَقْتَهُ وَعَقَقْتَ نَفْسَكَ فَعَرَّضْتَها لِمَكْرُوهِهِ وَعَرَّضْتَهُ لِلْهَلَكَةِ فيكَ ، وَكُنْتَ خَليقاً أَنْ تَكُونَ مُعيناً لَهُ عَلىٰ نَفْسِكَ وَشَريكاً لَهُ فيما أَتىٰ إِلَيْكَ ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وأَمّا حَقُّ سائِسِكَ بِالْعِلْمِ : فَالتَّعْظيمُ لَهُ ، وَالتَّوْقيرُ لِمَجْلِسِهِ ، وَحُسْنُ الإِسْتِماعِ إِلَيْهِ ، وَالْإِقْبالُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعُونَةُ لَهُ عَلىٰ نَفْسِكَ فيما لَا غِنىٰ بِكَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَنْ تُفَرِّغَ لَهُ عَقْلَكَ ، وَتُحْضِرَهُ فَهْمَكَ وَتُزَكّي لَهُ قَلْبَكَ ، وَتُجَلّي لَهُ بَصَرَكَ بِتَرْكِ اللَّذّاتِ ، وَنَقْصِ الشَّهَواتِ ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ فيما أَلْقىٰ إِلَيْكَ رَسُولُهُ إِلىٰ مَنْ لَقِيَكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ فَلَزِمَكَ حُسْنُ التَّأْدِيَةِ عَنْهُ إِلَيْهِمْ ، وَلا تَخُنْهُ في رِسالَتِهِ ، وَالْقِيامِ بِها عَنْهُ إِذا تَقَلَّدْتَها ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَأَمّا حَقُّ سائِسِكَ بِالْمِلْكِ فَنَحْوُ مِنْ سائِسِكَ بِالسُّلْطانِ إِلَّا أَنَّ هٰذا يَمْلِكُ ما لَا يَمْلِكُهُ ذاكَ تَلْزِمُكَ طاعَتُهُ فيما دَقَّ وَجَلَّ مِنْكَ إِلَّا أَنْ تُخْرِجَكَ مِنْ وجُوبِ حَقِّ اللهِ ، وَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ حَقِّه وَحُقُوقِ الْخَلْقِ ، فَإِذا قَضَيْتَه رَجَعْتَ إِلىٰ حَقِّهِ فَتَشاغَلْتَ بِهِ ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

فَأَمّا حُقُوقُ رَعِيَّتِكَ بِالسُّلْطانِ : فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ إِنَّما اسْتَرْعَيْتَهُمْ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ إِنَّما أَحَلَّهُمْ مَحَلَّ الرَّعِيَّةِ لَكَ ضَعْفُهُمْ وَذُلُّهُمْ ، فَما أَوْلىٰ مَنْ كَفاكَهُ ضَعْفُهُ وَذُلُّهُ حَتّىٰ صَيَّرَهُ لَكَ رَعِيَّةً وَصَيَّر حُكْمَكَ عَلَيْهِ نافِذاً ، لا يَمْتَنِعُ مِنْكَ بِعِزَّةٍ وَلا قُوَّةٍ ، وَلا يَسْتَنصِرُ فيما تَعاظَمَهُ مِنْكَ إِلَّا بِاللهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْحِياطَةِ وَالْأَناةِ ، وَما أَوْلاكَ إِذا عَرَفْتَ ما أَعْطاكَ اللهُ مِنْ فَضْلِ هٰذِهِ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ الَّتي قَهَرْتَ بِها أَنْ تَكُونَ لِلهِ شاكِراً ، وَمَنْ شَكَرَ اللهَ

أَعْطاهُ فيما أَنْعَمَ عَلَيْهِ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالْعِلْمِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَكَ لَهُمْ فيما آتاكَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَوَلّاكَ مِنْ خِزانَةِ الْحِكْمَةِ ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ فيما وَلّاكَ اللهُ مِنْ ذلِكَ وَقُمْتَ بِهِ لَهُمْ مَقامَ الْخازِنِ الشَّفيقِ النّاصِحِ لِمَوْلاهُ في عَبيدِهِ ، الصّابِرِ الْمُحْتَسِبِ الَّذي إِذا رَأىٰ ذا حاجَةٍ أَخْرَجَ لَهُ مِنَ الْأَمْوالِ الَّتي في يَدَيْهِ كُنْتَ راشِداً وَكُنْتَ لِذلِكَ آمِلاً مُعْتَقِداً ، وَإِلّا كُنْتَ لَهُ خائِناً ، وَلِخَلْقِهِ ظالِماً ، وَلِسَلْبِهِ وَعِزِّهِ مُتَعَرِّضاً .

وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِمِلْكِ النِّكاحِ : فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ جَعَلَها سَكَناً وَمُسْتَراحاً وَأُنْساً وَواقِيَةً ، وَكَذلِكَ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُما يَجِبُ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ عَلىٰ صاحِبِهِ ، وَيَعْلَمَ أَنَّ ذلِكَ نِعْمَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ ، وَوَجَبَ أَنْ يُحْسِنَ صُحْبَةَ نِعْمَةِ اللهِ وَيُكْرِمَها وَيَرْفَقَ بِها وَإِنْ كانَ حَقُّكَ عَلَيْها أَغْلَظَ ، وَطاعَتُكَ بِها أَلْزَمَ فيما أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ ما لَمْ تَكُنْ مَعصِيَةً ، فَإِنَّ لَها حَقَّ الرَّحْمَةِ وَالْمُؤانَسَةِ ، وَمَوْضِعُ السّكونِ إِلَيْها قَضاءُ اللَّذَّةِ الَّتي لا بُدَّ مِنْ قَضائِها ، وَذلِكَ عَظيمٌ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِمِلْكِ الْيَمينِ : فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ خَلْقُ رَبِّكَ ، وَلَحْمُكَ وَدَمُكَ ، وَأَنَّكَ تَمْلِكُهُ لَا أَنْتَ صَنَعْتَهُ دونَ اللهِ ، وَلَا خَلَقْتَ لَهُ سَمْعاً وَلَا بَصَراً ، وَلَا أَجْرَيْتَ لَهُ رِزْقاً ، وَلٰكِنَّ اللهَ كَفاكَ ذلِكَ . ثُمَّ سَخَّرَهُ لَكَ ، وَائْتَمَنَكَ عَلَيْهِ ، وَاسْتَوْدَعَكَ إِيّاهُ لِتَحْفَظَهُ فيهِ وَتَسيرَ فيهِ بِسيرَتِهِ ، فَتُطْعِمَهُ مِمّا تَأْكُلُ ، وَتُلْبِسَهُ مِمّا تَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفَهُ ما لَا يُطيقُ ، فَإِنْ كَرِهْتَهُ خَرَجْتَ إِلَى اللهِ مِنْهُ ، وَاسْتَبْدَلْتَ بِهِ وَلَمْ تُعَذِّبْ خَلْقَ اللهِ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

فَحَقُّ أُمِّكَ : فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّها حَمَلَتْكَ حَيْثُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ أَحَداً ، وَأَطْعَمَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِها ما لَا يُطْعِمُ أَحَدٌ ، وَأَنَّها وَقَتْكَ بِسَمْعِها وَبَصَرِها وَيَدِها وَرِجْلِها وَشَعْرِها وَبَشَرِها وَجَميعِ جَوارِحِها مُسْتَبْشِرَةً بِذلِكَ ، فَرِحَةً ، مُوابِلَةً ، مُحْتَمِلَةً لِما فيهِ مَكْرُوهُها وَأَلَمُها وَثِقْلُها وَغَمُّها حَتّىٰ دَفَعَتْها عَنْكَ يَدُ الْقُدْرَةِ ، وَأَخْرَجَتْكَ إِلَى الْأَرْضِ

فَرَضِيَتْ أَنْ تَشْبَعَ وَتَجُوعَ هِيَ، وَتَكْسُوكَ وَتَعرىٰ، وَتَرْوِيَكَ وَتَظْمأُ، وَتُظِلَّكَ وَتَضحىٰ، وَتُنَعِّمَكَ بِبُؤْسِها وَتُلَذِّذَكَ بِالنَّومِ بِأَرَقِيها، وَكانَ بَطْنُها وِعاءً، وَحِجرُها لَكَ حِواءً، وَثَدْيُها لَكَ سِقاءً، وَنَفْسُها لَكَ وِقاءً، تُباشِرُ حَرَّ الدُّنْيا وَبَرْدَها لَكَ وَدُونَكَ، فَتَشْكُرها عَلىٰ قَدْرِ ذٰلِكَ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفيقِهِ.

وَأَمّا حَقُّ أَبيكَ: فَتَعلَمَ أَنَّهُ أَصْلُكَ، وَأَنَّكَ فَرْعُهُ، وَأَنَّكَ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ، فَمَهْما رَأَيْتَ في نَفْسِكَ مِمّا يُعْجِبُكَ فاعْلَمْ أَنَّ أَباكَ أَصْلُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ فيهِ، وَاحْمِدِ اللهَ وَاشْكُرْهُ عَلىٰ قَدْرِ ذٰلِكَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ وَلَدِكَ: فَتَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْكَ، وَمُضافٌ إِلَيْكَ في عاجِلِ الدُّنْيا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَأَنَّكَ مَسْؤُولٌ عَمّا وُلّيتَهُ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ، وَالدَّلَالَةِ عَلىٰ رَبِّهِ، وَالْمَعُونَةِ لَهُ عَلىٰ طاعَتِهِ فيكَ وَفي نَفْسِهِ، فَمُثابٌ عَلىٰ ذٰلِكَ وَمُعاقَبٌ، فاعْمَلْ في أَمْرِهِ عَمَلَ الْمُتَزَيِّنِ بِحُسْنِ أَثَرِهِ عَلَيْهِ في عاجِلِ الدُّنْيا، الْمُعْذِرِ إِلىٰ رَبِّهِ فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحُسْنِ الْقِيامِ عَلَيْهِ، وَالْأَخْذِ لَهُ مِنْهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ أَخيكَ: فَتَعْلَمَ أَنَّهُ يَدُكَ الَّتي تَبْسُطُها، وَظَهْرُكَ الَّذي تَلْتَجِئُ إِلَيْهِ، وَعِزُّكَ الَّذي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَقُوَّتُكَ الَّتي تَصُولُ بِها، فَلَا تَتَّخِذْهُ سِلَاحاً عَلىٰ مَعْصيَةِ اللهِ، وَعُدَّةً لِلظُّلْمِ بِحَقِّ اللهِ، وَلَا تَدَعْ نُصْرَتَهُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَعُونَتَهُ عَلىٰ عَدُوِّهِ، وَالْحَوْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَياطينِهِ، وَتَأْدِيَةَ النَّصيحَةِ إِلَيْهِ، وَالْإِقْبالَ عَلَيْهِ في اللهِ، فَإِنِ انْقادَ لِرَبِّهِ، وَأَحْسَنَ الْإِجابَةَ لَهُ، وَإِلَّا فَلْيَكُنِ اللهُ آثَرَ عِنْدَكَ، وَأَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنْهُ.

وَأَمّا حَقُّ الْمُنْعِمِ عَلَيْكَ بِالْوَلَاءِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فيكَ مالَهُ، وَأَخْرَجَكَ مِنْ ذُلِّ الرِّقِّ وَوَحْشَتِهِ إِلىٰ عِزِّ الْحُرِّيَّةِ وَأُنْسِها، وَأَطْلَقَكَ مِنْ أَسْرِ الْمِلْكَةِ، وَفَكَّ عَنْكَ حِلَقَ الْعُبُودِيَّةِ، وَأَوْجَدَكَ رايِحَةَ الْعِزِّ، وَأَخْرَجَكَ مِنْ سِجْنِ الْقَهْرِ، وَدَفَعَ عَنْكَ الْعُسْرَ وَبَسَطَ لَكَ لِسانَ الْإِنْصافِ، وَأَباحَكَ الدُّنْيا كُلَّها، فَمَلَّكَكَ نَفْسَكَ، وَحَلَّ أَسْرَكَ،

وَفَرَّغَكَ لِعِبادَةِ رَبِّكَ ، وَاحْتَمَلَ بِذلِكَ التَّقْصِيرَ في مالِهِ ، فَتَعْلَمَ أَنَّهُ أَوْلَى الْخَلْقِ بِكَ بَعْدَ أُولي رَحِمِكَ في حياتِكَ وَمَوْتِكَ ، وَأَحَقُّ الْخَلْقِ بِنَصْرِكَ وَمَعُونَتِكَ وَمُكانَفَتِكَ في ذاتِ اللهِ ، فَلا تُؤْثِرْ عَلَيْهِ نَفْسَكَ ما احْتاجَ إِلَيْكَ.

وَأَمّا حَقُّ مَوْلاكَ الْجارِيَةِ عَلَيْهِ نِعْمَتُكَ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ جَعَلَكَ حامِيَةً عَلَيْهِ، وَواقِيَةً وناصِراً وَمَعْقِلاً، وَجَعَلَهُ لَكَ وَسِيلَةً وَسَبَباً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَحْجُبَكَ عَنِ النّارِ فَيَكُونُ في ذلِكَ ثَوابٌ مِنْهُ في الآجِلِ، وَيَحْكُمُ لَكَ بِميراثِهِ في الْعاجِلِ إذا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَحِمٌ مُكافَأَةً لِما أَنْفَقْتَهُ مِنْ مالِكَ عَلَيْهِ ، وَقُمْتَ بِهِ مِنْ حَقِّهِ بَعْدَ إِنْفاقِ مالِكَ ، فَإِنْ لَمْ تَقُمْ بِحَقِّهِ خيفَ عَلَيْكَ أَنْ لا يَطيبَ لَكَ ميراثُهُ ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ ذي الْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ: فَأَنْ تَشْكُرَهُ، وَتَذْكُرَ مَعْرُوفَهُ، وَتَنْشُرَ لَهُ الْمَقالَةَ الْحَسَنَةَ ، وَتُخْلِصَ لَهُ الدُّعاءَ فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحانَهُ ، فَإِنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلِكَ كُنْتَ قَدْ شَكَرْتَهُ سِرّاً وَعَلانِيَةً ، ثُمَّ إِنْ أَمْكَنَ مُكافَأَتُهُ بِالْفِعْلِ كافَأْتَهُ ، وَإِلّا كُنْتَ مُرْصِداً لَهُ ، مُوَطِّناً نَفْسَكَ عَلَيْها.

وَأَمّا حَقُّ الْمُؤَذِّنِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مُذَكِّرُكَ بِرَبِّكَ ، وَداعيكَ إِلىٰ حَظِّكَ ، وَأَفْضَلُ أَعْوانِكَ عَلىٰ قَضاءِ الْفَريضَةِ الَّتي افْتَرَضَها اللهُ عَلَيْكَ فَتَشْكُرَهُ عَلىٰ ذلِكَ شُكْرَكَ لِلْمُحْسِنِ إِلَيْكَ ، وَإِنْ كُنتَ في بَيْتِكَ مُهْتَمّاً لِذلِكَ لَمْ تَكُنْ لِلّهِ في أَمْرِهِ مُتَّهِماً ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَلَيْكَ لا شَكَّ فيها ، فَأَحْسِنْ صُحْبَةَ نِعْمَةِ اللهِ بِحَمْدِ اللهِ عَلَيْها عَلىٰ كُلِّ حالٍ ، وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ إِمامِكَ في صَلاتِكَ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَقَلَّدَ السِّفارَةَ فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ، وَالْوِفادَةَ إِلىٰ رَبِّكَ ، وَتَكَلَّمَ عَنْكَ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ عَنْهُ ، وَدَعا لَكَ وَلَمْ تَدْعُ لَهُ ، وَطَلَبَ فيكَ وَلَمْ تَطْلُبْ فيهِ ، وَكَفاكَ هَمَّ الْمَقامِ بَيْنَ يَدَي اللهِ ، وَالْمُساءَلَةِ لَهُ فيكَ. وَلَمْ تَكْفِهِ ذلِكَ ، فَإِنْ كانَ في شَيْءٍ من ذلِكَ تقصيرٌ كانَ بِهِ دُونَكَ ، وَإِنْ كانَ آثماً لَمْ تَكُنْ شَريكَهُ فيهِ ،

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْكَ فَضْلُ، فَوقىٰ نَفْسَكَ بِنفْسِهِ، وَوَقىٰ صَلاتَك بِصَلاتِهِ، فَتَشْكُرَ لَهُ عَلىٰ ذلِكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأمّا حَقُّ الْجَليسِ: فَأَنْ تُلِينَ لَهُ كَنَفَكَ، وَتُطيبَ لَهُ جانِبَكَ، وَتُنْصِفَهُ في مُجاراةِ اللَّفْظِ، وَلَا تُغْرِقَ في نَزْعِ اللَّحْظِ إذا لَحَظْتَ، وَتَقْصُدَ في اللَّفْظِ إِلىٰ إِفْهامِهِ إذا لَفَظْتَ، وَإِنْ كُنْتَ الْجَليسَ إِلَيْهِ في الْقيامِ عَنْهُ بِالْخيارِ، وَإِنْ كانَ الْجالِسَ إِلَيْكَ كانَ بِالْخيارِ، وَلَا تَقُومُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأمّا حَقُّ الْجارِ: فَحِفْظُهُ غائِباً، وَكَرامَتُهُ شاهِداً، وَنُصْرَتُهُ وَمَعُونَتُهُ في الْحالَيْنِ جَميعاً، لَا تَتَبَّعْ لَهُ عَوْرَةً، وَلَا تَبْحَثْ لَهُ عَنْ سَوءَةٍ لِتَعْرِفَها، فَإِنْ عَرَفْتَها مِنْهُ عَنْ غَيْرِ إِرادَةٍ مِنْكَ وَلَا تَكَلُّفٍ، كُنْتَ لِما عَلِمْتَ حِصْناً حَصيناً، وَسِتْراً سَتيراً، لَوْ بَحَثَتِ الْأَسِنَّةُ عَنْهُ ضَميراً لَمْ تَتَّصِلْ إِلَيْهِ لِانْطوائِهِ عَلَيْهِ، لَا تَسْتَمِعْ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمَ. لَا تُسَلِّمْهُ عِنْدَ شَديدَةٍ، وَلَا تَحْسُدْهُ عِنْدَ نِعْمَةٍ، تُقِيلُ عَثْرَتَهُ، وَتَغْفِرُ زَلَّتَهُ، وَلَا تَدَّخِرْ حِلْمَكَ عَنْهُ إذا جَهِلَ عَلَيْكَ، وَلَا تَخْرُجْ أَنْ تَكُونَ سِلْماً لَهُ. تَرُدُّ عَنْهُ لِسانَ الشَّتيمَةِ، وَتَبْطُلُ فيهِ كَيْدَ حامِلِ النَّصيحَةِ، وتُعاشِرُهُ مُعاشَرَةً كَريمَةً، وَلَاحَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الصّاحِبِ: فَأَنْ تَصْحَبَهُ بِالْفَضْلِ ما وَجَدْتَ إِلَيْهِ سَبيلاً، وَإِلَّا فَلا أَقَلَّ مِنَ الْإِنْصافِ، وَأَنْ تُكْرِمَهُ كما يُكْرِمُكَ، وَتَحْفَظَهُ كما يَحْفَظُكَ، وَلَا يَسْبِقَكَ فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلىٰ مَكْرَمَةٍ، فَإِنْ سَبَقَكَ كافَأْتَهُ، وَلَا تُقَصِّرَ بِهِ عَمّا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَوَدَّةِ. تُلْزِمُ نَفْسَكَ نَصيحَتَه وَحِياطَتَه وَمُعاضَدَتَه عَلىٰ طاعَةِ رَبِّهِ ومَعونَتِهِ عَلىٰ نَفْسِهِ فيما لا يَهُمُّ بِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَلَا تَكُونُ عَلَيْهِ عَذاباً، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الشَّريكِ: فَإِنْ غابَ كَفَيْتَهُ، وَإِنْ حَضَرَ ساوَيْتَهُ، وَلَا تَعْزِمْ عَلىٰ حُكْمِكَ دونَ حُكْمِهِ، وَلَا تَعْمَلَ بِرَأْيِكَ دونَ مُناظَرَتِهِ، وَتَحْفَظُ عَلَيْهِ مالَهُ، وَتَنْفي عَنْهُ خِيانَتَهُ فيما عَزَّ أَوْ هانَ، فَإِنَّهُ بَلَغَنا: «أَنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الشَّريكَيْنِ ما لَمْ يَتَخاوَنا»، وَلَا قُوَّةَ

إلَّا باللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْمالِ: فَأَنْ لَا تَأْخُذَهُ إلّا مِنْ حِلِّهِ، وَلَا تُنْفِقَهُ إلّا في حِلِّهِ، وَلَا تُحَرِّفَهُ عَنْ مَواضِعِهِ، وَلَا تَصْرِفَهُ عَنْ حَقائِقِهِ، وَلَا تَجْعَلَهُ إذاكانَ مِنَ اللهِ إلّا إلَيْهِ وَسَبَباً إلَى اللهِ، وَلَا تُؤْثِرَ بِهِ عَلىٰ نَفْسِكَ مَنْ لَعلَّهُ لَا يَحْمَدُكَ، وَبِالْحَرِيِّ أَنْ لَا يُحْسِنَ خِلافَتَهُ في تَرِكَتِكَ، وَلَا يَعْمَلَ فيه بِطاعَةِ رَبِّكَ فَتَكُونَ مُعيناً لَهُ عَلىٰ ذٰلِكَ، أَوْ بما أَحْدَثَ في مالِكَ أَحْسَنَ نَظَراً لِنَفْسِهِ، فَيَعْمَلَ بِطاعَةِ رَبِّهِ، فَيَذْهَبَ بِالْغَنيمَةِ، وَتَبُوءَ بِالْإثْمِ وَالْحَسْرَةِ وَالنَّدامَةِ مَعَ التَّبِعَةِ، وَلَا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْغَرِيمِ الطّالِبِ لَكَ، فَإنْ كُنْتَ مُوسِراً أَوْفَيْتَهُ وَكَفَيْتَهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَلَمْ تَرْدُدْهُ وَتَمْطُلْهُ، فَإنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَطَلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»، وَإنْ كُنْتَ مُعْسِراً أَرْضَيْتَهُ بِحُسْنِ الْقَوْلِ، وَطَلَبْتَ إلَيْهِ طَلَباً جَميلاً، وَرَدَدْتَهُ عَنْ نَفْسِكَ رَدّاً لَطيفاً، وَلَمْ تَجْمَعْ عَلَيْهِ ذهابَ مالِهِ، وَسُوءَ مُعامَلَتِهِ، فَإنَّ ذٰلِكَ لُؤْمٌ، وَلَا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْخَليطِ: فَأَنْ لَا تَغُرَّهُ، وَلَا تَغُشَّهُ، وَلَا تَكْذِبَهُ، وَلَا تُغْفِلَهُ، وَلَا تَخْدَعَهُ، وَلَا تَعْمَلَ في انْتِقاضِهِ عَمَلَ الْعَدُوِّ الَّذي لَا يَبْقىٰ عَلىٰ صاحِبِهِ، وَإنِ اطْمَأَنَّ إلَيْكَ اسْتَقْصَيْتَ لَهُ عَلىٰ نَفْسِكَ، وَعَلِمْتَ أَنَّ غَبْنَ الْمُسْتَرْسِلِ رِباً، وَلَا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْخَصْمِ الْمُدَّعي عَلَيْكَ: فَإنْ كانَ مايَدَّعي عَلَيْكَ حَقّاً لم تَنْفَسِخْ في حُجَّتِهِ، وَلَمْ تَعْمَلَ في إبْطالِ دَعْوَتِهِ، وَكُنْتَ خَصْمَ نَفْسِكَ لَهُ، وَالْحاكِمَ عَلَيْها، وَالشّاهِدَ لَهُ بِحَقِّهِ دونَ شَهادَةِ الشُّهُودِ، فَإنَّ ذٰلِكَ حَقُّ اللهِ عَلَيْكَ، وَإنْ كانَ ما يَدَّعيهِ باطِلاً رَفِقْتَ بِهِ، وَرَوَّعْتَهُ وَناشَدْتَهُ بِدينِهِ، وَكَسَرْتَ حِدَّتَهُ عَنْكَ بِذِكْرِ اللهِ، وَأَلْقَيْتَ حَشْوَ الْكَلامِ وَلَغْطَهُ الَّذي لَا يَرُدُّ عَنْكَ عادِيَةَ عَدُوِّكَ، بَلْ تَبُوءُ بِإثْمِهِ، وَبِهِ يَشْحَذُ عَلَيْكَ سَيْفَ عَداوَتِهِ؛ لِأَنَّ لَفْظَةَ السَّوْءِ تَبْعَثُ الشَّرَّ. وَالْخَيْرُ مَقْمَعَةٌ لِلشَّرِّ، وَلَا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْخَصْمِ الْمُدَّعى عَلَيْهِ: فَإنْ كانَ ما تَدَّعيهِ حَقّاً أَجْمَلْتَ في مُقاوَلَتِهِ بِمَخْرَجِ

الدَّعْوىٰ، فَإنَّ لِلدَّعْوىٰ غِلظَةً في سَمْعِ المُدَّعى عَلَيْهِ، وَقَصَدْتَ قَصْدَ حُجَّتِكَ بِالرِّفْقِ، وَأَمْهَلِ الْمُهْلَةَ، وَأَبْيَنِ الْبَيانِ، وَأَلْطَفِ اللُّطْفِ، وَلَمْ تَتَشاغَلْ عَنْ حُجَّتِكَ بِمُنازَعَتِهِ بِالْقيلِ وَالْقالِ، فَتَذْهَبَ عَنْكَ حُجَّتُكَ، وَلَا يَكُونَ لَكَ في ذٰلِكَ دَرْكٌ، وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْمُسْتَشيرِ: فَإِنْ حَضَرَكَ لَهُ وَجْهُ رَأْيٍ جَهَدْتَ لَهُ في النَّصيحَةِ، وَأَشَرْتَ عَلَيْهِ بِما تَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ كُنْتَ مَكانَهُ عَمِلْتَ بِهِ، وذٰلِكَ لِيَكُنْ مِنْكَ في رَحْمَةٍ وَلينٍ، فَإِنَّ اللّينَ يُؤْنِسُ الْوَحْشَةَ، وَإِنَّ الْغِلْظَ يُوحِشُ مَوْضِعَ الْأُنْسِ، وَإِنْ لَمْ يَحْضُرْكَ لَهُ رَأْيٌ، وَعَرَفْتَ لَهُ مَنْ تَثِقُ بِرَأْيِهِ، وَتَرْضىٰ بِهِ لِنَفْسِكَ دَلَلْتَهُ عَلَيْهِ، وَأَرْشَدْتَهُ إِلَيْهِ، فَكُنْتَ لَمْ تَأْلُهُ خَيْراً، وَلَمْ تَدَّخِرْهُ نُصْحاً، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْمُشيرِ عَلَيْكَ: فَلا تَتَّهِمْهُ فيما لا يُوافِقُكَ عَلَيْهِ مِنْ رَأْيِهِ إذا أَشارَ عَلَيْكَ، فَإِنَّما هي الآراءُ، وَتَصَرُّفُ النّاسِ فيها وَاخْتِلافُهُمْ. فَكُنْ عَلَيْهِ في رَأْيِهِ بِالْخِيارِ إذا اتَّهَمْتَ رَأْيَهُ، فَأَمّا تُهْمَتُه فَلا تَجُوز لَكَ إذا كان عِنْدَكَ مِمّن يَسْتَحِقُّ الْمُشاوَرَة، وَلَا تَدَعْ شُكْرَهُ عَلىٰ ما بدا لَكَ مِنْ إِشْخاصِ رَأْيِهِ، وَحُسْنِ وَجْهِ مَشُورَتِهِ، فَإِذا وافَقَكَ حَمِدْتَ اللهَ، وَقَبِلْتَ ذٰلِكَ مِنْ أَخيكَ بِالشُّكْرِ وَالْإِرْصادِ بِالْمُكافَأَةِ في مِثْلِها إنْ فَزِعَ إِلَيْكَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ الْمُسْتَنْصِحِ فَإِنَّ حَقَّهُ أَنْ تُؤَدّي إِلَيْهِ النَّصيحَةَ عَلَى الْحَقِّ الَّذي تَرىٰ لَهُ أَنَّهُ يَحْمِلُ، وَتَخْرُجَ الْمَخْرَجَ الَّذي يَلينُ عَلىٰ مَسامِعِه، وَتُكَلِّمَه مِنَ الْكَلامِ بِما يُطيقُهُ عَقْلُهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عَقْلٍ طَبَقَةً مِنَ الْكَلامِ يَعْرِفُهُ وَيَجْتَنِبُهُ، وَلْيَكُنْ مَذْهَبُكَ الرَّحْمَة، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ النّاصِحِ: فَأَنْ تُلينَ لَهُ جَناحَكَ، ثُمَّ تَشْرَئِبَّ لَهُ قَلْبَكَ، وَتَفْتَحَ لَهُ سَمْعَكَ حَتّىٰ تَفْهَمَ عَنْهُ نَصيحَتَهُ، ثمَّ تَنْظُرَ فيها، فَإِنْ كانَ وَفِّقَ فيها لِلصَّوابِ حَمِدْتَ اللهَ عَلىٰ ذٰلِكَ وَقَبِلْتَ مِنْهُ، وَعَرَفْتَ لَهُ نَصيحَتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَفِّقَ لَها فيها رَحِمْتَهُ، وَلَمْ تَتَّهِمْهُ

وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَأْلُكَ نُصْحاً إِلَّا أَنَّهُ أَخْطَأَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مُسْتَحِقّاً لِلتهمَةِ ، فَلَا تَعْبأْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ كُلِّ حالٍ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَأَمّا حَقُّ الْكَبيرِ : فَإِنَّ حَقَّهُ تُوقيرُ سِنِّهِ ، وَإِجْلَالُ إِسْلَامِهِ إِذاكانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ في الْإِسْلَامِ بِتَقْديمِهِ فيهِ ، وَتَرْكِ مُقابَلَتِهِ عِنْدَ الْخِصامِ ، وَلَا تَسْبِقهُ إِلىٰ طَرِيقٍ ، وَلَا تَؤُمَّه في طريقٍ ، وَلَا تَسْتَجْهِلْهُ ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْكَ تَحَمَّلْتَ ، وَأَكْرَمْتَهُ بِحَقِّ إِسْلَامِهِ مَعَ سِنِّهِ ، فَإِنَّما حَقُّ السِّنِّ بِقَدْرِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَأَمّا حَقُّ الصَّغيرِ : فَرَحْمَتُهُ ، وَتَثْقيفُهُ ، وَتَعْليمُهُ ، وَالْعَفْوُ عَنْهُ ، وَالسَّتْرُ عَلَيْهِ ، وَالرِّفْقُ بِهِ ، وَالْمَعُونَةُ لَهُ ، وَالسَّتْرُ عَلىٰ جَرائِرِ حَداثَتِهِ ، فَإِنَّهُ سَبَبٌ لِلتَّوْبَةِ ، وَالْمُدارَأَةُ لَهُ ، وَتَرْكُ مُماحَكَتِهِ ، فَإِنَّ ذلِكَ أَدْنىٰ لِرُشْدِهِ .

وأَمّا حَقُّ السّائِلِ : فَإِعْطاؤُهُ إِذا تَيَقَّنْتَ صِدْقَهُ ، وَقَدَرْتَ عَلىٰ سَدِّ حاجَتِهِ ، وَالدُّعاءُ لَهُ فيما نَزَلَ بِهِ ، وَالْمُعاوَنَةُ لَهُ عَلىٰ طَلِبَتِهِ ، وَإِنْ شَكَكْتَ في صِدْقِهِ ، وَسَبَقَتْ إِلَيْهِ التُّهَمَةُ لَهُ ، وَلَمْ تَعْزِمْ عَلىٰ ذلِكَ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطانِ أَرادَ أَنْ يَصُدَّكَ عَنْ حَظِّكَ ، وَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّقَرُّبِ إِلىٰ رَبِّكَ ، فَتَرَكْتَهُ بِسَتْرِهِ ، وَرَدَدْتَهُ رَدّاً جَميلاً ، وَإِنْ غَلَبْتَ نَفْسَكَ في أَمْرِهِ ، وَأَعْطَيْتَهُ عَلىٰ ما عَرَضَ في نَفْسِكَ مِنْهُ ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

وَأَمّا حَقُّ الْمَسْؤُولِ : فَحَقُّهُ إِنْ أَعْطىٰ قُبِلَ مِنْهُ ما أَعْطىٰ بِالشُّكْرِ لَهُ ، وَالْمَعْرِفَةِ لِفَضْلِهِ ، وَطَلَبِ وَجْهِ الْعُذْرِ في مَنْعِهِ ، وَأَحْسِنَ بِهِ الظَّنَّ . وَأَعْلَمْ أَنَّهُ إِنْ مَنَعَ فمالَهُ مَنَعَ ، وَأَنْ لَيْسَ التَّثْرِيبُ في مالِهِ ، وَإِنْ كانَ ظالِماً ، فَإِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ .

وَأَمّا حَقُّ مَنْ سَرَّكَ اللهُ بِهِ وَعَلىٰ يَدَيْهِ ، فَإِنْ كانَ تَعَمَّدَها لَكَ حَمِدْتَ اللهَ أَوَّلاً ، ثُمَّ شَكَرْتَهُ عَلىٰ ذلِكَ بِقَدْرِهِ في مَوْضِعِ الْجَزاءِ ، وَكافَأْتَهُ عَلىٰ فَضْلِ الْإِبْتِداءِ ، وَأَرْصَدْتَ لَهُ الْمُكافَأَةَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَعَمَّدَها حَمِدْتَ اللهَ وَشَكَرْتَهُ ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ مِنْهُ تَوَحَّدَكَ بِها ،

وَأَحْبَبْتَ هـٰذا إِذاكانَ سَبَباً مِنْ أَسْبابِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ، وَتَرْجُو لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ خَيْراً، فَإِنَّ أَسْبابَ النِّعَمِ بَرَكَةٌ حَيْثُ ماكانَتْ، وَإِنْ كانَ لَمْ يَتَعَمَّدْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ مَنْ ساءَكَ الْقَضاءُ عَلَىٰ يَدَيْهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ: فَإِنْ كانَ تَعَمَّدَها كانَ الْعَفْوُ أَوْلىٰ بِكَ لِما فيهِ لَهُ مِنَ الْقَمْعِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ مَعَ كَثيرِ أَمْثالِهِ مِنَ الْخَلْقِ، فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِن سَبِيلٍ -إلى: - لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وَقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، هـٰذا فِي الْعَمَدِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَمْداً لَمْ تَظْلِمْهُ بِتَعَمُّدِ الْإِنْتِصارِ مِنْهُ فَتَكُونَ قَدْ كافَأْتَهُ في تَعَمُّدٍ عَلىٰ خَطَأٍ، وَرَفِقْتَ بِهِ، وَرَدَدْتَهُ بِأَلْطَفِ ما تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَأَمّا حَقُّ أَهْلِ مِلَّتِكَ عامَّةً: فَإِضْمارُ السَّلامَةِ، وَنَشْرُ جَناحِ الرَّحْمَةِ، وَالرِّفْقُ بِمُسِيئِهِمْ، وَتَأَلُّفهم، وَاسْتِصْلاحُهُمْ، وَشُكْرُ مُحْسِنِهِمْ إِلىٰ نَفْسِهِ وَإِلَيْكَ، فَإِنَّ إِحْسانَهُ إِلىٰ نَفْسِهِ إِحْسانُهُ إِلَيْكَ إِذا كَفَّ عَنْكَ أَذاهُ، وَكَفاكَ مَؤُونَتَهُ، وَحَبَسَ عَنْكَ نَفْسَهُ، فَعَمِّهِمْ جَمِيعاً بَدَعْوَتِكَ، وَانْصُرْهُمْ جَميعاً بِنُصْرَتِكَ، وَأَنْزَلْتَهُمْ جَمِيعاً مِنْكَ مَنازِلَهُمْ، كَبيرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوالِدِ، وَصَغيرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ، وَأَوْسَطَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْأَخِ. فَمَنْ أَتاكَ تَعاهَدْتَهُ بِلُطْفٍ وَرَحْمَةٍ، وَصِلْ أَخاكَ بِما يَجِبُ لِلأَخِ عَلىٰ أَخِيهِ.

وَأَمّا حَقُّ أَهْلِ الذِّمَّةِ: فَالْحُكْمُ فيهِمْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ ما قَبِلَ اللهُ، وَتَفي بِما جَعَلَ اللهُ لَهُمْ مِنْ ذِمَّتِهِ وَعَهْدِهِ وَتَكِلَهُمْ إِلَيْهِ فيما طَلَبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأُجْبِرُوا عَلَيْهِ، وَتَحْكُمَ فيهِمْ بِما حَكَمَ اللهُ بِهِ عَلىٰ نَفْسِكَ فيما جَرىٰ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنْ مُعامَلَةٍ، وَلْيَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ظُلْمِهِمْ مِنْ رِعايَةِ ذِمَّةِ اللهِ، وَالْوَفاءِ بِعَهْدِهِ وَعَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حائِلٌ، فَإِنَّهُ بَلَغَنا أَنَّهُ قالَ: «مَنْ ظَلَمَ مُعاهِداً كُنْتُ خَصْمَهُ»، فَاتَّقِ اللهَ، وَلَا حولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. فَهـٰذِهِ خَمْسُونَ حَقّاً مُحيطاً بِكَ لَا تَخْرُجْ مِنْها في حالٍ مِنَ الْأَحْوالِ يَجِبُ عَلَيْكَ رِعايَتُها، وَالْعَمَلَ في تَأْدِيَتِها، وَالْإِسْتِعانَةُ بِاللهِ جَلَّ ثَناؤُهُ عَلىٰ ذٰلِكَ،

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعالَمينَ[١] .

هذه هي رسالة الحقوق ، وقد ألّف فيها السيّد حسن القبّانچي مجلّداً ضخماً شرح فيه مضامينها بعد أن وثّق أسانيدها ، فمن أراد الرجوع إليه فليطلبه ، وهو بعنوان (رسالة الحقوق).

جـ ـ الآثار الوضعيّة للظلم والمعونة عليه : مرّ بنا العنوان (الأثر الوضعي والتكويني لكبائر الذنوب) في الصفحة ٩٦ ، ما يترتّب على ارتكاب الذنوب من آثار وضعيّة ، والذنوب هي مصاديق الظلم بمفهومه العامّ ، فتلك الآثار هي آثار الظلم ، لكنّني هنا أروي ما ورد من الأخبار التي تُرتِب الآثار الوضعيّة على ما عبّرت عنه بلفظ الظلم ، ومن هذه الأخبار :

١ ـ عن عليّ بن الحسين عليه السلام ، قال : « **يأخذ المظلوم من دين الظالم أكثر ممّا يأخذ الظالم من دنيا المظلوم** »[٢] .

ومع إمكان حمل هذا الخبر على المقاصّة الأُخرويّة ، فالأرجح حمله على ما يسبّبه ظلم الظالم من نقص في دينه في الدنيا ، وهذا النقص أو ظلمة النفس بالظلم تجرّه إلى الإقدام على ظلمٍ آخر ، وهكذا .

٢ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **ما من أحد يظلم مظلمة إلّا أخذه الله بها في نفسه وماله ، فأمّا الظلم الذي بينه وبين الله فإذا تاب غُفر له** »[٣] .

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **مَن ظلم مظلمة أُخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده** »[٤] .

---

(١) تحف العقول : ١٨٢ ـ ١٩٣ ، رسالة الحقوق لإمام زين العابدين عليه السلام .

(٢) الوسائل : ١٦/٤٩ ، باب تحريم الظلم ، الحديث ١٢/٢٠٩٥١ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٤٧ ، الحديث ٣/٢٠٩٤٢ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/٢٠٩٤٣ .

٤ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : **« مَن ارتكب أحداً بظلم بعث الله من ظلمه مثله ، أو على ولده ، أو على عقبه من بعده »**(١) .

٥ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : **« أما أنّه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم ، أما أنّ المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر ممّا يأخذ الظالم من مال المظلوم »**(٢) .

٦ ـ وعنه عليه السلام ، قال : **« إنّ الله عزّ وجلّ يقول : وعزّتي وجلالي ، لا أُجيب دعوة مظلوم دعاني في مظلمة ظلمها ، ولأحد عنده مثل تلك المظلمة »**(٣) .

٧ ـ وعنه عليه السلام ، قال : **« مَن عذر ظالماً بظلمه سلّط الله عليه مَن يظلمه ، فإن دعا لم يستجب له ، ولم يؤجره الله على ظلامته »**(٤) .

٨ ـ وعنه عليه السلام ، قال : **« إيّاكم أن تعينوا على مسلم مظلوم ، فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم ، فإنّ أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول : إنّ دعوة المظلوم مستجابة ، وليعن بعضكم بعضاً ، فإنّ أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول : إنّ معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر ، واعتكافه في المسجد الحرام »**(٥) .

د ـ الأخبار المندّدة بالظلم والإعانة عليه :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : **« إنّي لعنت سبعاً لعنهم الله ، وكلّ نبيّ مجاب ، قيل : ومَن هم يا رسول الله ؟ قال : الزائد في كتاب الله ، والمكذّب بقدر الله ، والمخالف لسنّتي ، والمستحلّ من عترتي ما حرّم الله ، والمسلّط بالجبروت ليعزّ من أذلّ الله ويذلّ من أعزّ الله ، والمستأثر على المسلمين بفيئهم منتحلاً له ، والمحرم ما أحلّ**

---

(١) الوسائل : ١٦/٥٠ ، باب تحريم الظلم ، الحديث ١٣/٢٠٩٥٢ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٤٩ ، الحديث ٩/٢٠٩٤٨ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٤٩ ، الحديث ١١/٢٠٩٥٠ .

(٤) الكافي : ٢/٣٤٦ ، باب الظلم ، الحديث ١٨/٢٦٥٦ .

(٥) الوسائل : ١٦/٥٦ ، باب تحريم الرضا بالظلم والمعونة للظالم ، الحديث ٣/٢٠٩٦٧ .

الله عزّ وجلّ »[١].

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وآله، قال : « **يقول الله عزّ وجلّ : اشتدّ غضبي على مَن ظلم مَن لا يجد ناصراً غيري** »[٢].

٣ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال : « **أعظم الخطايا اقتطاع مال امرئ مسلم بغير حقّ** »[٣].

٤ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال : « **الظلم في الدنيا هو الظلمات في الآخرة** »[٤].

٥ ـ وعنه عليه السلام، قال : « **لمّا حضر عليّ بن الحسين الوفاة ضمّني إلى صدره، ثمّ قال : يا بُنيّ، اُوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أنّ أباه أوصاه به، قال : يا بنيّ، إيّاك وظلم مَن لا يجد عليك ناصراً إلّا الله** »[٥].

٦ ـ وعنه عليه السلام، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **مَن اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حقّه، لم يزل الله معرضاً عنه ماقتاً لأعماله التي يعملها من البرّ والخير، لا يثبتها في حسناته، حتّى يتوب ويردّ المال الذي أخذه إلى صاحبه** »[٦].

٧ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال : « **مَن أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتّى ينزع من معونته** »[٧].

٨ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال : « **الظلم ثلاثة : ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأمّا الظلم الذي لا يغفره فالشرك، وأمّا الظلم الذي يغفره فظلم**

---

(١) الوسائل : ٥١/١٦، باب تحريم الرضا بالظلم والمعونة للظالم، الحديث ١٧/٢٠٩٥٦.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦/٢٠٩٥٥.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٤/٢٠٩٥٣.

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٠/٢٠٩٤٩.

(٥) الوسائل : ٥١/١٦، باب تحريم الرضا بالظلم والمعونة للظالم، الحديث ٦/٢٠٩٤٥.

(٦) المصدر المتقدّم : ٥٣، باب وجوب ردّ المظالم إلى أهلها، الحديث ٦/٢٠٩٦٢.

(٧) المصدر المتقدّم : ٥٧، باب تحريم الرضا بالظلم، الحديث ٥/٢٠٩٦٩.

الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأمّا الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد»[١].

أ ـ فالشرك من أعظم أنواع الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[٢].

والشرك ظلم لا يغفره الله؛ لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً** ﴾[٣].

وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً** ﴾[٤].

فبعد العبد عن ربّه بالشرك بُعدٌ لا يقبل التقريب، وظلمة النفس به لم تدع فيها أثراً لنور إدراك الحقّ؛ لأنّ الشرك أحبط كلّ عمل من شأنه أن يطهّر النفس وينوّرها؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿ **ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[٦].

ب ـ أمّا ظلم الرجل نفسه في عمل لا يغلق عليها جميع منافذ النور، ولا ينقص من حقوق العباد عليه ولا يظلمهم، فإنّ التوبة والشفاعة وغيرهما من أبواب رحمة الله تعالى تقرّب العبد بعد البعد، وفيه آيات وأخبار كثيرة.

---

(١) الوسائل: ٥٢/١٦، باب وجوب ردّ المظالم، الحديث ١/٢٠٩٥٧. الكافي: ٣٤٣/٢، باب الظلم، الحديث ١/٢٦٣٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٦.

(٥) سورة الزُّمر: الآية ٦٥.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٨٨.

جـ ـ ولكنّ الظلم الذي لا يدعه الله ـ بمقتضى عدله ـ هو ظلم العباد ، فلا بدّ أن يقتصّ للمظلوم من ظالمه حتّى في نظرة الشزر ، ما لم يرض المظلوم في الدنيا أو في الآخرة ، سواء أكان الظلم مباشراً أم كان إعانة للظالم ، وكلّما كانت رقعة الظلم أوسع كان فعله والإعانة عليه ، بل وحبّه والرضا به أكثر بُعداً عن الله ، وكان استرضاء المظلومين أصعب .

وسوف يأتي في بحث التوبة وبحث الغيبة ما يبيّن ضرورة الاسترضاء أو ما يقوم مقامه عند تعذّره .

٩ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **ما من مظلمة أشدّ من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلّا الله** »(١) .

١٠ ـ وعنه عليه‌السلام ، قال : « **مَن أحبّ أن يعصى الله فقد بارز الله بالعداوة ، ومَن أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يعصى الله** »(٢) .

١١ ـ وفي خبر صفوان الجمّال وقصّه كرائه جماله ليحجّ عليها الظلمة قال أبو الحسن الأوّل عليه‌السلام : « **أتحبّ بقاءهم حتّى يخرج كراؤك ؟** » قلت : نعم ، قال : « **فمَن أحبّ بقاءهم فهو منهم ، ومَن كان منهم كان ورد النّار** »(٣) .

٨ ـ البغي

البغي لغة : العلوّ ، والظلم ، والعدول عن الحقّ ، والاستطالة ، والكذب . ويقال فئة باغية ، أي خارجة عن طاعة الإمام العادل(٤) .

---

(١) الوسائل : ٤٦/١٦ ، باب تحريم الظلم ، الحديث ٢٠٩٤٠/١ .

(٢) الكافي : ١٠٨/٥ ، باب عمل السلطان وجوائزهم ، الحديث ١١ . الوسائل : ٢٥٨/١٦ ، باب تحريم مجاورة أهل المعاصي ، الحديث ٢١٥٠٦/٥ .

(٣) الوسائل : ٢٥٩/١٦ ، باب تحريم مجاورة أهل المعاصي ، الحديث ٢١٥٠٨/٧ .

(٤) القاموس المحيط : ١٢٦٣ ، مادة « بغى » ، (ي : بغيته) .

إلّا أنّ ما يبدو من استعمال كلمة البغي في الأخبار هو لحاظ الاستطالة في معناه، بأن يتعالى الداني على العالي، ولم يؤدِّ إليه ما وجب عليه من حقّ. فإذا لوحظت في الفعل الاستطالة على الله تعالى كان ظلماً، وكان بغياً، وكان خروجاً عن الحقّ، وبهذا الاعتبار سُمّي الكذب بغياً، ولكنّ الغالب استعماله في الأخبار باستطالة بعض النّاس على بعض، ولذا أفردناه عن الظلم بعنوان يخصّه. وفي ذمّه وبيان الأثر المترتّب عليه في الدنيا أو في الآخرة وردت أخبار منها:

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**لو بغى جبل على جبل لجعله الله دكّاً، أعجل الشرّ عقوبة البغي**»(١).

٢ ـ في وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام، قال: «**يا عليّ، أربعة أسرع شيء عقوبة: رجل أحسنت إليه فكافأك بالإحسان إساءة، ورجل لا تبغي عليه ويبغي عليك، ورجل عاهدته على أمر فوفيت له وغدر بك، ورجل وصل قرابته فقطعوه**»(٢).

٣ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إنّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وأنّ أسرع الشرّ عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من النّاس ما يعمى عنه من نفسه، أو يعيّر النّاس بما لا يستطيع تركه، أو يؤذي جليسه بما لا يعنيه**»(٣).

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أيّها النّاس، إنّ البغي يقود أصحابه إلى النّار**»(٤).

٥ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**انظر أن لا تكلّمنّ بكلمة بغي أبداً، وإن أعجبتك نفسك وعشيرتك**»(٥).

---

(١) الوسائل: ١٦/٤٠، باب تحريم البغي، الحديث ٢٠٩١٩/٨.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٢٠٩١٨/٧.

(٣) المصدر المتقدّم: الحديث ٢٠٩١٦/٥.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ٢٠٩١٢/١.

(٥) المصدر المتقدّم: ٣٨، الحديث ٢٠٩١٣/٢.

٦ ـ وقال : يقول إبليس لجنوده : ألقوا بينهم الحسد والبغي ، فإنّهما يعدلان عند الله الشرك[١] .

٧ ـ وقال عليه السلام : « **إيّاكم أن يبغي بعضكم على بعض ، فإنّها ليست من خصال الصالحين ، فإنّه مَن بغى صيّر الله بغيه على نفسه ، وصارت نصرة الله لمن بغى عليه ، ومَن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله** »[٢] .

٨ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : « **دعا رجل بعض بني هاشم إلى البراز فأبى أن يبارزه ، فقال له عليّ عليه السلام : ما منعك أن تبارزه ؟** » .

فقال : كان فارس العرب ، وخشيت أن يغلبني ، فقال : « **إنّه بغى عليك ولو بارزته لقتلته ، ولو بغى جبل على جبلٍ لهلك الباغي** »[٣] .

وكان الإمام الصادق عليه السلام ينهى أصحابه عن البغي على غلمانهم والنيل من أُمّهاتهم وإن كنّ مشركات .

٩ ـ ففي خبر الجعفي يقول : كان لأبي عبدالله عليه السلام صديق لا يكاد يفارقه . . . فقال يوماً لغلامه : يابن الفاعلة ، أين كنت ؟

قال : فرفع أبو عبدالله عليه السلام يده فصكّ جبهة نفسه ، ثمّ قال : « **سبحان الله ، تقذف أُمّه ؟ قد كنت أرى أنّ لك ورعاً ، فإذا ليس لك ورع** » . فقال : جعلت فداك ، إنّ أُمّه سنديّة مشركة . فقال : « **أما علمت أنّ لكلّ أُمّة نكاحاً ؟ تنحّ عنّي** »[٤] .

١٠ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **إنّ أعجل الشرّ عقوبة البغي** »[٥] .

---

(١) الوسائل : ٣٨/١٦ ، باب تحريم البغي ، الحديث ٣/٢٠٩١٤ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٤٠ ، الحديث ٦/٢٠٩١٧ .

(٣) الوسائل : ٤١/١٦ ، باب تحريم البغي ، الحديث ١٢/٢٠٩٢٣ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٣٦ ، باب تحريم القذف حتّى للمشركة ، الحديث ١/٢٠٩٠٨ .

(٥) الوسائل : ٤١/١٦ ، باب تحريم البغي ، الحديث ١١/٢٠٩٢٢ .

والبغي وإن كان بجميع مصاديقه محرّماً ، كما دلّ إطلاق الأخبار على ذلك ، إلّا أنّه يختلف شدّة وضعفاً باعتبارات كثيرة ، **منها** كونه تطاولاً على الله تعالى بالخروج عن طاعته ، **ومنها** باعتبار نوعي البغي ، فالبغي على الزنجيّة المشركة بكلمة يختلف عن البغي على أحكام الله بتغييرها ، وحمل النّاس على العمل بهذا التغيير ، **ومنها** باعتبار المبغي عليه ، فقد يكون إماماً مفترض الطاعة ، وقد يكون غلاماً مملوكاً .

وهكذا يكون البغي كبيرة وأكبر حتّى يصل إلى الشرك بالله تعالى .

والأخبار التي رويناها في تعداد الكبائر وإن لم تذكر البغي بالتنصيص ، إلّا أنّها ذكرت كثيراً من مصاديقه مثل قذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، والمحاربة لأولياء الله ، وحبس الحقوق من غير عسر ، والكذب ، ونقض العهد ، والخيانة ، ومعونة الظالمين ، والتجبّر والتكبّر ، وقطيعة الرحم ، والسرقة ، والبخس في المكيال والميزان ، وغيرها .

وهذه جميعاً مظاهر وتجلّيات لصفة نفسيّة ذميمة يصدر عنها ما نسميّه بغياً ، إن لم نقل هي بعينها البغي ، وهذه آثاره ، وهي صفة عدوانيّة متمرّدة تكمن آثارها مع العجز ، وتظهر مع القدرة ، فالعاجز قد يكون في نفسه باغياً ولكنّه لا يمتلك ما يُظهر به بغيه ، ولكن من يعلم ما تخفي الصدور يعلم بعباده وبعلمه يعاملهم .

٩ ـ السفه

السفه لغة : خفّة الحلم ، أو نقيضه ، أو الجهل[(١)] . وعرّفه بعض الفقهاء بـ« التصرّف على خلاف مقتضى الشرع والعقل مع قيام العقل »[(٢)] .

---

(١) القاموس المحيط : ١٢٤٧ ، مادة « سفه » ، كلمة « السفه » .

(٢) البحر الرائق / ابن نجيم المصري : ١٤٥/٨.

وفي بعض الأخبار أنّ السفيه : «**الذي يشتري الدرهم بأضعافه**»[١] ، أو «**كلّ من شرب الخمر فهو سفيه**»[٢] ، أو «**من لا تثق به**»[٣] ، وكأنّ الأصل في معنى السفه مطلق الخفّة فيما من شأنه أن لا يخفّ ، ومنه الزمام السفيه ، أي كثير الاضطراب ، وثوب سفيه أي رديء النسج ، ثمّ غلب في خفّة النفس ، واختلف باختلاف الأغراض والمقاصد فقيل سفيه لخفيف الرأي في الأُمور الدينيّة ، وسفيه للفاسق غير المبالي في أمر دينه ، وهكذا[٤] .

فما ذهب إليه ابن حزم الظاهري من أنّ السفه هو عدم العقل[٥] ، إن كان يقصد به الجنون ؟ لم أجد أحداً يقول به .

ومهما يكن معناه عند الفقهاء فهو يقابل الرشد[٦] وتحديدهم له من حيث التحجير على أموال من اتّصف به .

إلّا أنّ الغرض من تحديده من حيث الجانب الأخلاقي قد يختلف عنه لدى الفقهاء ، فكم من سفيه في أخلاقه وفي مخالفاته لربّه سبحانه ، هو رشيد تدفع له أمواله ويرفع الحجر عنه عند الفقهاء. ولذا قيل الاختلاف في معناه باختلاف الأغراض.

إذن مقصودي بالسفه هو ما أشارت له الأخبار في المجال النفسي والأخلاقي ، ومن هذه الأخبار:

---

(١) التهذيب : ٩/١٥٧ ، باب وصيّة الصبي والمحجور عليه ، الحديث ٦/٧٣١. الوسائل: ١٩/٣٦٣ ، باب حكم وصيّة الصغير ، الحديث ٨/٢٤٧٦٨.

(٢) الوسائل : ١٩/٣٦٨ ، باب عدم جواز دفع الوصيّ مال اليتيم إليه قبل البلوغ والرشد ، الحديث ٨/٢٤٧٨٠.

(٣) المصدر المتقدّم: ٣٦٩ ، الحديث ٩/٢٤٧٨١.

(٤) الميزان: ٤/ ١٧٥ ، تفسير سورة النساء : الآية ٥.

(٥) المحلّى / ابن حزم : ٨/٢٨٧.

(٦) راجع مسالك الأفهام : ٤/١٥١.

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ السفه خلق لئيم ، يستطيل على من دونه ، ويخضع لمن فوقه** »(١).

٢ ـ عن الحسين بن عليّ عليه السلام ، قال : « **السفه اتّباع الدناة ، ومصاحبة الغواة** »(٢).

فالاستطالة على الداني والخضوع للعالي تكشف عن أنّ التصرّف وفق هوى النفس ، فإذا كانت النفس هابطة لم يحدّ من تنفيذ هواها عقل أو شرع ، بل ولا اعتبارات ، هبطت تصرّفاتها ، والتحقت بأمثالها من دناة النّاس وغواتهم. والظاهر أنّ السفه أمر اختياري أو أنّ مقدّماته اختياريّة ، ولذا صحّ النهي عنه ، فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال :

« **لا تسفهوا فإنّ أئمّتكم ليسوا بسفهاء** »(٣) ، وما أروعه من تعبير ، فإنّ مستلزمات الإمامة اقتداء المأموم بإمامه خُلقاً وسلوكاً ، فكيف يكون السفيه مأموماً للرشيد ؟

بل لا ينبغي لمن ائتمّ بأهل البيت عليهم السلام أن يقابلَ السفه بمثله لما روي عن أبي عبدالله عليه السلام قوله : « **مَن كافأ السفيه بالسفه ، فقد رضي بمثل ما أُتي إليه حيث احتذى مثاله** »(٤).

١٠ ـ الطمع والحرص

الطمع لغة هو الحرص ، وقد يشتدّ ويسوء ، فيسمّى جشعاً ، كمن يأخذ نصيبه ويطمع في نصيب الآخرين(٥).

والمذموم منه ما كان متعلّقاً بالدنيا ، وبخاصّة ما تسبّب منه بذلّ صاحبه.

---

(١) الوسائل : ١٦/٣٠ ، باب تحريم السفه ، الحديث ٢٠٨٨٦/٤.

(٢) الوسائل : ١٦/٢٥٧ ، باب تحريم مجاورة أهل المعاصي ، الحديث ٢١٥٠٤/٣.

(٣) الوسائل : ١٦/٣٠ ، باب تحريم السفه ، الحديث ٢٠٨٨٤/٢.

(٤) المصدر المتقدّم. الكافي : ٢/٣٣٦ ، باب السفه ، الحديث ٢٦٠٥/٢ ، مع اختلاف يسير.

(٥) القاموس المحيط : ٧٤٤ ، مادة « طمع ».

أمّا الطمع بما عند الله من رضا وقرب وكرامة ، والحرص عليه ، فهو من الصفات الحميدة .

وفي ذمّ الطمع في الدنيا والحرص عليها أخبار عدّة أذكر منها :

١ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع** »[١] .

٢ ـ وقال عليه السلام : « **لا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومَن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة ، وتبوّأ أخفض الدعة ، الحرص داعٍ إلى التقحّم في الذنوب** »[٢] .

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : علّمني يا رسول الله شيئاً ؟ فقال : عليك باليأس ممّا في أيدي النّاس ، فإنّه الغنى الحاضر . قال : زدني يا رسول الله ، قال : إيّاك والطمع ، فإنّه الفقر الحاضر** »[٣] .

٤ ـ عن الصادق جعفر بن محمّد ، عن آبائه عليهم السلام ، قال : « **سئل أمير المؤمنين عليه السلام : ما ثبات الإيمان ؟ قال : الورع ، فقيل : ما زواله ؟ قال : الطمع** »[٤] .

٥ ـ في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لمحمّد بن الحنفيّة ، قال : « **إذا أحببت أن تجمع خير الدنيا والآخرة ، فاقطع طمعك ممّا في أيدي النّاس** »[٥] .

٦ ـ عن عليّ بن الحسين عليه السلام ، قال : « **رأيت الخير كلّه قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي النّاس** »[٦] .

---

(١) الوسائل : ٢٥/١٦ ، باب كراهة الطمع ، الحديث ٨/٢٠٨٧١ .

(٢) الوسائل : ١٨/١٦ ، باب استحباب ترك ما زاد عن قدر الضرورة ، الحديث ٦/٢٠٨٤٨ .

(٣) الفقيه : ٢٧٣/٤ ، باب النوادر ، الحديث ٧٠ . الوسائل : ٢٨٢/١٥ ، باب وجوب تدبّر العاقبة قبل العمل ، الحديث ٧/٢٠٥٢٢ ، مع اختلاف يسير .

(٤) الوسائل : ٢٥/١٦ ، باب كراهة الطمع ، الحديث ٧/٢٠٨٧٠ .

(٥) المصدر المتقدّم : ٢٤ ، الحديث ٥/٢٠٨٦٨ .

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/٢٠٨٦٦ .

٧ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **بئس العبد عبدٌ يكون له طمع يقوده ، وبئس العبد عبد له رغبة تذلّه** »[١] .

٨ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذلّه** »[٢] .

٩ ـ وعنه عليه السلام في جواب مَن سأله عمّا يُخرج الإيمان من العبد ؟ قال : «**الطمع**»[٣] .

١٠ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيراً** »[٤] ، وقال : « **مَن كثر اشتباكه في الدنيا كان أشدّ لحسرته عند فراقها** »[٥] ، وقال : « **حُرِم الحريص خصلتين ولزمته خصلتان : حرم القناعة فافتقد الراحة ، وحرم الرضا فافتقد اليقين** »[٦] .

وقال : « **أبعد ما يكون العبد من الله عزّ وجلّ إذا لم يهمّه إلّا بطنه وفرجه** »[٧] .

١١ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **إنّ الشيطان يدين (يدير) ابن آدم في كلّ شيء ، فإذا أعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته** »[٨] .

١٢ ـ عن الرضا عليه السلام ، عن آبائه ، عن عليّ عليه السلام ، قال : « **جاء خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسول الله ، أوصني وأقلّه لعلّي احفظ ؟ فقال : أُوصيك بخمس : باليأس ممّا في أيدي النّاس ، فإنّه الغنى الحاضر ، وإيّاك والطمع ، فإنّه الفقر الحاضر ،**

---

(١) الوسائل : ١٦/ ٢٤ ، باب كراهة الطمع ، الحديث ٢٠٨٦٥/٢ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٨٦٤/١ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٨٦٧/٤ . الكافي : ٢/ ٣٣٤ ، باب الطمع ، الحديث٢٥٩٦/٤ .

(٤) الكافي : ٢/ ٣٣٠ ، باب حبّ الدنيا والحرص عليها ، الحديث ٢٥٨٢/٧ .

(٥) المصدر المتقدّم : ٣٣٤ ، الحديث ٢٥٩١/١٦ . الوسائل : ١٦/ ٢٠ ، باب كراهة الحرص على الدنيا ، الحديث ٢٠٨٥٥/٣ .

(٦) الوسائل : ١٦/ ٢٠ ، باب كراهة الحرص على الدنيا ، الحديث ٢٠٨٥٦/٤ .

(٧) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٨٥٤/٢ .

(٨) الوسائل : ١٦/ ٢١ ، باب كراهة حبّ المال والشرف ، الحديث ٢٠٨٥٨/٢ .

وصلِّ صلاة مودّع ، وإيّاك وما تعتذر منه ، وأحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك »[١].

ومعلوم أنّ منشأ الطمع والحرص والجشع هو عدم القناعة بما حصل عليه المرء من رزق أو منصب أو جاه أو غيرها من اُمور الدنيا ، ومردّ هذا إلى قطع النظر عن حكمة الله (تعالى) وتقديره ، وقطع النظر عمّا وراء الدنيا من حياة أبديّة . ويجمع هذه الدواعي ، الجهل بالنفس والجهل بالله تعالى .

وقد عالج أهل البيت عليهم السلام مناشئ الطمع في الدنيا بعدّة معالجات منها :

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال[٢] : « **إيّاك أن يطمح بصرك إلى مَن هو فوقك ، فكفى بما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ﴾**[٣] **، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾**[٤] **، فإن دخلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنّما كان قوته الشعير ، وحلوه التمر ، ووقوده السعف إذا وجده** » .

٢ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **مَن أراد أن يكون أغنى النّاس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد غيره** »[٥].

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **مَن رضي من الله باليسير من المعاش ، رضي الله منه باليسير من العمل** »[٦].

٤ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **مَن سألنا أعطيناه ، ومن استغنى**

---

(١) الوسائل : ٢٥/١٦ ، باب كراهة الطمع ، الحديث ٩/٢٠٨٧٢ .

(٢) الوسائل : ٥٣٠/٢١ ، باب استحباب القناعة بالقليل ، الحديث ٢/٢٧٧٧٣ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٨٥ ، وتمام الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

(٤) سورة طه : الآية ١٣١ ، وتمامها : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

(٥) الوسائل : ٥٣١/٢١ ، باب استحباب القناعة بالقليل ، الحديث ٧/٢٧٧٧٨ .

(٦) المصدر المتقدّم : ٥٣٠ ، الحديث ١/٢٧٧٧٢ .

أغناه الله»(١).

٥ ـ وعنه عليه السلام أيضاً، قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**ابن آدم، إنْ كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإنّ أيسر ما فيها يكفيك، وإنْ كنت تريد ما لا يكفيك، فإنّ كلّ ما فيها لا يكفيك**»(٢).

٦ ـ وعن أيضاً، قال عليه السلام: «**مكتوب في التوراة: ابن آدم، كن كيف شئت، كما تدين تُدان، مَن رضي من الله بالقليل من الرزق، قبِل الله منه القليل من العمل، ومَن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤنته، وزكت مكسبته، وخرج من حدّ الفجور**»(٣).

٧ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**قال الله عزّ وجلّ: إنّ من أغبط أوليائي عندي عبداً مؤمناً ذا حظّ من صلاح، أحسن عبادة ربّه، وعبد الله في السريرة، وكان غامضاً في النّاس، فلم يشر إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر عليه، فعجلت به المنيّة، فقلّ تراثه، وقلّ بواكيه**»(٤).

٨ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**إن الله يقول: يحزن عبدي المؤمن إن قتّرتُ عليه وذلك أقرب له منّي، ويفرح عبدي المؤمن إنْ وسّعت عليه وذلك أبعد له منّي**»(٥).

٩ ـ وعنه عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً**»(٦).

١٠ ـ وعنه عليه السلام أيضاً أنّه قال لبعض أصحابه: «**أما تدخل السوق؟ أما ترى الفاكهة تباع والشيء ممّا تشتهيه؟**»، قلت: بلى والله، فقال: «**أما أنّ لك بكلّ ما تراه فلا تقدر**

---

(١) الوسائل: ٢١/٥٣٠، باب استحباب القناعة بالقليل، الحديث ٢٧٧٧٤/٣.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٢٧٧٧٥/٤.

(٣) الوسائل: ٢١/٥٣٠، باب استحباب القناعة بالقليل، الحديث ٢٧٧٧٧/٦.

(٤) المصدر المتقدّم: باب استحباب الرضا بالكفاف، الحديث ٢٧٧٨١/١.

(٥) المصدر المتقدّم: ٥٣٣، الحديث ٢٧٧٨٤/٤.

(٦) المصدر المتقدّم: الحديث ٢٧٧٨٢/٢.

على شرائه وتصبر عليه حسنة »[١] .

١١ ـ وعن الرضا عليه‌السلام ، قال : « **مَن لم يقنعه من الرزق إلّا الكثير لم يكفه من العمل إلّا الكثير ، ومَن كفاه من الرزق القليل فإنّه يكفيه من العمل القليل** »[٢] .

١١ ـ سوء الخُلق

الخُلق لغة : السجيّة والطبع[٣] ، ويوصف بالضدّين ، فيقال : خُلق حسن ، وخُلق سيئ . والسيئ من كلّ شيء هو : المكروه والقبيح والفاسد[٤] .

والخلق ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال الحسنة أو القبيحة ، فهو صفة نفسانيّة والأفعال مظاهرها ، وتحصل ملكة الخلق بقسميه بأسباب عديدة لعلّ أهمّها التربية على الاعتياد على فعل شيء حتّى تترسّخ عنه في النفس ملكة معيّنة ، كملكة الشجاعة أو الكرم أو ضدّيهما .

ولقد اهتمّت الشريعة الإسلاميّة المقدّسة اهتماماً متميّزاً في ترسيخ الأخلاق الكريمة في النفوس ، واقتلاع الأخلاق الذميمة منها إلى حدّ اُنيطت بعثة الأنبياء حصراً ببناء مكارم الأخلاق في النفوس ، فقد روي عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، قال : « **إنّما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق** »[٥] .

وقد ألّف المسلمين عشرات المجلّدات في الأخلاق في ضوء ما ورد في الكتاب المجيد والسنّة الشريفة[٦] .

---

(١) الكافي : ٢/٢٨٦ ، باب فضل فقراء المسلمين ، الحديث ١٧/٢٣٩٠ .

(٢) الوسائل : ٢١/٥٣١ ، باب استحباب القناعة بالقليل ، الحديث ٥/٢٧٧٧٦ .

(٣) القاموس المحيط : ٨٨١ ، مادة (خَلَقَ) .

(٤) القاموس المحيط : ٤٣ ، مادة (سَوَأَ) .

(٥) مستدرك الوسائل : ١١/١٨٧ ، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق ، الحديث ١/١٢٧٠١ .

(٦) مثل : كتاب المحجّة البيضاء ، جامع السعادات ، مكارم الأخلاق ، أخلاق أهل البيت عليهم‌السلام .

كما أنّ الفقه الإسلامي تناول في كثير من مباحثه هذا الجانب أيضاً [١].

وفي الفصل الثاني من هذا الجزء تحت عنوان التخلّق بمكارم الأخلاق أتناول جانباً منها.

أمّا الآن فاقتصر على بعض ما ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في ذمّ الخلق السيئ وبيان بعض آثاره:

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**إيّاكم وسوء الخُلق، فإنّ سوء الخُلق في النّار لا محالة**» [٢].

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وآله، قال: «**أبى الله لصاحب الخُلق السيئ بالتوبة**»، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**لأنّه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه**» [٣].

٣ ـ وفي وصيّته صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام، قال: «**يا عليّ، لكلّ ذنب توبة إلّا سوء الخُلق، فإنّ صاحبه كلّما خرج من ذنب دخل في ذنب**» [٤].

٤ ـ وعنه صلى الله عليه وآله، قال: «**عليكم بحسن الخُلق، فإنّ حُسن الخُلق في الجنّة لا محالة، وإيّاكم وسوء الخُلق فإنّ سوء الخُلق في النّار لا محالة**» [٥].

٥ ـ وعن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**ما من ذنب إلّا وله توبة، وما من تائب إلّا وقد تسلم له توبته، ما خلا السيئ الخُلق؛ لأنّه لا يتوب من ذنب إلّا وقع في غيره أشرّ منه**» [٦].

---

(١) في مثل: آداب الجهاد، وآداب القضاء، وأحكام العِشرة، ورعاية الحيوان، وغيرها من المباحث.

(٢) الوسائل: ١٥٢/١٢، باب استحباب حسن الخُلق، الحديث ١٧/١٥٩٢٠.

(٣) الوسائل: ٢٧/١٦، باب تحريم إساءة الخُلق، الحديث ٢/٢٠٨٧٦.

(٤) المصدر المتقدّم: ٢٨، الحديث ٦/٢٠٨٨٠.

(٥) المصدر المتقدّم: الحديث ٧/٢٠٨٨١.

(٦) المصدر المتقدّم: الحديث ٨/٢٠٨٨٢.

٦ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**إنّ سوء الخُلق لَيُفسد العمل (الإيمان) كما يفسد الخلّ العسل**»[١].

٧ـ وقال عليه السلام : «**مَن ساء خُلقه عذّب نفسه**»[٢].

---

(١) الوسائل : ٢٧/١٦ ، باب تحريم إساءة الخُلق ، الحديث ٢٠٨٧٥/١.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٨٧٨/٤.



الفَصْلُ الثَّانِي

إصلاح النفس



في المبحث الأوّل من هذا الفصل تحدّثنا عمّا يلوّث النفس وما يحجبها عن ربّها وعن إدراك حقيقتها من كبائر الذنوب ، وعقدنا هذا المبحث للحديث عن إصلاحها .

ومن الواضح أنّ التفكير بإصلاحها هو خطوة نحو الفلاح ، غير أنّ البدء به مع بقاء أثر الذنوب في أعماق النفس لا يختلف عن طلاء الحديد بالصبغ فوق ما عليه من صدأ ورين ، فما هو إلّا لون ومظهر خارجي سريعاً ما يزول ، دون أن يكتسب منه ما تحت الصدأ قوّة أو لوناً .

والنفس وبخاصّة إذا كثرت منها الذنوب فادلهمّت عليها الحجب لا ترى الحقّ حقّاً فتتّبعه ، ولا الباطل باطلاً فتجتنبه ، فإن بقي فيها شيء من النور فلتبدأ أوّلاً بأن تدرك به ضرورة تطهيرها من ظلمة ذنوبها لتتّسع فيها رقعة النور ، وتتقلّص فيها رقعة الظلام ، بأن تبدأ بالتوبة والاستغفار والخروج عن مظالم العباد ومظالم نفسها تدريجياً ، وهو عمل يحتاج إلى مجاهدة وعناء ، وبخاصّة لمن تراكم الرين والصدأ على نفسه حتّى تكلّس أو يكاد .

ليحلّ الإيمان والطهارة محلّ الشكّ والرجس ، وكلّما ازداد النور في النفس ازدادت قوّة في هذا الجهاد ، وازداد الانتصار على النفس الأمّارة .

لهذا فإنّ أوّل ما نتحدّث به في هذا المبحث هو التوبة ، ونعقبه بالحديث عن

العقل وطاعته ، والتفكير والاعتبار بكلّ ما يواجهه المرء في حياته ، ثمّ اليقين بالله تعالى في النفع والضرر ، والاعتصام به تعالى ، وقطع الرجاء لغيره ، وحسن الظنّ به ، والإعطاء والمنع فيه عزّ وجلّ ، والتخلّق بمكارم الأخلاق من ورع وعفّة وحلم ورفق وصبر وتواضع وانصاف النّاس من النفس والتقوى ، ثمّ بعد هذا كلّه نتحدّث عن الإيمان وفضله .

والله نسأل أن يعيننا على أنفسنا بالتعرّف على خفاياها وتزيينها لنا ما يُبعدنا عنه سبحانه ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله .

إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم ، عليه توكّلت وإليه أُنيب .



التوبة

١ ـ معناها

التوبة: من تاب إلى الله توباً وتوبةً ومتاباً وتابةً، أي رجع عن المعصية، فهو تائب وتوّاب. وتاب الله عليه، أي وفّقه للتوبة، أو رجع به من التشديد إلى التخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وهو توّاب على عباده[١].

والمحصّل من نصوص اللغويّين أنّ التوبة لغة هي الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان معناها رجع عن معصيته وبُعده بها إلى ربّه تعالى، وإذا وصف بها الربّ سبحانه كان معناها قبوله لرجوع عبده إليه بعد بعده عنه بمعصيته.

وقد وردت التوبة وصفاً لله تعالى ووصفاً لعباده في عشرات الآيات الكريمة في القرآن المجيد[٢].

وقد جمع الله سبحانه الوصفين معاً في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ**

---

(١) القاموس المحيط: ٦٢، مادة «تاب».

(٢) راجع: سورة البقرة: الآيات ٣٧ و ٥٤ و ١٦٠، سورة التحريم: الآية ٤، سورة النساء: الآية ١٧، وغيرها من الآيات.

يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[١].

٢ ـ حقيقة التوبة

بعد أن عرفنا أنّ معنى التوبة من العبد هي رجوعه إلى ربّه سبحانه بعد بعده عنه ، يمكننا أن ندرك ببساطة أنّ مقوّمات هذا الرجوع هي ترك موجبات البعد ، مع الندم على فعله لها ، والعزم على عدم المعاودة إليها .

على أنّ هذه المقوّمات بحدّ ذاتها إنّما تقتضي إيقاف التوغّل في البعد ، ولا تقتضي القرب ، بل يحتاج القرب إلى مقوّمات تقتضيه ، كالطاعات مثلاً ، إلّا أنّ رحمة الله بعباده ولطفه بهم وتفضّله عليهم اقتضى أن تكون التوبة من الذنب بنفسها طاعة مقرّبة منه تعالى وماحية لأثر الذنب من النفس أو غافرة له ، فمن كان يشرب الخمرة ثمّ ندم على مخالفته لنهي ربّه تعالى عن شربها وترك فعلاً شربها ، وصمّم على عدم معاودته للشرب فقد قرب بهذه التوبة من ربّه بعد بُعده عنه تعالى قبلها ، وغفر له ذنبه هذا أو محاه من نفسه ، لتطهر بعد التلويث وتتنوّر بالتوبة بعد الظلمة .

وفيما يأتي نتحدّث بشيء من التفصيل عن هذه المقوّمات الثلاث لحقيقة التوبة :

أ ـ الندم على فعل الذنب

ومعنى الندم معروف ، ولا نملك لتعريفه أكثر من القول بأنّه الأسف[٢] على صدور الذنب لما يترتّب عليه من ضرر عاجل أو آجل بما في ذلك بُعد العبد عن سيّده تعالى ، وحجبه عن معرفته وعن القرب منه ونيل رضاه .

والندم هو ومضة تشرق في نفس المذنب يدرك بها قبح ما صدر منه ليتحرّك

---

(١) سورة النساء : الآية ١٧ .

(٢) القاموس المحيط : ١١٦٢ ، مادة « ندم » .

للإقلاع عنه ، وهو أوّل خطوة في طريق الرجوع بعد الأباق .

لذا روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « **الندامة توبة** »[(١)] ، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله : « **إنّ الندم على الشرّ يدعو إلى تركه** »[(٢)] ، وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال : « **كفى بالندم توبة** »[(٣)] ،كما روي عن أبي عبدالله عليه السلام قوله : « **مَن سرّته حسنته وساءته سيّئته فهو مؤمن** »[(٤)] .

ويبدو من هذه الأخبار أنّ الندم وحده توبة من الذنب السابق عليه ، وداعٍ للإقلاع عن فعل أمثاله في المستقبل ، فلا حاجة إلى غير الندم من المقوّمات الأُخرى التي أشرنا إليها ، ونتحدّث عنها فيما يأتي .

وعليه فمن ندم على فعله فقد تاب وغفر له ووصف بالإيمان (وكفى بالندم توبة) .

غير أنّ الندم ـ وهو حالة نفسيّة ـ إنّما يُعرف حصوله في النفس وتحقّقه فيها بترك ما ندم على فعله أو فعل ما ندم على تركه ، وبالعزم على هذا الترك أو الفعل ؛ « **لأنّ الندم على الشرّ يدعو الى تركه** » ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ فمن ادّعى الندم على ترك واجب أو فعل محرّم ، وهو متلبّس بما ندم عليه أو عازم على المعاودة ، فهو في الحقيقة مغالط لنفسه أو جاهل بمعنى الندم ، كمن نهاه الطبيب عن الكلام فخالفه وتردّت صحّته بهذه المخالفة ، وهو نادم على فعله ـ فيما يدّعي ـ وهو آخذ في الاستمرار بالحديث مع الآخرين يقصّ عليهم نهي الطبيب ، وتردّي الصحّة والندم على ذلك ، وما إلى ذلك فيما يعنيه أو لا يعنيه ، فمثل هذا كاذب في دعواه الندم

---

(١) الوسائل : ٦٢/١٦ ، باب وجوب الندم على الذنوب ، الحديث ٥/٢٠٩٨٦ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٦١ ، الحديث ٣/٢٠٩٨٤ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٦/٢٠٩٨٧ .

(٤) الكافي : ٢٥٩/٢ ، باب المؤمن وعلاماته وصفاته ، الحديث ٦/٢٢٧٧ . الوسائل : ١٠٧/١ ، باب جواز السرور بالعبادة ، الحديث ٤/٢٦٢ .

أو جاهل بمعناه عندما يدّعيه .

إذن الندامة توبة ، إلّا أنّ للندامة لوازماً أبرزها التخلّي عمّا ندم عليه ، والعزم على ترك المعاودة إليه ، فإذا لم يتحقّق هذان اللّازمان لم يتحقّق حصول الندم .

نعم ، قد يحصل الندم على تصرّف ما في حال لا يقدر معه النادم على ترك ما ندم على فعله ، ولا جدوى في العزم على الترك لعلمه بعدم القدرة عليه مستقبلاً ، كمن تورّط في الدخول في أرض الغير عدواناً وغصباً بالاختيار ، ثمّ أُجبر على المكث فيها حتّى الموت ، فهو لا يقدر على تركها ولا جدوى في العزم على غير المقدور ، ففي هذه الحالة وأمثالها تتقوّم التوبة بالندم لإمكان حصوله وإن تخلّفت لوازمه ، مثلما تحصل الشمس دون حصول النهار لحائل بينها وبين ما تشرق عليه ، وحيث أنّ قبول التوبة من الله سبحانه ، فهو أعرف بصدق النادم من نفسه ، وهو أرحم الراحمين .

ب ـ ترك التلبّس بالذنب

يختلف التلبّس بالذنب باختلاف نوع الذنوب ، فبعضها يتصوّر فيها التلبّس أثناء الندم ، وبعضها لا يتصوّر . فقطيعة الرحم مثلاً ذنب يتصوّر فيه التلبّس في الماضي والحال والاستقبال ، وكذا غصب المال وعقوق الوالدين وظلم الآخرين بالتسلّط عليهم بدون حقّ ، وأمثال هذه الذنوب القابلة للامتداد على الأزمنة الثلاثة ، وحينئذٍ لا يتحقّق الندم بدون تحقّق لازمه ، وهو ترك التلبّس بالذنب أثناء الندم عليه ، فقاطع الرحم يصل رحمه ، وغاصب المال يعيده أو يدفع عوضه إلى ذويه أو يسترضيهم ، والمتسلّط ظلماً يرفع يده عمّن تسلّط عليه ، والعاقّ لأبويه يبرّهما ، وهكذا يخرج ممّا هو فيه من ذنب كي يكون صادقاً في ندمه .

أمّا مع استمراره على ما ندم عليه فأي ندم هذا ؟ وحينئذٍ لا تتحقّق التوبة ؛ لأنّها رجوع عن الذنب إلى الربّ (جلّ شأنه) ، وخروج من الظلمة وضلالها إلى النور

وهداه ، ومع فرض التلبّس فيما يبعد عن الله تعالى لا يتصوّر الرجوع إليه والقرب منه ، ومع فرض البقاء في الظلمات والتيه لا يتصوّر التحوّل إلى النور والهدى .

ومن الذنوب ما ليس له امتداد على الماضي والحال والاستقبال ، كالجهاد في سبيل الله لمن تركه ولم يحصل بعد الترك ما يقتضيه ، وكالصوم بعد العجز عنه ، فمن ندم على تركهما ـ والحال هذه ـ لم يكن مكلّفاً بهما كي يلزمه ترك التلبّس بالذنب لانتفاء موضوعهما بحقّه ، وحينئذٍ لا معنى لاشتراط ترك التلبّس بالذنب في صحّة الندم وفي حصول التوبة .

هذا كلّه في المنظار العرفي المبني على التسامح والعموميّات ، وإلّا ففي الدقّة أنّ كلّ تكليف بنوع من أنواع الواجبات أو المحرّمات ينحلّ إلى عدّة تكاليف باعتبارات كثيرة ، ولنأخذ منها الزمان مثالاً .

فالتكليف بصلاة الصبح ـ مثلاً ـ وإن كان بالنظرة العامّة تكليفاً واحداً ، إلّا أنّه ينحلّ إلى تكاليف عدّة بالنسبة إلى الشخص الواحد ، على عدد آنات الوقت المحدّد لهذه الصلاة ، فإذا افترضنا أنّ وقتها المحدّد لها يتّسع للإتيان بها عشرين مرّة ، كان التكليف بأدائها منحلّاً إلى عشرين تكليفاً على نحو التخيير .

ففي الحصّة الأُولى من الوقت يجب عليه أن يؤدّيها ، فإن لم يؤدّيها وجب عليه أداؤها في الحصّة الثانية من الوقت ، وهكذا إلى الحصّة الأخيرة من الحصص العشرين التي يكون فيها الوجوب تعيينياً لا تخييريّاً .

والتكليف بحرمة الغصب ووجوب ردّ المغصوب ينحلّ إلى تكاليف متعدّدة بتعدّد أزمنة الغصب وأزمنة إمكان الردّ ، وهكذا الحال في كلّ تكليف باعتبار الزمان ، وقد يتعدّد باعتبارات أُخرى .

إلّا أنّ انحلال التكليف الواحد إلى تكاليف عدّة على نحو التخيير كما في مثال الصلاة ، لا تصدق المعصية على مخالفة بعض التكاليف ، وإنّما تصدق على معصية

الجميع. وأمّا في مثل الغصب فمخالفة كلّ تكليف من التكاليف الانحلاليّة بجميع الاعتبارات هي معصية وذنب، فلا يكون النادم على ما مضى من أزمنة العصيان نادماً بحقّ، ما لم يخرج عن الذنب حين الندم.

ومع هذاكلّه يمكن القول بأنّ الذنوب جميعاً متساوية من حيث قبول التوبة منها بالندم عليها فيما تصحّ التوبة منه، إلّا أنّ الفرق بينها أنّ البعض منها، كالغصب، عندما ينحلّ التكليف بتحريمه ووجوب ردّ المغصوب إلى تكاليف متلاحقة ومتعدّدة، فإنّ الندم على عصيان ما يسبق الندم منها، وإن كان توبة ورجوعاً إلّا أنّ العصيان لمّا يزامن حالة الندم منها هو فعل معاكس للرجوع، وحينئذٍ لم يبق أثر للتوبة لتكافؤ التوبة المقرّبة بالعصيان الحالي المبعّد.

وأمّا مثل الصلاة فإنّ التوبة من تركها تحصل بالندم عليه وتقبل، وحيث لا تكليف بالأداء بعد العصيان، وخروج الوقت يُنتظر بالعبد حلول وقتها الآخر، فإن أدّى الواجب فقد ترك التلبّس بالذنب وقرب من المولى (تعالى)، وإن عصى تكافأت التوبة المقبولة بالترك الجديد المبعّد ورجع العبد عن رجوعه إلى الله تعالى. ونتيجة لما تقدّم فالندم وحده توبة إلّا أنّها غير مجدية في القرب من الله (عزّ وجلّ) ما دام العبد يبتعد عنه تعالى بتكرار الذنب.

ولعلّ هذا هو الوجه في اعتبار الخروج من الذنب وترك التلبّس به شرطاً في قبول التوبة، أي في جدوى الرجوع إلى الله سبحانه.

ويؤيّده من الأخبار:

١ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**مَن اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حقّه، لم يزل الله معرضاً عنه ماتتاً لأعماله التي يعملها من البرّ والخير ولا يثبتها في حسناته حتّى يتوب ويردّ المال الذي أخذه إلى صاحبه**»[1].

---

(١) الوسائل: ٥٣/١٦، باب وجوب ردّ المظالم إلى أهلها، الحديث ٦/٢٠٩٦٢.

٢ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ** »(١).

٣ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، عن شيخ من النخع قال : قلت : لأبي جعفر عليه السلام : إنّي لم أزل والياً منذ زمن الحجّاج إلى يومي هذا ، فهل لي من توبة ؟ قال : فسكت عليه السلام . قال السائل : ثمّ أعدتُ عليه ، فقال : « **لا حتّى تؤدّي إلى كلّ ذي حقّ حقّه** »(٢).

٤ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **مَن ظلم أحداً وفاته فليستغفر الله له ، فإنّه كفّارة له** »(٣).

إذن التوبة عن ذنب بعينه تتطلّب ، مضافاً للندم ، ردّ الحقّ إلى ذويه ، والخروج عن التلبّس بالذنب ، وإلّا كان مستهزئاً بنفسه بالرجوع بالتوبة ، ثمّ العود من حيث رجع بفعل ما تاب عنه .

فإن تعذّر عليه التخلّص من حقّ الغير بردّه إليه ، **أو** إلى ورثته بعد موته ، **أو** التصدّق به ، أو بقيمته ، عن ذمّة المظلوم ، **أو** استرضائه إذا كان الحقّ معنوياً فليستغفر الله له ليكون هذا الاستغفار تعويضاً عن الحقّ يوم القيامة ؛ لأنّ الله سبحانه لا يدع مظالم العباد دون ردّها أو ردّ عوضها إليهم .

فقد روي عن أبي جعفر عليه السلام ، قوله : « **الظلم ثلاثة : ظلم يغفره الله ، وظلم لا يغفره الله ، وظلم لا يدعه الله ؛ فأمّا الظلم الذي لا يغفره : فالشرك ، وأمّا الظلم الذي يغفره :**

---

(١) الوسائل : ١٦/٧٤ ، باب وجوب التوبة ، الحديث ٢١٠١٦/٨. الكافي : ٢/٤٢٩ ، باب التوبة ، الحديث ٢٩٥٩/١٠.

(٢) الوسائل : ١٦/٥٢ ، باب وجوب ردّ المظالم ، الحديث ٢٠٩٥٩/٣. الكافي : ٢/٣٤٤ ، باب الظلم ، الحديث ٢٦٤١/٣.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٩٦١/٥. الكافي : ٢/٣٤٧ ، باب الظلم ، الحديث ٢٦٥٨/٢٠.

فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأمّا الظلم الذي لا يدعه: فالمداينة بين العباد»(١).

وقد مرّ التعليق على هذا الخبر (ص ١٨٩ ـ ١٩٠)، فراجع إن شئت.

وبهذا الأخبار وأمثالها ممّا ورد فيه اشتراط ترك التلبّس بالذنب تُقيّد الإطلاقات الواردة في أدلّة قبول التوبة إن فسّرت التوبة بالندم فحسب، مثل ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَن تاب تاب الله عليه، وأُمرت جوارحه أن تستر عليه، وبقاع الأرض أن تكتم عليه، ونسيت الحفظة ما كانت كتبت عليه**»(٢)، وغير هذه الرواية ممّا علّقت القبول على التوبة مطلقاً، وسيأتي ذكر عدّة منها.

ج ـ العزم على ترك المعاودة

العزم هو الإرادة، سواء تعلّقت بفعل أم بترك، وهي من أفعال النفس، ومن لوازم الندم، فالنادم على صدور فعل من أفعاله لا يُعقل أن يريد الوقوع في أمثاله، والنادم على ترك فعل لا يعقل أن يريد تكرار هذا الترك، وإنّما يريد العكس في الحالين وإلّا لما كان نادماً.

وبوجه عامّ فالندم على البعد عن الله تعالى يستلزم حبّ القرب وإرادة المقرّب، ومَن كان عازماً على التمرّد والبعد فهو غير نادم عليهما ولا على مسبّباتهما، وإلّا كان جاهلاً بمعنى الندم أو مستهزئاً بنفسه.

نعم، قد تطرأ عليه غفلة، أو يغلبه هوى نفسه، أو يُكره على مخالفة إرادته، وهذا ما يحصل لبعض مَن يريد أمراً ولا يحقّق مراده، وهو لا ينافي الندم؛ لأنّ الندم يستلزم الإقلاع عمّا ندم على فعله أو تركه، وقد يحقّق الإنسان ما أراد وقد لا يحقّقه

---

(١) الوسائل: ٥٢/١٦، باب وجوب ردّ المظالم إلى أهلها، الحديث ٢٠٩٥٧/١.

(٢) الوسائل: ٧٤/١٦، باب وجوب التوبة، الحديث ٢١٠١٨/١٠.

لأمور كثيرة ومتشابكة .

والأخبار صريحة في اشتراط العزم على ترك المعاودة ، أذكر منها :

١ ـ عن كميل بن زياد رضي الله عنه ، قال : قلت لأمير المؤمنين عليه السلام : العبد يصيب الذنب فيستغفر الله ؟ فقال : « **يابن زياد ، التوبة** » ، قلت : ليس ؟ قال : « **لا** » ، قلت : كيف ؟ قال : « **إنّ العبد إذا أصاب ذنباً قال : استغفر الله بالتحريك** » ، قلت : وما التحريك ؟ قال : « **الشفتان واللسان يريد أنْ يُتبع ذلك بالحقيقة** » ، قلت : وما الحقيقة ؟ قال : « **تصديق القلب ، وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه** » ، قلت : فإذا فعلت ذلك فأنا من المستغفرين ؟ قال : « **لا ؛ لأنّك لم تبلغ إلى الأصل بعد** » ، قلت : فأصل الاستغفار ما هو ؟ قال : « **الرجوع إلى التوبة عن الذنب الذي استغفرت منه ، وهي أوّل درجة العابدين . . .** »(١) .

٢ ـ روي أنّ رجلاً قال بحضرة أمير المؤمنين عليه السلام : استغفر الله ، فقال عليه السلام : « **ثكلتك أمّك ، أتدري ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العلّيين ، وهو اسم واقع على ستّة معانٍ :**

أوّلها : الندم على ما مضى ، والثاني : العزم على ترك العود إليه أبداً ، والثالث : أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله عزّ وجلّ أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها ، والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى يلصق الجلد بالعظم ، وينشأ بينها لحم جديد ، والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : أستغفر الله »(٢) .

٣ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ التوبة مطهّرة من دنس الخطيئة . قال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾** ـ إلى قوله : ـ

---

(١) الوسائل : ٧٨/١٦ ، باب وجوب إخلاص التوبة ، الحديث ٢١٠٢٩/٥ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٧٧ ، الحديث ٢١٠٢٨/٤ .

﴿ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[(١)] ، فهذا ما دعا الله إليه عباده من التوبة ، ووعد عليها من ثوابه ، فمن خالف ما أمر الله به من التوبة سخط الله عليه ، وكانت النّار أوْلى به وأحقّ »[(٢)] .

هذه الأخبار ـ وبخاصّة الأوّلين منها ـ صريحة في اشتراط العزم في صحّة التوبة .

د ـ التوبة النصوح

وقد تسمّى التوبة بأركانها الثلاثة ، وهي : الندم ، وترك التلبّس بالذنب ، والعزم على عدم المعاودة بـ(التوبة النصوح) ، وهي ما أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بها ، بقوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾**[(٣)] .

وقد سأل أبو بصير أبا عبدالله عليه السلام عن معنى التوبة النصوح في الآية الكريمة ؟ فقال عليه السلام : « **هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً** » ، قلت : وأيّنا لم يعد ؟ فقال عليه السلام : « **يا أبا محمّد ، إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب** »[(٤)] .

والتوّاب : صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة ، وكثرة التوبة وإن كانت تنطبق على كثرة حصولها من ذنوب متنوّعة ، فتعدّد التوبة منها ، غير أنّ سياق الحديث الشريف يدلّ على كثرتها من الذنب الواحد أيضاً .

وتعبير الإمام عليه السلام : « **هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً** » ، يدلّ بظاهره على عدم صدور الذنب من التائب ، فضلاً عن العزم على عدم صدوره ، وهذا ما فهمه أبو بصير ، حيث قال : وأيّنا لم يعد ؟

---

(١) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ و ٢٧٩ .

(٢) الوسائل : ١٢٤/١٨ ، أبواب الربا ـ باب تحريمه ، الحديث ٢٤/٢٣٢٩٣ .

(٣) سورة التحريم : الآية ٨ ، وتمامها : **﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** .

(٤) الوسائل : ٧٢/١٦ ، باب وجوب التوبة ، الحديث ٣/٢١٠١١ .

وجواب الإمام عليه‌السلام له بأنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب ، إنّما يدلّ على أنّ كثرة التوبة من الذنب الواحد ـ بأن يتوب ويعود ، وهكذا تتكرّر التوبة بتكرّر العود ـ محبوبة لله بما هي توبة . ولا يلزم من كون التكرار محبوباً أن تكون التوبة المتكرّرة توبة نصوحاً . وعليه فلا تسمّى التوبة توبة نصوحاً إلّا بعدم تكرّر المعصية بعدها ، وتؤكّد هذا عدّة أخبار ، منها :

١ ـ عن محمّد بن الفضيل الكناني ، قال : سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً** ﴾ ، قال : « **يتوب العبد من الذنب ثمّ لا يعود فيه** »[1] .

٢ ـ وعنه أيضاً ، قال : سألت أبا الحسن عليه‌السلام فقال : « **يتوب من الذنب ثمّ لا يعود فيه ، وأحبّ العباد إلى الله المفتنون التوّابون** »[2] .

٣ ـ وعن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **التوبة النصوح أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل** »[3] .

٤ ـ وعن أبي الحسن الأخير عليه‌السلام ـ في جواب مَن سأله عن التوبة النصوح فكتب عليه‌السلام : « **أنْ يكون الباطن كالظاهر ، وأفضل من ذلك** »[4] .

والخبران الأخيران يدلّان على أنّ التائب توبة نصوحاً يكون ظاهره بفعل ما تاب من تركه وترك ما تاب من فعله ، كباطنه الذي هو الندم والعزم .

إذن تحصيل التوبة بالندم ، وترك التلبّس حالة الندم ، والعزم على عدم المعاودة

---

(١) الكافي : ٤٢٧/٢ ، باب التوبة ، الحديث ٣/٢٩٥٢ . الوسائل : ٧٢/١٦ ، باب وجوب التوبة ، الحديث ٤/٢١٠١٢ .

(٢) الوسائل : ٧٣/١٦ ، باب التوبة ، الحديث ٤/٢١٠١٢ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٧٧ ، باب وجوب إخلاص التوبة ، الحديث ٢/٢١٠١٢ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٧٦ ، الحديث ١/٢١٠٢٥ .

أبداً ، إلّا أنّ هذه وإن كانت توبة ومطلوبة من المذنب ومحبوبة لدى الله سبحانه ، إلّا أنّها لا تسمّى توبة نصوحاً ما لم تطابق العمل مع العزم ، بأن لا يصدر من العبد ذلك الذنب الذي تاب منه ، فإن صدر وجبت عليه التوبة منه حتّى يكون توّاباً ، ولا يكون تائباً نصوحاً حتّى يترك أبداً ويتطابق ظاهره وباطنه .

وعلى هذا فإنّ قول الصدوق ﷺ : « وقد روي : أنّ التوبة النصوح ، هو أن يتوب الرجل من ذنب وينوي أن لا يعود إليه أبداً »[1] ، قوله هذا لم أجد عليه شاهداً من الأخبار ، فضلاً عن عدم كون مضمونه مرويّاً ؛ لأنّ الأخبارالمعروفة في كتبنا المتداولة في الحديث والتفسير لم تأخذ النيّة قيداً منفرداً في تعريف التوبة النصوح ، وإنّما صريح الأخبار ترك العودة للذنب ، وجعل الظاهر وفق الباطن ، وهي وإن كانت تستلزم النيّة إلّا أنّ الاكتفاء بالنيّة مع المخالفة الظاهريّة لا تتحقّق به التوبة النصوح ، والله أعلم .

مضافاً إلى أن عطفه لنيّة « أنْ لا يعود » على التوبة ، يكشف عن أنّه يفهم من الأخبار أنّ نيّة « أنْ لا يعود » أمر خارج عن التوبة بمعناها العامّ ، وأنّ نيّة عدم العود تخصّص التوبة بالنصوح . والحال أنّ نيّة العود من لوازم الندم ومن شروط تحقّقه ، فكيف يحصل الندم بدون نيّة « أنْ لا يعود » ، وقد تقدّم توضيح هذا الجانب ، ولم أجد من الأخبار ما يفصّل نيّة عدم العود إلى الذنب عن التوبة ولو بمعناها العامّ .

ومع ذلك فانّه الشيخ الصدوق !! وعدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود .

٣ ـ الحثّ على التوبة

التوبة من العبد ـ إن صحّت ـ تترتّب عليها التوبة من الله سبحانه على عبده بالعفو

---

(١) الوسائل : ٧٧/١٦ ، باب وجوب إخلاص التوبة ، الحديث ٣/٢١٠٢٧ . معاني الأخبار : ١٧٤ ، باب معنى التوبة النصوح ، الحديث ٣.

عن ذنبه ، أو مغفرته له ، أو بهما معاً [١].

وقد دلّت على هذا الفضل الجسيم من ربّ العالمين آيات كثيرة ، وتواترت به السنّة الشريفة ، وأجمع عليه المسلمون قاطبة .

فعن القرآن الكريم :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾ [٢].

٢ ـ وقوله سبحانه : ﴿ **فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ** ﴾ [٣].

٣ ـ وقوله سبحانه : ﴿ **أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [٤].

٤ ـ وقوله عزّ من قائل : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [٥].

ومن السنّة الشريفة :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله برواية جعفر بن محمّد ، عن آبائه عليهم السلام ، قال : « **إنّ لله فضولاً من رزقه ينحله من شاء من خلقه ، والله باسط يده عند كلّ فجر لمذنب الليل ، هل يتوب فيغفر له ؟ ويبسط يده عند مغيب الشمس لمذنب النهار ، هل يتوب فيغفر له ؟** » [٦].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **مَن تاب تاب الله عليه ، وأُمرت جوارحه أنْ تستر**

---

(١) **العفو**: هو المحو ، بأن لا يبقى للذنب أثر في النفس ، و**المغفرة**: الستر والتغطية والحجب عن التأثير . انظر القاموس المحيط : ١٣١٣ ، مادة « عفا » .

(٢) سورة طه : الآية ٨٢.

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٤ .

(٥) سورة النُّور : الآية ٣١.

(٦) الوسائل : ٧٤/١٦ ، باب وجوب التوبة ، الحديث ٢١٠١٩/١١.

عليه ، وبقاع الأرض أنْ تكتم عليه ، ونسيت الحفظة ما كانت كتبت عليه »[١] .

٣ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « التائب عن الذنب كمن لا ذنب له »[٢] .

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « إنّ الله عزّ وجلّ يفرح بتوبة عبده المؤمن ، كما يفرح أحدكم بضالّته إذا وجدها »[٣] .

٥ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « لا خير في الدنيا إلّا لرجلين : رجل يزداد في كلّ يوم إحساناً ، ورجل يتدارك ذنبه بالتوبة ، وأنّى له بالتوبة ؟ والله لو سجد حتّى ينقطع عنقه ، ما قَبِل الله منه إلّا بولايتنا أهل البيت »[٤] .

٦ ـ عن أبي الحسن الماضي عليه السلام ، قال : « ليس منّا مَن لم يحاسب نفسه في كلّ يوم ، فإنْ عمل حسناً استزاد الله ، وإنْ عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه »[٥] .

٧ ـ عن الرضا عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اعترفوا بنِعم الله ربّكم ، وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم ، فإنّ الله يحبّ الشاكرين من عباده »[٦] .

٨ ـ وعنه أيضاً ، عن آبائه عليهم السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَثَل المؤمن عند الله تعالى كمثل ملك مقرّب ، وإنّ المؤمن عند الله لأعظم من ذلك ، وليس شيء أحبّ إلى الله من مؤمن تائب ، ومؤمنة تائبة »[٧] .

٩ ـ عن معاوية بن وهب ، قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : « اذا تاب العبد توبة

---

(١) الوسائل : ٧٤/١٦ ، باب وجوب التوبة ، ١٠/٢١٠١٨ .

(٢) الكافي : ٤٢٩/٢ ، باب التوبة ، الحديث ١٠/٢٩٥٩ .

(٣) الوسائل : ٧٣/١٦ ، باب وجوب التوبة ، الحديث ٧/٢١٠١٥ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٧٦ ، الحديث ١٥/٢١٠٢٣ .

(٥) الكافي : ٤٤٥/٢ ، باب محاسبة العمل ، الحديث ٢/٣٠١١ .

(٦) الوسائل : ٧٦/١٦ ، باب وجوب التوبة ، الحديث ١٦/٢١٠٢٤ .

(٧) المصدر المتقدّم : ٧٥ ، الحديث ١٣/٢١٠٢١ .

نصوحاً أحبّه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة » ، قلت : وكيف يستر عليه ؟ قال : **« يُنسي ملَكَيه ما كتبا عليه من الذنوب ، ويُوحي إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه ، ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب ، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب »**[١] .

وهذا الحديث وأمثاله يصوّر لنا يوم الحساب كمحكمة يحاكم الله عزّ وجلّ فيها عباده ليكافئهم على ما فعلوا ، وهو الحاكم وما في الوجود شهود بما في ذلك الجوارح ، كما ورد القرآن بذلك[٢] .

أمّا كيف ؟ وهل يحتاج الله في حساب عباده إلى مَلَكين يحفظان عمل العبد ؟ وهل يحتاج في إصدار حكمه إلى شهود ؟ فهذه أُمور غيبيّة تحدّث بها القرآن ووردت بها السنّة ، فنؤمن بها إجمالاً وإن لم نعرف تفصيل ذلك ودواعيه ما دمنا نؤمن بعصمة مصدره .

٤ ـ تكرار التوبة

تكرار التوبة تعدّدها ؛ لأنّ التكرار يقابل المرّة الواحدة ، وتكرار التوبة يتحقّق في ثلاث صور:

الأُولى : أن يتوب من ذنب واحد نوعاً ، ثمّ يفعل مثله ويتوب منه ، وهكذا ، كمن يشرب الخمرة ويتوب من شربها ، ثمّ يعود إليه ، وهكذا .

الثانية : أن يتوب من نوع ولا يعود إليه ، ثمّ يتوب من نوع آخر كذلك ، وهكذا يطهّر نفسه من الذنوب بتوبة نصوح على نحو التدريج .

---

(١) الوسائل : ١٦/٧١ ، باب وجوب التوبة ، الحديث ٢١٠٠٩/١ .

(٢) مثل قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ سورة النُّور: الآية ٢٤.

الثالثة: أن يتوب توبة عامّة من جميع الذنوب، ويتّجه إلى ربّه توجّهاً كاملاً، إلّا أنّه قد يقع ببعض الذنوب ثمّ يتدارك نفسه بالتوبة منها فيتوب توبة عامّة، وهكذا.

والتوبة بجميع صورها مقبولة وإن تكرّرت. وقد وردت أخبار بقبولها مع التكرار بخصوص كلّ صورة، كما وردت أخبار عامّة تشمل جميع هذه الصور.

فمن أخبار الصورة الأُولى، ما روي أنّه:

قال رجل: يا رسول الله، إنّي أُذنب، فما أقول إذا تبت؟ قال: «**استغفر الله**»، فقال: إنّي أتوب ثمّ أعود؟ فقال: «**كلّما أذنبت استغفر الله**»، فقال: إذن تكثر ذنوبي؟ فقال: «**عفو الله أكثر، فلا تزال تتوب حتّى يكون الشيطان هو المدحور**»(١).

ومن أخبار الصورة الثانية أخبار التوبة النصوح المتضمّنة توبة العبد من ذنب لا يعود إليه أبداً، فلو تعدّد نوع الذنب، كشرب الخمر ولعب القمار وترك الصلاة، وتاب عن كلّ نوع منفرداً، ثمّ تاب عن الآخر، حصل منه التكرار(٢).

ومن أخبار الصورة الثالثة، وهي التوبة العامّة المتكرّرة، ما رواه محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**يا محمّد بن مسلم، ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة. أما والله إنّها ليست إلّا لأهل الإيمان**». قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ قال: «**يا محمّد بن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثمّ لا يقبل الله توبته؟**». قلت: فإنّه فعل ذلك مراراً، يذنب ثمّ يتوب ويستغفر؟ فقال: «**كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وأنّ الله غفور رحيم، يقبل التوبة ويعفو عن السيّئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله**»(٣).

---

(١) الوسائل: ٨١/١٦، باب جواز تجديد التوبة وصحّتها، الحديث ٥/٢١٠٣٧.

(٢) مرّت بنا الأخبار حول الموضوع في الصفحة ٢١٩ من هذا الكتاب.

(٣) الوسائل: ٧٩/١٦، باب جواز تجديد التوبة، الحديث ١/٢١٠٣٣.

هذه الأخبار التي تخصّ الصور الثلاثة ، وأمّا الأخبار التي تنطبق على هذه الصور وغيرها مثل التوبة المستحبّة ، فقد روى منها الحرّ العاملي في وسائل الشيعة ثمانية أحاديث تحت عنوان : (استحباب تكرار التوبة كلّ يوم وليلة من غير ذنب ، ووجوبه مع الذنب)[1].

وفيما يأتي أروي هذه الأخبار لنرى مدى دلالتها على ما استنتجه منها من عنوان :

أ ـ الأخبار التي استفاد منها وجوب التوبة من الذنوب كلّ يوم وليلة :

١ ـ حديث رقم (٢) : عن عدّة من أصحابنا رفعوه ، قالوا : قال : « **لكلّ داء دواء ، ودواء الذنوب الاستغفار** »[2].

٢ ـ حديث رقم (٣) : عن محمّد بن يحيى ، عن أحمد بن محمّد بن عيسى ، عن محمّد بن سنان ، عن عمّار بن مروان ، قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « **مَن قال : استغفر الله مئة مرّة في يوم غفر الله له سبعمئة ذنب ، ولا خير في عبد يذنب في يوم سبعمئة ذنب** »[3].

٣ ـ حديث رقم (٧) : الحسين بن سعيد في كتاب الزهد ، عن فضالة ، عن القاسم بن بريد العجلي ، عن محمّد بن مسلم ، قال : قال أبو جعفر عليه السلام : « **أنّه كان يقال مَن أحبّ عباد الله إلى الله المحسن التوّاب** »[4].

هذه كلّ أخبار الباب التي استفاد منها وجوب التوبة ، وهي بعد افتراض حجّية الخبر المرفوع ، وصحّة سند الخبرين الأخيرين لا ظهور لها بالوجوب ؛ لأنّ الحديث

---

(١) راجع الوسائل ١٦/٨٤ ، باب استحباب تكرار التوبة والاستغفار كلّ يوم وليلة من غير ذنب ...

(٢) المصدر المتقدّم : ٨٥ ، الحديث ٢١٠٤٨/٢.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٢١٠٤٩/٣.

(٤) المصدر المتقدّم : ٨٦ ، الحديث ٢١٠٥٣/٧.

رقم (٧) غير ظاهر في التشريع ، مضافاً إلى أنّه يثبت محبوبيّة التائب ، والمحبوبيّة تحصل بالأعمّ من الواجب والمندوب.

والحديث رقم (٣) ناظر إلى أثر التوبة وذمّ من يذنب سبعمئة ذنب في اليوم ، ولا يلزم من الذمّ على الذنب وجوب التوبة عنه ما لم يثبته دليل مستقلّ ، مثلما يحتاج قضاء الفريضة إلى دليل مستقلّ لإثباته.

وأمّا الحديث رقم (٢) فهو يحدّد دواء الذنوب ، أمّا أنّ هذا الدواء واجب تحصيله أم غير واجب ؟ فهو غير واضح من نفس هذا الدليل.

نعم قد يقال : إنّ التوبة واجبة والاستغفار كذلك على المذنب ؛ لأنّ تركهما يعني الاصرار على الذنب ، والاصرار على الذنب ـ وإن كان صغيراً ـ من الكبائر كما ذكرناه في الصفحة (٩٤) ، ودلّ عليه حديثان أشرنا لهما هناك ، وكلّ كبيرة محرّمة ، وترك المحرّم واجب.

ولا كلام لنا في هذا ، وإنّما الكلام في استفادة الوجوب ممّا ذكره من الأخبار ، وكذا فيما حدّده في كلّ يوم وليلة ، مع أنّ تلكم الأخبار لا تنهض بإثبات المدّعى.

ب ـ وأمّا الأخبار الخمسة المتبقّية ، والتي استفاد منها الاستحباب ، فهي جميعاً واردة في توبة واستغفار المعصومين عليهم‌السلام ، وهي كما يأتي :

١ ـ حديث رقم (١) : عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : «**كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يتوب إلى الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة**» (قال الراوي :) قلت : أكان يقول : أستغفر الله وأتوب إليه ؟ قال : «**لا ، ولكن كان يقول : أتوب إلى الله**» ، قلت : إنّ رسول الله كان يتوب ولا يعود ، ونحن نتوب ونعود ؟ قال : «**الله المستعان**»[1].

٢ ـ حديث رقم (٤) : عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : «**إنّ رسول الله كان يتوب إلى الله**

(١) الكافي : ٢/٤٣١ ، باب الاستغفار من الذنب ، الحديث ٢٩٦٦/٤.

كلّ يوم سبعين مرّة من غير ذنب»[١].

٣ ـ حديث رقم (٥): عن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً، قال: **«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفره في كلّ يوم وليلة مائة مرّة من غير ذنب. إنّ الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب»**[٢].

٤ ـ حديث رقم (٦): عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: **«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله في كلّ يوم سبعين مرّة من غير ذنب»**[٣].

٥ ـ حديث رقم (٨): عن إبراهيم بن أبي البلاد، قال: قال أبو الحسن عليه السلام: **«إنّي أستغفر الله في كلّ يوم خمسة آلاف مرّة»**، ثمّ قال لي: **«خمسة آلاف كثير»**[٤].

هذا، واستنباط الشيخ الحرّ العاملي استحباب تكرار التوبة كلّ يوم وليلة من غير ذنب لجميع المكلّفين من هذه الأخبار يستدعي وقفة ولو قصيرة.

فإنّ هذه الأخبار وردت في النبيّ صلى الله عليه وآله وأحد أوصيائه عليهم السلام، وهم جميعاً فيما يعتقده الإماميّة معصومون عن كلّ مخالفة للشريعة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله.

والتوبة بمعناها العامّ ـ كما فهمناه من اللغة والنصوص ـ هي الرجوع، وهي من العبد رجوعه إلى مولاه، وهو لا يحصل إلّا بعد بُعده عنه، والنبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومون لا يُتصوّر بحقّهم بُعدٌ عن الله سبحانه بذنب أو بغير ذنب كي يرجعوا إلى الله تعالى يوميّاً سبعين مرّة أو أكثر. ولذا عندما سأل الراوي أبا عبدالله عليه السلام عن توبة النبيّ صلى الله عليه وآله: «أكان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه» بما لهذه العبارة من معنى في نفس الراوي، نفى الإمام عليه السلام هذا المعنى للاستغفار والتوبة اللذين كانا يصدران

---

(١) الوسائل: ١٦/٨٥، باب استحباب تكرار التوبة، الحديث ٢١٠٥٠/٤.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٢١٠٥١/٥.

(٣) المصدر المتقدّم: ٨٦، الحديث ٢١٠٥٢/٦.

(٤) المصدر المتقدّم: ٨٦، الحديث ٢١٠٥٤/٨.

من رسول الله ﷺ ، وقال : « **ولكن كان يقول أتوب إلى الله** » ، ويمكن أن يكون مفادها : أرجع إلى الله ، من باب رجوع العباد إلى ربّهم ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ ، ويبدو أنّ الراوي لم يتحوّل عن فهمه لتوبة النبيّ ﷺ فقال : « إنّ رسول الله كان يتوب ولا يعود ، ونحن نتوب ونعود » ، فقال الإمام عليه السلام : « **الله المستعان** » ، وهو لا يفيد إقرار ما فهمه الراوي من توبة النبيّ ﷺ ، وإن فهم منه طلب الاستعانة بالله تعالى على أن لا نعود بعد توبتنا .

وفي الخبر رقم (٥) بعد أن ذكر الإمام عليه السلام توبة رسول الله ﷺ واستغفاره مئة مرّة من غير ذنب ، عقّب عليه بقوله : « **إنّ الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب** » ، ولعلّ من أعظم المصائب عند العارفين بالله ـ ورسول الله سيّدهم ـ أن ينشغلوا عن الحقّ بالخلق ، ولذا كان رسول الله ﷺ إذا دخل وقت الصلاة قال لبلال مؤذّنه : « **أرحنا يا بلال** » ، فهذا الانشغال ـ مع كونه بتكليف من الله سبحانه ، ومع كونه لا يحجبه عن الوصل بالله مثلما يحجب الآخرين ـ هو في نظر سيّد العارفين شائبة في التمحّض للحقّ المطلق ، ويتطلّب منه التوبة والاستغفار من أجل التمحّض التامّ لرؤية الحقّ دون سواه من خلقه .

ويمكن أيضاً أن يفهم من توبة النبيّ ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام واستغفارهم ، أنّها كانت تعليميّة ، من أجل أن يقتدي بهم الآخرون ، وهذا من لوازم الإمامة المجعولة من الله تعالى . فحيث تطلب التوبة والاستغفار من المكلّفين لا بدّ لقدوتهم وإمامهم أن يفعل ما يطلبه منهم ليقتدوا ويأتمّوا به .

ومن هذه الجهة فثبوت الاستحباب في حقّ عامّة المكلّفين غير المذنبين بمخالفة الشريعة لا بأس به للأسوة الحسنة ، أمّا إذا لاحظنا أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين[١] ، فالمستحبّ بحقّ الداني واجب بحقّ من هو أعلى مرتبة منه .

---

(١) كما هو معروف لدى العارفين أنّ الحسنة التي تصحبها غفلة عن ذكر الله تعالى سيّئة .

٥ ـ الذنوب التي تُقبل التوبة منها

التوبة رجوع العبد عن بُعده إلى ربّه ، وقبولها العفو والمغفرة وما يترتّب عليهما من قرب بَعد بُعد .

وهذا القبول رحمة من الله تعالى بعباده **﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾**[١] ، وقال تعالى : **﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾**[٢] ، فالعذاب بالاستحقاق ، وقبول التوبة بالرحمة ، وقد وسعت كلّ شيء ، فالأصل بمقتضى الرحمة قبول التوبة من كلّ ذنب . قال عزّ من قائل : **﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾**[٣] ، وقد كرّم الله سبحانه عباده من البشر بالاختيار ، وتكرّم عليهم بهذه الرحمة الواسعة ، غير أنّ بعضهم ـ وباختيار منه ـ أبى هذه الكرامة ولم يتعرّض للحصول عليها بالتوبة والرجوع إلى الله .

وقد أشار سبحانه إلى هذا البعض من النّاس بقوله عزّ وجلّ : **﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾**[٤] .

من هذا وغيره ممّا سنذكره من الأخبار ، قسّم الفقهاء التوبة إلى مقبولة وغير مقبولة :

---

(١) سورة غافر : الآية ٧.

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٦.

(٣) سورة الزُّمر : الآية ٥٣.

(٤) سورة النساء : الآية ١٨.

١ ـ التوبة غير المقبولة:

أ ـ توبة المذنب بعد موته: سواء أكان الذنب إلحاداً أو شركاً أو كفراً أو ما دون هذه الذنوب من أنواع الكبائر والصغائر؛ لأنّ الحياة الأُخرى حياة حساب لا حياة عمل؛ للحديث الشريف: « **وإنّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل** »[(١)].

والتوبة عمل وطاعة، فمحلّها الدنيا لا الآخرة، ولو كانت التوبة هناك مقبولة لما طلب المذنب الرجوع إلى الحياة الدنيا ليعمل فيها صالحاً، كما حكى حاله سبحانه بقوله تعالى: ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾[(٢)].

ب ـ توبة المذنب مطلقاً إذا حضره الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾.

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى هذه الآية فقال: « **ذاك إذا عاين أمر الآخرة** »[(٣)].

جـ ـ توبة الكافر الفطري وهو من وُلد على الإسلام وبلغ، وهو مسلم عاقل، ثمّ ارتدّ عن الدين، أو « الذي انعقد وأحد أبويه أو كلاهما مسلماً حال انعقاده »[(٤)]، ثمّ صار كافراً.

ولفقهاء الإماميّة في قبول توبته وعدمه عدّة آراء:

الأوّل ـ وهو المشهور بينهم[(٥)] ـ: عدم قبول توبته وإسلامه، وأنّه مخلّد في النّار كبقيّة الكفّار، وقد استدلّ على عدم قبول توبته بعدّة أخبار صحاح، منها:

---

(١) نهج البلاغة: ٨٣، الرقم ٤٢، من كلام له عليه السلام، وفيه: «يحذر من اتّباع الهوى وطول الأمل».

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩ و ١٠٠.

(٣) الفقيه: ١/١٥٠، باب غسل الميّت، الحديث ١٠. الوسائل: ١٦/٨٩، باب صحّة التوبة، الحديث ٢١٠٦١/٧.

(٤) و (٥) التنقيح: ٤/١٩٩ مسألة ١، أبحاث السيّد الخوئي قدس سره ـ تقرير الميرزا عليّ الغروي.

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : «**مَن رغب عن الإسلام وكفر بما أنزل الله على محمّد صلى الله عليه وآله بعد إسلامه فلا توبة له ، وقد وجب قتله . . .**»[١].

٢ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**كلّ مسلم بين مسلمين ارتدّ عن الإسلام وجحد محمّداً صلى الله عليه وآله نبوته وكذبه . . . وعلى الإمام أن يقتله ولا يستتيبه**»[٢].

٣ ـ عن عليّ بن جعفر ، عن أخيه أبي الحسن عليه السلام ، قال : سألته عن مسلم تنصّر ؟ قال : «**يُقتل ولا يستتاب**» ، قلت : فنصراني أسلم ثمّ ارتدّ عن الإسلام ؟ قال : «**يستتاب . . .**»[٣].

٤ ـ وعن الحسين بن سعيد ، قال : قرأت بخطّ رجل إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام : رجل وُلد على الإسلام ثمّ كفر وأشرك وخرج عن الإسلام ، هل يستتاب أو يقتل ولا يستتاب ؟ فكتب عليه السلام : «**يقتل**»[٤].

الثاني ـ وهو المنسوب إلى ابن الجنيد ـ: أنّ الفطري تقبل توبته مطلقاً ، أي ظاهراً وواقعاً ، فلا يقتل بعد توبته ولا تبين زوجته ، ولا تقسّم أمواله ، إلّا أنّ هذا الرأي شاذّ لا يعبأ به بعد ورود الصحاح على خلافه.

الثالث ـ هو التفصيل في القبول ـ: أي الحكم بقبول توبته فيما بينه وبين الله سبحانه واقعاً ، وأنّه يعامل معاملة المسلمين ، ولكن يحكم بعدم قبول توبته ظاهراً من حيث كفره ، ونجاسة بدنه ، وبينونة زوجته ، وقتله ، وتقسيم أمواله على ورثته ـ إن كانوا مسلمين ـ. ولا تساعد الأدلّة للنهوض بهذا الرأي.

الرابع ـ وهو ما نسب إلى جملة من المحقّقين ـ: وهو قبول توبته ظاهراً وباطناً

---

(١) الوسائل : ١٦٨/٢٢ ، باب حكم زوجة المرتدّ ، الحديث ١/٢٨٣٠١.

(٢) التهذيب : ١٢٧/١٠ ، باب حدّ المرتدّ والمرتدّة ، الحديث ٢/٥٤١.

(٣) المصدر المتقدّم : ١٢٩ ، الحديث ٩/٥٤٨.

(٤) التهذيب : ١٢٩/١٠ ، باب حدّ المرتدّ والمرتدّة ، الحديث ١٠/٥٤٩.

مع بقاء ترتّب الآثار التي دلّ على ترتيبها دليل، مثل قتله وبينونة زوجته عنه وتقسيم أمواله؛ لأنّها أحكام ثابتة بأدلّتها، وهي أعمّ من أن تكون على الكافر والمسلم، أمّا الآثار المترتّبة على عنوان الكفر كنجاسة بدنه فلا تبقى بعد التوبة، مثل صحّة تزويجه بمسلمة وثبوت التوارث بينه وبين من يرثه ونحوها [(١)].

وفي المسألة أقوال أُخرى، ولكلّ قول أدلّته ومناقشاته، فمن أراد التوسّع فليراجع البحوث الفقهيّة الموسّعة [(٢)].

٢ ـ التوبة المقبولة:

أ ـ توبة الكافر الفطري، على الآراء التي مرّ بنا ذكرها، وهي الثاني والثالث والرابع.

وممّا يستدلّ به على الرابع منها:

١ ـ إنّ الله سبحانه واسع رحيم، ولا يغلق أبواب رحمته بوجه أحد من مخلوقاته، فإذا ندم المرتدّ وتاب حُكم بإسلامه واقعاً وظاهراً [(٣)].

٢ ـ صدق المسلم عليه من دون عناية؛ إذ لا نعني بالمسلم إلّا من أظهر الشهادتين واعترف بالمعاد وبماء جاء به النبيّ ﷺ، والمفروض أنّ المرتدّ بعد توبته معترف بذلك كلّه [(٤)].

٣ ـ عموم ما دلّ من الأخبار على قبول توبة المرتدّ، ومن هذه الأخبار:

أ ـ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام: «**المرتدّ يستتاب، فإن تاب وإلّا قتل**» [(٥)].

---

(١) و (٢) التنقيح: ٢٠٢/٤، المسألة ١، أبحاث السيّد الخوئي ـ تقرير الميرزا عليّ الغروي.

(٣) المصدر المتقدّم: ١٩٩.

(٤) المصدر المتقدّم: في توضيح المسألة ١.

(٥) التهذيب: ١٢٧/١٠، باب حدّ المرتدّ والمرتدّة، الحديث ٤/٥٤٣.

ب ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ رجلاً من المسلمين تنصّر فأُتي به أمير المؤمنين فاستتابه...** »[١].

جـ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **مَن كان مؤمناً فعمل خيراً في إيمانه ، ثمّ أصابته فتنة فكفر ثمّ تاب بعد كفره ، كُتب له وحسب له كلّ شيء كان عمله في إيمانه ولا يبطله الكفر إذا تاب بعد كفره** »[٢].

٤ ـ الحكم على الكافر المرتدّ عن فطرة بعد توبته بالتكاليف الشرعيّة ، كالتكليف بالصلاة والصيام وغيرهما ، والتوارث بينه وبين من يتوارث معه قبل ارتداده ، وجواز تزويجه من امرأة مسلمة ، وغير هذه الأحكام التي لا يمكن التفوّه بانكارها ؛ لثبوتها في الفقه بالضرورة وبدون إشكال.

فلو لم تقبل توبته وقعنا في عدّة إشكالات ، منها كيف يصلّي ويصوم وجسمه نجس العين ؟ وكيف نزوّج المسلمة من الكافر ؟ وكيف نورّث الكافر من مال المسلم ؟

ولا ترفع هذه الإشكالات إلّا بالقول بقبول توبته وتخصيص ما دلّ من الأخبار على عدم قبولها ، بعدم رفعها للحكم عليه بالقتل وتقسيم أمواله وبينونة زوجته[٣].

ب ـ توبة الكافر الملّي : وهو من وُلد من كافرَين ثمّ أسلم ، ثمّ ارتد عن إسلامه ، ثمّ يتوب عن كفره وارتداده ، ولا خلاف بين الفقهاء في قبول توبته ظاهراً وباطناً ؛ لعموم ما ورد من الأخبار في قبول توبة المرتدّ ، وعموم الرحمة الإلهيّة التي وسعت

---

(١) التهذيب : ١٠/١٢٧ ، باب حدّ المرتدّ والمرتدّة ، الحديث ٣/٥٤٢.

(٢) الوسائل : ١٦/١٠٤ ، باب صحّة التوبة من المرتدّ ، الحديث ١/٢١٠٩٩.

(٣) راجع التنقيح : ٤/٢٠٢ ، بيان المسألة ١ ، أبحاث السيّد الخوئي قدس سره ـ تقرير الميرزا علي الغروي.

كلّ شيء؛ ولخصوص ما ورد في قبول توبة المرتدّ الملّي[١].

وقد يقال إنّ الشرك، وهو نوع من أنواع الكفر، لا يغفر، سواء حصل من ملّي أم من فطري؛ لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾[٢]، وأنّ أبا عبدالله عليه السلام لم يستثنه كما استثنى الكبائر في الخبرين التاليين:

١ ـ قال عليه السلام: « ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾: **الكبائر فما سواها**». (قال الراوي:) قلت: دخلت الكبائر في الاستثناء؟ قال: «**نعم**»[٣].

ومفاده أنّ الشرك لم يدخل في الاستثناء من عموم نفي المغفرة.

٢ ـ عن إسحاق بن عمّار، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: الكبائر فيها استثناء أن يغفر لمن يشاء؟ قال: « **نعم** »[٤].

وهذا الاستدلال غير تامّ؛ للعلم الضروري بقبول إسلام المشركين على امتداد الدعوة للإسلام، وللإجماع على قبول توبة المرتدّ عن ملّة من دون فرق يذكر بين أن يكون الارتداد بشرك أم بغيره من أنواع الكفر، ولقيام الأدلّة على قبول توبة المرتدّ الفطري مطلقاً[٥].

---

(١) ومنها ما رويناه لإثبات قبول توبة المرتدّ الفطري، والآية الدالّة على عموم الرحمة، وما روي عن أبي الحسن عليه السلام في نصراني أسلم ثمّ ارتدّ. راجع: الصفحة ٢٣١ من هذا الكتاب، الحديث ٣.

(٢) سورة النساء: الآيتان ٤٨، ١١٥.
وتمام الأُولى: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً** ﴾.
وتمام الثانية: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً** ﴾.

(٣) الكافي: ٣٠٢/٢، باب الكبائر، الحديث ١٨/٢٤٥١.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ١٩/٢٤٥٢. الوسائل: ٣٣٣/١٥، باب صحّة التوبة من الكبائر، الحديث ٢/٢٠٦٦٦.

(٥) تقدّم الكلام عن ذلك في الصفحة ٢٣٢ من هذا الكتاب.

وأمّا الخبران فناظران إلى استثناء الكبائر من عموم نفي المغفرة؛ لأنّ السؤال كان عنها ، ويمكن القول بأنّ الشرك ـ بمقتضى الآية واستشهاد الإمام عليه‌السلام بها ـ لا يغفر ، ولكنّه لا يغفر إذا لم يتب المشرك ، أمّا إذا تاب فيكون مشمولاً بعموم الرحمة التي وسعت كلّ شيء والتي تسبق الغضب .

ومحصّل الكلام : أنّ الآية لم تتعرّض للتوبة من الشرك ، وإنّما تحدثت عن الشرك مطلقاً ، ويمكن تقييد هذا الإطلاق بالتوبة ، مثلما توعّدت بعض الآيات بالنار والخلود فيها على فعل بعض الكبائر ، وهي من الذنوب التي تقبل فيها التوبة بالاتّفاق ، مثل قتل النفس التي حرّم الله ، فقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾[١] .

وعن أبي عبدالله عليه‌السلام في قول الله عزّوجلّ هذا ، قال : « **جزاؤه جهنّم إن جازاه** »[٢] .

وفي خبر آخر عن الإيمان قال أبو عبدالله عليه‌السلام : « **... ولم يلق الله بذنب أوعد عليه بالنّار** » ، فقال أبو بصير : جُعلت فداك ، وأيّنا لم يلق الله إليه بذنب أوعد الله عليه النّار ؟ فقال : « **ليس هو حيث تذهب ، إنّما هو مَن لم يلقَ الله بذنب أوعد الله عليه النّار ولم يتب منه** »[٣] .

فالذنوب التي وردت النصوص فيها بأنّ الله لا يغفرها أو توعّد بالنّار عليها ولم يرد نصّ على عدم قبول التوبة منها مشمولة بعموم قبول التوبة وشمول الرحمة ، شركاً كانت أم دون الشرك .

ج ـ توبة مرتكب الكبيرة : مرّ بنا معنى الكبيرة لغة واصطلاحاً[٤] ، أمّا الآن

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٣ .

(٢) الوسائل : ١٥/٣٣٤ ، باب صحّة التوبة من الكبائر ، الحديث ٢٠٦٧٢/٨ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٣٣٥ ، الحديث ٢٠٦٧٣/٩ .

(٤) راجع الصفحات ٧٨ ـ ٨٢ من هذا الكتاب .

فالحديث عن قبول التوبة منها، وقد دلّت عليه أخبار كثيرة أُورد منها:

١ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الزاني المقرّ أربع مرّات، قال عليه السلام لقنبر: «**احتفظ به**»، ثمّ غضب وقال: «**ما أقبح بالرجل منكم أن يأتي بعض هذه الفواحش فيفضح نفسه على رؤوس الملأ، أفلا تاب في بيته، فوالله لتوبته فيما بينه وبين الله أفضل من إقامتي عليه الحدّ**»[١].

٢ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: أتى النبيّ صلى الله عليه وآله رجلاً فقال: إنّي زنيت...، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لو استتر ثمّ تاب كان خيراً له**»[٢].

٣ ـ وعنه عليه السلام، قال: بينما أمير المؤمنين عليه السلام في ملأ من أصحابه إذ أتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي قد أوقبت على غلام فطهّرني، فقال له: «**يا هذا، امض إلى منزلك لعلّ مراراً هاج بك**»، فلمّا كان من غد عاد إليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي قد أوقبت على غلام فطهّرني، فقال له: «**اذهب إلى منزلك لعلّ مراراً هاج بك**»، حتّى فعل ذلك ثلاثاً بعد مرّته الأُولى. فلمّا كان في الرابعة قال له: «**يا هذا، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حكم في مثلك بثلاثة أحكام فاختر أيّهنّ شئت**». قال: وما هنّ يا أمير المؤمنين؟ قال: «**ضربة بالسيف في عنقك بالغة ما بلغت، أو إهذاب**[٣] **من جبل مشدود اليدين والرجلين، أو إحراق بالنّار**». قال: يا أمير المؤمنين، أيّهنّ أشدّ عليّ؟ قال: «**الإحراق بالنّار**»، قال: فانّي قد اخترتها يا أمير المؤمنين. فقال: «**خذ لذلك أُهبتك**». فقال: نعم، فصلّى ركعتين، ثمّ جلس في تشهّده فقال: اللّهمّ إنّي قد أتيت من الذنب ما قد علمتَه، وإنّي تخوّفت من ذلك، فأتيت إلى وصيّ رسولك وابن عمّ

---

(١) الوسائل: ٣٦/٢٨، باب أنّ من تاب قبل أن يؤخذ سقط عنه الحدّ، الحديث ٢/٣٤١٥٥.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٥/٣٤١٥٨.

(٣) **الإهذاب**: سيلان الماء بسرعة. يقال: اهذبت السحابة ماءها، أي أسالته بسرعة ـ القاموس المحيط: ١٤٤، مادة «هذب».

نبيّك فسألته أن يطهّرني فخيّرني ثلاثة أصناف من العذاب . اللّهمّ فإنّي اخترت أشدّهنّ ، اللّهمّ فإنّي أسألك أن تجعل ذلك كفّارة لذنوبي ، وأن لا تحرقني بنارك في آخرتي .

ثمّ قام وهو باكٍ حتّى دخل الحفيرة التي حفرها له أمير المؤمنين وهو يرى النّار تتأجّج حوله . فبكى أمير المؤمنين وبكى أصحابه جميعاً ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : « **قم يا هذا ، فقد أبكيت ملائكة السماء وملائكة الأرض ، فإنّ الله قد تاب عليك ، فقم ولا تعاودنّ شيئاً ممّا فعلت** »(١) .

٤ ـ عن الأصبغ بن نباتة ، قال : أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ،إنّي زنيت فطهّرني ، فأعرض عنه بوجهه ، ثمّ قال له : « **اجلس** » . فقال : « **أيعجز أحدكم إذا قارف هذه السيّئة أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه** » ، فقام الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي زنيت فطهّرني ، فقال : « **وما دعاك إلى ما قلت ؟** » ، قال : طلب الطهارة ، قال : « **وأي طهارة أفضل من التوبة ؟** »(٢) .

انظر كيف يفعل الإيمان ؟ يأتي المذنب إلى الحاكم ليطبّق عليه القانون وهو طائع ، فيردّه الحاكم ، فيصرّ عليه أن ينفّذه بحقّه !! وإن كانت عقوبته رجماً بالحجارة حتّى يموت بمرأى من النّاس ، بل وإن كانت حرقاً بالنّار !! فهل يفعل غير الإيمان بالنّاس مثلما فعله ؟ وأين نحن من العمل لترسيخه إن أردنا للنّاس بجدٍّ أن يهتدوا إلى الطريق القويم والصراط المستقيم !

٥ ـ عن أبي جعفر عليه السلام في حديث الفرق بين الإسلام والإيمان ، قال فيما رواه عنه

---

(١) الوسائل : ١٦١/٢٨ ، باب ثبوت اللواط بالإقرار ، الحديث ١/٣٤٤٦٥ ، ولكن لم توجد كلمة «إهذاب» وإنّما «أهداب» ، وفي المصدر : «إهداء» ، فراجع الكافي : ٢٠١/٧ ، باب حدّ اللواط ، باب آخر منه ، الحديث ١ .

(٢) الوسائل : ٣٨/٢٨ ، باب أنّ من تاب قبل أن يؤخذ سقط عنه الحدّ ، الحديث ٦/٣٤١٥٩ .

أبو بصير: «**والإيمان مَن شهد أن لا إله إلّا الله... ولم يلقَ الله بذنب أوعد عليه النّار**»، قال أبو بصير: جعلت فداك، وأيّنا لم يلقَ الله بذنب أوعد عليه بالنّار؟ فقال: «**ليس هو حيث تذهب، إنّما هو من لم يلقَ الله بذنب أوعد الله عليه بالنّار ولم يتب منه**»(١).

ومفاده أنّ التائب يتّصف بالإيمان بعد أن خرج منه بالذنب، وهو ممّا يدلّ على قبول توبته.

٦ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: أستغفر الله الذي لا إله إلّا هو الحيّ القيوم، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، وأسأله أن يصلّي على محمّد وآله، وأن يتوب عليّ، إلّا غفرها الله له، ولا خير فيمن يقارف أكثر من أربعين كبيرة**»(٢).

٧ـ وعنه عليه السلام، قال: «**شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، فأمّا التائبون فإنّ الله يقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾(٣)**»(٤).

٨ـ وعنه عليه السلام، قال: «**السارق إذا جاء من قِبل نفسه تائباً إلى الله عزّ وجلّ تُردّ سرقته إلى صاحبها ولا قطع عليه**»(٥).

٩ـ وعنه عليه السلام أيضاً، في رجل أُقيمت عليه البيّنة بأنّه زنى ثمّ هرب قبل أن يضرب، قال: «**إن تاب فما عليه شيء، وإن وقع في يد الإمام أقام عليه الحدّ، وإن علم مكانه بعث إليه**»(٦).

١٠ـ عن أحد الصادقَين عليهما السلام في رجل سرق أو شرب الخمر أو زنى، فلم يعلم

---

(١) راجع الصفحة ٢٣٥، الهامش رقم ٣.

(٢) الوسائل: ٣٣٣/١٥، باب صحّة التوبة من الكبائر، الحديث ٣/٢٠٦٦٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩١.

(٤) الوسائل: ٣٣٤/١٥، باب صحّة التوبة من الكبائر، الحديث ٥/٢٠٦٦٩.

(٥) الوسائل: ٣٦/٢٨، باب أنّ من تاب قبل أن يؤخذ سقط عنه الحدّ، الحديث ١/٣٤١٥٤.

(٦) المصدر المتقدّم: ٣٧، الحديث ٤/٣٤١٥٧.

ذلك منه ولم يؤخذ حتّى تاب وصلح ، فقال عليه السلام : «**إذا صلح وعرف منه أمر جميل لم يقم عليه الحدّ**»[١] .

د ـ **توبة مرتكب الصغيرة :** تحدّثنا عن معنى الصغيرة في الصفحة (٧٨) ، وذكرنا الأقوال في معناها ومعنى الكبيرة ، ومهما يكن معناها فإنّها دون الكبيرة ، وحيث أنّ الذنب الكبير قابل للتوبة منه كما مرّ ، فقبول التوبة من صغير الذنب يكون أوْلى ، ويحسن الالتفات هنا إلى أنّ ترك التوبة من الذنب الصغير يحوّله إلى كبير ، وبتعبير أدقّ أنّ الإصرار على الصغائر دون توبة منها يصيّرها كبيرة ، ويدلّ على هذا عدّة أخبار منها :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار**»[٢] .

٢ ـ عنه عليه السلام في رواية زيد الشحّام ، قال : «**اتّقوا المحقّرات من الذنوب فإنّها لا تغفر**» ، قلت : وما المحقّرات ؟ قال : «**الرجل يذنب الذنب فيقول : طوبى لي لو لم يكن لي غير ذلك**»[٣] .

٣ ـ وعنه عليه السلام ، قال : «**لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه**»[٤] .

والإصرار كما مرّ بنا عرّفه الإمام الباقر عليه السلام بقوله : «**الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدّث نفسه بتوبة ، فذلك الإصرار**»[٥] .

٤ ـ كما أنّ الصغيرة تكون كبيرة بلحاظ كونها مخالفة لربّ العالمين لما روي : إنّ الله

---

(١) الوسائل : ٢٨/٣٦ ، باب أنّ من تاب قبل أن يؤخذ سقط عنه الحدّ ، الحديث ٣٤١٥٦/٣ .

(٢) الكافي : ٢/٣٠٥ ، باب الإصرار على الذنوب ، الحديث ٢٤٦١/١ .

(٣) المصدر المتقدّم : باب استصغار الذنب ، الحديث ٢٤٥٨/١ .

(٤) المصدر المتقدّم : باب الإصرار على الذنوب ، الحديث ٢٤٦٣/٣ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٤٦٢/٢ .

قد أوحى إلى بعض أنبيائه: «**لا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها**»(١).

٥ـ ولذا رُوي عن الكاظم عليه السلام، قال: «**لا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلّوا قليل الذنوب، فإنّ قليل الذنوب يجتمع حتّى يكون كثيراً، وخافوا الله في السرّ حتّى تعطوا من أنفسكم النصف**»(٢).

وقد يصدر الذنب من عالم يُقتدى به فيكون الصغير في حقّ غيره كبيراً بحقّه؛ لأنّ فعله يستن به الآخرون.

وفي الحديث:

٦ـ «**مَن استنّ بسنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئاً**». وفي رواية أُخرى: «**فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»(٣).

من هذا كلّه يتأكّد ما سبق ترجيحه من أنّ كلّ ذنب كبير، إمّا بذاته أو بمثل هذه الاعتبارات وغيرها.

٦ـ وجوب التوبة

في الصفحة (٢٢٥) ذكرت أنّ الحرّ العاملي في الوسائل عقد باباً بعنوان: (وجوب التوبة من الذنب)، وإنْ ناقشته هناك فإنّما ناقشت دلالة ما ذكره من أخبار على الوجوب، وإلّا فإنّ أصل الوجوب ظاهر من الآيات والأخبار، ولا أظنّ أحداً من علماء المسلمين يناقش فيه، بل ربّما يقال: لا خلاف في فوريّة الوجوب أيضاً(٤).

---

(١) المحجّة البيضاء: ٥٩/٧، بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب.

(٢) الوسائل: ٣١٠/١٥، باب وجوب اجتناب المحقّرات من الذنوب، الحديث ٢/٢٠٦٠٤.

(٣) مستدرك الوسائل: ٢٢٩/١٢، باب استحباب إقامة السنن الحسنة، الحديث ٢/١٣٩٥٦ و: ١٠/١٣٩٦٤.

(٤) المحجّة البيضاء: ١٣/٧، بيان أنّ وجوب التوبة على الفور.

ومن الآيات الدالّة على الوجوب :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[٢].

والأمر ظاهر في الوجوب ما لم تصرفه عنه قرينة .

والأخبار تؤكّد استفادة الوجوب من الآيات أيضاً ، وهي كثيرة مرّ ذكر بعضها في الصفحة (٢٢٠) تحت عنوان : (الحثّ على التوبة) ، وممّا يدلّ من الأخبار على وجوب التوبة الأخبار المتضمّنة استتابة التارك لبعض العبادات أو الفاعل بعض المحرّمات ، فإن لم يتب قتل[٣].

وكذا الأخبار المتضمّنة منافاة البقاء على الذنب لصفة الإيمان ، مثل : « **لا يزني الزاني وهو مؤمن** »[٤].

وبما أنّ الإيمان ، ولو بأدنى درجاته ، واجب تحصيله ، والتوبة من الذنب المانع منه من وسائل تحصيله ، كانت التوبة واجبة بالوجوب المقدّمي شرعيّاً ، سواء أكان هذا الوجوب شرعيّاً أو عقليّاً[٥].

كما ادّعي الإجماع عليه . قال الغزالي : « والإجماع منعقد من الأمّة على وجوبها

---

(١) سورة النور : الآية ٣١.

(٢) سورة التحريم : الآية ٨.

(٣) راجع الصفحة ٢٣١ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٤) الكافي : ٢٩٧/٢ ، باب الكبائر ، الحديث ٦/٢٤٣٩. الوسائل : ٣١٧/١٥ ، باب وجوب اجتناب الكبائر ، الحديث ٩/٢٠٦٢٧.

(٥) انظر كفاية الأُصول : ١٣ ، بحث مقدّمة الواجب ـ الأمر الرابع : في الملازمة بين المقدّمة وذي المقدّمة .

ـأي التوبة ـ؛ إذ معناه العلم بأنّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله ، وهذا داخل في وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه ، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ، ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال ، وذلك لا شكّ في وجوبه »[١] .

٧ ـ وقت الوجوب

الواجبات الشرعيّة تنقسم إلى مؤقّتة وغير مؤقّته ، ويقصد بالمؤقّتة ما كان للزمان المحدّد له دخل في أدائها ، والوقت المحدّد قد يكون مضيّقاً ، كالنهار المأخوذ وقتاً لوجوب الصوم ، وقد يكون الوقت موسّعاً ، كوقت الصلاة اليوميّة حيث يكون مقداره أكثر ممّا يستغرقه أداؤها .

أمّا الواجبات غير المؤقّتة فهي التي لم يؤخذ زمان مخصوص في وجوب أدائها ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حيث يجب إذا توفّرت شروط وجوبه في أي وقت كان .

والمؤقّتة إذا عُصي أمرها قد يجب قضاؤها ، كالصوم والصلاة اليوميّة ، وقد لا يجب ، كزكاة الفطرة على بعض الأقوال[٢] .

أمّا غير المؤقّتة فقد ينتفي موضوعها ولم يبق ما يدعو إلى التفكير في الإتيان به أو عدمه ، مثل وجوب إنقاذ النفس المحترمة من التلف أو إنقاذ المال ، وقد عصى المكلّف وحصل التلف .

وقد يبقى الموضوع قائماً ، ومع بقاء الموضوع ينقسم هذا الوجوب إلى فوري

---

(١) المحجّة البيضاء : ٩/٧ ، بيان وجوب التوبة وفضلها .

(٢) منهاج الصالحين : ١٩٩/١ ، صلاة القضاء ، و : ٢٨٤ ، أحكام شهر رمضان ، و : ٣١٩ زكاة الفطرة .

وما يجوز التراخي فيه ، مثال الأوّل تطهير المساجد ممّا يعرض عليها من نجاسات ، ومثل إعادة المال المغصوب إلى ذويه .

ومثال الثاني : قضاء ما فات من صيام وصلاة عند من يجيز التأخير إلى وقت يظنّ فيه قضاء الفوائت . والتوبة من الواجبات غير المؤقّتة الفورية ، كما بيّناه في الفقرة السابقة .

وحيث أنّ موضوعها باقٍ لم ينتف ، فهي واجبة بعد التلبّس بالذنب ويستمرّ وجوبها ما دام بابها مفتوحاً .

وقد دلّت الأخبار على أنّ باب التوبة مفتوح إلى أن يفارق الإنسان الحياة ، أو يعاين الآخرة .

وفيما يأتي أذكر بعض الأخبار الدالّة على امتداد وقت التوبة حتّى الموت ، وإن قصّر الإنسان في تركها بعد صدور الذنب مباشرة .

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **مَن تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته** » .

ثمّ قال : « **إنّ السنة لكثير ، مَن تاب قبل موته بشهر قبِل الله توبته** » .

ثمّ قال : « **إنّ الشهر لكثير . مَن تاب قبل موته بجمعة قبِل الله توبته** » .

ثمّ قال : « **وإنّ الجمعة لكثير . مَن تاب قبل موته بيوم قبِل الله توبته** » .

ثمّ قال : « **إنّ يوماً لكثير . مَن تاب قبل أن يُعاين قِبل الله توبته** »[١] .

٢ ـ سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** ﴾[٢] ، فقال عليه السلام : « **ذاك إذا عاين أمر الآخرة** »[٣] .

---

(١) الوسائل : ٨٧/١٦ ، باب صحّة التوبة في آخر العمر ، الحديث ٢١٠٥٧/٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٨ .

(٣) الوسائل : ٨٩/١٦ ، باب صحّة التوبة في آخر العمر ، الحديث ٢١٠٦١/٧ .

ممّا يفيد أنّ التوبة مفتوح بابها قبل معاينة الآخرة ، وهي آخر آنات الوجود الدنيوي[١] .

٣ ـ رواية معاوية بن وهب : أنّ رجلاً شيخاً كان من المخالفين عرض عليه ابن أخيه الولاية عند موته فأقرّ بها وشهق ومات . قال : فدخلنا على أبي عبدالله عليه السلام ، فعرض عليّ بن السري هذا الكلام على أبي عبدالله عليه السلام ، فقال : « **هو رجل من أهل الجنّة** » ، قال له عليّ بن السري : إنّه لم يعرف شيئاً من هذا قبل ساعته تلك ؟ قال : « **فتريدون منه ماذا ؟ قد والله دخل الجنّة** »[٢] .

نعم ، قد قال إنّ في الأخبار ما يدلّ على اشتراط ردّ المظالم إلى أهلها في صحّة التوبة وتمامها وقبولها ، والاستغفار للمظلومين مع العجز عن الردّ[٣] .

كما أنّ من شروط صحّة التوبة أن يقوم من أضلّ النّاس عن طريق الهدى بردّهم إليه وإرجاعهم إلى الحقّ[٤] ، وهذا وذاك قد لا يتيسّران إذا بلغت الروح الحلقوم ، فكيف تصحّ التوبة في آخر آنات العمر ؟

والجواب عن هذا : أنّ الأخبار التي دلّت على قبولها في آخر آنات العمر رتّبت قبول التوبة من الله تعالى على حصول التوبة من العبد ، فإذا كان ردّ المظالم إلى العباد ، وإرجاع من أضلّه التائب إلى الحقّ شرطاً في صحّتها ، فلا توبة إذاً كي نقول تقبل أو لا تقبل ، فهي من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع .

على أنّ سعة رحمته تعالى تدعو إلى أن لا ييأس منها أحد مطلقاً ؛ لقوله تعالى :

---

(١) انظر الوسائل : ٨٦/١٦ ، الباب ٩٣ : صحّة التوبة في آخر العمر .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/٢١٠٥٨ . الكافي : ٤٣٤/٢ ، باب فيما أعطى الله (عزّ وجلّ) آدم وقت التوبة ، الحديث ٤/٢٩٧٦ .

(٣) راجع : الوسائل ٥٢/١٦ ، الباب ٧٨ : ردّ المظالم إلى أهلها .

(٤) وقد جعل صاحب الوسائل باباً لذلك . راجع : ٥٤/١٦ ، الباب ٧٩ : باب اشتراط توبة من أضلّ النّاس بردّه لهم إلى الحقّ .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(١)، فهل مع هذا يتعذّر على الله سبحانه أن يعوّض عن الظالم التائب جميع مظلوميه فتتحقّق الرحمة والعدل معاً ؟ ومع هـذا الرجـاء الذي لا حدود له ، فلا ينبغي التهاون في اغتنام الفرصة للتعجيل بالتوبة ، ولا يحسن بالمرء العاقل أن يفوّت الفرصة تعويلاً على الرحمة ؛ لأنّها تفضّل وليست استحقاقاً و« **إضاعة الفرصة غصّة** » ، وقال عليه السلام : « **ومن الخرق المعاجلة قبل الإمكان والأناة بعد الفرصة** »(٢) .

فعن النبيّ صلى الله عليه وآله في وصيّته لعليّ عليه السلام ، قال : « **يا عليّ ، بادر بأربع قبل أربع : شبابك قبل هرمك ، وصحّتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك** »(٣) .

وعن عليّ عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : **﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾**(٤) ، قال : « **لا تنس صحّتك وقوّتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة** »(٥) .

وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : « **قُرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان ، والفرصة تمرّ مرّ السحاب ، فانتهزوا فرص الخير** »(٦) .

ولذا ورد التوبيخ للمتهاونين ، والحثّ على اغتنام الفرصة ، أورد ممّا ورد بعض الأخبار :

١ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **وأنت في غد في غرّة لا تدري لعلك لا تبلغه ،**

---

(١) سورة الزُّمر : الآية ٥٣ .

(٢) الوسائل : ٨٤/١٦ ، باب استحباب انتهاز فرص الخير ، الحديث ٤/٢١٠٤٥ و: ٥/٢١٠٤٦ ، راجع : نهج البلاغة في حِكم أمير المؤمنين : الرقم ١١٨ و ٣٦٣ .

(٣) الوسائل : ٨٣/١٦ ، باب استحباب انتهاز فرص الخير ، الحديث ١/٢١٠٤٢ .

(٤) سورة القصص : الآية ٧٧ .

(٥) الوسائل : ٨٣/١٦ ، باب استحباب انتهاز فرص الخير ، الحديث ٢/٢١٠٤٣ .

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/٢١٠٦٩ .

وإن بلغته لعلّك حظّك فيه التفريط مثل حظّك في الأمس... فاعمل عمل رجل ليس يأمل من الأيّام إلّا يومه الذي أصبح فيه وليلته»[١].

٢ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال: «**إذا أتت على الرجل أربعون سنة ، قيل له خذ حذرك فإنّك غير معذور ، وليس ابن الأربعين أحقّ بالحذر من ابن العشرين ، فإنّ الذي يطلبهما واحد وليس براقد ، فاعمل لما أمامك من الهول ودع عنك فضول القول**»[٢].

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال: «**ثلاث من لم تكن فيه فلا يُرجى خيره أبداً: مَن لم يخش الله في الغيب ، ولم يرع في الشيب ، ولم يستحِ من العيب**»[٣].

٤ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال: «**إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشدّه ، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه ، فإذا طعن في واحد وأربعين فهو في النقصان ، وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع**»[٤].

٥ ـ وروي أنّ الإمام الصادق عليه السلام سئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾[٥] ، فقال عليه السلام: «**توبيخ لابن ثمانية عشر سنة**»[٦].

ومن رحمته تعالى بعباده أن يريهم في دنياهم من الأذى ما يذكّرهم بربّهم ليستغفروا من ذنوبهم ، فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال: «**إذا أراد الله عزّ وجلّ بعبد خيراً فأذنب ذنباً اتّبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار**»[٧].

---

(١) الوسائل: ٩٢/١٦ ، باب يجب على الإنسان أن يتلافى في يومه ما فرّط في أمسه ، الحديث ١/٢١٠٦٩.

(٢) الوسائل: ١٠١/١٦ ، باب وجوب زيادة التحفّظ عند زيادة العمر ، الحديث ٢/٢١٠٨٨.

(٣) المصدر المتقدّم: ١٠٢ ، الحديث ٦/٢١٠٩٢.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ٧/٢١٠٩٣.

(٥) سورة فاطر: الآية ٣٧.

(٦) الوسائل: ١٠٢/١٦ ، باب وجوب زيادة التحفّظ عند زيادة العمر ، الحديث ٥/٢١٠٩١.

(٧) المصدر المتقدّم: ٦٩ ، باب وجوب الاستغفار من الذنب ، الحديث ١٠/٢١٠٠٠.

ومن هنا كانت النقم نِعم ، وأمّا من صفت له دنياه فنسي ذنوبه ولم يستغفر منها ، فهو ممّن ينطبق عليه قوله تعالى : **﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾**[1] .

وهذا ما يسمّيه أهل البيت عليهم السلام بالاستدراج ، وقد سئل عنه أبو عبدالله عليه السلام فقال : **« هو العبد يذنب الذنب فيملى له ، ويجدّد له عندها النعم ، فيلهيه عن الاستغفار ، فهو مستدرج من حيث لا يعلم »**[2] .

أمّا المؤمن الموفّق للخير فيذكر ذنبه حين النقمة أو عند استماع الموعظة ، فيبادر للتوبة والاستغفار ، ففي الحديث عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : **« إنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتّى يستغفر ربّه فيغفر له ، وإنّ الكافر لينساه من ساعته »**[3] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧٨ .

(٢) الوسائل : ١٦/ ٨٢ ، باب استحباب تذكّر الذنب والاستغفار منه ، الحديث ٤/٢١٠٤١ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٨١ ، الحديث ١/٢١٠٣٨ .



العقل والطاعة

١ ـ ما هو العقل ؟

قد يجد المتتبّع اختلافاً كثيراً في معنى العقل ، فيحاول المناقشة والاختيار والترجيح ، والحال أنّ معنى العقل متعدّد بتعدّد الاعتبارات وتعدّد المصطلحات ، ولا خلاف في معناه عند كلّ ذوي مصطلح خاصّ .

فمن معانيه: أنّه غريزة تُدرك بها العلوم النظريّة وتدبّر بها الصناعات ، فهو بهذا المعنى يفترق به الإنسان عن سائر الحيوانات .

ومن معانيه: العلوم الأوّليّة البديهيّة التي تلازم الإنسان منذ طفولته فيميّز بها الجايز من المستحيل ، مثل قضيّة استحالة اجتماع النقيضين وافتقار المعلول إلى علّة ، وهذا العدد أكثر من ذاك ، وهذا الجرم أكبر أو أصغر من غيره . وأمثال هذه القضايا ، وهو بهذا المعنى يقابل البلَه .

ومن معانيه: العلوم المستفادة من التجارب ، وهو بهذا المعنى يقابل الجهل والغباوة والغمز .

ومن معانيه: القوّة الغريزيّة التي يدرك بها عواقب الأُمور ، فلا يقدِم ولا يحجم إلّا بحساب ونظر ، وهو بهذا المعنى غاية ما يؤمّل من الإنسان(١) .

---

(١) المحجّة البيضاء : ١٧٨/١ ، باب حقيقة العقل وأقسامه ـ الرابع .

وقد ورد ذكر العقل في الأخبار، إلّا أنّه لم يرد في معنى واحد.

قال الحرّ العاملي ـ وهو مَن سبر الأخبار وكتبها ـ: «العقل يطلق في كلام العلماء والحكماء على معانٍ كثيرة، وبالتتبّع يُعلم أنّه يطلق في الأحاديث على ثلاثة معانٍ:

أحدها: قوّة إدراك الخير والشرّ والتمييز بينهما، ومعرفة أسباب الأُمور، ونحو ذلك، وهذا هو مناط التكليف.

ثانيها: حالة وملكة تدعو إلى اختيار الخير والمنافع واجتناب الشرّ والمضارّ.

وثالثها: التعقّل بمعنى العلم، ولذا يقابل بالجهل لا بالجنون.

وأحاديث هذا الباب وغيرها أكثرها محمول على المعنى الثاني والثالث، والله أعلم[١].

والأحاديث في مدح العقل كثيرة أذكر منها:

١ ـ عن النبيّ ﷺ: «**ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل**»[٢].

٢ ـ وعنه ﷺ: قال لأبي الدرداء: «**ازدد عقلاً تزدد من ربّك قرباً**»، فقال: بأبي أنت وأُمّي، وكيف لي بذلك؟ فقال النبيّ ﷺ: «**اجتنب محارم الله، وأدِّ فرائض الله تكون عاقلاً، واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل بها من ربّك القرب والعزّ**»[٣].

٣ ـ وعنه ﷺ وقد سأله جماعة: مَن أعلم النّاس؟ فقال: «**العاقل**»، فقالوا: فَمَن أعبد النّاس؟ قال: «**العاقل**»، فقالوا: فمن أفضل النّاس؟ قال: «**العاقل**»، قالوا: أليس العاقل من تمت مروءته، وظهرت فصاحته، وجادت كفّه، وعظمت منزلته؟

---

(١) الوسائل: ٢٠٨/١٥، باب ووب طاعة العقل ومخالفة الجهل، الحديث ٢٠٢٩٦/١١.

(٢) راجع: المفردات في غريب القرآن: ٣٤٥، مادة «عقل». المحجّة البيضاء: ١٧٩/١، باب حقيقة العقل.

(٣) المحجّة البيضاء: ١٧٩/١، باب حقيقة العقل وأقسامه.

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**وإن كان ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربّك للمتّقين، وأنّ العاقل هو المتّقي وإن كان في الدنيا خسيساً دنياً**»[١].

٤ ـ وعنه صلى الله عليه وآله، قال: «**إنّما العاقل من آمن بالله، وصدّق رسله، وعمل بطاعته**»[٢].

٥ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام قال في جواب مَن سأله: ما العقل؟ قال: «**ما عُبد به الرحمن، واكتسب به الجنان**». قال السائل: قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال عليه السلام: «**تلك النكراء، تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل**»[٣].

٦ ـ وعن عبد الله بن سنان، قال: ذكرت لأبي عبدالله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «**وأي عقل له وهو يطيع الشيطان؟**»، فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: «**سله هذا الذي يأتيه أيّ شيء هو؟ فإنّه يقول لك: من عمل الشيطان**»[٤].

٧ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**مَن كان عاقلاً كان له دين، ومَن كان له دين دخل الجنّة**»[٥].

٨ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال: وعزّتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلّا في مَن أُحبّ، أما أنّي إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب، وإيّاك أُثيب**»[٦].

٩ ـ وعن هشام بن الحكم، قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام:

---

(١) و (٢) المحجّة البيضاء: ١/١٧٩، بيان حقيقة العقل وأقسامه ـ الرابع.

(٣) الوسائل: ١٥/٢٠٥، باب وجوب طاعة العقل، الحديث ٣/٢٠٢٨٨. الكافي: ١/٢٨، كتاب العقل والجهل، الحديث ٣/٣.

(٤) الكافي: ١/٢٩، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٠/١٠.

(٥) المصدر المتقدّم: ٢٨، الحديث ٦/٦.

(٦) المصدر المتقدّم: ٢٧، الحديث ١/١.

«يا هشام، إنّ الله بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1]» ـ إلى أن قال: ـ «يا هشام، إنّ لقمان قال لابنه: تواضع للحقّ تكن أعقل النّاس، وأنّ الكيّس لدى الحقّ يسير. يا بنيّ، إنّ الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر.

يا هشام، إنّ لكلّ شيء دليلاً، ودليل العقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت. ولكلّ شيء مطيّة، ومطيّة العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نُهيت عنه».

إلى أن قال: «يا هشام، إنّ لله على النّاس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة: فالعقول».

إلى أن قال: «يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربّك، وأطعت هواك على غلبة عقلك؟.

إلى أن قال: يا هشام، إنّ العاقل رضي بالدون عن الدنيا مع الحكمة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم.

يا هشام، إنّ العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف الذنوب؟ وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنب من الفرض.

يا هشام، إنّ العاقل نظر إلى الدنيا وإلى أهلها فعلم أنّها لا تُنال إلّا بالمشقّة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنّها لا تُنال إلّا بالمشقّة، فطلب بالمشقّة أبقاهما...»[2].

١٠ ـ وعن الرضا عليه السلام، قال: «صديق كلّ امرئ عقله، وعدوّه جهله»[3].

---

(١) سورة الزُّمر: الآيتان ١٧ و ١٨.

(٢) الكافي: ١/٣٣، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٢/١٢.

(٣) المصدر المتقدّم: ٢٨، الحديث ٤/٤. الوسائل: ١٥/٢٠٥، باب وجوب طاعة العقل، الحديث ٢٠٢٨٩/٤.

ومن تأمّل في هذه الأخبار وجدها جميعاً ـ عدا الأوّل والثامن منها ـ بالمعنى الثاني والثالث من المعاني التي ذكرها الشيخ العاملي. أمّا الأوّل والثامن فهو بالمعنى الأوّل؛ لجعله العقل مناطاً للتكليف والثواب والعقاب.

وإذ استبان من هذه الأخبار معنى العقل في لسان المعصومين عليهم السلام يمكننا نقل ما ورد عنهم بشأن طاعته وبيان فضله:

٢ ـ فضل العقل وطاعته

العقل الذي سأورد الأخبار في فضله وطاعته هو العقل بالمعاني الثلاثة المستفادة من الأخبار المتقدّمة.

أمّا ما يسمّيه النّاس وحتّى الحكماء والفلاسفة منهم بالعقل، فليس هو مصبّ الحديث؛ لأنّهم يطلقونه أحياناً على قوّة الفكر أو نتائجها، وإن كانت مبعدة عن الحقّ، وهي ما يسمّيها المعصومون عليهم السلام بالنكراء والشيطنة.

والأخبار التي تحدّثت عن فضل العقل وطاعته كثيرة أورد منها:

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا بلغكم عن رجل حُسن حال فانظروا في حسن عقله، فإنّما يجازى بعقله**».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أُمّته، وما يضمر النبيّ صلى الله عليه وآله في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتّى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾**[١]»[٢].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩. سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) الكافي: ١/٢٩، كتاب العقل والجهل، الحديث ٩/٩ و: ١١/١١.

٢ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ما كلّم رسول الله العباد بكنه عقله قطّ** » ، وقال : « **قال رسول الله** صلى الله عليه وآله : **إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم النّاس على قدر عقولهم** »(١).

ومن هذا الحديث يتأكّد ما ورد في سابقه من أنّ عقل الرسول صلى الله عليه وآله أفضل من جميع عقول أُمّته ، أي أنّ العقول بأجمعها لا تعدل عقله صلى الله عليه وآله ، بل لم يكلّم النّاس قطّ بحقيقة عقله ، وكلّ ما كلّمهم فيه كان على مقدار عقولهم .

٣ ـ عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، قال : « **يا أيّها النّاس ، اعقلوا عن ربّكم ، وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أُمرتم به ونهيتم عنه ، واعلموا أنّ مجدكم عند ربّكم ، واعلموا أنّ العاقل مَن أطاع الله وإن كان دميم المنظر ، حقير الخطر ، دنيء المنزلة ، رثّ الهيبة .**

وإنّ الجاهل مَن عصى الله ، وإن كان جميل المنظر ، عظيم الخطر ، شريف المنزلة ، حسن الهيبة ، فصوحاً نطوقاً ، فالقردة والخنازير أعقل عند الله عزّ وجلّ ممّن عصاه ، ولا تغترّوا بتعظيم أهل الدنيا إيّاكم فإنّكم من الخاسرين »(٢).

٤ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **إنّ الرجل ليدرك بحسن خُلقه درجة الصائم القائم ، ولا يتمّ لرجل حسن خُلقه حتّى يتمّ عقله ، فعند ذلك تمّ إيمانه ، وأطاع ربّه تعالى ، وعصى عدوّه إبليس** »(٣).

٥ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **لكلّ شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجّار: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾**(٤) »(٥).

٦ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **جدّ الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل ، وجدّ المؤمنون من**

---

(١) الكافي : ٣٩/١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١٥/١٥.

(٢) المحجّة البيضاء : ١٧٠/١ ، الباب السابع : في العقل ، وشرفه ، وحقيقته ، وأقسامه.

(٣) و (٥) المصدر المتقدّم : ١٧١.

(٤) سورة الملك : الآية ١٠.

بني آدم على قدر عقولهم ، فأعملهم بطاعة الله أوفرهم عقلاً »[١] .

٧ ـ وعنه ﷺ ، قال : « **لكلّ شيء آلة وعدّة ، وأنّ آلة المؤمن وعدّته العقل . ولكلّ شيء مطيّة ، ومطية المرء العقل . ولكلّ شيء دعامة ، ودعامة الدين العقل . ولكلّ قوم غاية ، وغاية العبادة العقل . ولكلّ قوم راعٍ ، وراعي العابدين العقل . ولكلّ تاجر بضاعة ، وبضاعة المجتهدين العقل . ولكلّ أهل بيت قيّم ، وقيّم بيوت الصدّيقين العقل . ولكلّ خراب عمارة ، وعمارة الآخرة العقل . ولكلّ أمرئٍ عقب ينسب إليه ويذكر به ، وعقب الصدّيقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل . ولكلّ سفر فسطاط ، وفسطاط المؤمنين العقل »**[٢] .

٨ ـ وعنه ﷺ ، قال : « **أتمّكم عقلاً أشدكم لله خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً ، وإن كان أقلّكم تطوّعاً »**[٣] .

٩ ـ عن أمير المؤمنين عليه‌السلام ، قال : « **العقل غطاء ستير ، والفضل جمال ظاهر ، فاستر خلل خلقك بفضلك ، وقاتل هواك بعقلك ، تسلم لك المودّة وتظهر لك المحبّة »**[٤] .

١٠ ـ عن أبي جعفر عليه‌السلام ، قال : « **إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا »**[٥] .

١١ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **ليس بين الإيمان والكفر إلّا قلّة العقل** » ، قيل : وكيف ذاك يابن رسول الله ؟ قال : « **إنّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوق ، فلو أخلص نيّته لله لأتاه الذي يريد في أسرع من ذلك »**[٦] .

---

(١) المحجّة البيضاء : ١/١٧٢ ، الباب السابع : في العقل ، وشرفه ، وحقيقته ، وأقسامه .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٧٢ .

(٣) بحار الأنوار : ٦٧/٢٣٢ ، باب ٥٤ الإخلاص ومعنى قربه تعالى .

(٤) الكافي : ١/٣٦ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١٣/١٣ .

(٥) المصدر المتقدّم : ٢٨ ، الحديث ٧/٧ .

(٦) المصدر المتقدّم : ٤٣ ، الحديث ٣٣/٣٣ .

١٢ ـ وعنه عليه‌السلام ، قال : « **حجّة الله على العباد النبيّ ، والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل** »[١].

وقال : « **العقل دليل المؤمن** »[٢].

١٣ ـ عن إسحاق بن عمّار ، عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : قلت له : جعلت فداك ، إنّ لي جاراً كثير الصلاة ، كثير الصدقة ، كثير الحجّ ، لا بأس به ، قال : فقال عليه‌السلام : « **يا إسحاق ، كيف عقله ؟** » ، قال : قلت له : جعلت فداك ، ليس له عقل ، فقال عليه‌السلام : « **لا يرتفع بذلك منه** »[٣].

١٤ ـ وعنه عليه‌السلام ، قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **إذا رأيتم كثير الصلاة ، كثير الصيام فلا تباهوا به حتّى تنظروا كيف عقله** »[٤].

١٥ ـ ومن وصيّة الإمام الكاظم عليه‌السلام لهشام بن الحكم ، قال : « **إنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله ، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه ، ولا يكون كذلك إلّا مَن كان قوله لفعله مصدّقاً ، وسرّه لعلانيته موافقاً ؛ لأنّ الله تبارك وتعالى لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلّا بظاهر منه وناطق عنه .**

يا هشام ، كان أمير المؤمنين عليه‌السلام يقول : ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل ، وما تمّ عقل امرئٍ حتّى يكون فيه خصال شتّى : الكفر والشرّ منه مأمونان ، والرشد والخير منه مأمولان ، وفضل ماله مبذول ، وفضل قوله مكفوف ، ونصيبه من الدنيا القوت ، لا يشبع من العلم دهره ، الذلّ أحبّ إليه مع الله من العزّ مع غيره ، والتواضع أحبّ إليه

---

(١) الكافي : ١/٤٠ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ٢٢/٢٢ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٤/٢٤ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٣٩ ، الحديث ١٩/١٩ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٤١ ، الحديث ٢٨/٢٨ .

من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثير المعروف من نفسه، ويرى النّاس كلّهم خيراً منه، وأنّه شرّهم في نفسه، وهو تمام الأمر»[١].

وهناك روايات أُخرى تجدها في المصادر التي رويت منها ما رويته من أحاديث عن العقل وفضله.

ولعلّك تقول بعد الاطّلاع على هذه الأخبار، وبخاصّة ما عن أبي عبدالله عليه السلام: **«حجّة الله على العباد النبيّ، والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل، والعقل دليل المؤمن»**، لعلّك تقول:

إذن معنى الخلاف بين الأُصوليّين والإخباريّين من الإماميّة في حجّية العقل ؟

والجواب: أنّ خلافهم في هذه المسألة إنّما هو في استقلال العقل بإدراك الأحكام الشرعية عند عدم الحجّة لإثبات الحكم الشرعي من الكتاب المجيد والسنّة الشريفة، بعد اتّفاقهم على عدم حجّيّة ما ورد النهي عن حجّيّته؛ وذلك من قبيل حجّيّة القياس[٢] الذي ورد النهي عن العمل به في مثل قول الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدهم المقاييس من الحقّ إلّا بُعداً، وأنّ دين الله لا يصاب بالمقاييس»**[٣]، فما لم يرد فيه دليل من الكتاب والسنّة من الأحكام، ولم يرد في العمل بالعقل في استنباط هذه الأحكام أمر ولا نهي، وقع الخلاف بين الأُصوليّين والإخباريّين في حجّيّة العمل بالعقل حينئذٍ. فالأُصوليّون أكثرهم يقولون بحجّيّة العقل، وأكثر الإخباريّين لا يقولون بذلك.

وفي المسألة تفصيلات وتفريعات في الحجّيّة وعدمها، تجدها مفصّلة في

---

(١) الكافي: ١/٣٥، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٢/١٢.

(٢) وهو الحكم على موضوع لا نصّ فيه، لمشابهته لموضوع منصوص الحكم، كالحكم بتحريم فعل غير منصوص لتحريم مثله المنصوص.

(٣) الكافي: ١/٧٦، الحديث ٧/١٦٣، باب البدع والرأي والمقاييس. الوسائل: ٢٧/٤٣، باب عدم جواز القضاء والحكم بالرأي، الحديث ١٨/٣٣١٨٦.

مباحث علم أُصول الفقه(١)، وقد كتب في هذه المسألة الأُستاذ رشدي محمّد عرسان عليّان رسالة دكتوراه بعنوان : (العقل عند الشيعة الإماميّة) بحجم (٤٨٥) صفحة ، تناول فيها المسألة من جميع جوانبها .

أمّا الأخبار التي رويناها فلم تكن ناظرة إلى هذه المسألة ، ولا بالظاهر ، وإلّا لما رفض الإخباريّون حجّيّة العقل ، وهم ممّن لا يعرضون عن الأخبار لو دلّت على الحجّيّة .

وهي في الغالب ناظرة إلى العقل بمعنى القدرة الذهنيّة على إدراك الخير والشرّ والتمييز بينهما . أو الملكة التي تدعو إلى اختيار الخير والمنافع واجتناب الشرّ والمضارّ ، مثل قوله ﷺ : « **إنّما العاقل من آمن بالله ، وصدّق رسله ، وعمل بطاعته** » .

أمّا تشخيص الطاعة فهو يحتاج إلى الدليل اللفظي من الشرع المقدّس ، ولا يستقلّ العقل بمعرفتها ومعرفة حدودها بأجزائها وشرائطها .

مضافاً إلى أنّ العقل فيما أفادته الأخبار متفاوت في الكمّ والكيف والقوة والضعف ـ إن صحّ التعبير ـ .

ولذا فالأنبياء يكلّمون النّاس على قدر عقولهم ، « **ولا تباهوا بالرجل حتّى تنظروا كيف عقله** » ، و« **إنّما يداق الله العباد على قدر ما آتاهم من العقول** » ، « **وما تمّ عقل امرئٍ حتّى يكون فيه خصال شتّى** » ، « **وأتمّكم عقلاً أشدكم خوفاً** » ، وأمثال هذه الأخبار الدالّة على تفاوت العقول ، وأنّ رسول الله ﷺ لم يكلّم النّاس قطّ بحقيقة عقله ، فكيف مع هذا يمكن إطلاق القول بحجّيّة العقل ما لم يكن كاشفاً عن دخول رأي سيّد العقلاء بذلك .

من هنا كانت هذه الأخبار لا علاقة لها بالخلاف الأُصولي في حجّيّة العقل ، فتدبّر فيما قاله صاحب مستدرك الوسائل في الباب الثامن من أبواب جهاد النفس

---

(١) راجع : فرائد الأُصول : ١/٦٠ ، الدليل التاسع .

(١١ : ٢١١) بعد نقله أخبار طاعة العقل وفضله في الصفحة ٢٠٢ ـ ٢١٠.

هذا وقد تحسن الإشارة هاهنا ـ ونحن بصدد بيان معنى العقل ـ إلى ما ذهب إليه العرفانيّون وبعض الفلاسفة ، من أنّ العقل الأوّل هو المخلوق الأوّل ، وهو نور الحقيقة المحمّدية ـ كما يرى ابن عربي في فصوص الحكم ، ومن قبله سَهل التستري ، وغيرهم ـ أو نور النبيّ ﷺ والأئمّة : كما ورد في شرح الزيارة الجامعة للهمداني وغيره ، ووردت الإشارة إليه في دعاء المهدي عليه السلام في رجب ، كما وردت بذلك أخبار كثيرة يرى المحدّث المجلسي في البحار أنّها متواترة.

وأكتفي بعد هذه الإشارة بإرشاد القارئ الكريم إلى بعض مصادر ما أشرت إليه[1].

---

(١) انظر أُصول الكافي : ١/٢٧ ـ ٢٩ ، كتاب العقل والجهل. بحار الأنوار : ١/٩٦ ـ ٩٩. فصوص الحكم : ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، وغيرها من الكتب الأُخرى.



التفكّر والاعتبار

التفكّر يقابل الغفلة ، والاعتبار يقابل اللّامبالاة . والتفكّر دليل العقل ؛ لقول أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : « **دليل العقل التفكّر ، ودليل التفكّر الصمت** »[1] .

ومن هنا كان الصمت الدالّ على التفكّر عبادة ، فعن النبيّ صلى الله عليه وآله : « **أربع لا يصيبهنّ إلّا مؤمن : الصمت ، وهو أوّل العبادة ، والتواضع لله سبحانه ، وذكر الله تعالى على كلّ حال ، وقلّة الشيء** »[2] .

ومن لوازم التفكّر الاعتبار ؛ لما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **جُمع الخير كلّه في ثلاث خصال : النظر والسكوت والكلام . فكلّ نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو ، وكلّ كلام ليس فيه ذكر فهو لغو ، وكلّ سكوت ليس فيه فكرة فهو غفلة ، فطوبى لمن كان نظره عبراً ، وصمته تفكّراً ، وكلامه ذكراً ، وبكى على خطيئته ، وأمن النّاس شرّه** »[3] .

فالتفكّر صيغة مصدر من تفكّر ، ومعناه إعمال النظر في الشيء ، وهو استخدام

---

(١) الوسائل : ٢٠٦/١٥ ، باب وجوب طاعة العقل ومخالفة الجهل ، الحديث ٦/٢٠٢٩١ .

(٢) بحار الأنوار : ٩٠/٧٤ ، باب ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي ذرّ . أعلام الدين : ٢٠١ ، باب وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ .

(٣) الفقيه : ٢٦٩/٤ ، باب النوادر ، الحديث ٥٢ . الوسائل : ١٩٧/١٢ ، باب كراهة كثرة الكلام بغير ذكر الله ، الحديث ٦/١٦٠٧٥ .

لأفضل وأحبّ ما خلق الله سبحانه ـ وهو العقل ـ في طاعته سبحانه. وهو أفضل أنواع العبادة. فقد روي عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**تفكّر ساعة خير من قيام ليلة**»، فقلت: كيف يتفكّر؟ فقال عليه السلام: «**يمرّ بالخربة أو بالدار فيقول: أين ساكنوك؟ أين بانوك؟ ما لكِ لا تتكلّمين؟**»[١].

وهذا النمط من التفكّر وأمثاله يستلزم الاعتبار بكلّ ما يمرّ على الفكر من مشاهد كلّها تتحدّث بلسان الحال بأنّ الدنيا ليست بدار مقرّ وإنّما هي دار ممرّ، والعاقبة للمتّقين.

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته**»[٢].

وقال عليه السلام: «**كان أكثر عبادة أبي ذرّ رحمه الله التفكّر والاعتبار**»[٣].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «**ليست العبادة كثرة الصلاة والصوم، وإنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ**»[٤]، ومن تفكّر نبّه قلبه عن الغفلة، وأيقظه من سباته، واتّجه لربّه واتّقاه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**نَبّه بالفكر قلبك، وجافِ عن الليل جنبك، واتّق الله ربّك**»[٥].

وقال عليه السلام: «**أصل السلامة من الزلل الفكر قبل الفعل، والروِية قبل الكلام، ومَن نظر**

---

(١) الوسائل: ١٥/١٩٥، باب استحباب التفكّر، الحديث ٢/٢٠٢٥٩. الكافي: ٢/٨١، باب التفكّر، الحديث ٢/١٥٤٩.

(٢) المصدر المتقدّم: ٢٦٠، الحديث ٣/٢٠٢٦٠. الكافي: ٢/٨١، باب التفكّر، الحديث ٣/١٥٥٠.

(٣) المصدر المتقدّم: ١٩٧، الحديث ٧/٢٠٢٦٤.

(٤) الكافي: ٢/٨٢، باب التفكّر، الحديث ٤/١٥٥١.

(٥) المصدر المتقدّم: الحديث ١/١٥٤٨. الوسائل: ١٥/١٩٥، باب استحباب التفكّر، الحديث ١/٢٠٢٥٨.

في العواقب سلم من النوائب»[١].

وكما يكون التفكّر والاعتبار في الخلق وما فيه من إبداع ونظم يوجبان اليقين بالخالق وقدرته وحكمته وعظمته، كذلك يكونان فيما يروم المرء أن يقوم به من فعل أو ترك، بأن يفكّر في عواقبه، ويعتبر بغيره ويسترشد بمن هو أفضل منه. «**فما من شيء تراه عينك إلّا وفيه موعظة**»، كما قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام[٢].

وفي هذا عدّة أخبار أذكر منها:

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: علّمني يا رسول الله؟ قال: «**عليك باليأس ممّا في أيدي النّاس، فإنّه الغنى الحاضر**»، قال: زدني يا رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: «**إيّاك والطمع، فإنّه الفقر الحاضر**»، قال: زدني يا رسول الله؟ قال: «**إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يكُ خيراً أو رشداً فاتّبعه، وإن يك غيّاً فاجتنبه**»[٣].

٢ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: إنّ رجلاً أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله، أوصني؟ فقال له: «**فهل أنت مستوصٍ إن أنا أوصيتك؟**»، حتّى قال له ذلك ثلاثاً؟ وفي كلّها يقول الرجل: نعم، يا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**فإنّي أُوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يَكُ رشداً فامضه، وإن يكُ غيّاً فانته عنه**»[٤].

٣ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**مَن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ**»[٥].

---

(١) غرر الحكم: الحديث ٨٠٣٩ و: ٨٥٤٠.

(٢) الوسائل: ١٩٦/١٥، باب استحباب التفكّر، الحديث ٦/٢٠٢٦٣.

(٣) المصدر المتقدّم: ٢٨٢، باب وجوب تدبّر العاقبة قبل العمل، الحديث ٧/٢٠٥٢٢.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ١/٢٠٥١٦.

(٥) المصدر المتقدّم: الحديث ٢/٢٠٥١٧.

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**ليس لحاقن رأي ولا لملول صديق، ولا لحسود غنىً، وليس بحازم من لم ينظر في العواقب، والنظر في العواقب تلقيح للقلوب**»[١].

وكما يكون التفكّر والاعتبار في العمل قبل فعله، يكون أيضاً في القول؛ لأنّه من العمل، فيحسن بالمرء أن يتفكّر في قوله وما يترتّب عليه من عواقب قبل أن يلفظه.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه**»[٢].

وقال: «**قلب الأحمق في لسانه [في فيه]، ولسان العاقل في قلبه**»[٣].

ويجمع هذا كلّه ما روي عنه عليه السلام أنّه قال: «**واليقين على أربع شعب: تبصرة الفطنة، وتأوّل الحكمة، ومعرفة العبرة، وسنّة الأوّلين. فمن أبصر الفطنة عرف الحكمة، ومن تأوّل الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة عرف السنّة، ومن عرف السنّة فكأنّما كان مع الأوّلين، واهتدى إلى التي هي أقوم، ونظر إلى مَن نجا بما نجا، ومَن هلك بما هلك، وإنّما أهلك الله مَن أهلك بمعصيته، وأنجى مَن أنجى بطاعته**»[٤].

---

(١) الوسائل: ٢٨٢/١٥، باب وجوب تدبّر العاقبة قبل العمل، الحديث ٦/٢٠٥٢١.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٣/٢٠٥١٨.

(٣) المصدر المتقدّم: الحديث ٤/٢٠٥١٩.

(٤) الكافي: ٧٧/٢، الحديث ١/١٥٣٧، باب صفة الإيمان. مستدرك الوسائل ١٩٨/١١، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضرر، الحديث ١٤/١٢٧٣٥.



اليقين بالله في النفع والضرر

١ ـ معنى اليقين

اليقين تحقّق العلم بالشيء أو إزاحة الشكّ به[١]، فهو على المعنى الأوّل أسمى درجة من العلم، أو أنّه أعلى درجاته.

واليقين على درجات؛ لأنّه يقبل الزيادة والنقصان، وتدلّ على تفاوت درجات اليقين عدّة أخبار، منها:

١ ـ عن صفوان، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله لإبراهيم عليه السلام: **﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾**[٢] أكان في قلبه شكّ؟ قال: «**لا، ولكنّه أراد من الله الزيادة في يقينه**»[٣].

٢ ـ عن الصادق عليه السلام، قال: «**اليقين يوصل العبد إلى كلّ حال سَنيّ ومقام عجيب، كذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله عن عظم شأن اليقين حين ذُكر عنده أنّ عيسى بن مريم عليهما السلام كان يمشي على الماء، فقال: لو زادَ يقينه لمشى على الهواء**»، فدلّ بهذا على أنّ رتبة

(١) القاموس المحيط: ١٢٤١، مادة «يقن».

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٣) مستدرك الوسائل: ١١/١٩٥، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر، الحديث ٣/١٢٧٢٤.

الأنبياء ـ مع جلالة محلّهم من الله ـ كانوا يتفاضلون[١] على حقيقة اليقين لا غير. ولا نهاية على زيادة اليقين إلى الأبد، والمؤمنون أيضاً متفاوتون في قوّة اليقين وضعفه، فمن قوي منهم يقينه فعلامته التبرّي من الحول والقوّة إلّا بالله، والاستقامة على أمر الله وعبادته ظاهراً وباطناً، قد استوت عنده حالة العدم والوجود، والزيادة والنقصان، والمدح والذمّ، والعزّ والذلّ؛ لأنّه يرى كلّها من عين واحدة.

ومن ضعف يقينه تعلّق بالأسباب، ورخّص لنفسه بذلك، واتّبع العادات وأقاويل النّاس بغير حقيقة، والسعي في أمر الدنيا وجمعها وإمساكها، مقرّاً باللسان أنّه لا مانع ولا معطي إلّا الله، وأنّ العبد لا يصيب إلّا ما رزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق، وينكر ذلك بفعله وقلبه. قال الله تعالى: ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾[٢]، وإنّما عطف الله بعباده حيث أذن لهم في الكسب والحركات في باب العيش ما لم يتعدّوا حدوده، ولا يتركوا فرائضه وسنّته في جميع حركاتهم، ولا يعدلوا عن محجّة التوكّل، ولا يقفوا في ميدان الحرص، فأمّا إذا نسوا ذلك وارتبطوا بخلاف ما حدّ لهم، كانوا من الهالكين الذين ليس لهم [معهم] في الحاصل إلّا الدعاوى الكاذبة»[٣].

فاليقين متفاوت الدرجات، ولا نهاية على زيادة اليقين إلى الأبد، كما في بعض فقرات هذا الخبر.

ويبدو من هذه الفقرة أن لا نهاية له بمعناه المطلق، وإلّا فإنّ نهايته في حدود الإنسان وما أُوتي من قدرة ووعي محدودة بحدود ما آتاه الله تعالى منهما. ومن هنا

---

(١) في الأصل: «كانت تتفاضل»، وكذلك: «ولا نهاية بزيادة اليقين على الأبد».

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

(٣) مستدرك الوسائل: ١١/١٩٨، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضرر، الحديث ١٢٧٣٧/١٦.

يحتاج المتأمّل إلى وقفة غير قصيرة فيما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

٢ ـ « **لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً** »[١].

٢ ـ علامات صحّة اليقين

اليقين حالة في نفس المتيقّن ، ولها في الإنسان لوازم محسوسة بالوجدان أو بالحسّ الظاهري ، فمن أراد أن يعرف وجود اليقين في نفسه أو عند الآخرين ، فلينظر في هذه اللوازم الدالّة على وجود اليقين ، فإن لم يجدها ثبت لديه فقدان ملزومها ، وقد وردت أخبار عن المعصومين عليهم السلام في بيان هذه اللوازم ، منها :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **وأمّا علامة الموقن فستّة : أيقن أنّ الله حقّ فآمن به ، وأيقن بأنّ الموت حقّ فحذره ، وأيقن بأنّ البعث حقّ فخاف الفضيحة ، وأيقن بأنّ الجنّة حقّ فاشتاق إليها ، وأيقن أنّ النّار حقّ فظهر سعيه للنجاة منها ، وأيقن بأنّ الحساب حقّ فحاسب نفسه** »[٢].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **لا يجد عبد طعم الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأنّ الضارّ النافع هو الله عزّ وجلّ** »[٣].

وعنه عليه السلام كلمات قصار في معرفة اليقين سأوردها ضمن ما أرويه عن الآمدي في الصفحة (٢٦٨).

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال فيما رواه عنه أبو بصير : « **ليس شيء إلّا وله حدٌّ** » ،

---

(١) بحار الأنوار : ١٥٣/٤٠ ، باب علمه عليه السلام ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله علّمه ألف باب. إرشاد القلوب : ١٢٤/١ ، الباب السابع والثلاثون : في اليقين.

(٢) مستدرك الوسائل : ١٩٧/١١ ، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضرر ، الحديث ١٣/١٢٧٣٤.

(٣) الوسائل : ٢٠١/١٥ ، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضرر ، الحديث ١/٢٠٢٧٦. الكافي : ٨٥/٢ ، باب فضل اليقين ، الحديث ٧/١٥٦٦.

قلت : فما حدّ التوكّل ؟ قال : « **اليقين** » ، قلت : فما حدّ اليقين ؟ قا : « **أن لا تخاف مع الله شيئاً** »[١].

٤ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : « **من صحّة يقين المرء المسلم أن لا يُرضي النّاس بسخط الله ، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله ، فإنّ الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يردّه كراهية كاره ، ولو أنّ أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت** » ، ثمّ قال : « **إنّ الله بِعدْله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط** »[٢].

٥ ـ ومن ذلك الأخبار الكثيرة المرويّة في مواقف أمير المؤمنين عليه السلام في الحروب وغيرها. أكتفي هنا منها برواية سعيد بن قيس الهمداني ، قال : نظرت يوماً في الحرب إلى رجل عليه ثوبان ، فحرّكت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، في مثل هذا الموضع ؟ ! فقال : « **نعم يا سعيد بن قيس ، إنّه ليس من عبد إلّا وله من الله عزّ وجلّ حافظ وواقية ، معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر ، فإذا نزل القضاء خلّيا بينه وبين كلّ شيء** »[٣].

٦ ـ وقيل للرضا عليه السلام : إنّك تتكلّم بهذا الكلام والسيف يقطر دماً ؟ ! فقال : « **إنّ لله وادياً من ذهب ، حماه بأضعف خلقه النمل ، فلو رامه البخاتي لم تصل إليه** »[٤].

٧ ـ ولذا تكرّر من أمير المؤمنين عليه السلام وأبنائه المعصومين قولهم : « **كفى بالأجل حارساً** »[٥].

---

(١) الكافي : ٢/٨٤ ، باب فضل اليقين ، الحديث ١٥٦٠/١.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٥٦١/٢.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٥٦٧/٨. الوسائل : ١٥/٢٠٣ ، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر ، الحديث ٢٠٢٨٢/٧.

(٤) الوسائل : ١٥/٢٠٣ ، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر ، الحديث ٢٠٢٨٤/٩.

(٥) المصدر المتقدّم : ٢٠٤ ، الحديث ٢٠٢٨٥/١٠.

وقد يقال : إنّ الأحاديث الثلاثة الأخيرة وأمثالها تتنافى مع كثير من الثوابت في الشريعة الإسلاميّة ، مثل وجوب التحرّز عن المضارّ ، والاستعداد للأعداء ، والتقيّة منهم ، وأمثال هذه الأمور كالسعي للمعاش وطلب الرزق وغيرها ممّا لا خلاف في وجوبه ، أو في حرمة مخالفته ؟

الجواب : أنّ درجات اليقين متفاوتة ، وبتفاوتها تتفاوت أحوال العباد ، فإذا بلغ بعضهم في يقينه إلى أن لا يرى غير الله سبحانه ولا يخشى سواه ، وتبرّأ من كلّ حول وقوّة إلّا به ، واستوت عنده حالتا الوجود والعدم ، واستطاع بهذا الحال أن يمشي على الماء أو على الهواء ، فقد انتفى عنده وصف العدوّ والصديق ، والعزّ والذلّ ، والموت والحياة ، وما إلى ذلك من الاعتبارات ؛ لأنّه يراها جميعاً من عين واحدة ، فلم يبق والحالة هذه لديه موضوع ليترتّب عليه حكمه[1] ، فلا ضرر كي يتجنّبه ، ولا عدوّ ليستعدّ له أو يتّقيه ، ولا قيمة للحياة ليطلب رزقها ، إلّا أنّ هذه الحال لا يصل إليها إلّا الصدّيقون :. وقد عطف الله تعالى بعباده الذين لم يصلوا إلى هذه المرتبة فأذن لهم بالتعلّق بالأسباب ، ووضع لهم حدوداً وسنناً في جميع حركاتهم ما داموا يرون لغيره من الأسباب ومن الآثار ما لا يراه الصدّيقون :[2] .

٣ ـ بعض ما ورد في فضل اليقين :

١ ـ عن النبيّ ﷺ ، قال : « **اليقين الإيمان كلّه** »[3] .

وقال ﷺ : « **تعلّموا اليقين** »[4] .

---

(١) و (٢) اقتبست هذه الفقرات ممّا روي عن الإمام الصادق عليه السلام في الصفحة ٢٦٣ من هذا الكتاب ، فراجع . وللتوسّع راجع الميزان : ١٢/٧١ ـ ٧٣ ، كلام في القضاء في فصول.

(٣) صحيح البخاري: ١/٨ ، كتاب الإيمان ، باب قول النبيّ ﷺ : «بني الإسلام على خمس...».

(٤) المحجّة البيضاء: ١/١٥٠ ، الباب السادس ، فصل : ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين.

وقال: «**لا عبادة إلّا بيقين**»[١].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**أيّها النّاس، سلوا الله اليقين، وارغبوا إليه في العافية، فإنّ أجلّ النعمة العافية، وخير ما دار في القلب اليقين، والمغبون من غبن دينه، والمغبوط من غبط يقينه**»[٢].

٣ ـ وعنه عليه السلام من كلماته القصار التي رواها الآمدي في الغرر والحكم:

«**أفضل الدين اليقين**». «**أفضل الإيمان حسن الإيقان**». «**إنّ الدين شجرة أصلها اليقين**». «**إذا أراد الله بعبد خيراً فقّهه في الدين، وألهمه اليقين**». «**باليقين تتمّ العبادة**». «**ثبات الدين بقوّة اليقين**». «**شيئان هما ملاك الدين: الصدق واليقين**». «**عليكم بلزوم اليقين والتقوى، فإنّهما يبلّغانكم جنّة المأوى**». «**أيقن تفلح**». «**المؤمن يرى يقينه في عمله**». «**لو صحّ يقينك لما استبدلت الفاني بالباقي، ولا بعت السنيّ بالدنيّ**». «**مَن أيقن بالآخرة لم يحرص على الدنيا**». «**مَن أيقن بالمعاد استكثر الزاد**». «**مَن حسن يقينه حسنت عبادته**». «**مَن أيقن بالآخرة سلا عن الدنيا**». «**مَن أيقن بالقدر لم يكرثه الحذر**». «**مَن لم يوقن قلبه لم يطعه عمله**». «**ما عذر مَن أيقن بالمرجع**». «**لا إيمان لمن لا يقين له**». «**لا يعمل بالعلم إلّا مَن أيقن بفضل الأجر فيه**». «**يستدلّ على اليقين بقصر الأمل، وإخلاص العمل، والزهد في الدنيا**»[٣].

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**إنّ العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين**»[٤].

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٩٦/١١، باب وجوب اليقين بالله، الحديث ٨/١٢٧٢٩.

(٢) المصدر المتقدّم: ١٩٤، الحديث ١/١٢٧٢٢.

(٣) راجع غرر الحكم: ٦١، الفصل العاشر: اليقين كمال المعرفة، أهمّية اليقين ـ اليقين نظام الدين وعماد الايمان. مستدرك الوسائل: ١٩٩/١١، باب وجوب اليقين بالله، الحديث ١٧/١٢٧٣٨.

(٤) الكافي: ٨٤/٢، باب فضل اليقين، الحديث ٣/١٥٦٢.

٥ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **اليقين يوصل العبد إلى كلّ حال سنيّ ، ومقام عجيب** »[١] .

٦ ـ وعن جعفر بن محمّد ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : قلت : « **يا رسول الله ، اخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا ﴾[٢] ، ما ذاك الكنز الذي أقام الخضر الجدار عليه ؟ فقال : يا عليّ ، لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، الذي لا إله إلّا مدفون في هو ، أنا الله الواحد لا شريك لي ، محمّد رسول الله عبدي أختم به رسلي ، عجباً لمن أيقن بالموت ثمّ هو يفرح ، وعجباً لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها ثمّ هو يطمئنّ إليها ، وعجباً لمن أيقن بالقدر ثمّ هو يأسف ، وعجباً لمن أيقن بالحساب غداً ثمّ هو لا يعمل** »[٣] .

٧ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ اليقين أفضل من الإيمان ، وما شيء أعزّ من اليقين** »[٤] .

٤ ـ آثار اليقين

لليقين مراتب ودرجات ، ولكلّ مرتبة منها آثار ، وقد تشترك بعض مراتبه في بعض هذه الآثار ، فمن آثار بعض مراتبه التوحيد ، ومن آثار بعضها التوكّل ، ومن آثار بعضها الزهد في الدنيا ، ومن آثار بعضها الاعتصام بالله تعالى ، وهكذا تترتّب على هذه المراتب آثارها ، وتتسامى أو تهبط بحسب درجة اليقين . ولمّا كان منهج الكتاب التقيّد بأبواب جهاد النفس في كتاب وسائل الشيعة ، سأقتصر على بعض آثار اليقين

---

(١) مستدرك الوسائل : ١١/١٩٨ ، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضرر ، الحديث ١٢٧٣٧/١٦ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٨٢ .

(٣) مستدرك الوسائل : ١١/١٩٦ ، باب وجوب اليقين بالله في الرزق والعمر والنفع والضرر ، الحديث ١٢٧٢٨/٧ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٢٧٣٢/١١ .

في بعض مراتبه، وهي: التوكّل، والاعتصام بالله، وقطع الرجاء عن غيره، وحسن الظنّ بالله تعالى، والإعطاء والمنع في الله، والتخلّق بمكارم الأخلاق، مثل: الورع، والعفّة، والحلم، والرفق، والصبر، والتواضع، وإنصاف الناس من النفس، والتقوى.

١ ـ التوكّل على الله تعالى

معنـــاه:

١ ـ عن الحسن بن الجهم، قال: سألت الرضا عليه السلام فقلت له: جعلت فداك، فما حدّ التوكّل؟ فقال لي: «**أنْ لا تخاف مع الله أحداً**»[(١)].

٢ ـ عن عليّ بن سويد، قال: سألت أبا الحسن الأوّل عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[(٢)]، فقال: «**التوكّل على الله درجات: منها أن تتوكّل على الله في أُمورك كلّها، فما فعل بك كنت راضياً، تعلم أنّه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أنّ الحكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه، وثق به فيها وفي غيرها**»[(٣)].

٣ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلّا وَهُم مُشْرِكُونَ**﴾[(٤)]، قال: «**هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان ما أُصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي. ألا ترى أنّه قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه؟**».

(قال الراوي:) قلت: فيقول ماذا؟ يقول: «**لولا أنْ مَنّ الله علَيّ بفلان لهلكت؟**»،

---

(١) الوسائل: ٢٧٤/١٥، باب استحباب التواضع، الحديث ٨/٢٠٥٠٠.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) الوسائل: ٢١٣/١٥، باب وجوب التوكّل على الله، الحديث ٣/٢٠٣٠٧. الكافي: ٩٢/٢، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، الحديث ٥/١٥٨٨.

(٤) سورة يوسف: الآية ١٠٦.

قال : « **نعم ، لا بأس بهذا أو نحوه** »[١] .

فالخبر الأوّل يعرّف التوكّل بما عرّف به أبو عبدالله عليه السلام اليقين حين قال : « **أن لا تخاف مع الله شيئاً** » ، بل صرّح الإمام عليه السلام في الخبر نفسه بأنّ حدّ التوكّل اليقين[٢] ، ممّا يدلّ على شدّة الملازمة بينهما .

والخبر الثاني يذكر إحدى درجات التوكّل ، وهي تفويض كلّ الأُمور إليه ، والثقة به وحده دون سواه من كلّ شيء ، ونتيجة هذا التوكّل أن يكفي الله عبده عن كلّ مَن سواه وما سواه .

والخبر الثالث يفيد أنّ فقدان التوكّل على الله بأن ينسب الأفعال لغير الله يجعل المؤمن مشركاً ، حيث أشرك مع الله أسباب الرزق والدفع والنفع .

وهذان الخبران يحتاجان إلى بعض التوضيح :

وهو أنّ مَن يرى رزقه بجميع معاني الرزق من مال وعلم وجاه وبنين وغيرها ، من يراها قد حصلت له بالأسباب التي يراها الإنسان من فكر وقوّة وسعي وما إلى ذلك ممّا نسمّيه بالأسباب الطبيعيّة مستقلّة عن الله سبحانه ، فقد كفر ؛ لأنّ الاستقلال والغنى المطلق لله وحده ، وجميع من عداه وما عداه ممّا ندركه وما لا ندركه هو من خلقه وصنعه .

وإنْ رآها من مخلوقاته إلّا أنّها تحقّق ما تحقّقه ، بما أودع الله فيها من خصائص تقتضي السببيّة لحصول الرزق ، وهي مستقلّة عنه تعالى بعد أن وهبها هذه الخاصّة ، فهو شرك أيضاً ؛ لأنّ فعل ما نسمّيه أسباباً لا يمكن أن يستقلّ عن الله آناً ما . فـ﴿ **اللهُ لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾[٣] وقيمومته لما نراه من أشياء لا تستغني عنها هذه

---

(١) الوسائل : ٢١٥/١٥ ، باب عدم جواز تعليق الرجاء والأمل بغير الله ، الحديث ٢/٢٠٣١٠ .

(٢) الوسائل : ٢٠٢/١٥ ، باب وجوب اليقين بالله ، الحديث ٤/٢٠٢٧٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

الأشياء. مضافاً إلى أنّ واضع الخصائص قادر على سلبها أو إبدالها بالضدّ؛ لأنّ مَن بيده الوضع بيده الرفع. وعليه فالمؤمن بالله وهو ملتفت إليه ويرى استقلاليّة المخلوق في فعله بما أودع الله فيه من خصائص، هو مشرك ظاهراً وباطناً وباستمرار.

وأمّا المؤمن الغافل عن الله سبحانه فيرى استقلاليّة الأسباب، ولو التفت لما رأى لها حولاً ولا قوّة، فشركه خفي في غفلته، ويزول بالالتفات إلى من لا حول ولا قوّة إلّا به.

غاية الأمر أنّ هذا الشرك يختلف عن الشرك بتعدّد الآلهة وعبادتها دون الله، في الآثار الفقهيّة من نجاسة أبدانهم، وحرمة تزويجهم بمسلمة، وما إلى ذلك.

وقد يبلغ الأمر بالتعلّق بالأسباب إلى هذا الحدّ.

فالتوكّل إذ لا ينافي التماس الأسباب، وإنّما ينافي رؤية استقلالها في التأثير بما فيها من خصائص تجعلها علّة تامّة فيه. أمّا مَن يرى الله هو الرازق، والأسباب الظاهريّة إن هي إلّا وسائل، فهو في درجة دانية من الإيمان والمعرفة والتوكّل ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ ﴾[(١)] [(٢)].

أمّا من ترك توسّل الأسباب ولم يكن في درجة من المعرفة واليقين تجعله يرى الحقيقة ويدركها، وكان يرى الأسباب الظاهريّة ولم يطلبها فهو المتّكل لا المتوكّل.

فعن رسول الله ﷺ ـ وقد رأى قوماً لا يزرعون فقال ـ: « ما أنتم؟ »، قالوا: نحن المتوكّلون، قال: « لا، بل أنتم المتّكلون »[(٣)]؛ لـ (أنّ حقيقة التوكّل هي اليأس من المخلوقين وإن يعلم الإنسان أنّ المخلوق لا يضرّ ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع »[(٤)].

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٦.

(٢) لمعرفة المطلب راجع الميزان: ١١/٢٧٨ في تفسير الآية.

(٣) مستدرك الوسائل: ١١/٢١٧، باب وجوب التوكّل على الله والتفويض إليه، الحديث ١١/١٢٧٨٩.

(٤) المصدر المتقدّم: ١٣/١٢٧٩١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه مرّ يوماً على قوم فرآهم أصحاء جالسين في زاوية المسجد، فقال عليه السلام: «**مَن أنتم؟**»، قالوا: نحن المتوكّلون، قال عليه السلام: «**لا، بل أنتم المتأكّلة، فإن كنتم متوكّلين فما بلغ بكم توكّلكم؟**»، قالوا: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، قال عليه السلام: «**هكذا تفعل الكلاب عندنا**»، قالوا: فما نفعل؟ قال: «**كما نفعل**»[1].

فالتوكّل الذي حثّت عليه الأخبار وأثنت عليه هو اليقين بالله وحده، وأنّ يراه المتوكّل دون أيّ سبب غيره في كلّ ما يحصل عليه، ومتى هبط عن هذا المستوى فهو الشرك الخفي، وقد يهبط إلى الشرك الجليّ.

الأخبار الواردة فيه:

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**مَن أحبّ أن يكون أقوى النّاس فليتوكّل على الله، ومَن سرّه أن يكون أكرم النّاس فليتّق الله، ومَن سرّه أن يكون أغنى النّاس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده**»[2].

٢ ـ وفي رواية أُخرى عنه صلى الله عليه وآله، قال: «**يا أبا ذرّ، إنْ سرّك أن تكون أقوى النّاس فتوكّل على الله، وإنْ سرّك أن تكون أكرم النّاس فاتّق الله عزّ وجلّ، وإن سرّك أن تكون أغنى الله فكن بما في يدي الله عزّ وجلّ أوثق منك بما في يدك.**

يا أبا ذرّ، لو أنّ النّاس كلّهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً ﴾[3]»[4].

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١/٢٢٠، باب وجوب التوكّل على الله والتفويض إليه، الحديث ٢٠/١٢٧٩٨.

(٢) المصدر المتقدّم: ٢١٧، الحديث ٨/١٢٧٨٦.

(٣) سورة الطلاق: الآيتان ٢ و ٣.

(٤) مستدرك الوسائل: ١١/٢١٦، باب وجوب التوكّل...، الحديث ٣/١٢٧٨١.

٣ ـ وقال ﷺ: «ولو توكّلتم على الله حقّ توكّله لرزقتم كما يُرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[١].

٤ ـ وقال ﷺ: «لا تتّكل على غير الله فيكلك الله إليه، ولا تعمل لغير الله فيجعل ثوابك عليه»[٢].

٥ ـ وعنه ﷺ، قال: «قضى الله على نفسه أنّه: مَن آمن به هداه، ومَن اتّقاه وقاه، ومَن توكّل عليه كفاه، ومَن أقرضه أنماه، ومَن وثق به أنجاه، ومَن التجأ إليه آواه، ومَن دعاه أجابه ولبّاه، وتصديقها من كتاب الله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً﴾[٤]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٥]، ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ﴾[٦]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ﴾[٧]، ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[٨]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾[٩]»[١٠].

٦ ـ وعنه ﷺ، قال في خبر المعراج: «يا ربِّ، أيّ الأعمال أفضل؟ فقال الله عزّ وجلّ: يا أحمد، ليس شيء أفضل عندي من التوكّل على الرضا بما قسمتُ»[١١].

---

(١) مستدرك الوسائل: ٢١٧/١١، باب وجوب التوكّل على الله والتفويض إليه، الحديث ١١/١٢٧٨٩.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ١٢/١٢٧٩٠.

(٣) سورة التغابن: الآية ١١.

(٤) و (٥) سورة الطلاق: الآية ٢ و ٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٤٥. سورة الحديد: الآية ١١.

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٠١.

(٨) سورة الزُّمر: الآية ٥٤.

(٩) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(١٠) مستدرك الوسائل: ٢١٨/١١، باب وجوب التوكّل على الله والتفويض إليه، الحديث ١٤/١٢٧٩٢.

(١١) المصدر المتقدّم: ٢٢٠، الحديث ١٨/١٢٧٩٦.

٧ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **الإيمان أربعة أركان : الرضا بقضاء الله ، والتوكّل على الله ، وتفويض الأمر إلى الله ، والتسليم لأمر الله** »[(١)].

٨ ـ وقال عليه السلام : « **خصلة مَنْ عمل بها كان من أقوى النّاس** » ، قيل : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : « **التوكّل على الله عزّ وجلّ** »[(٢)].

٩ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام قال لمعاوية بن وهب : « **مَن أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً : مَن أُعطي الدعاء أُعطي الإجابة ، ومَن أعطي الشكر أعطي الزيادة ، ومَن أُعطي التوكّل أُعطي الكفاية** ».

ثمّ قال : « **أتلوت كتاب الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾**[(٣)] ، وقال : **﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾**[(٤)] ، وقال : **﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾**[(٥)] »[(٦)].

١٠ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **.. وحقيقة التوكّل الإيثار ، وأصل الإيثار تقديم الشيء بحقّه ، ولا ينفكّ المتوكّل في توكلّه من إثبات أحد الإيثارين ، فإن آثر معلول التوكّل ، وهو الكون حجب به ، وإن آثر المعلّل علّة التوكّل وهو الباري سبحانه وتعالى بقي معه ، فإن أردت أن تكون متوكّلاً لا متعلّلاً فكبّر على روحك خمس تكبيرات ، وودّع أمانيك كلّها توديع [وداع] الموت للحياة**[(٧)].

---

(١) الوسائل : ١٥/١٩٩ ، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق ، الحديث ٢٠٢٧٠/٤.
الكافي : ٢/٨٣ ، الحديث ١٥٥٧/٥ ، باب المكارم.

(٢) مستدرك الوسائل : ١١/٢٢٠ ، باب وجوب التوكّل على الله ، الحديث ١٢٧٩٧/١٩.

(٣) سورة الطلاق : الآية ٣.

(٤) سورة إبراهيم : الآية ٧.

(٥) سورة المؤمن : الآية ٦٠.

(٦) مستدرك الوسائل : ١١/٢٢٠ ، باب وجوب التوكّل على الله ، الحديث ١٢٧٨٢/٤.

(٧) هذا يؤكّد ما سبق عنه عليه السلام من أنّ حقيقة التوكّل اليقين ، وصاحب اليقين لا يرى بينه وبين الله حجاباً بما في ذلك اليقين والتوكّل ، بل النفس التي لا يكون اليقين إلّا بفنائها ، ⇦

وأدنى حدٍّ للتوكّل أن لا تسابق مقدورك بالهمّة ، ولا تطالع مقسومك ، ولا تستشرف معدومك ، فينتقض بأحدها عقد إيمانك وأنت لا تشعر...»[١].

١١ ـ وقال عليه السلام : « **إنّ الغنى والعزّ يجولان ، فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطناه** »[٢].

١٢ ـ وعن الباقر عليه السلام ، قال : « **مَن توكّل على الله لا يُغلب** »[٣].

١٣ ـ وروي أنّ لقمان قال لابنه : « **يا بنيّ ، مَن ذا الذي عبدَ الله فخذله ؟ ومَن ذا الذي ابتغاه فلم يجده ؟ ومَن ذا الذي ذكره فلم يجده ؟ ومَن ذا الذي توكّل على الله فوكّله إلى غيره ؟ ومَن ذا الذي تضرّع إليه جلّ ذكره فلم يرحمه ؟** »[٤].

٢ ـ الاعتصام بالله وقطع الرجاء لغيره

الاعتصام بالشيء هو الامتناع به عمّا يخشاه . فالاعتصام بالله هو الامتناع به عن كلّ مكروه من أُمور الدنيا والآخرة ، وبما أنّ الاعتصام قد يكون بأكثر من واحد ، ألحقت بالعنوان قطع الرجاء بغيره لينحصر الاعتصام به وحده سبحانه ؛ ليكون مطابقاً لما نقوله في صلواتنا وغيرها حينما نقرأ الفاتحة : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ؛ لدلالة تقديم الضمير المنفصل ﴿ **إِيَّاكَ** ﴾ على فعله ﴿ **نَسْتَعِينُ** ﴾ ، على أنّنا لا نستعين بغيره إطلاقاً ، فإن استعنا بغيره أيّاً كان هذا الغير بلحاظ غيريّته واستقلاله في التأثير كذبنا بعدد قراءاتنا لهذه الآية ـ إن قصدنا بها الخطاب دون الحكاية ـ.

⇦ والتكبير عليها بتكبيرات صلاة الأموات ، أي بسحق كلّ أمانيها وأوهامها بحيث لا تبقى إلّا الحقيقة خالية من أيّ وهم يحجبها . وقد ورد : « العلل » بدل « المعلل » ، وما أثبتناه هو الموافق للأصل .

(١) مستدرك الوسائل : ١١/٢١٨ ، باب وجوب التوكّل على الله ، الحديث ١٦/١٢٧٩٤ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦/١٢٧٩٤ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/١٢٧٨٥ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٧/١٢٧٩٥ ، ولكن ورد : « ذكره فلم يذكره » .

والاعتصام بالله بهذا المعنى هو نوع من أنواع التوكّل ، فهو توكّل خاصّ بحالة الامتناع بالله عمّا يكرهه المعتصم به .

ومع كونه مشمولاً بكلّ ما ورد في التوكّل من حثّ وبيان آثارٍ ، فقد اختصّ بروايات ورد فيها لفظ الاعتصام والآمل ، أذكر منها :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود : ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي ، عرفت ذلك من نيّته ، ثمّ يكيده السماوات والأرض ومَن فيهنّ ، إلّا جعلت له المخرج من بينهنّ .**

وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي ، عرفت ذلك من نيّته ، إلّا قطعت أسباب السموات من بين يديه ، وأسخت الأرض من تحته ، ولم أُبال بأيّ وادٍ يهلك »(١) .

٢ ـ وعنه عليه السلام أيضاً ، قال : في بعض الكتب أنّ الله تبارك وتعالى يقول : « **وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي ، لأقطعنّ أمل كلّ مؤمّل من النّاس غيري باليأس ، ولأكسونّه ثوب المذلّة عند النّاس ، ولا نحينّه من قربي ، ولأبعدنّه من فضلي ، أيؤمّل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ، ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة ، وبابي مفتوح لمن دعاني ؟**

فمَن ذا الذي أمّلني لنائبة فقطعته دونها ؟ ومَن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي ، وملأت سماواتي ممّن لا يملّ من تسبيحي ، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي .

ألم يعلم من طرقتْه نائبة من نوائبي أنّه لا يملك كشفها أحد غيري إلّا من بعد إذني ، فما لي أراه لاهياً عنّي ؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني ، ثمّ انتزعته عنه فلم يسألني ردّه وسأل غيري .

---

(١) مستدرك الوسائل : ١١/٢١٤ ، باب وجوب الاعتصام بالله ، الحديث ٣/١٢٧٧٤ .

أفتراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ، ثمّ أسئل فلا أُجيب سائلي ؟ أبخيل أنا فيبخّلني عبدي ؟ أوَليس الجود والكرم لي ؟ أوَليس العفو والرحمة بيدي ؟ أوَليس أنا محلّ الآمال ، فمن يقطعها دوني ؟ أفلا يخشى المؤمّلون أن يؤمّلوا غيري ؟ فلو أنّ أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ثمّ أعطيت كلّ واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ، ما انتقص من ملكي عضو ذرّة ، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه ؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني »[1].

٣ ـ الجمع بين الرجاء والخوف

أ / معناهما

الرجاء : ارتياح النفس لتوقّع حصول ما تحبّ . قال تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾**[2] ، وقال تعالى : **﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾**[3].

والخوف : تألّم النفس لتوقّع حصول ما تكره . قال تعالى : **﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾**[4] ، وقال عزّ وجلّ : **﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾**[5].

ويفترق الرجاء عن التمنّي ، بأنّ الرجاء طلب ما يحبّ مع الأمل بحصوله لتوفّر سببه ، كمن يزرع في أرض توفّرت فيها ولها أسباب الانتاج ، فيرجو ناتج ما زرع ،

---

(١) الكافي : ٢/٩٢ ، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه ، الحديث ٧/١٥٩٠.
(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٨.
(٣) سورة النساء : الآية ١٠٤.
(٤) سورة الرحمن : الآية ٤٦.
(٥) سورة النازعات : الآيتان ٤٠ و ٤١.

أمّا التمنّي فهو طلب ما لم يتوفّر سبب حصوله ،كمن يزرع في أرض لم تتوفّر فيها ولها أسباب الانتاج فيتمنّى ناتج ما زرع ، فيكون كمن قال :

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأُخبره بما فعل المشيب

ويسمّى حينئذٍ غرور وحماقة .

كما يفترق الخوف عن الجبن ، بأنّ الخوف هو التألّم من توقّع حصول المكروه ، كمن خاف عقوبة جنايته أو فقدان ما يرجوه ممّا يحبّ حصوله ، أمّا الجبن فهو سكون النفس عمّا يحسن الإقدام على فعله ، شرعاً أو عقلاً ، سواء حصل ألم نفسي أم لم يحصل ، كمن لا يدفع ظالماً عن نفسه أو عن عرضه ، ومَن لا ينام في بيت مظلم ، وأمثالهما .

فالخوف خشية ورهبة ويقابله التهوّر والحماقة ، أمّا الجبن فهو ترك الإقدام على ما يحسن ويقابله الشجاعة .

ومن هنا كان الخوف ملازماً للرجاء ، فإنّ من خاف على مريض أن يموت رجا شفاءه ، وبالعكس ؛ لأنّ الخوف إذا كان من توقع وجود شيء كان الخائف يرجو عدمه ، وإذا كان من توقّع عدم حصوله ، كان راجياً لوجوده .

ب / الممدوح منهما

الرجاء والخوف إنّما يمدحان إذا كان متعلّقهما هو الحقّ سبحانه ، أمّا رجاء غيره أو الخوف منه أيّاً كان فهو مذموم ؛ لأنّه ينافي اليقين بالله وينافي الاعتصام به والتوكّل عليه سبحانه ، وقد مرّ أنّ فاقد هذه الأُمور مشرك ؛ لذا كانت خشية الله تعالى مقصورة على العلماء الذين ميّزوا بين الحقيقة والأوهام . قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[1] .

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

وعن رسول الله ﷺ، قال: «**أنا أخوفكم لله**»[١].

وكان رجاؤه سبحانه ملازماً للعمل الصالح والتوحيد. قال عزّ من قائل: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾[٢].

وقال ﷺ: «**والذي لا إله إلّا هو ما أُعطي مؤمن قطّ خير الدنيا والآخرة إلّا بحسن ظنّه بالله، ورجائه له، وحسن خُلقه، والكفّ عن اغتياب المؤمنين**»[٣].

أمّا تعلّقهما معاً بالحقّ، فليس المقصود به التعلّق بالذات بما هي ذات؛ لأنّ الذات لا يتعلّق بها خوف ولا رجاء، وإنّما المقصود تعلّقهما بما يرتبط بالذات من الأمور التي تهمّ الخائف الراجي، فالخائف من الله ـ مثلاً ـ إنّما يخشى البعد عنه، أو العذاب في الآخرة، أو الانتقام في الدنيا، أو أن يوكّله إلى نفسه، وما أشبه هذه الدواعي للخوف، والتي قدّر الله تعالى ترتّبها على معصية العبد بحسب درجته ومستواه.

والراجي لله سبحانه، إنّما يرجو رحمته ولطفه وعفوه وتوفيقه وتجاوزه، وما يترتّب على هذه الصفات التي يترتّب عليها خير الإنسان من قرب وجنّة نعيم وسعادة في الدنيا أو في الآخرة. وكلّ راجٍ وخائف يرجو ويخاف على قدره، فالبعض يخاف البعد، ويرجو القرب دونما تفكير بجنّة أو جحيم. والآخر يكتفي بالجنّة ويخاف النار، وثالث يرجو ما يحبّ في الدنيا ويخاف ما يكره ولو على حساب آخرته، وهكذا تتفاوت النّاس في خوفها ورجائها وإن كانا معاً متعلّقين بالله تعالى. وفي كلّ هذه الأحوال فهذا الخوف وهذا الرجاء ممّا ورد فيهما المدح ما داما متعلّقين بالحقّ سبحانه.

---

(١) تفسير الثعالبي: ٥/٥٨٦.

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٣) الوسائل: ١٥/٢٣٠، باب وجوب حسن الظنّ بالله، الحديث ٢٠٣٥٠/٣.

أمّا إذا تعلّقا بغيره غفلة عن الله تعالى ، فهذا يعني الغفلة أو الجحود لمحتوى (لا حول ولا قوّة إلّا بالله)؛ إذ ما دام الحول والقوّة بالله وحده حصراً ، فكيف أخشى مَن لا حول له ولا قوّة ؟ وكيف أرجو مَن كان كذلك ؟

من هنا كانت خشية غير الله أو رجاءُ غيره تستلزم إنكار الله أو الشرك به أو الغفلة عنه ونسيانه .

الأخبار الواردة في الخوف والرجاء

وقد وردت عدّة أخبار تتحدّث عن الخوف والرجاء من حيث الحثّ عليهما ، وبيان الصادق منهما ، ولوازمهما وآثارهما الدنيويّة والأُخرويّة ، وفيما يأتي طائفة منها :

١ ـ عن رسول الله ﷺ ، قال : « **رأس الحكمة مخافة الله** »[١]؛ لأنّ مَن عرف نفسه وعرف ربّه خافه ، ومَن خاف شيئاً عمل لتجنّب ما خافه من بُعد وجهل وضلال وعذاب وغيرها ليحصل على أضدادها ، وبها السعادة التي هي غاية الحكمة والحكماء .

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **إنّما السعيد مَن خاف العقاب فأمن ، ورجا الثواب فأحسن ، واشتاق إلى الجنّة فأدلج** »[٢].

٣ ـ وقال عليه السلام : « **خفْ ربّك خوفاً يشغلك عن رجائه ، وارجه رجاء مَن لا يأمن خوفه** »[٣].

٤ ـ وقال عليه السلام في خطبة له : « **يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ ! مَا بَالُهُ**

---

(١) الوسائل : ٢٢١/١٥ ، باب وجوب الخوف من الله ، الحديث ٩/٢٠٣٢٧ . مستدرك الوسائل : ٢٢٩/١١ ، باب وجوب الخوف من الله ، الحديث ٧/١٢٨٢٣ .

(٢) و (٣) مستدرك الوسائل : ٢٢٧/١١ ، باب وجوب الجمع بين الخوف والرجاء ، الحديث ١١/١٢٨١٦ .

لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ ـ إِلَّا رَجَاءَ اللهِ تَعَالَىٰ ـ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلَّا خَوْفَ اللهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو اللهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ! فَمَا بَالُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟ وَكَذٰلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً وَوَعْداً»[1].

٥ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «كان أعجب ما كان في وصيّة لقمان أن قال لابنه: «خف الله خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لعذّبك، وراج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك».

ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: كان أبي يقول: «ليس من عبدٍ مؤمن إلّا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[2].

٦ ـ وعنه عليه السلام، قال: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتّى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[3].

٧ ـ وقال عليه السلام: «ينبغي للمؤمن أنْ يخاف الله خوفاً كأنّه مشرف على النّار، ويرجوه رجاءً كأنّه من أهل الجنّة». ثمّ قال: «إنّ الله تبارك وتعالى عند ظنّ عبده به، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ»[4].

٨ ـ وقال عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[5]:

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠، خطبته عليه السلام في كيف يكون الرجاء.
(٢) الوسائل: ٢١٦/١٥، باب وجوب الجمع بين الخوف والرجاء، الحديث ١/٢٠٣١١.
(٣) المصدر المتقدّم: ٢١٧، الحديث ٥/٢٠٣١٥.
(٤) المصدر المتقدّم: ٢٣٠، باب وجوب حسن الظنّ بالله، الحديث ٥/٢٠٣٥٢.
(٥) سورة الرحمن: الآية ٤٦.

« مَن علم أنّ الله يراه ، ويسمع ما يقول ، ويعلم ما يعمله [يفعله] من خير أو شرّ ، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال ، فذلك الذي خاف مقام ربّه ، ونهى النفس عن الهوى »(١).

٩ ـ وقال عليه السلام لإسحاق بن عمّار : « يا إسحاق ، خف الله كأنّك تراه . وإن كنت لا تراه فإنّه يراك ، وإن كنت ترى أنّه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنّه يراك ثمّ برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك [إليك] »(٢).

١٠ ـ وقال عليه السلام : « إنّ من العبادة شدّة الخوف من الله عزّ وجلّ . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٣) ».

وقال جلّ ثناؤه : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾(٤). وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً ﴾(٥). قال : وقال أبو عبدالله عليه السلام :

« إنّ حبّ الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب »(٦).

١١ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « مَن عرف الله خاف الله ، ومَن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا »(٧).

١٢ ـ وقال عليه السلام : « مَن خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء »(٨).

---

(١) الوسائل : ٢١٩/١٥ ، باب وجوب الجمع بين الخوف والرجاء ، الحديث ٣/٢٠٣٢١.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٦/٢٠٣٢٤.

(٣) سورة فاطر : الآية ٢٨.

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٤.

(٥) سورة الطلاق : الآية ٢.

(٦) الوسائل : ٢٢٠/١٥ ، باب وجوب الخوف من الله ، الحديث ٨/٢٠٣٢٦.

(٧) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/٢٠٣٢٥.

(٨) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/٢٠٣٢٢.

١٣ ـ وقال عليه‌السلام : « **إنّ قوماً أصابوا ذنوباً فخافوا منها وأشفقوا ، فجاءهم قوم آخرون ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : إنّا أصبنا ذنوباً فخفنا منها وأشفقنا ، فقالوا لهم : نحن نحملها عنكم ! فقال الله تعالى : يخافون [و] يجترئون علَيّ ؟ ! فأنزل الله عليهم العذاب** »(١).

١٤ ـ وروي عنه عليه‌السلام أنّه قال : إنّ ممّا حفظ من خطب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال : « **أيّها النّاس ، إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، ألا أنّ المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، وفي الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات . فوالذي نفس محمّد بيده ، ما بعد الدنيا من مستعتب ، وما بعدها من دار إلّا الجنّة أو النّار** »(٢).

هذا وقد خصّ صاحب المستدرك باباً بعنوان : (وجوب الخوف من الله) روى فيه عن المعصومين عليهم‌السلام ثلاثين حديثاً .

ويجد المتأمّل فيها أنّ بعضها لا يدّ على الوجوب ، مثل ما عن أمير المؤمنين عليه‌السلام : « **خير النّاس عند الله أخوفهم لله ، وأعلمهم بالتقوى ، وأزهدهم في الدنيا** » . اللّهمّ إلّا أن يقصد الوجوب عند الأخلاقيّين ، فإنّهم يعنون به ما لا يعنيه الفقهاء ، ولكنّها أحاديث مفيدة في الحثّ على الخوف من الله سبحانه وبيان آثاره دنيا وآخرة ، ولا بأس بالاطّلاع عليها ، بل يحسن(٣) . وينبغي أن يعلم أنّ الخوف واجب للأمر به في الكتاب والسنّة ، وقد مرّ بك ذلك ؛ ولأن كان خارجاً عن الاختيار فإنّ مقدّماته اختياريّة ، كالحبّ والبغض الواجبين .

---

(١) الوسائل : ١٥/٢٢٢ ، باب وجوب الخوف من الله ، الحديث ٢٠٣٣١/١٣ . وما بين المعقوفين غير موجودة ، ولكن أثبتناها من الأصل .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٣١٩/١ .

(٣) راجع مستدرك الوسائل : ١١/٢٢٨ إلى ٢٣٦ ، باب وجوب الخوف من الله .

مضافاً إلى أنّ فقدان الخوف يستلزم الأمن من مكر الله تعالى ، وقد وصفت بعض الآيات والأخبار من يأمن مكر الله بالخسران. قال سبحانه : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[1] ، ومرّ بنا (الصفحة ٨٩) ورود عشرة أخبار تتضمّن عدّ الأمن من مكر الله من الكبائر ، وإذا كان الأمن محرّماً وواجب الترك ، فلا معنى لوجوب تركه إلّا وجوب الخوف .

٤ ـ حسن الظنّ بالله تعالى

الظنّ رجحان أحد الطرفين ، فمن قصد شخصاً بطلب ورجح في نفسه أنّه يلبّي طلبه فهو ظانّ بالاستجابة ، ولو رجح في نفسه العدم فهو ظانّ بعدمها ، وبما أنّ الاستجابة تكشف عن صفات حميدة ، كالرحمة والكرم والنبل وأمثالها ، قيل لظانّ الاستجابة حسَن الظنّ ؛ لتعلّق ظنّه بالصفات الحسنة في المطلوب منه .

ومَن ظنّ بشخص أنّه لا يعاقبه مع استحقاقه للعقاب ، إلّا أنّه سيتركه بداعي العفو والمغفرة والمسامحة وأمثالها ، قيل لهذا الظانّ حُسن الظنّ ؛ لظنّه بصفات حميدة فيمن له حقّ المعاقبة .

وهكذا يكون حسن الظنّ ناشئاً من تعلّق الظنّ بالصفات الحسنة ، سواء أكان أثرها وجودياً أم عدمياً ، وسوء الظنّ بعكس حسنه تماماً .

ولكن بالنسبة إلى الله تعالى ، فالمؤمن بحدود ما توصّل إليه من معتقدات ، هو على يقين بأنّ الله سبحانه لا يتّصف إلّا بالصفات الحميدة ، وعليه فهل يبدل العنوان بحسن اليقين بالله ؟ لأنّ الظنّ دون مستوى الإيمان ؟

الجواب : لا ، لأنّ حسن الظنّ بالله تعالى لم يقصد به الظنّ بوجود الصفات كي يكون منافياً للإيمان والاعتقاد بوجودها ، فالمؤمن في إطار فكره ، وفيما نصّت عليه

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٩ ، وبدايتها : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ﴾ .

الآيات والأخبار، أعتقد وجزم بأسمائه الحسنى وتجاوز مرحلة الظنّ، إلّا أنّ بعض هذه الصفات ـ وكلّ صفاته حسنة ـ تقتضي مؤاخذة الإنسان على تقصيره بحقّ ربّه، وتخلّفه عن القرب الذي أراده له، والغرض الذي خلقه من أجله، فهو العادل الجبّار المنتقم شديد العقاب... الخ الصفات التي تقتضي أن ينال المقصّر جزاء تقصيره، وهو الرحيم الغفور العفوّ اللطيف ... الخ الصفات التي تقتضي رفع المؤاخذة على التقصير.

وحينئذٍ يتردّد المقصّر بين هذه الصفات وتلك، أي الطائفتين سيكون لها التأثير في شأنه؟

في هذه الحالة، ومع شعور الإنسان ـ أي إنسان ـ بالتقصير تجاه ربّه، سيخاف ذنبه وإن كان لا يرجو إلّا ربّه. وفي هذه الحالة ينبغي للمؤمن أن يحسن الظنّ بربّه، بمعنى أن يغلب رجاؤه لرحمته وعفوه على خوفه من ذنبه ومؤاخذته عليه بمقتضى العدل الإلهي والقضاء المقتضي للعقاب.

فحسن الظنّ إذن من لوازم الخوف والرجاء والاعتصام، ولا يستلزم الأمن من مكر الله سبحانه.

ووردت في حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ مجموعة من الأخبار عن المعصومين عليهم السلام أذكر منها:

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**حسن الظنّ بالله أنْ لا ترجو إلّا الله، ولا تخاف إلّا ذنبك**»[١].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**الثقة بالله، وحسن الظنّ به حصن لا يتحصّن به إلّا كلّ مؤمن، والتوكّل عليه نجاة من كلّ سوء، وحرز من كلّ عدوّ**»[٢].

---

(١) الكافي: ٩٨/٢، باب حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ، الحديث ٤/١٦٠٨.

(٢) مستدرك الوسائل: ٢٥٠/١١، باب وجوب حسن الظنّ بالله، الحديث ٧١/١٢٩٠٢.

٣ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **حسن ظنّ العبد بالله سبحانه على قدر رجائه له ، وحسن توكّل العبد على الله على قدر ثقته** »[١].

وقال عليه السلام : « **حسن الظنّ من أفضل السجايا ، وأجزل العطايا** »[٢].

وقال عليه السلام : « **حسن الظنّ أنْ تخلص العمل ، وترجو من الله أن يعفو عن الزلل** »[٣].

٤ ـ وقال عليه السلام في وصيّته لمحمّد بن الحنفيّة : « **ولا يغلبنّ عليك سوء الظنّ بالله ، فإنّه لن يدع بينك وبين خليلك صلحاً** »[٤].

٥ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **وجدنا في كتاب عليّ عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال على منبره : والذي لا إله إلّا هو ، ما أُعطي مؤمن قطّ خير الدنيا والآخرة إلّا بحسن ظنّه بالله ورجائه له ، وحسن خلقه ، والكفّ عن اغتياب المؤمنين .**

والذي لا إله إلّا هو ، لا يعذّب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلّا بسوء ظنّه بالله ، وتقصيره من رجائه ، وسوء خُلقه ، واغتيابه للمؤمنين .

والذي لا إله إلّا هو ، لا يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله ، إلّا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن ؛ لأنّ الله كريم بيده الخيرات ، يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنّ ، ثمّ يخلف ظنّه ورجاءه ، فأحسنوا بالله الظنّ ، وارغبوا إليه »[٥].

٦ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ما ظنّ عبدٌ بالله خيراً ، إلّا كان الله عند ظنّه ، وما ظنّ به سوء إلّا كان الله عند ظنّه به ؛ وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٦]** »[٧].

---

(١) ـ (٣) مستدرك الوسائل : ١١/٢٥٢ ، باب وجوب حسن الظنّ بالله ، الحديث ١٦/١٢٩١١ .

(٤) الوسائل : ١٥/٢٣٠ ، باب وجوب حسن الظنّ بالله ، الحديث ٦/٢٠٣٥٣ .

(٥) الكافي : ٢/٩٨ ، باب حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ ، الحديث ٢/١٦٠٦ .

(٦) سورة فصلّت : الآية ٢٣ .

(٧) الوسائل : ١٥/٢٣١ ، باب وجوب حسن الظنّ بالله ، الحديث ٧/٢٠٣٥٤ .

٧ـ عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، قال : « **فأحسن الظنّ بالله ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي : إن خيراً فخيراً ، وإن شرّاً فشرّاً** »(١) .

٨ ـ وعنه أيضاً ، قال عليه السلام : « **أحسن الظنّ بالله ، فانّ أبا عبدالله عليه السلام كان يقول : مَن حسن ظنّه بالله كان الله عند ظنّه به ، ومَن رضي بالقليل من الرزق قُبِل منه اليسير من العمل** »(٢) .

هذا وقد أورد صاحب المستدرك (١٦) حديثاً استنتج منها عنوان الباب المرقم (١٦) : وجوب حسن الظنّ بالله وتحريم سوء الظنّ بالله(٣) ، وعليه فليست مسألة حسن الظنّ وسوئه من المسائل المندوبة أو المكروهة ، وهي لا تقلّ أهميّة عن التوبة والاستغفار ، ولا يمنع من التكليف بها خروجها عن الاختيار ما دامت مقدّماتها الاعتقاديّة اختياريّة .

٥ ـ الإعطاء والمنع في الله

الإعطاء والمنع هما نوعان من أنواع تصرّف الإنسان مع الآخرين فيما لديه من قدرات وطاقات وممتلكات ، معنويّة أو مادّيّة .

ولا يشمل هذا العنوان التصرّفات فيما لم يمتلكه الإنسان أو فيما استولى عليه بدون مسوّغ شرعي ، فإنّ تصرّفه فيه والحالة هذه محرّم عليه مطلقاً ، إعطاءً أو منعاً(٤) ، لوجه الله أو لغير وجهه(٥) ، ولا يستثنى منه إلّا التصرّف بإرجاعه إلى أهله ،

---

(١) الوسائل : ٢٢٩/١٥ ، باب وجوب حسن الظنّ بالله ، الحديث ١/٢٠٣٤٨ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٢/٢٠٣٤٩ .

(٣) راجع مستدرك الوسائل : ٢٤٨/١١ إلى ٢٥٢ ، باب وجوب حسن الظنّ بالله .

(٤) لأنّ الإعطاء والمنع كلّه تصرّف ، والتصرّف بدون إذن المالك محرّم ، وكذا التصرّف في المغصوب .

(٥) إن كان لغير وجه الله ، فواضح . أمّا ما كان لوجهه فلا يطاع الله من حيث يُعصى . ⇦

فإنّه واجب عليه ، وفي تحريمه خلاف[١].

إنّما المقصود بالعنوان هو التصرّف فيما منحه الله سبحانه لعبده من علم وجاه وقوّة ومال ، وما إلى ذلك من نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى.

ومع أنّ الله سبحانه قد وهب الكثير من هذا النِّعم ، إلّا أنّ الثابت بالضرورة من الدين أنّه تعالى لم يطلق له التصرّف فيها كيف شاء ، بل وضع لتصرّفه فيها نظماً أوجب عليه الالتزام بها ، وتوعّده بالعقاب على مخالفتها.

فهو وإن ملّكه بعض الأموال إلّا أنّه حرّم عليه إتلافها بالتبذير أو بإلقائها في البحر بغير غرض مشروع. وهو وإن وهبه القابليّات غير أنّه حرّم عليه استخدامها في المفاسد من الأفعال.

ومجمل القول إنّ الإنسان عبد ، والعبد وما يملك لمولاه ، فلا يجوز له التصرّف إلّا بما أذن له به ، وكلّ ما لديه من نفسٍ وما احتوته إن هو إلّا عارية لديه ، لا يتصرّف فيها إلّا في حدود ما يأذن به صاحبها له ، ولا بدّ وأن تستردّ يوماً ما ، فـ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ ، أو إن هو إلّا وكيل متى ما تصرّف تصرّفاً لم ينصّ عليه موكّله كان تصرّفه باطلاً ، فـ« **الأغنياء وكلائي ، والفقراء عيالي** » ، كما في الحديث المشهور. ولهذا فأنا لا أُريد بهذا العنوان هذا النوع من التصرّف ؛ لأنّ ما لم يأذن به المولى عزّ وجلّ محرّم بالاتّفاق. فالمقصود بالعنوان إذن هو الإعطاء والمنع الجائزان شرعاً ، كأن يبذل الإنسان علمه أو جاهه أو ماله للآخرين ، ولم يرد في هذا البذل

⇦ فالتصدّق ـ مثلاً ـ بالمال المغصوب أو بمال الغير دون إذنه محرّم وغير مقبول؛ لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [سورة المائدة : الآية ٢٧] ، أي مَن كان متّقياً في كسبه.

(١) راجع مباحث الضدّ في علم أُصول الفقه. كفاية الأُصول : ١٣١ ـ ١٣٤. فرائد الأُصول : ٤٣٩/٢. القوانين : ٧٦ ، وما بعدها. تنقيح الأُصول / آقا ضياء الدين العراقي : ١٣٩ ، وما بعدها.

أو في منعه نصّ في الوجوب أو في التحريم ، وإلّا فلو ورد فيه وجوب ، كتعليم الفرائض ، ودفع الزكاة مثلاً ، أو تحريم ، كتعليم البدع ، وبذل المال للرياء ، فلا كلام لنا فيه . والإنسان كثيراً ما يبذل طاقاته وممتلكاته للآخرين ، ولهذا البذل دوافع ومقاصد لا محالة .

ودوافعه قد تكون للنفس فحسب ، بمعنى أن أُعلّم فلاناً ، أو أدفع له المال ، أو أقضي له الحاجة ، أو أقوم له بعمل ما ؛ لأنه يحبّني أو لأنه محبوب لديّ ، أو لأجل أن يمدحني ، أو لأجل أن يعوّضني على هذا العمل ، أو لأجل أن أدفع عن نفسي ضرره أو ما يشبه هذه العناوين ممّا يرجع إلى نفس المعطي .

وكذا الضدّ أيضاً بأن أمنع بداعي أضداد هذه الدواعي دون التفات إلى الله سبحانه ، ودون أن يكون الله تعالى هو داعي الإعطاء والمنع ، أو أمره بهما بتلك الدواعي .

إنّ الإعطاء والمنع دون الالتفات إلى الله سبحانه ، ودون استحضار طلبه للإعطاء والمنع ، أو طلبه لدواعيهما ما هو إلّا هدر لكلّ ما منحنا إيّاه وحرمان من كلّ ما أباح لنا التصرّف فيه من نعمه الجزيلة .

وعلى فرض أن ننال من إعطائنا ومنعنا ما نبتغيه لنفوسنا من شيء ، فإنّما هو عرَض زائل وإحساس مؤقّت ينقطع بانقطاع مدّة الحياة الدنيا ، ولم يقرّبنا منه تعالى يوم لا ينفع إلّا قربه ، ولا يضرّ إلّا البعد عنه ، وحينئذٍ لا ينفع الندم .

والأخبار التي تضمّنت الإعطاء والمنع في الله تنظر إلى هذا المعنى ، وهي في الغالب وردت مقرونة بالحبّ والبغض في الله تعالى ؛ لما بين الاثنين من الملازمة ؛ لأنّ مَن أحب شيئاً بذل في سبيله ما يستطيع بذله له ، ومَن أبغض شيئاً منعه ممّا يستطيع منعه منه .

ولذا فمن أحبّ نفسه دون الله سبحانه جنّد كلّ ما يستطيع في سبيلها ، أمّا مَن أحبّ الله جلّت قدرته بذل النفس والنفيس في سبيله ، وهو الغني عن عباده ،

يضاعف لهم ما بذلوه ليسعدوا فيه يوم لا ينفع فيه إلّا العمل في سبيل الله تعالى .

ولمّا كانت أخبار المنع والإعطاء في الله مقترنة بأخبار الحبّ والبغض فيه ، وقد تحدّثنا عن الحبّ والبغض فيه (الصفحة ١٣٠) بعنوان : (حبّ الدنيا) ، وروينا بعض هذه الأخبار هناك ، فسأقتصر هنا على رواية البعض منها على نحو الاستشهاد وإن لزم التكرار :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **من أوثق عُرى الإيمان أن تحبّ في الله ، وتبغض في الله ، وتعطي في الله ، وتمنع في الله** »[١] .

٢ ـ وعنه عليه‌السلام أيضاً ، قال : « **مَن أحبّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، فهو ممّن كمل إيمانه** »[٢] .

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه‌السلام ، قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان ، ألا ومَن أحبّ في الله ، وأبغض في الله ، وأعطى في الله ، ومنع في الله ، فهو من أصفياء الله** »[٣] .

هذه الأخبار وأمثالها قد ربطت الإعطاء في الله والمنع في الله بالإيمان ، فمن لم يكن كذلك لم يكمل إيمانه كما هو مفاد الخبر الثاني ، أو أنّ إيمانه متزلزل ، كما في الخبر الأوّل .

٦ ـ التخلّق بمكارم الأخلاق

في (الصفحة ٢٠١) تحدّثت عن معنى الأخلاق وتقسيمها إلى كريمة وسيّئة ، وتحدّثت هناك عن الذميمة ووعدت بالحديث عن الكريمة ، وها هو محلّ الحديث عنها .

---

(١) الكافي : ٢/١٥٤ ، باب الحبّ في الله والبغض في الله ، الحديث ٢/١٨٧٠ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١/١٨٦٩ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/١٨٧١ .

وقبل الحديث عن الأخبار التي تضمّنت بيان مصاديقها، والحثّ على الالتزام بها، وددت أن أقتبس للقارئ ملخّصاً ممّا ورد في (تفسير الميزان) عن الارتباط بين القانون والأخلاق والتوحيد.

١ ـ إنّ الإنسان لا يسعد في حياته إلّا في مجتمع متعاون على أعمال الحياة التي لا يقوى الإنسان على القيام بها جميعاً، فيعمل كلّ أفراد المجتمع ما بوسعهم ثمّ يتبادلون أعمالهم لينال كلّ منهم من النتائج ما يعادل عمله ووزنه الاجتماعي.

ونظراً إلى أنّ الإنسان بطبعه يجرّ النفع إلى نفسه على حساب الآخرين، احتاج ضبط التعاون وتبادل الحقوق والواجبات ـ بعدل ـ إلى سنن وقوانين تحفظ عدالة هذا التبادل.

ولا جدوى في وضع هذه القوانين ما لم تُدعم بقوانين اُخرى جزائيّة تحدّ المخالفات وتشوّق إلى القيام بالعدل. وما لم تكن قوّة حاكمة مسيطرة تعلم بالمخالفات وتقوى على الجزاء عليها، عقاباً أو ثواباً؛ لأنّ القوانين وحدها لا تحقّق الغرض المنشود منها بدون قيّم على تنفيذها.

فإذا تساهل القيّم أو جهل بما يجري بين النّاس، أو ضعف عن التنفيذ ضاعت القوانين، وفشت المخالفات والتعدّيات على الحقوق.

وتشتدّ البلوى إذا تجبّر القيّم وسلب من الناس قدرتهم على تقويمه، أو إبداله.

فالقوانين والسنن مهما كانت ـ في مفاهيمها ـ عادلة، وأحكام الجزاء مهما كانت بذاتها صارمة، لا تسدّ باب الخلاف والتخلّف إلّا بأخلاق فاضلة، وملكات نفسيّة تقطع دابر الظلم والفساد، كملكة اتّباع الحقّ، واحترام الإنسان، والعدالة، والكرامة، والرحمة، والعفّة، والصبر، ونظائرها.

أمّا الأمم التي لم تضع قوانينها على الأخلاق، ويُتراءى فيهم النظام والعدل الظاهر، فإنّها تفكّر في نفع الأمّة، ودفع الضرر عنها تفكيراً جماعيّاً، إلّا أنّها تستبعد الأُمم الأُخرى، فالعدالة عندهم لا تتجاوز مجتمعهم وإن استباحوا كلّ شيء في

المجتمعات الأُخرى ، ومَثَل هكذا أُمّة مثل الفرد الجبّار ، وإن اختلفت النظرة سعة وضيقاً .

والأخلاق وحدها لا تفي بإسعاد المجتمع وسيادة قوانيه ما لم تعتمد على الإيمان بأنّ للعالم كلّه إلهاً واحداً لم يعزب عن علمه شيء ، ولا يفلت من قدرته شيء ، خلق الأشياء على أكمل نظام ، وسيجازي النّاس محسنهم ومسيئهم ، منعّمين أو معذّبين .

فالأخلاق المبتنية على هذه العقيدة تجعل صاحبها مراقباً لربّه ، وله من داخله ما يحفّزه لفعل الخير ، ويردعه عن ارتكاب الشرّ . أمّا بدون هذه العقيدة فقد تدعو الأخلاق لتطبيق القوانين لغرض حفظ صاحبها أو مجتمعه من التلاشي ليمدحه النّاس أو ليؤرّخ له ، ولكنّه أُفق ضيّق لا يتجاوز حدود ما يحقّق هذا الغرض ولا يتعدّى غالباً إلى المجتمعات الأُخرى ، كما لا يتعدّى أيضاً ما يظهر للنّاس من تصرّف ، ولا يصل إلى ما وصل إليه يوسف مع امرأة العزيز حيث آثر الفضيحة والسجن ، وربّما القتل المحتمل ، على أثر الاتّهام بالفاحشة إن لم يفعلها ، ومع هذا كلّه لم يفعل الفاحشة ؛ لأنّه يرى الله رقيباً عالماً بفعله ، أقدر من كلّ قدير على أن يفعل به ما يشاء .

٢ ـ وإنّما تحصل التقوى الدينيّة بثلاثة طرق : الخوف ، والرجاء ، والحبّ .

وطباع النّاس مختلفة في إيثار أحد هذه الطرق .

أ ـ فأكثرهم يؤثر طريق الخوف من عقاب الله على ذنوبه ومخالفاته ، فيطيع ويعبد خوفاً من العذاب .

ب ـ وبعضهم يغلب عليه الرجاء لما أعدّ الله للصالحين من نعمة وكرامة ، فيعمل الصالحات طمعاً في الجنّة .

ج ـ وطائفة عبدت ربها لأنّه أهل للعبادة ، وهم مَن علموا أنّ الله يملكهم ويملك كلّ شيء فيهم وحولهم فابتغوا مرضاته .

وإلى هذا يشير الإمام عليّ عليه السلام : « **ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا رغبة في جنّتك ، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك** »[1] .

فظهرت في قلوبهم المحبّة الإلهيّة ، وعرفوا الأشياء كلّها آيات اصفات جلاله وجماله ، وليس لها من الأصالة إلّا أنّها مرآة تتجلّى بحسنها حسنه اللّامتناهي ، ويفقرها غناه المطلق ، بذلّتها عزّته وكبرياؤه ، وفانجذبت نفوسهم إلى ساحة تلك العظمة ، وغشيت قلوبهم محبّته التي أنستهم كلّ شيء حتّى نفوسهم ، فانمحت رسوم الأهواء عن باطنهم ، ولم يبق فيه إلّا الله عزّ اسمه . فكانت عندهم عبادة الخائفين والطامعين شركاً بالله ؛ لأنّهما لو حقّقا ما ابتغياه في عبادتهم من غير الله لعبدوه .

٣ ـ فالعابد خوفاً من العقاب يزهد في الدنيا يتجنّب المحرّمات وفعل الواجبات للنجاة من عذاب الآخرة ، والعابد طمعاً في الثواب يأتي بالعمل الصالح لنيل نعيم الآخرة ، والطريقان إنّما يدعوان إلى الإخلاص للدين لا لربّ الدين .

أمّا طريق المحبّة فإنّما تدعو إلى التطهير الكامل لقلب المحبّ من التعلّق بغير الله ، وما ينتسب إليه من دين أو نبيّ أو وليّ ، أو سائر ما يرجع إليه تعالى بوجه من الوجوه ، فيحبّ كلّ مَن وما يحبّه الله ، ويبغض مَن وما يبغض ، ويرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ، كما أنه يحبّ في الكون كلّ ما يشاهده فيه ؛ لأنّه جميعاً من آيات ربّه ، فلا يحزن لما يحزن النّاس منه ، ولا يلتذّ بما تلتذّ النفوس به ، ومقياسه في الحزن واللذة يختلف عن مقياس سائر النّاس ، فلا يرى في الكون إلّا ما يجري بإرادة خالقه ، فكلّه جميل وكلّه خير ؛ لأنّ ربّك ليس بظلّامٍ للعبيد . فتكون كلّ آياته سبحانه كاشفة عنه ، وليس حاجبة عنه ، فيكشف لهم حينئذٍ ما ستر عن غيرهم من الحقائق ، ويفيض عليهم علم اليقين ، بعد أن رفعت كلّ الحجب بينه وبينهم .

---

(١) بحار الأنوار : ١٨٦/٦٧ ، باب ٥٣ النيّة وشرائطها ومراتبها وكمالها ، الحديث ١ .

وهؤلاء هم المتوكّلون عليه ، المفوّضون أمورهم إليه ، الراضون بقضائه ، المسلّمون لأمره ، الذين استقرّت نفوسهم على الملكات الشريفة والأخلاق الكريمة الملائمة للتوحيد ، فهم مخلصون في أخلاقهم وعبادتهم .

٤ ـ وإذا تحقّق هذا الإخلاص من العبد كان من المخلصين ، الذين أخلصهم الله لحضرته ، وهداهم إلى صراط مستقيم ، وآتاهم من العلم ما لم يؤته غيرهم ، فكانوا به معصومين عن كلّ ذنب وزلل وخطأ ﴿ **سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[(١)] .

وهذا العلم يختلف في تأثيره عن سائر العلوم ، فإنّ سائرها قد لا يصرف عن السوء ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** ﴾[(٢)] ، وقوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾[(٣)] ، وقال : ﴿ **فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ** ﴾[(٤)] .

أمّا هذا العلم اليقين فهو يعصم صاحبه عن كلّ زلل يخالفه ، مع بقاء الاختيار الكامل والقدرة التكوينيّة على فعل الزلل ، كمن أيقن بالسمّ وبجسيم ضرره ، فإنّه يختار تركه ولا يتناوله إلّا مكرهاً عليه ، وإن كان قادراً على تناوله تكويناً .

ولا ينافي هذا ما ورد من أنّ الأنبياء والأئمّة : مسدّدون بروح القدس ، فإنّ نسبة روح القدس إليهم كنسبة الإيمان عندما يجنّب المؤمن عن الزلل ، وكنسبة الشيطان ـ في الجانب المعاكس ـ إلى الضلالة والغواية ، بما يحصل في ذهن المرء من أوهام تدفعه نحو الشرّ .

من هذا كلّه فالأخلاق التي هي أساس الفضائل وحرّاس النظام والقانون إنّما تتركّز

---

(١) سورة الصافّات : الآيتان ١٥٩ و ١٦٠ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٤ .

(٣) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .

(٤) سورة الجاثية : الآية ١٧ .

وتثمر إذا بنيت على التوحيد[١].

أمّا الأخبار التي حثّت على التخلّق بمكارم الأخلاق، ونصّت على بعض مصاديقها، فأروي لك منها:

١ ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[٢].

ففي هذا الحصر من الدلالة أنّ الغرض من بعثة النبيّ ﷺ وما عاناه في تبليغ ما بعث به إنّما هو لإتمام مكارم الأخلاق، وتركيزها في نفوس النّاس. ويفيد التعبير بالإتمام أنّ النّاس بفطرتهم قد هداهم الله إلى إدراك مكارم الأخلاق، كما أنّ الأنبياء السابقين قد بلّغوا من أُرسلوا إليهم بذلك، إلّا أنّ ما عليه النّاس حين بعثته ﷺ لم تتمّ لديهم مكارمها، كمّاً وكيفاً، فجاء ﷺ بشريعته الشاملة بما فيها من أحكام لإتمام ما كان ناقصاً.

٢ ـ وعنه ﷺ، قال: «**ثلاث خصال مَن كنّ فيه فقد حاز خصال الخير: مَن إذا قدر لم يتناول ما ليس هو له، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحقّ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل**»[٣].

٣ ـ وعنه ﷺ، قال: «**عليكم بمكارم الأخلاق، فإنّ الله عزّ وجلّ بعثني بها. وإنّ من مكارم الأخلاق أنْ يعفو الرجل عمّن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وأن يعود من لا يعوده**»[٤].

٤ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**ذلّلوا أخلاقكم بالمحاسن، وقودوها إلى**

---

(١) راجع: الميزان: ١١/١٥٨، تفسير سورة يوسف: الآية ٣٣، أبحاث حول التقوى الديني ودرجاته، بتصرّف.

(٢) مستدرك الوسائل: ١١/١٨٧، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق، الحديث ١٢٧٠١/١.

(٣) المصدر المتقدّم: ١٨٩، الحديث ١٢٧١٠/١٠.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ١٢٧١٥/١٥.

المكارم ، وعوّدوها الحلم ، واصبروا على الإيثار على أنفسكم فيما تحمدون عنه قليلاً من كثير ، ولا تداقّوا النّاس وزناً بوزن ، وعظّموا أقداركم بالتغافل عن الدنيّ من الأمور ، وامسكوا رمق الضعيف بالمعونة له بجاهكم ، وإن عجزتم عمّا رجا عندكم فلا تكونوا بحاثين عمّا غاب عنكم فيكثر عائبكم ، وتحفّظوا من الكذب ، فإنّه من أدقّ الأخلاق قدراً ، وهو نوع من الفحش وضرب من الدناءة ، وتكرّموا بالتعامي عن الاستقصاء»[١].

٥ ـ وعنه عليه السلام ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «**إنّ من مكارم الأخلاق : صدق الحديث ، وإعطاء السائل ، وصدق البأس ، وصلة الرحم ، وأداء الأمانة ، والتذمّم للجارّ ، والتذمّم للصاحب ، وإقراء الضيف**»[٢].

٦ ـ وعنه عليه السلام ، قال : «**محاسن الأخلاق وصْلة بين الله وبين عباده ، فيحبّ أحدكم أن يُمسك بخلق متّصل بالله**»[٣].

٧ ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام وقد سأله رجل عن مكارم الأخلاق ، فقال : «**العفو عمّن ظلمك ، وصلة من قطعك ، وإعطاء من حرمك ، وقول الحقّ ولو على نفسك**»[٤].

٨ ـ وعنه عليه السلام قال لجرّاح المدائني : «**ألا اُحدّثك بمكارم الأخلاق ؟ الصفح عن النّاس ، ومواساة الرجل آخاه في ماله ، وذكر الله كثيراً**»[٥].

٩ ـ وعنه عليه السلام ، قال : «**إنّا لنحبّ مَن كان عاقلاً فهماً فقيهاً حليماً مدارياً صبوراً صدوقاً وفيّاً . إنّ الله عزّ وجلّ خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق ، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك ، ومَن لم تكن فيه فليتضرّع إلى الله عزّ وجلّ وليسأله إيّاها**» (قال الراوي :

---

(١) مستدرك الوسائل : ١١/١٨٨ ، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق ، الحديث ٦/١٢٧٠٦

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/١٢٧٠٣.

(٣) المصدر المتقدّم : ١٩٢ ، الحديث ١٩/١٢٧١٩.

(٤) الوسائل : ٥/١٩٩ ، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق ، الحديث ٦/٢٠٢٧٢.

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/٢٠٢٧٣.

قلت : جعلت فداك ، وما هنّ ؟) ، قال عليه السلام : « **هنّ الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة والبرّ وصدق الحديث وأداء الأمانة** »[١] .

١٠ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **عليكم بمكارم الأخلاق ، فإنّ الله عزّ وجلّ يحبّها ، وإيّاكم ومذامّ الأفعال ، فإنّ الله عزّ وجلّ يبغضها** » ـ إلى أن قال : ـ « **وعليكم بحسن الخلق ، فإنّه يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم** »[٢] .

١١ ـ وقال عليه السلام : « **إنّ لله عزّ وجلّ وجوهاً خلقهم من خلقه وأرضه لقضاء حوائج إخوانهم ، يرون الحمد مجداً ، والله سبحانه يحبّ مكارم الأخلاق ، وكان فيما خاطب نبيّه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾**[٣] » . قال : « **السخاء وحسن الخلق** »[٤] .

١٢ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **خصّ الله رسوله صلى الله عليه وآله بمكارم الأخلاق ، فامتحنوا أنفسكم ، فإن كانت فيكم فاحمدوا الله وارغبوا إليه في الزيادة منها** » (فذكرها عشرة) : « **اليقين ، والقناعة ، والصبر ، والشكر ، والحلم ، وحسن الخُلق ، والسخاء ، والغيرة ، والشجاعة ، والمروءة** »[٥] .

١٣ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **المكارم عشر ، فإن استطعت أن تكون فيك فلتكن ، فإنّها تكون في الرجل ولا تكون في ولده ، وتكون في ولده ولا تكون في أبيه ، وتكون في العبد ولا تكون في الحرّ** » ، قيل : ما هنّ ؟ قال : « **صدق البأس (النّاس) ، وصدق اللسان ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وإقراء الضيف ، وإطعام السائل ، والمكافاة على الصنائع ، والتذمّم للجارّ ، والتذمّم للصاحب ، ورأسهنّ الحياء** »[٦] .

---

(١) الوسائل : ١٥/١٩٨ ، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق ، الحديث ١/٢٠٢٦٧ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٨/٢٠٢٧٤ .

(٣) سورة القلم : الآية ٤ .

(٤) الوسائل : ١٥/٢٠٠ ، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق ، الحديث ٩/٢٠٢٧٥ .

(٥) المصدر المتقدّم : ١٨٠ ، باب استحباب ملازمة الصفات الحميدة ، الحديث ١/٢٠٢٢٧ .

(٦) الكافي : ٢/٨٢ ، باب المكارم ، الحديث ١/١٥٥٣ .

١٤ ـ عن رسول الله ﷺ ، قال : « **الأخلاق منائح من الله عزّ وجلّ ، فإذا أحبّ عبداً منحه خُلقاً حسناً ، وإذا أبغض عبداً منحه خُلقاً سيّئاً** »[١] .

وبعد أن حصل لنا تصوّر ـ ولو إجمالي ـ عن معنى مكارم الأخلاق من خلال ما ورد في هذه الأخبار من مصاديقها ، سنتحدّث عن بعض هذه المصاديق ـ كلاًّ على حدة ـ ببيان معناه وبعض ما ورد فيه من الأخبار :

من مصاديق مكارم الأخلاق

١ ـ الورع

ومعناه في اللغة : التقوى والكفّ[٢] . وهو بصفته من مصاديق مكارم الأخلاق : صفة أو ملكة نفسيّة تبعث على تقوى الله بالكفّ عن محارمه ، فعن أبي عبدالله عليه السلام وقد سئل عن الورع ، قال : « **الذي يتورّع عن محارم الله عزّ وجلّ** »[٣] .

وكما تطلق المحارم على الرذائل التي نهى الله عنها ، تطلق أيضاً على ترك ما أوجبه من أفعال ؛ لاشتراك فعل ما نهى عنه وترك ما أوجبه في الخروج على طاعة الإنسان لربّه سبحانه ، ومنافاة هذا الخروج لصفة الإيمان .

فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّا لا نعدّ الرجل مؤمناً حتّى يكون لجميع أمرنا متّبعاً مريداً ، ألا وأنّ من اتّباع أمرنا وإرادته الورع ، فتزيّنوا به يرحمكم الله ، وكيدوا أعداءنا به ينعشكم الله** »[٤] .

ويبدو من بعض الأخبار أنّ معنى التقوى أعمّ من معنى الورع ، فعن أبي

---

(١) مستدرك الوسائل : ١١/١٩٣ ، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق ، الحديث ٢٠/١٢٧٢٠ .

(٢) القاموس المحيط : ٧٧٠ ، مادة « ورع » ، كلمة « الورع » .

(٣) الوسائل : ١٥/٢٤٣ ، باب وجوب الورع ، الحديث ٣/٢٠٣٩٣ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١/٢٠٣٩١ .

عبدالله عليه السلام ، قال : « **أُوصيك بتقوى الله ، والورع ، والاجتهاد ، واعلم أنّه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه** »[١] .

فعطفُ الورعِ على تقوى الله سبحانه ـ ما لم يكن عطف بيان ـ يدلّ على المغايرة ، وهو كذلك ، وسيتّضح لنا ما بينهما من فرق عندما نتحدّث عن التقوى ، ونتعرّف هناك على أن الورع يكون ـ غالباً ـ ناتجاً عن الخوف من العقاب على المخالفة ، أمّا التقوى فكما تكون كذلك ، تكون أيضاً حاصلة بالرغبة في الثواب ، وبالحبّ الإلهي ، ولذا فإنّ مناشئ التقوى متعدّدة ، ومنشأ الورع من جملة مناشئ التقوى ، وما مرّ اقتباسه من (تفسير الميزان) أيضاً مفيد لبيان الفرق بين الورع والتقوى[٢] .

وفي بيان فضيلة الورع وردت عدّة أخبار أروي منها :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **عليكم بالورع ، فإنّه لا ينال ما عند الله إلّا بالورع** »[٣] .

٢ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **اتّقوا الله وصونوا دينكم بالورع** »[٤] .

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **قال الله عزّ وجلّ : ابن آدم ، اجتنب ما حرّمت عليك تكن من أورع الناس** » .

وقال عليه السلام : « **إنّ أشدّ العبادة الورع** »[٥] .

٤ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **ليس من شيعتنا مَن قال بلسانه وخالفنا في أعمالنا وآثارنا ، ولكنّ شيعتنا مَن وافقنا بلسانه وقلبه ، واتّبع آثارنا ، وعمل بأعمالنا ، أُولئك شيعتنا** »[٦] .

---

(١) الوسائل : ٢٤٣/١٥ ، باب وجوب الورع ، الحديث ٢/٢٠٣٩٢ .

(٢) راجع الصفحة ٢٩٢ إلى الصفحة ٢٩٦ من هذا الكتاب .

(٣) الكافي : ١٠٣/٢ ، باب الورع ، الحديث ٣/١٦٢٣ . الوسائل : ٢٤٤/١٥ ، باب وجوب الورع ، الحديث ٤/٢٠٣٩٤ .

(٤) الوسائل : ٢٤٤/١٥ ، باب وجوب الورع ، الحديث ٧/٢٠٣٩٧ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٩/٢٠٣٩٩ ، والحديث ٦/٢٠٣٩٦ .

(٦) المصدر المتقدّم : ٢٤٧ ، الحديث ١٩/٢٠٤٠٩ .

٥ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ليس منّا ـ ولا كرامة ـ مَن كان في مصر فيه مأة ألف أو يزيدون ، وكان في ذلك المصر أحد أورع منه** »(١) .

٦ ـ وقال عليه السلام : « **كونوا دعاة للنّاس بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير ، فإنّ ذلك داعية** »(٢) .

٧ ـ وعن أبي الحسن الأوّل عليه السلام ، قال : « **ليس من شيعتنا مَن لا تتحدّث المخدّرات بورعه في خدورهنّ ، وليس من أوليائنا مَن هو في قرية فيها عشرة آلاف رجل ، فيهم خلق الله أورع منه** »(٣) .

٨ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **لا يجمع الله لمؤمن الورع والزهد في الدنيا إلّا رجوت له الجنّة** »(٤) .

٩ ـ وعنه عليه السلام قال لسماعة بن مهران : « **والله ، لا يدخل النّار منكم أحد ، فتنافسوا في الدرجات ، واكمدوا عدوّكم بالورع** »(٥) .

١٠ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **أما والله إنّكم لعلى دين الله وملائكته ، فاعينونا على ذلك بورع واجتهاد ، عليكم بالصلاة والعبادة ، عليكم بالورع** »(٦) .

١١ ـ وقال عليه السلام : « **عليكم بالورع ، فإنّه الدين الذي نلازمه ، وندين الله تعالى به ،**

---

(١) الوسائل : ٢٤٥/١٥ ، باب وجوب الورع ، الحديث ١١/٢٠٤٠١ . الكافي : ١٠٤/٢ ، باب الورع ، الحديث ١٠/١٦٣٠ .

(٢) الوسائل : ٢٤٦/١٥ ، باب وجوب الورع ، الحديث ١٣/٢٠٤٠٣ . الكافي : ١٠٥/٢ ، باب الورع ، الحديث ١٤/١٦٣٤ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٤/٢٠٤٠٤ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦/٢٠٤٠٦ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٢/٢٠٤١٢ .

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠/٢٠٤١٠ .

ونريده ممّن يوالينا ، لا تتعبونا بالشفاعة »[١].

٢ ـ العفّة

وهي لغة : الكفّ عمّا لا يحلّ ولا يجمل[٢] ، فهي صفة أو ملكة في النفس تؤثر ترك المحرّم والمشين .

وعليه فربّ تارك لهما من غير وجود هذه الملكة فيه ، فلا يوصف بالعفّة ، كمن كان عاجزاً عن فعل المحرّم أو المشين .

وهي بهذا المعنى شاملة للكفّ عن كلّ محرّم مشين ، إلّا أنّ الأخبار الواردة فيها أكثر ما ركّزت على عفّة البطن والفرج . كما أنّ غير الأخبار أكثر ما تستعمل كلمة العفّة فيهما أيضاً ، بحيث إذا أُطلقت كلمة عفّة أو مشتقّاتها ينصرف الذهن إلى هاتين العفّتين أو إحداهما ، دون مصاديقها الأخرى ، كالتعفّف عن خيانة الأمانة ونقض العهد وسوء الخُلق والجبن وأمثالها ممّا لا يحلّ ولا يجمل .

ولعلّ منشأ هذا الانصراف هو أنّ الابتلاء بالبطن والفرج هو من أكثر ما ابتُلي به الإنسان من الشهوات الأُخرى ، فلم يخْل إنسان من الابتلاء بهما ، وقد لا يُبتلى بغيرهما طول حياته ، بل هما مصدران رئيسيّان لكثير من الأفعال المنافية للعفّة ، إلى الحدّ الذي بنى بعض الفلاسفة وعلماء النفس فلسفة جميع التصرّفات البشريّة على الجنس ، أو على الحاجة إلى الغذاء .

ومهما يكن فسترى أنّ الأخبار في باب وجوب العفّة أكثرها في عفّة البطن والفرج ، ولعلّ المطلق منها يراد به هذا المقيّد ، ومن هذه الأخبار :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : **« أكثر ما تلج به أُمّتي النّار الأجوفان : البطن والفرج »**[٣].

---

(١) الوسائل : ٢٤٨/١٥ ، باب وجوب الورع ، الحديث ٢١/٢٠٤١١ .

(٢) القاموس المحيط : ٨٣٨ ، مادة « عفف » .

(٣) الكافي : ١٠٦/٢ ، باب العفّة ، الحديث ٥/١٦٤٠ . الوسائل : ٢٤٩/١٥ ، باب وجوب ⇦

٢ ـ وعنه ﷺ ، قال : « **مَن وقي شرّ ثلاث فقد وقي الشرّ كلّه : لقلقه ، وقبقبه ، وذبذبه ؛ فلقلقته : لسانه ، وقبقبته : بطنه ، وذبذبته : فرجه** »(١) .

٣ ـ وعنه ﷺ ، قال : « **أحبّ العفاف إلى الله عفاف البطن والفرج** »(٢) .

وعنه ﷺ : « **مَن ملك ما بين فخذيه وبين لحييه دخل الجنّة** »(٣) .

٤ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **عليك بالعفاف ، فإنّه أفضل شيم الأشراف** » .

وقال عليه السلام : « **عليكم بلزوم العفّة والأمانة ، فإنّهما أشرف ما أسررتم ، وأحسن ما أعلنتم ، وأفضل ما ادّخرتم** »(٤) .

وقال عليه السلام : « **العفّة تضعف الشهوة** » .

٥ ـ وقال عليه السلام : « **أفضل العبادة عفّة بطن وفرج** »(٥) .

وفي خبر آخر عنه عليه السلام : « **أفضل العبادة العفاف** »(٦) .

٦ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **ما عبادة أفضل عند الله من عفّة بطن وفرج** » .

وقال عليه السلام : « **أفضل العبادة عفّة البطن والفرج** »(٧) .

٧ ـ وقال عليه السلام : « **ما عُبد الله بشيء أفضل من عفّة بطن وفرج** »(٨) .

٨ ـ وجاءه رجل وقال له : إنّي ضعيف العمل ، قليل الصيام ، ولكنّي أرجو أن

⇦ العفّة ، الحديث ٤/٢٠٤١٦ .

(١) مستدرك الوسائل : ٢٧٥/١١ ، باب وجوب العفّة ، الحديث ٤/١٢٩٨٨ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٤/١٢٩٩٨ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٠/١٢٩٤٤ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/١٢٩٨٧ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٦/١٢٩٩٠ .

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٥/١٢٩٨٩ .

(٧) الوسائل : ٢٤٩/١٥ ، باب وجوب العفّة ، الحديث ١/٢٠٤١٣ ، والحديث ٢/٢٠٤١٤ .

(٨) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/٢٠٤١٥ .

لا آكل إلّا حلالاً ؟ فقال له عليه السلام : «**أي الاجتهاد أفضل من عفّة بطن وفرج**»[١].

٩ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «**ثلاث أخافهنّ بعدي على أُمّتي : الضلالة بعد المعرفة ، ومضلّات الفتن ، وشهوة البطن والفرج**»[٢].

١٠ ـ وعنه عليه السلام ، قال : «**مَن عفّ بطنه وفرجه كان في الجنّة ملكاً محبوراً**»[٣].

١١ ـ وعنه عليه السلام ، قال : «**إنّما شيعة جعفر مَن عَفّ بطنه وفرجه ، واشتدّ جهاده ، وعمل لخالقه ، ورجا ثوابه وخاف عقابه ، فإذا رأيت أُولئك فأُولئك شيعة جعفر**»[٤].

ويحسن الالتفات هاهنا إلى المقصود بعفّة البطن ؛ لأنّ عفّة الفرج لا تخفى على أحد باعتبارها محصورة بالزنا واللواط والعادة السرية والمساحقة بالنسبة للنساء .

أمّا عفّة البطن فهي وإن كان معناها الكفّ عن أكل الحرام ، إلّا أنّ أكل الحرام له مصاديق كثيرة يحسن التنبيه عليها :

فمنها : أكل النجس ، فمن لا يعرف النجاسات أو كيفيّة التطهير منها قد يقع في أكل الحرام .

ومنها : أكل الميتة ، وهي ما لم يذكّ تذكية إسلاميّة .

ومنها : أكل أو شرب ما ثبت تحريمه ، كلحم الحيوانات المحرّمة ، وشرب المائعات المحرّمة .

ومنها : أكل المال المغصوب ، مثل مال اليتيم والربا والمال الذي لم تدفع حقوقه الشرعيّة ، والمال المكتسب بغير وجه شرعي ، أي ما لم تكن المعاملة عليه وفق الموازين الشرعيّة ، وأمثال هذه الأُمور التي قلّ أن يسلم منها أحد ، ولا سيّما

---

(١) الوسائل : ١٥/٢٥٠ ، باب وجوب العفّة ، الحديث ٦/٢٠٤١٨ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٥/٢٠٤١٧ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١١/٢٠٤٢٣ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٣/٢٠٤٢٥ .

في الوقت الحاضر الذي قلّ فيه التفقّه في الدين أو الالتزام بما هو معروف من الفقه.

ولعلّ هذا هو الذي دعا المعصومين عليهم السلام إلى التركيز على عفّة البطن.

٣ ـ الحلـم

الحلم ـ بكسر الحاء ـ: الأناة والعقل، وبضمّها: الرؤيا [١]. والمقصود هو المعنى الأوّل.

والمقصود بالأناة ما يقابل العجلة والإقدام على الأمور بأوّل خاطر وبدون رويّة بباعث الغضب وأمثاله، وأمّا العجلة في الأمور التي وضع صلاحها فهي من المسارعة في الخير، والمسابقة فيها ممّا حثّ عليه القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ** ﴾[٢]. وقال عزّ من قائل: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾[٣]، ووبّخ تعالى قوماً بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾[٤]. وبّخهم لإبطائهم، ولعلّ اقتران العقل بالأناة في معنى الحلم يفيد النظر في الأمور قبل الإقدام عليها والاحتياط من سوء عواقبها، وكثيراً ما يكون الاحتياط في الإسراع إلى الخير بعد معرفته.

أمّا الاحتياط بمعنى التردّد وعدم الفعل دون نظر وحسم، فالاحتياط المعقول يقتضي تركه، وهذا هو المقصود من قال: الاحتياط في ترك الاحتياط[٥].

---

(١) القاموس المحيط: ١٠٩٦، مادة «حلم».

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٨. سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٨.

(٥) هذه المقولة منسوبة إلى الشيخ الآخوند عندما طلب إليه البعض التريّث والاحتياط في الخروج بعلماء الدين في النجف الأشرف إلى حرب الإنجليز في الشعيبة، فأجاب: ⇦

ويطلق الحلم على ما يقابل الغضب، ففي قصّة ذي الكفل: إنّ اليسع قال ذات يوم لقومه... مَن تكفّل لي بأن يظلّ نهاره صائماً ويبيت ليله قائماً، ولا يغضب على النّاس إذا ألحّوا عليه مخاصمين، ويحلم عنهم إذا ضجروه محاكمين، حتّى أُوَلّيه عليهم...»[(١)]، فقابل الغضب بالحلم.

وفي كثير من حكايات النّاس عن المشتهرين بالحلم يفهم منها أنّهم يكظمون غيضهم ويعفون عن المسيئ.

وممّا يدلّ على مقابلة الحلم للغضب ما روي عن عليّ بن الحسين عليهما السلام، قال: «**علامات المؤمن خمس**»، (فقال طاووس اليماني:) وما هنّ يابن رسول الله؟ قال: «**الورع في الخلوة، والصدقة في القلّة، والصبر عند المصيبة، والحلم عند الغضب، والصدق عند الخوف**»[(٢)].

ولا يبعد أن يكون الحلم ـ عندما يستعمل مقابل الغضب ـ راجعاً إلى معناه المقابل للأناة والعقل؛ لأنّ الغضب يُفقد الإنسان تفكيره في الأُمور ممّا يدفعه للتعجيل بما يخطر في ذهنه من خواطر دون رويّة[(٣)].

والحلم بأي معنى فهمته هو من الصفات النفسيّة التي نصّت الأخبار على مدحها، بل مدح الله سبحانه بها نبيّه إبراهيم عليه السلام؛ إذ قال: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾[(٥)].

⇦ «إنّ الاحتياط فيما آراه هو الإسراع في الخروج لحربهم، وليس الاحتياط بالتردّد في الخروج بعد وضوح ضررهم على الأُمّة الإسلاميّة».

(١) راجع بحار الأنوار: ١٣/٤٠٥، باب ١٧: قصص ذي الكفل عليه السلام، ولكن بتصرّف.

(٢) الخصال: ١/٢٦٩، باب علامات المؤمن خمس، الحديث ٤.

(٣) راجع مستدرك الوسائل: ١١/٢٩١، باب استحباب الحلم، الحديث ١٣٠٥٦/١٦.

(٤) سورة هود: الآية ٧٥.

(٥) سورة التوبة: الآية ١١٤.

والحليم من أسمائه الحسنى جلّ اسمه ، وقد ورد في القرآن الكريم وصفه تعالى بالحلم مقترناً بالغنى وبالعلم وبالشكر وبالمغفرة[(١)] .

غير أنّ معناه صفة لله تعالى غير معناه صفة للإنسان ، ولكنّه تعالى يكلّم النّاس على قدر عقولهم ، فتأمّل .

والأخبار بمدح الحلم متواترة المعنى ، أذكر منها :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **لا يكمل المؤمن في إيمانه حتّى تكون فيه ثلاث خصال : حلم يردعه عن الجهل ، وورع يحجزه عن المعاصي ، وكرم يحسن به صحبته** »[(٢)] .

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **مرارة الحلم أعذب من مرارة الانتقام** »[(٣)] .

٣ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **إنّ الرجل ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم ، وأنّ الرجل ليكتب جبّاراً وما يملك إلّا أهل بيته** »[(٤)] .

٤ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **احتمل ممّن هو أكبر منك ، وممّن هو أصغر منك ، وممّن هو خير منك ، وممّن هو شرّ ، وممّن هو فوقك ، وممّن هو دونك ، فإن كنت كذلك باهى الله بك الملائكة** »[(٥)] .

٥ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **ما أعزّ الله بجهل قطّ ، ولا أذلّ بحلم قطّ** »[(٦)] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٥ و ٢٦٣ . سورة الحجّ : الآية ٥٩ . سورة التغابن : الآية ١٧ .

(٢) مستدرك الوسائل : ٢٨٨/١١ ، باب استحباب الحلم ، الحديث ٦/١٣٠٤٦ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٣/١٣٠٥٣ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٨/١٣٠٥٨ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠/١٣٠٦٠ .

(٦) الوسائل : ٢٦٦/١٥ ، باب استحباب الحلم ، الحديث ٦/٢٠٤٦٨ . الكافي : ١٤١/٢ ، باب الحلم ، الحديث ٥/١٨٠٨ .

٦ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **أوّل عوض الحليم من حلمه : أنّ النّاس أنصاره على الجاهل** »[1] .

٧ ـ وفي وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام ، قال : « **يا عليّ ، ألا أخبركم بأشبهكم بي خلقاً ؟** » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « **أحسنكم خُلقاً ، وأعظمكم حلماً ، وأبَرّكم بقرابته ، وأشدّكم في نفسه إنصافاً** »[2] .

٨ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفّف** »[3] .

٩ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **ما جمع شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم** »[4] .

١٠ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول : « **إنّه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه** »[5] .

١١ ـ وروى أنّ أبا عبدالله عليه السلام بعث غلاماً له في حاجته فأبطأ ، فخرج على أثره لمّا أبطأه ، فوجده نائماً ، فجلس عند رأسه يروّحه حتّى انتبه ، فقال له أبو عبدالله عليه السلام : « **يا فلان والله ما ذلك لك ، تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار** »[6] .

١٢ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ الحييَّ الحليم** »[7] .

١٣ ـ وعن الصادق عليه السلام ، قال : « **الحلم سراج الله يستضيئ به صاحبه إلى جواره ، ولا يكون حليماً إلّا المؤيّد بأنوار المعرفة والتوحيد ، والحلم يدور على خمسة أوجه :**

---

(١) الوسائل : ٢٦٨/١٥ ، باب استحباب الحلم ، الحديث ١٣/٢٠٤٧٥ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٩/٢٠٤٧١ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/٢٠٤٦٥ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١١/٢٠٤٧٣ و الحديث ١٢/٢٠٤٧٤ .

(٥) الكافي : ١٤١/٢ ، باب الحلم ، الحديث ٣/١٨٠٦ .

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/١٨١٠ .

(٧) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/١٨٠٧ . الوسائل : ٢٦٦/١٥ ، باب استحباب الحلم ، الحديث ٥/٢٠٤٦٧ .

أن يكون عزيزاً فيذلّ ، أو يكون صادقاً فيتّهم ، أو يدعو إلى الحقّ فيستخفّ به ، أو أن يؤذى بلا جرم ، أو أن يطلب بالحقّ فيخالفوه فيه . فإذا آتيت كلّاً منها حقّه فقد أصبت . وقابل السفيه بالإعراض عنه وترك الجواب تكن النّاس أنصارك ؛ لأنّ من حارب السفيه فكأنّه قد وضع الحطب على النّار » .

وقال النبيّ ﷺ : « **مثل المؤمن كمثل الأرض منافعهم منها وأذاهم عليها ، ومَن لا يصبر على جفاء الخلق لا يصل إلى رضى الله تعالى ؛ لأنّ رضى الله تعالى مشوب بجفاء الخلق . . .** » .

وقال رسول الله ﷺ : « **بعثت للحلم مركزاً ، وللعلم معدناً ، وللصبر مسكناً ، صدق رسول الله ﷺ ، وحقيقة الحلم أنْ تعفو عمّن أساء إليك وخالفك ، وأنت القادر على الانتقام منه** »[١] .

١٤ ـ وعن عنوان البصري ، قال : قلت : يا أبا عبدالله ، أوصني ؟ فقال : أُوصيك بتسعة أشياء ، فإنّها وصيّتي لمريدي الطريق إلى الله ، والله أسأل أن يوفّقك لاستعماله : ثلاثة منها في رياضة النفس ، وثلاثة منها في الحلم ، وثلاثة منها في العلم ، فاحفظها وإيّاك والتهاون بها » .

قال عنوان : ففرّغت قلبي له ـ إلى أن قال : ـ قال عليه السلام : « **وأمّا اللواتي في الحلم : فمن قال لك : إن قلت واحدة سمعت عشراً ، فقل له : إن قلت عشراً لم تسمع واحدة ، ومن شتمك فقل : إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي ، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك ، ومَن وعدك بالخنا فعده بالنصيحة والرعاء** »[٢] .

وعن الرضا عليه السلام ، قال : « **اتّقوا الله وعليكم بالصمت والصبر والحلم ، فإنّه لا يكون**

---

(١) مستدرك الوسائل : ٢٨٩/١١ ، باب استحباب الحلم ، الحديث ١٢/١٣٠٥٢ ، وقد ورد : « وللعمل معدناً » ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٤/١٣٠٥٤ .

الرجل عابداً حتّى يكون حليماً ، وقد لا يكون عاقلاً حتّى يكون حليماً »[١].

٤ ـ الرفق

الرفق ـ بكسر الراء وسكون الفاء ـ له معان ، أقصد منها هاهنا اللطف ، وهو ضدّ الخُرق ـ بضمّ الخاء ـ وهو أن لا يحسن الرجل العمل أو التصرّف في الأُمور ، فالرفق إذن هو حسن العمل أو التصرّف في الأُمور[٢].

وقد وردت أخبار في مدحه ممّا يدلّ على استحبابه شرعاً ، ومن هذه الأخبار :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **الرفق نصف العيش** »[٣].

وقال صلى الله عليه وآله : « **إذا أراد الله بأهل بيت خيراً فقّههم في الدين ، ورزقهم الرفق في معائشهم** »[٤].

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **إنّ الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا رفق له** »[٥].

وقال صلى الله عليه وآله : « **ما وضع الرفق على شيء إلّا زانه ، ولا وضع الخرق على شيء إلّا شانه ، فمن أُعطي الرفق أُعطي خير الدنيا والآخرة ، ومن حرمه حرم الدنيا والآخرة** »[٦].

٣ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال: « **إنّ في الرفق الزيادة والبركة ، ومن يحرم الرفق يحرم الخير** »[٧].

---

(١) مستدرك الوسائل : ٢٨٨/١١ ، باب استحباب الحلم ، الحديث ١٣٠٤٤/٤.

(٢) القاموس المحيط : ٨٨٧ ، مادة « رفق » ، لكن بتصرّف .

(٣) الكافي : ١٤٩/٢ ، باب الرفق ، الحديث ١١/١٨٥٠. الوسائل : ٢٧٠/١٥ ، باب استحباب الرفق ، الحديث ٧/٢٠٤٨٣.

(٤) مستدرك الوسائل : ٣٩٢/٨ ، باب استحباب إجلال ذي الشيبة المؤمن ، الحديث ٥/٩٧٧٠ .

(٥) مستدرك الوسائل : ٢٩٢/٨ ، باب استحباب الرفق في الأُمور ، الحديث ٣/١٣٠٦٣.

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/١٣٠٦٤.

(٧) الكافي : ١٤٨/٢ ، باب الرفق ، الحديث ٧/١٨٤٦. الوسائل : ٢٧١/١٥ ، باب استحباب الرفق في الأُمور ، الحديث ١٠/٢٠٤٨٦ .

وقال ﷺ : « **إنّ الله رفيق يحبّ الرفق ويعين عليه** »[١].

وقال ﷺ : « **إنّ الله رفيق يعطي الثواب ، ويحبّ كلّ رفيق ، ويعطي على كلّ الرفق ما لا يعطي على العنف** »[٢].

وقال ﷺ : « **الرفق يُمْنٌ ، والخرق شؤم** »[٣].

٤ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال لولده الحسن عليه السلام : « **يا بنيّ ، رأس العلم الرفق ، وآفته الخرق** »[٤].

٥ ـ وعن عليّ بن الحسين عليه السلام ، قال : « **كان آخر ما أوصى به الخضر موسى بن عمران عليه السلام أنّه قال : لا تعيّرن أحداً بذنب ، فإنّ أحبّ الأمور إلى الله ثلاثة : القصد في الجِدَة ، والعفو في المقدرة ، والرفق بعباد الله ، وما أُرفق أحدٌ بأحد في الدنيا إلّا رفق الله به يوم القيامة** »[٥].

٦ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **من قسم له الرفق قسم له الإيمان** ».

« **إنّ لكلّ شيء قفلاً ، وقفل الإيمان الرفق** »[٦].

وقال عليه السلام : « **مَن قسم له الخرق حجب عنه الإيمان** ».

وقال : قال رسول الله ﷺ : « **لو كان الخرق خلقاً يرى ما كان في شيء من خلق الله أقبح منه** »[٧].

---

(١) الوسائل : ١٥/٢٧١ ، باب استحباب الرفق في الأُمور ، الحديث ٢٠٤٨٩/١٣.

(٢) مستدرك الوسائل : ١١/٢٩٣ ، باب استحباب الرفق في الأُمور ، الحديث ١٣٠٦٦/٦.

(٣) الكافي : ٢/١٤٨ ، باب الرفق ، الحديث ١٨٤٣/٤.

(٤) مستدرك الوسائل : ١١/٢٩٤ ، باب استحباب الرفق في الأُمور ، الحديث ١٣٠٧١/١١.

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ١٣٠٧٢/١٢.

(٦) الكافي : ٢/١٤٧ ، باب الرفق ، الحديث ١٨٤٠/١ والحديث ١٨٤١/٢.

(٧) الوسائل : ١٦/٢٧ ، باب كراهة الخرق ، الحديث ٢٠٨٧٤/٢.

٧ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **مَن كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من النّاس** »[(١)].

وقال عليه‌السلام : « **أيّما أهل بيت أُعطوا حظّهم من الرفق فقد وسّع الله عليهم في الرزق ، والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال ، والرفق لا يعجز عنه شيء ، والتبذير لا يبقى معه شيء ، إنّ الله عزّ وجلّ رفيق يحبّ الرفيق** » . وقال : « **ما زوي الرفق عن أهل بيت إلّا زوي عنهم الخير** » ، وقال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **ما اصطحب اثنان إلّا كان أعظمهما أجراً ، وأحبّهما إلى الله عزّ وجلّ أرفقهما بصاحبه** »[(٢)].

٥ ـ الصبر

وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب[(٣)]. وهو ضدّ الجزع[(٤)]، وله مصاديق عديدة . ولكلّ مصداق منها ضدّه ، فالصبر في الحرب من الشجاعة ، وضدّه الجبن ، والصبر في كظم الغيظ حلم ، وضدّه الغضب ، والصبر على الطاعات عبادة ، وضدّه الفسق ، والصبر عن الشهوات عفّة ، وضدّه الشره ، والصبر عن فضول العيش زهد ، وضدّه الحرص ، وهكذا يكون الصبر رأس كثير من الفضائل ، وتدخل فيه كثير من شعب الإيمان ، بل هو الإيمان ، كما في الحديث عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله [(٥)].

ولذا وردت في الحثّ عليه وفي مدح المتّصفين به حوالي مئة آية في القرآن الكريم[(٦)]. عدا ما ورد في مصاديقه بغير مادة صَبَرَ ومشتقّاتها .

---

(١) الكافي : ٢/١٥٠ ، باب الرفق ، الحديث ١٨٥٥/١٦.

(٢) المصدر المتقدّم : الأحاديث ١٨٤٨/٩ ، ١٨٤٧/٨ ، ١٨٥٤/١٥.

(٣) جامع السعادات : ٣/٢٨١ ، فصل الصبر.

(٤) القاموس المحيط : ٤٢١ ، مادة « صَبَر ».

(٥) الوسائل : ١٥/٢٦٣ ، باب استحباب الصبر في جميع الأُمور ، الحديث ٢٠٤٥٤/١ ، حيث قال في حديث طويل : « **الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد** ».

(٦) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : كلمة الصبر ومشتقّاتها.

والصبر الممدوح في الكتاب والسنّة هو الصبر على الحقّ بكلّ ما للحقّ من مصاديق فعلاً وقولاً ، أمّا الصبر عن الحقّ بأن يصبر المرء على الباطل ويتحمّل المشاقّ في سبيله ، فهو وإن كان قوّة في النفس ، إلّا أنّها قوّة تدفعها في الهاوية ، والبعد عن الله سبحانه ، كما دفعت إبليس وأتباعه .

وفيما يأتي أذكر من أخبار المعصومين عليهم السلام ما ورد في الصبر على الحقّ ، وما يترتّب عليه من آثار :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **إن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر ، فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، واعلم أنّ النصر مع الصبر ، وأنّ الفرج مع الكرب ، ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾**[١] »[٢] .

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **سيأتي على النّاس زمان لا ينال فيه الملك إلّا بالقتل ... فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبّة ، وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ ، أتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممّن صدّق بي** »[٣] .

٣ ـ وعنه صلى الله عليه وآله فيما رواه ابن مسعود من حديث قال فيه : قلنا : يا رسول الله ، فمن الصابرون ؟ قال : « **الذين يصبرون على طاعة الله وعن معصيته ، الذين كسبوا طيّباً ، وأنفقوا قصداً ، وقدّموا فضلاً ، فأفلحوا وانجحوا .**

يابن مسعود ، عليهم الخشوع ، والوقاء ، والسكينة ، والتفكّر ، واللين ، والعدل ، والتعليم ، والاعتبار ، والتدبّر ، والتقوى ، والإحسان ، والتحرّج ، والحبّ في الله ، والبغض في الله ، وأداء الأمانة ، والعدل ، وإقامة الشهادة ، ومعاونة أهل الحقّ ، والبغية

---

(١) سورة الإنشراح : الآيتان ٥ و ٦ .

(٢) الفقيه : ٢٧٤/٤ ، باب النوادر ، الحديث ٧٦ .

(٣) الوسائل : ٢٦٣/١٥ ، باب استحباب الصبر في جميع الأمور ، الحديث ٢٠٤٥٥/٢ .

على المسيئ، والعفو لمن ظلم.

يابن مسعود، إذا ابتلوا صبروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا عاهدوا وفوا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أحسنوا استبشروا، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾(١)»(٢).

٤ ـ وعنه صلى الله عليه وآله، قال: «**في الصبر على ما نكره خير كثير**»(٣).

وقال صلى الله عليه وآله: «**ما تجرّع عبد قطّ جرعتين أحبّ إلى الله: من جرعة غيض ردّها بحلم، وجرعة مصيبة محزّنة موجعة ردّها عبد بحسن عزاء وصبر**»(٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس انهدم الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له**»(٥).

٥ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال في وصيّته لمحمّد بن الحنفيّة: «**إلق عنك واردات الهموم بعزائم الصبر، عوّد نفسك الصبر فنعم الخُلق الصبر، واحملها على ما أصابك من أهوال الدنيا وهمومها**»(٦).

٦ ـ وقال عليه السلام: «**لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان**»(٧).

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٢) مستدرك الوسائل: ٢٦١/١١، باب وجوب الصبر، الحديث ٩/١٢٩٤٠. مكارم الأخلاق: ٤٣٥، الفصل الرابع في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لابن مسعود.

(٣) ميزان الحكمة: ٢٥٧/٥، باب الصبر، الحديث ١٠٠٢٣.

(٤) مستدرك الوسائل: ٤٣٠/٢، باب استحباب الصبر على البلاء، الحديث ٣٨/٢٣٧٥.

(٥) مستدرك الوسائل: ٤٠٢/٢، باب استحباب احتساب موت الأولاد والصبر عليه، الحديث ٤٤/٢٣٠٥.

(٦) الوسائل: ٢٦٣/١٥، باب استحباب الصبر في جميع الأُمور، الحديث ٣/٢٠٤٥٦.

(٧) المصدر المتقدّم: ٤٣٠، الحديث ٦/٢٠٤٥٩.

وقال : « **مَن لم ينجه الصبر أهلكه الجزع** »[(١)].

وقال : « **الصبر يناضل الحدثان ، والجزع من أعوان الزمان** »[(٢)].

وقال عليه السلام : « **الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل ، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرّم الله عليك** »[(٣)].

وقال عليه السلام : « **إنّا وجدنا الصبر على طاعة الله أيسر من الصبر على عذابه** »[(٤)].

وقال عليه السلام : « **الصبر عن الشهوة عفّة ، وعن الغضب نجدة ، وعن المعصية ورع** »[(٥)].

٧ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّي لأصبر من غلامي هذا ومن أهلي على ما هو أمرّ من الحنظل ، إنّه من صبر نال بصبره درجة الصائم القائم ، ودرجة الشهيد الذي قد ضرب بسيفه قدّام محمّد صلى الله عليه وآله** »[(٦)].

٨ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **كم من صبر ساعة قد أورثت فرحاً طويلاً ، وكم من لذّة ساعة قد أورثتك حزناً طويلاً** »[(٧)].

٩ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **يا حفص ، إنّ من صبر صبر قليلاً ، وإنْ من جزع جزع قليلاً** » ، ثمّ قال : « **عليك بالصبر في جميع أُمورك ، فإنّ الله عزّ وجلّ بعث محمّداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق فقال : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾**[(٨)] ، وقال : **﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ**

---

(١) الوسائل : ١٥/٢٦٤ ، باب استحباب الصبر في جميع الأُمور ، الحديث ٢٠٤٦٠/٧.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٠٤٦١/٨.

(٣) المصدر المتقدّم : ٢٣٧ ، باب وجوب الصبر على طاعة الله ، الحديث ٢٠٣٦٩/٢.

(٤) مستدرك الوسائل : ١١/٢٦١ ، باب وجوب الصبر على طاعة الله ، الحديث ١٢٩٣٨/٧.

(٥) المصدر المتقدّم : ٢٦٣ ، الحديث ١٢٩٤٥/١٤.

(٦) ثواب الأعمال / الصدوق : ١٩٨ ، باب ثواب الاسترجاع عند المصيبة.

(٧) مستدرك الوسائل : ١١/٢٦٣ ، باب وجوب الصبر على طاعة الله ، الحديث ١٢٩٤٢/١١.

(٨) سورة المزمّل : الآيتان ١٠ و ١١.

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1] ».

فصبر حتّى نالوه بالعظائم ورموه بها فضاق صدره ، فأنزل الله عليه : **﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾**[2].

ثمّ كذّبوه ورموه ، فحزن لذلك ، فأنزل الله : **﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾**[3].

فالزم النبيّ ﷺ نفسه الصبر ، فتعدّوا ، فذكروا الله تبارك وتعالى فكذّبوه ، فقال : قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ، ولا صبر لي على ذكر إلهي ، فأنزل الله عزّ وجلّ : **﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾**[4] »[5].

فصبر في جميع أحواله ، ثمّ بشّر في عترته بالأئمّة عليهم السلام ، ووصفوا بالصبر ، فقال جلّ ثناؤه : **﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾**[6].

فعند ذلك قال النبيّ ﷺ : « **الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد** » ، فشكر الله ذلك ، فأنزل الله : **﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا**

---

(١) سورة فصّلت : الآيتان ٣٤ و ٣٥.

(٢) سورة الحجر : الآيتان ٩٧ و ٩٨.

(٣) سورة الأنعام : الآية ٣٣ و ٣٤.

(٤) سورة طه : الآية ١٣٠. سورة ق : الآية ٣٩. **﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾** سورة المزمّل : الآية ١٠. **﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾** سورة ص : الآية ١٦.

(٥) الوسائل : ٢٦١/١٥ ، باب استحباب الصبر في جميع الأمور ، الحديث ١/٢٠٤٥٤.

(٦) سورة السجدة : الآية ٢٤.

مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[١] .

فقال : إنّه بشرى وانتقام ، فأباح الله له قتال المشركين ، فأنزل الله : ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾[٢] ، ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾[٣] ، ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾[٤] ، فقتلهم الله على يدي رسول الله ﷺ وأحبّائه ، وجعل له ثواب صبره مع ما ادّخره له في الآخرة .

فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتّى يقرّ الله له عينه في أعدائه مع ما يدّخر له في الآخرة[٥] .

١٠ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **اصبروا على الدنيا ، فإنّما هي ساعة ، فما مضى منه لا تجد له ألماً ولا سروراً ، وما لم يجئ فلا تدري ما هو ، وإنّما هي ساعتك التي أنت فيها ، فاصبر فيها على طاعة الله ، واصبر فيها عن معصية الله** »[٦] .

١١ ـ وعن الرضا عليه السلام ، قال : « **إنّ الصبر على البلاء حسن جميل ، وأفضل منه عن المحارم** »[٧] .

١٢ ـ وعن الكاظم عليه السلام في حديث مع هشام ، قال : « **يا هشام ، اصبر على طاعة الله ، واصبر عن معاصي الله ، فإنّما الدنيا ساعة ، فما مضى فليس تجد له سروراً ولا حزناً ، وما لم يأتِ منها فليس تعرفه ، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها ، فكأنّك قد اغتبطت** »[٨] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٣٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٩١ .

(٤) سورة النساء : الآية ٩١ .

(٥) الوسائل : ١٥/٢٦١ ، باب استحباب الصبر في جميع الأُمور ، الحديث ٢٠٤٥٤/١ .

(٦) المصدر المتقدّم : ٢٣٧ ، باب وجوب الصبر على طاعة الله ، الحديث ٢٠٣٧٢/٥ .

(٧) مستدرك الوسائل : ١١/٢٦٠ ، باب وجوب الصبر على طاعة الله ، الحديث ١٢٩٣٤/٣ .

(٨) المصدر المتقدّم : ٢٦٢ ، الحديث ١٢٩٤١/١٠ .

٦ ـ التواضع

ورد في كتب اللغة: أنّ أصل التواضع هو التذلّل والتخاشع، من وضعه وضعاً بمعنى حطّ من قدره[١]، وتفيد صيغة التواضع وهي (التفاعل): أنّ المتّصف بمعنى مادة الكلمة متظاهر به وليس فيه، كما يقال: تمارض وتغابى بمعنى إظهار المرض والغباء وليس الاتّصاف بهما واقعاً.

فالمتواضع مظهر للذلّة في نفسه والخشوع والحطّ من قدره، وهو في الواقع ليس ذليلاً لمن تواضع له، ولا خاشعاً له، ولا أقلّ قدراً منه.

والتواضع صفة حسنة بين صفتين مذمومتين: هما التكبّر والذلّ، فالتكبّر ـ وهو أن يتعامل مع الآخرين بصفة كونه متعالياً عليهم ومتجبّراً ـ صفة مذمومة مرّ بنا التحدّث عنها. كما أنّ الذلّ للآخرين بحيث يروا الذلّ فيه كما يحصل في التعامل مع المتكبّرين فإنّ هذا مذموم أيضاً وبخاصّة من المؤمن الذي يجب أن يتعامل مع المتكبّرين عزيزاً ومع المؤمنين متذلّلاً لصفة الإيمان فيهم. قال تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾[٢]، فتذلّل المؤمن أو للوالدين تذلّل رحمة لا ذلّة في نفسه، قال تعالى: ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾[٣].

وسيأتي الحديث عن صفات المؤمن وحقوقه في بحث الإيمان إن شاء الله تعالى.

فالتواضع وسط بين التكبّر والذلّ، وإنّما يكون صفة محمودة في النفس ومن

---

(١) القاموس المحيط: ٧٧١، مادة «وضع».

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٤.

مكارم الأخلاق ، إذا لم يستلزم ضعة النفس وذلّتها وخشوعها لغير الله سبحانه .

وقد وردت بعض الأخبار في بيان ما يلقي الضوء على معناه ويجلّيه .

فعن أبي الحسن عليه السلام ، قال : « **التواضع أن تعطي النّاس ما تحبّ أن تُعطاه** »[١] .

وقال عليه السلام : « **التواضع درجات : منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم ، لا يحبّ أن يأتي إلى أحد إلّا مثل ما يؤتى إليه ، إن رأى سيّئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ عافٍ عن النّاس ، والله يحبّ المحسنين** »[٢] .

والتواضع أنواع ، كما أنّ ضدّه وهو التكبّر كذلك ، فالتواضع يكون في التصرّف بنعم الله تعالى وعند تجدّدها ، ويكون في التعليم والتعلّم ، ويكون في التعامل مع النّاس وبخاصّة أولياء الله تعالى ، أو كبار السنّ من الأرحام وغيرهم ، وبعبارة أشمل هو في كلّ تعامل مع الآخرين حتّى الحيوانات والجمادات بلحاظ كونها نِعم الله سبحانه وآياته الدالّة عليه .

وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ من التواضع أنْ يرضى بالمجلس دون المجلس ، وأن يسلّم على مَن يلقى ، وأنْ يترك المراء وإن كان محقّاً ، ولا تحبّ أنْ تحمد على التقوى** »[٣] .

هذا ما كان عن معنى التواضع . أمّا أخبار مدحه وبيان آثاره فمنها :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **ما تواضع أحد إلّا رفعه الله** »[٤] .

وقال صلى الله عليه وآله : « **مَن تواضع لله رفعه الله** »[٥] .

---

(١) الوسائل : ٢٧٣/١٥ ، باب استحباب التواضع ، الحديث ٥/٢٠٤٩٧ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٦/٢٠٤٩٨ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٩/٢٠٥٠١ .

(٤) مستدرك الوسائل : ٢٩٧/١١ ، باب استحباب التواضع ، الحديث ٨/١٣٠٨٣ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٩/١٣٠٨٤ .

وقال صلى الله عليه وآله : « **لا حسب إلّا بالتواضع** »[١].

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **طوبى لمن تواضع من غير منقصة ، وأذلّ نفسه في غير مسكنة ، وأنفق من مالٍ جمعه من غير معصية** »[٢].

٣ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **إنّ الصدقة تزيد صاحبها كثرة ، فتصدّقوا يرحمكم الله ، وأنّ التواضع يزيد صاحبه رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله ، وأنّ العفو يزيد صاحبه عزّاً ، فاعفوا يعزّكم الله** »[٣].

٤ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب النّاس ، وتواضع من غير منقصة ، وجالس أهل الفقر والرحمة ، وخالط أهل الذلّ والمسكنة ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية** »[٤].

٥ ـ وقال عليه السلام : « **عليك بالتواضع ، فإنّه من أعظم العبادة** ».

وقال عليه السلام : « **بالتواضع تتمّ النعمة** ».

وقال عليه السلام : « **ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتّكالاً على الله** »[٥].

٦ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام : يا داود ، كما أنّ أقرب النّاس من الله المتواضعون ، كذلك أبعد النّاس من الله المتكبّرون** »[٦].

٧ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **اطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن**

---

(١) الوسائل : ١/٤٨ ، باب وجوب النيّة في العبادات ، الحديث ٩/٩١.

(٢) مستدرك الوسائل : ١١/٣٠٠ ، باب استحباب التواضع ، الحديث ١٥/١٣٠٩٠.

(٣) الكافي : ٢/١٥٠ ، باب التواضع ، الحديث ١/١٨٥٦.

(٤) مستدرك الوسائل : ١١/٢٩٦ ، باب استحباب التواضع ، الحديث ٢/١٣٠٧٧.

(٥) المصدر المتقدّ : الحديث ٤/١٣٠٧٩.

(٦) الوسائل : ١٥/٢٧٢ ، باب استحباب التواضع ، الحديث ٢/٢٠٤٩٤.

تعلّمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبّارين فيذهب باطلكم بحقّكم »(١) .

٨ ـ وروي أنّ عيسى بن مريم عليه‌السلام قال للحواريّين : « **لي إليكم حاجة اقضوها لي ؟** » ، فقالوا : قُضيت حاجتك يا روح الله . فقام فغسل أقدامهم ! فقالوا : كنّا أحقّ بهذا منك . فقال : « **إنّ أحقّ النّاس بالخدمة العالم ، إنّما تواضعت هكذا لكي ما تتواضعوا بعدي في النّاس كتواضعي لكم** » . ثمّ قال عيسى عليه‌السلام : « **بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر ، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل** »(٢) .

٩ ـ وعن أمير المؤمنين عليه‌السلام ، قال : « **ابن آدم ، إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك ، فإنّ أيسر ما فيها يكفيك ، وإن كنت تريد ما لا يكفيك فإنّ كلّ ما فيها لا يكفيك** »(٣) .

١٠ ـ عن أبي جعفر عليه‌السلام ، قال : « **إيّاك أنْ يطمح بصرك إلى مَن هو فوقك ، فكفى بما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ﴾**(٤) ، **وقال : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾**(٥) ، **فإن دخلك شيء فاذكر عيش رسول الله** صلى‌الله‌عليه‌وآله ، **فإنّما كان قوته الشعير ، وحلواه التمر ، ووقوده السعف إذا وجده** »(٦) .

١١ ـ وعن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **أفطر رسول الله** صلى‌الله‌عليه‌وآله **عشيّة خميس في مسجد**

---

(١) مستدرك الوسائل : ٣٠٢/١١ ، باب تأكيد استحباب التواضع للعالم والمتعلّم ، الحديث ١/١٣٠٩٨ .

(٢) الوسائل : ٢٧٦/١٥ ، باب تأكيد استحباب التواضع للعالم والمتعلّم ، الحديث ٢/٢٠٥٠٤ .

(٣) الوسائل : ٥٣١/٢١ ، باب استحباب القناعة بالقليل والاستغناء به عن النّاس ، الحديث ٤/٢٧٧٧٥ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٨٥ .

(٥) سورة طه : الآية ١٣١ .

(٦) الوسائل : ٥٣٠/٢١ ، باب استحباب القناعة بالقليل والاستغناء به عن النّاس ، الحديث ٢/٢٧٧٧٣ .

قبا ، فقال : هل من شراب ؟ فأتاه أوس بن خولي الأنصاري بعس مخيض بعسل ، فلمّا وضعه على فيه نحّاه ، ثمّ قال : شرابان يكتفى بأحدهما من صاحبه ، لا أشربه ولا أُحرّمه ، ولكن أتواضع لله ، فإنّه مَن تواضع لله رفعه الله ، ومَن تكبّر خفضه الله ، ومَن اقتصد في معيشته رزقه الله ، ومن بذّر حرمه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبّه الله »[١] .

١٢ ـ وعن الرضا عليه السلام ، قال : « **مَن لم يقنعه من الرزق إلّا الكثير لم يكفه من العمل إلّا الكثير ، ومَن كفاه من الرزق القليل فإنّه يكفيه من العمل القليل** »[٢] .

١٣ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً** »[٣] .

٧ ـ إنصاف النّاس من النفس

الإنصاف لغة العدل[٤] ، وهو إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه الذي جعله الله له ، فعن أمير المؤمنين عليه السلام في عهده إلى الأشتر ، قال :

« **أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ لِلّهِ حَرْباً حَتَّىٰ يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ** »[٥] .

فإنصاف الله أداء حقّه ، وهو حقّ الربوبيّة بالطاعة ، وإنصاف النّاس أداء ما لهم من حقوقهم ، وقد أكّد عليه السلام على الإنصاف من النفس ومن خاصّة الإنسان وأهله ومن

---

(١) الوسائل : ٢٧٧/١٥ ، باب استحباب التواضع في المأكل والمشرب ، الحديث ١/٢٠٥٠٥ .

(٢) الوسائل : ٥٣١/٢١ ، باب استحباب القناعة بالقليل والاستغناء به عن النّاس ، الحديث ٥/٢٧٧٧٦ .

(٣) المصدر المتقدّم : باب استحباب الرضا بالكفاف ، الحديث ٢/٢٧٧٨٢ .

(٤) القاموس المحيط : ٨٥٦ ، مادة « نصف » .

(٥) نهج البلاغة : ٤٢٦ ، ت ٥٣ كتابه للأشتر النخعي لمّا ولّاه مصر .

يهواهم ؛ لأنّ الإنسان قد ينصف بين النّاس ، لكنّه يميل بعض الميل في هذه الأُمور ، فمن أنصف النّاس فيها وبخاصّة من نفسه ، كان أوْلى أن ينصفهم في غيرها.

والإنصاف من النفس أن يؤدّي للنّاس ما على نفسه من حقّ لهم دون أن يحوجهم إلى دعوى وبيّنة وحجّة ، ومَن كان كذلك كشف عن كونه محبّاً للحقّ وذا مروءة وشجاعة ، ولا يكون كذلك إلّا من آمن بأنّ عليه رقيباً يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فأحبّه أو رجاه أو خافه ، وتصرّف وفق أوامره ونواهيه.

وفيما يأتي أذكر طائفة من الأخبار التي وردت في إنصاف النّاس من النفس :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **مَن واسى الفقير وأنصف النّاس من نفسه فذلك المؤمن حقّاً** »[١].

٢ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **طوبى لمن طاب خلقه ، وطهرت سجيّته ، وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، وأنصف النّاس من نفسه** »[٢].

٣ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **سيّد الأعمال ثلاثة : إنصاف النّاس من نفسك ، ومواساة الأخ في الله ، وذكرك الله تعالى في كلّ حال** »[٣].

٤ ـ وقال صلى الله عليه وآله : « **انصف النّاس من نفسك ، وانصح الأمّة وأرحمهم ، فإذا كنت كذلك وغضب الله على أهل بلدة وأنت فيها ، وأراد أن ينزل عليهم العذاب نظر إليك فرحمهم بك . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾** »[٤].

---

(١) الوسائل : ٢٨٦/١٥ ، باب وجوب إنصاف النّاس ولو من النفس ، الحديث ١٣/٢٠٥٣٥.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٦/٢٠٥٢٨.

(٣) مستدرك الوسائل : ٢١٠/٧ ، باب مواساة المؤمن في المال ، الحديث ٦/٨٠٦١ ، ولكن ورد : « ثلاث » ، وما أثبتناه هو الصحيح.

(٤) سورة هود : الآية ١١٨ . مستدرك الوسائل : ٣١٠/١١ ، باب وجوب إنصاف النّاس ولو من نفسك ، الحديث ٨/١٣١٢٣.

٥ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : «**ألا أنّه من ينصف النّاس من نفسه لم يزده الله إلّا عزّا**»[1] .

٦ ـ وعنه عليه السلام ، قال : «**إنّ أعظم المثوبة مثوبة الإنصاف**» .

وقال : «**إنّ أفضل الإيمان إنصاف الرجل من نفسه**» .

وقال عليه السلام : «**إنّك إن أنصفت من نفسك أزلفك الله**» .

وقال عليه السلام : «**مع الإنصاف تدوم الإخوّة**»[2] .

٧ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : «**إنّ لله جنّة لا يدخلها إلّا ثلاثة ، أحدهم مَن حكم في نفسه بالحقّ**»[3] .

٨ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «**مَن أراد أن يسكنه الله جنّته فليحسن خلقه ، وليعط النصفة من نفسه ، وليرحم اليتيم ، وليعن الضعيف ، وليتواضع لله الذي خلقه**»[4] .

٩ ـ وقال عليه السلام : «**ما تداراً اثنان في أمر قطّ فأعطى أحدهما النصفَ صاحبه فلم يقبل منه إلّا أديل منه**»[5] .

وقال عليه السلام : «**وما ناصح الله عبد في نفسه فأعطى الحقّ منها وأخذ الحقّ لها ، إلّا أعطي خصلتين : رزقاً من الله يسعه ، ورضى عن الله يغنيه**»[6] .

وإنصاف النّاس من النفس يندرج في حبّ المرء لأخيه ما يحبّ لنفسه ؛ لأنّ كلّ

---

(١) الوسائل : ٢٨٣/١٥ ، باب وجوب إنصاف النّاس ولو من النفس ، الحديث ٣/٢٠٥٢٥ .

(٢) مستدرك الوسائل : ٣١٠/١١ ، باب وجوب إنصاف النّاس ولو من نفسك ، الحديث ١٠/١٣١٢٥ .

(٣) الوسائل : ٢٨٥/١٥ ، باب وجوب إنصاف النّاس ولو من النفس ، الحديث ٩/٢٠٥٣١ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١١/٢٠٥٣٣ .

(٥) الكافي : ١٧٦/٢ ، باب الإنصاف والعدل ، الحديث ١٨/١٩٥٦ .

(٦) الوسائل : ٢٨٦/١٥ ، باب وجوب إنصاف النّاس ولو من النفس ، الحديث ١٢/٢٠٥٣٤ .

أحد يرغب في أن يعطى النصف. وفي وجوب حبّ المؤمن لأخيه ما يحبّ لنفسه عدّة أخبار، منها:

١ ـ في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام، قال: « **يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلَمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلِمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مَنْ نَفْسِكَ** »[١].

٢ ـ وعنه عليه السلام، قال: « **ارضَ للنّاس ما ترضى لنفسك، وآتِ إلى النّاس ما تحب أن يؤتى إليك** »[٢].

٣ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: جاء أعرابي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يريد بعض غزواته، فأخذ بغرز راحلته، فقال: يا رسول الله، علّمني شيئاً أدخل الجنّة به؟ فقال: « **ما أحببتَ أن يأتيه النّاس إليك فأته إليهم، خلّ سبيل الراحلة !** »[٣].

٨ ـ التقوى:

أ ـ معناها:

كلمة التقوى اسم أصله تُقيا أو تَقيا أو وقيا، وجرى عليها من الأبدال ما يصيرّها تقوى. وهو مأخوذ من الفعل (وقا) بمعنى صان. والصفة المشبّهة التقي وجمعه الأتقياء، واسم الفاعل متّقي وجمعه متّقون ومتّقين[٤]، ولكثرة ورود هذه الكلمة في

---

(١) نهج البلاغة: ٢٩٧، من وصيّة له عليه السلام للحسن بن عليّ عليهما السلام كتبها إليه «بحاضرين» عند انصرافه من صفّين.

(٢) مستدرك الوسائل: ٣١١/١١، باب أنّه يجب على المؤمن أن يحبّ المؤمن، الحديث ٢/١٣١٢٧.

(٣) المصدر المتقدّم: الحديث ٤/١٣١٢٩.

(٤) انظر القاموس المحيط: ١٣٤٤، مادة «وقى».

القرآن الكريم ، وكونها من مكارم الأخلاق ، اهتمّ المفسّرون والمعنيّون بمباحث الأخلاق بتحديد معناها ، واختلفوا فيه على أقوال :

فعرّفها **الرازي** بالخشية ، و**الطبرسي** بأن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، و**الواقدي** بأن تزيّن سرّك للحقّ كما زيّنت ظاهرك للخلق ، و**المراغي** بما يتّقى به سخط الله وغضبه ، و**البستاني** بالاحتراز بطاعة الله عن عقوبته ، و**النراقي** بملكة الاتّقاء عن مطلق المعاصي خوفاً من سخط الله وطلباً لرضاه .

وعرّفها غير هؤلاء بتعاريف أُخرى[١] . بَيْد أنّ أكثر تعريفاتهم إنّما هي لبيان لوازم التقوى أو بعض لوازمها ، عدا تعريفها بالملكة فهو التعريف المناسب ؛ لكونها صفة نفسيّة تبعث على هذه اللوازم ، ولكن لا يقيّد معناها بالخوف من سخط الله وطلب رضاه كما فعل النراقي ؛ لأنّ للتقوى مصادر أُخرى كما سيأتي إن شاء الله ، وملكة التقوى في النفس كالنفس لا يتصوّر معناها ، ولكنّها تعرف ـ من حيث الكمّ والكيف ـ بلوازمها .

وعلى هذا الأساس ندرك وجودها في صاحبها فنصفه بالتقي والأتقى . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾[٢] .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « **اتّق الله بعض التقى وإن قلّ ، واجعل بينك وبين الله ستراً وإن رقّ** »[٣] .

ولهذا فالتقوى ملكة نفسانيّة تقبل الشدّة والضعف وتعرف بالالتزام بالطاعات ، وتتفاوت بتفاوت هذا الالتزام ، وفي خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين يصف المتّقين ما يعطينا صورة واضحة عن معناها : فقد روي : أنّ صاحباً لأمير

---

(١) راجع مجمع البيان : ٨٣/١ ، تفسير الآية ٢ من سورة البقرة ، فصل في التقوى والمتّقي .
(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣ .
(٣) الوسائل : ٢٤٢/١٥ ، باب وجوب تقوى الله ، الحديث ٢٠٣٩٠/٨ .

المؤمنين عليه السلام يقال له همام كان رجلاً عابداً ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، صف لي المتّقين حتّى كأنّي أنظر إليهم ؟ فتثاقل عليه السلام عن جوابه ، ثمّ قال : « **يا همام ، اتّق الله وأحسن ، فـ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ ﴾**[1] » ، فلم يقنع همام بهذا القول حتّى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله ، ثمّ قال عليه السلام :

« **أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ . فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ . فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ : مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ . غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَىٰ الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ . نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ . وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، شَوْقاً إِلَىٰ الثَّوَابِ ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ . عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ . قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ . صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ . أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا . أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً . يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ . فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً ، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ . وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَىٰ أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ ،**

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٨ .

وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ فِي فَكَاكَ رِقَابِهِمْ . وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ . قَدْ بَرَاهُمْ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَىٰ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ؛ وَيَقُولُ : لَقَدْ خُولِطُوا !

وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ . فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي ! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ .

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَىٰ لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدىً وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ . يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَىٰ وَجَلٍ . يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ . يَبِيتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً ؛ حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ . إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ . قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَىٰ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ . تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ . الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ . إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ . يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ . فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ . لَا يَحِيفُ عَلَىٰ مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ . يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَىٰ مَا ذُكِّرَ،

وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ ».

قال : فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : « **أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ** » . ثُمَّ قَالَ : « **أَهٰكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا ؟** » .

فقال له قائل : فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام : « **وَيْحَكَ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ. فَمَهْلاً، لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِكَ !** »(١) .

أجل هكذا تصنع المواعظ البالغة إلى القلب لأنها تخرج من القلب، أمّا إذا خرجت من اللسان فلا تتجاوز الآذان، هكذا تصنع المواعظ البالغة إلى القلب حيث لا يكون عليه من الرين ما يحجبها عن الوصول إليه والبلوغ إلى أعماقه، فتنفذ فيه كما ينفذ النور الذي لا تصدّه الحجب.

أمّا مع الرين والحجب فـ ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾(٢) .

وبعد التعرّف على معنى التقوى يحسن بنا التعرّف على المقصود بإضافتها إلى الله سبحانه وتعالى.

فالتقوى ـ كما فهمناها ـ هي الصيانة، وبالتحديد هي ملكة تبعث على صيانة

---

(١) نهج البلاغة : ٣٠٣، من خطبة له عليه السلام يصف فيها المتّقين.

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٩.

النفس عن المعاصي، والمعاصي كلّها شرور، فملكة التقوى تصون النفس عن هذه الشرور، فالتقوى هي تقوى الشرور، والله تعالى خير كلّه فما معنى تقواه ؟

والجواب: أنّ المعروف في لغة العرب حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه لأغراض بلاغيّة لست الآن بصدد بيانها، ويتعيّن المحذوف بحسب القرينة العقليّة أو الحالية أو اللفظيّة التي ينصبها المتكلّم لتعيين مراده، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾[1]، والمقصود أهل القرية، وقوله تعالى: ﴿ **حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ** ﴾[2]، و﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ** ﴾[3]، والمقصود أكل لحم الميتة والخنزير، وشرب الدم، ونكاح الأُمّهات... وهكذا.

فتقوى الله تعالى يقصد بها تقوى عقاب الله، أو تقوى حرمانه لعبده من النعم، أو تقوى البعد عنه سبحانه، ويتعيّن المضاف المحذوف بحسب المصدر الباعث على التقوى من المصادر التي سنتحدّث عنها الآن:

ب ـ مصادر التقوى:

تستند التقوى إلى مصدر واحد أو أكثر من واحد من المصادر التالية:

١ / الخوف

وهو الخشية من تبعات عمل الإنسان، فقد قضى الله وقدّر أنّ لأفعال الإنسان التي تخالف القوانين التكوينيّة أو التشريعيّة الإلهيّة تبعات، إن كانت في الدنيا أو في الآخرة، سواء أكانت هذه المخالفات ما يصطلح عليها بفعل المحرّمات أم بترك الواجبات.

وينشأ هذا الخوف من تبعات المخالفة، من الإيمان بالمشرّع وبشريعته،

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٣. سورة النحل: الآية ١١٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٣.

وبما ورد فيها من بيان هذه العقوبات ، وبقدرته تعالى على تنفيذ عقوباته ، وبكونه يعلم بأفعال عبده ، بل بما توسوس به نفسه .

وبصدور المخالفة من المؤمن بهذه الأُمور يتولّد الخوف الدافع إلى الورع عن تكرارها والتوبة عمّا سلف منها .

وقد يحصل الحذر من صدورها وإن لم تصدر ، فيبقى مراقباً لنفسه بنفسه خشية مخالفتها بداعي هذا الخوف ، وهذا الخوف بهذا المنشأ يجعل من الإنسان متّقياً من مخالفة ربّه ومن معصيته ومن عقابه المترتّب عليها . والتقوى الحاصلة من الإيمان بما سلف وبخاصّة الإيمان بالمعاد وبعلم الله تعالى بجميع أفعال العباد ، حصانة للنفس عن المعصية ، لا تضاهيها القوانين العقابيّة الوضعيّة التي لا تكفي في الردع عن الجريمة عندما يأمن المرء إطّلاع النّاس عليه ، أو يقدم عليها حتّى مع اطّلاعهم لما يراه من ترجيح تلقّي العقوبة على ما هو عليه من وضع لا يتحمّله ، كمن يقدم على جريمة القتل لانتهاك العرض أو جريمة السرقة لدفع الفقر ، أمّا من يتّقي الله ويؤمن بمعاده وعظيم عقابه ، فلا يقدم على الجرم والمخالفة مهما كانت دواعي هذا الإقدام .

٢ / الرجاء

وهو الأمل بالحصول على عظيم المثوبة من الله سبحانه على فعل الطاعات ، وتجنّب المخالفات ، في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً ، باختلاف أثر العمل وبحسب ما أعدّه الله لكلّ عمل من أجر .

وهذا المصدر كسابقه مرتبط بالإيمان أيضاً ، فمن لا إيمان له بعلم الله وقدرته وغناه ، ثمّ بتشريعه وبما أعدّه للعاملين به ، ثمّ بمعاده الذي يوفّى العاملين فيه أُجورهم ، وبالآثار التكوينيّة للطاعات ، من لا يؤمن بهذه الأُمور لا يمكن تحقّق التقوى في نفسه عن طريق الرجاء ، كما أنّ التقوى تشتدّ وتضعف بمقدار ما يشتدّ هذا النمط من الإيمان أو يضعف . ومهما تكن درجة التقوى فهي تقوى حرمان الله

لعبده من الأجبر والمثوبة. وبهذا الإيمان وبخاصّة الإيمان بأنّ الله سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴾[١]، سيكون المرء ممّن لا يفكّر إلّا بالخير للآخرين، ولا يتصرّف إلّا خيراً في السرّ والخفاء وفي العلن على حدّ سواء؛ لأنّ المُجازي معه في جميع هذه الأحوال. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[٢].

٣ / الحبّ

وهو الانشداد بين العبد ومولاه بما أدركه من عظمته وجلاله وجماله، فيحرص كلّ الحرص على القرب منه بطاعته، وتجنّب البعد عنه بمعصيته، وحينئذٍ لا يكون داعي وتجنّب المعصية خوفاً من عقوبة إلّا عقوبة البعد، ولا رجاء في مثوبة إلّا مثوبة القرب، بل يُوثر هذا المحبّ طاعة مولاه مع قربه منه وإن تعرّض لأنواع العذاب الذي يخشاه غيره، أو حرم ممّا يرجوه سائر الناس؛ لأنّه لا يفهم للسعادة معنىً سوى الكمال، ولا كمال إلّا بالتقرّب من الله سبحانه ومصداقه مصائب الرسل والأنبياء والأئمّة:

« فلو قطّعتني في الحبّ إرباً   لما مال الفؤاد إلى سواكـا »

وهذا مقام لا يبلغه إلّا ذو حظّ عظيم. قال الإمام الصادق عليه السلام: « **وإنّي أعبده حبّاً له، وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلّا المطهّرون** »[٣]، بل إنّ هذا المقام هو غاية الغايات وسرّ الإيجاد وما شرع الدين إلّا للوصول إليه. (وهل الدين إلّا الحبّ)، كما يقول الإمام الباقر عليه السلام[٤].

وهذا المقام ذو درجات متفاوتة، كما تتفاوت درجات الخوف والرجاء، إلّا أنّ

---

(١) سورة طه: الآية ٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ٤.

(٣) من أجل التوسّع في معرفة الموضوع لاحظ الميزان: ١١/١٦٣، تفسير سورة يوسف: الآية ٣٣، أبحاث حول التقوى الديني ودرجاته، يحصل التقوى الديني بأحد اُمور ثلاثة.

(٤) الوسائل: ١٦/١٧١، باب وجوب الحبّ في الله، الحديث ١٧/٢١٢٦٥.

أدنى درجاته هي أسمى من أعلى درجاتهما ، ثمّ تتصاعد درجاته إلى الحدّ الذي ينبهر المحبّ بمحبوبه ، ويرى الانشغال بغيره أي انشغال كان هو الشقاء بعينه ، بل قد يذهل عن نفسه فتندكّ وتفنى في ذات المحبوب الذي لا يرى إلّا إيّاه ولا يحسّ إلّا به ، ولا غرابة في هذا الحال إذا ما تذكّرنا صويحبات يوسف عليه‌السلام ، إذ قطّعن أيديهنّ ولم يحسسن بأنفسهنّ ؛ إذ انبهرن بمجلى واحد من مجالي جماله سبحانه ، وهي مجالي لا تعدّ ولا تحصى لجماله الذي لا حدود له .

هذا وانّ التقوى التي مصدرها الحبّ بأي درجة من درجاته تكون العبادة معها أفضل أنواعها ؛ لما روي عن الإمام الصادق عليه‌السلام : « **إنّ العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً ، فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب ، فتلك عبادة الأُجراء ، وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً له ، فتلك عبادة الأحرار ، وهي أفضل العبادة** »[١] .

وقوله عليه‌السلام : « أفضل العبادة » يدلّ على أنّ عبادة الخوف والرجاء لها فضل ، ولكن عبادة الحبّ أفضل . وبهذا المعنى ورد قول الإمام الصادق عليه‌السلام إذ يقول : « **حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل ، وكلّ ذكر سوى الله ، والمحبّ أخلص النّاس سرّاً لله ، وأصدقهم قولاً ، وأوفاهم عهداً ، أزكاهم عملاً ، وأصفاهم ذكراً ، وأعبدهم نفساً ، تتباهى الملائكة عند مناجاته ، وتفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله بلاده ، وبكرامته يكرم الله عباده ويعطيهم إذا سألوه بحقّه ، ويدفع عنهم البلايا برحمته ، ولو علم الخلق ما محلّه عند الله ومنزلته لديه ما تقرّبوا إلى الله إلّا بتراب قدميه** »[٢] .

ج ـ الحثّ على التقوى

الحثّ على التقوى بلحاظ مصاديقها يشمل الحثّ على كلّ طاعة من امتثال

---

(١) الكافي : ٢/١١١ ، باب العبادة ، الحديث ٥/١٦٦٥ .

(٢) بحار الأنوار : ٦٧/٢٣ ، باب حبّ الله تعالى ، الحديث ٢٣ .

الأوامر واجتناب المحرّمات؛ لأنّ التقوى مفهوماً: هي الملكة التي تبعث على اجتناب جميع المخالفات الشرعيّة.

ولكنّي أذكر هنا بعض النصوص التي ورد فيها الحثّ على التقوى بالاسم، وهي من الكتاب والسنّة:

من الكتاب المجيد:

قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ** ﴾(١).

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ** ﴾(٣).

قوله جلّ من قائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ** ﴾(٤).

وأمثال هذه الآيات، وقد بلغت الآيات التي وردت في التقوى ومشتقّات مادتها أكثر من ثلاثمئة آية(٥).

من السنّة الشريفة:

١ ـ عن رسول الله ﷺ، قال: « **خير الزاد التقوى** »(٦).

وقال ﷺ: « **اتّقوا الله واجملوا في الطلب، لا يحمل أحدكم استبطاء شيء من**

---

(١) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٣) سورة الزُّمر: الآية ١٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٧٨... لقد تكرّر هذا المقطع من الآية في ٧ آيات في القرآن الكريم.

(٥) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٩٢٨، في لفظ: «التقوى ومشتقّاته».

(٦) الوسائل: ٢٤١/١٥، باب وجوب تقوى الله، الحديث ٤/٢٠٣٨٦.

الرزق أن يطلبه بغير حلّه ، فإنّه لا يدرك ما عند الله إلّا بطاعته »(١) .

وقال ﷺ : « **التقوى كرم ، والحلم زين ، والصبر مركب** »(٢) .

وقال ﷺ : « **أكثر ما تلج به اُمّتي الجنّة تقوى الله وحسن الخلق** »(٣) .

وقال ﷺ : « **ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فأمّا المنجيات فتقوى الله في السرّ والعلانية . . . الخ** »(٤) .

وقال ﷺ في وصيّته لأبي ذر ؓ : « **يا أبا ذرّ ، اتقِ ولا ترى النّاس أنّك تخشى الله فيكرموك وقلبك فاجر . . .**

يا أبا ذرّ ، من سرّه أن يكون أكرم النّاس فليتّق الله .

يا أبا ذكر ، أحبّكم إلى الله جلّ ثناؤه أكثركم ذكراً له ، وأكرمكم عند الله أتقاكم له ، وأنجاكم من عذاب الله أشدكم خوفاً له .

يا أبا ذرّ ، إنّ المتّقين الذين يتّقوا الله من الشيء الذي لا يتّقى منه ، خوفاً من الدخول في الشبهة . . . إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

يا أبا ذرّ ، انّ التقوى هاهنا » وأشار بيده إلى صدره(٥) .

٢ ـ عن أمير المؤمنين ؑ ، قال : « **أُوصيكم عباد الله بتقوى الله وطاعته ، فإنّها النجاة غداً والمنجاة أبداً** »(٦) .

---

(١) الكافي : ٢/١٠٠ ، باب الطاعة والتقوى ، الحديث ٢/١٦١٤ .

(٢) مستدرك الوسائل : ٢٦٣/١١ ، باب وجوب تقوى الله ، الحديث ١/١٢٩٤٦ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٢/١٢٩٤٧ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/١٢٩٤٨ .

(٥) أمالي الطوسي ـ المجلس التاسع عشر : ٥٢٥ ، الحديث ١/١١٦٢ .

(٦) نهج البلاغة : ٢٢٩ ، الخطبة ١٦١ ، في صفةالنبيّ وأهل بيته واتّباع دينه وفيها يعظ بالتقوى.

وقال عليه السلام : « **من اتّقى الله حقّ تقاته أعطاه الله أنساً بلا أنيس ، وغناء بلا مال ، وعزّاً بلا سلطان** »[١] .

وقال عليه السلام : « **ليس لأحد على أحد فضل إلّا التقوى ، ألا وأنّ للمتّقين عند الله أفضل الثواب ، وحسن الجزاء والمآب** »[٢] .

وقال عليه السلام : « **عليكم بتقوى الله فإنّها تجمع الخير ولا خير غيرها . ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها من خير الدنيا والآخرة . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً ﴾[٣] ... يا عباد الله ، إنّ المتّقين حازوا عاجل الخير وآجله ، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم** »[٤] .

وقال عليه السلام : « **لا يقلّ مع التقوى عمل ، وكيف يقلّ ما يُتقبل ؟** »[٥] .

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : لا يقلّ عمل مع تقوى ، وكيف يقلّ ما يُتقبّل** »[٦] .

٤ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى ؟** » ، قلت : كيف يكون كثيرٌ بلا تقوى ؟ قال عليه السلام : « **نعم مثل الرجل يطعم طعامه ويرفق جيرانه ويوطئ رحله ، فإذا ارتفع له الباب من الحرام دخل فيه ، فهذا العمل بلا تقوى ، ويكون الآخر ليس عنده ، فإذا ارتفع له الباب من الحرام لم يدخل فيه** »[٧] .

وقال عليه السلام : « **ما نقل الله عبداً من ذلّ المعاصي إلى عزّ التقوى إلّا أغناه من**

---

(١) مستدرك الوسائل : ٢٦٥/١١ ، باب وجوب تقوى الله ، الحديث ٨/١٢٩٥٣ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٠/١٢٩٥٥ .

(٣) سورة النحل : الآية ٣٠ .

(٤) مستدرك الوسائل : ٢٦٥/١١ ، باب وجوب تقوى الله ، الحديث ١٢/١٢٩٥٧ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ١٣/١٢٩٥٨ .

(٦) الوسائل : ٢٤٠/١٥ ، باب وجوب تقوى الله ، الحديث ١/٢٠٣٨٣ .

(٧) المصدر المتقدّم : الحديث ٢/٢٠٣٨٤ .

غير مال ، وأعزّه من غير عشيرة ، وآنسه من غير بشر »[١] .

وقال عليه السلام : « **القيامة عرس المتّقين** » .

وقال : « **لا يغرّنّك بكاؤهم ، إنّما التقوى في القلب** » .

وقال في قوله جلّ ثناؤه : ﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾[٢] قال : « **أنا أهلٌ أن يتّقيني عبدي** »[٣] .

هذا وقد تردّدت كلمة التقوى في كثير من الأخبار التي رويت في مدح الصفات النفسيّة الفاضلة ، مثل الصبر والورع والحلم والعفو وغيرها من الأخلاق الحسنة ، وقد مرّ بك كثير من هذا النوع من الأخبار .

وأذكر هاهنا بعضاً ممّا لم أذكره سابقاً :

١ ـ عن الباقر عليه السلام ، قال : « **ما شيعتنا إلّا من اتّقى الله وأطاعه . . . ، فاتّقوا الله واعملوا لما عند الله . ليس بين الله وبين أحد قرابة . أحبّ العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أتقاهم ، وأعملهم بطاعته** »[٤] .

٢ ـ وقال الصادق عليه السلام : « **أُوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد ، واعلم أنّه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه** »[٥] .

٣ ـ وعنه عليه السلام قال : « **إنّ الله ضمن لمن اتّقاه أن يحوّله عمّا يكره إلى ما يحبّ ، ويرزقه من حيث لا يحتسب** »[٦] .

---

(١) الوسائل : ٢٤١/١٥ ، باب وجوب تقوى الله ، الحديث ٣/٢٠٣٨٥ .

(٢) سورة المدّثّر : الآية ٥٦ .

(٣) مستدرك الوسائل : ٢٦٥/١١ ، باب وجوب تقوى الله ، الحديث ٩/١٢٩٥٤ .

(٤) الكافي : ١٠٠/٢ ، باب الطاعة والتقوى ، الحديث ٣/١٦١٥ .

(٥) المصدر المتقدّم : باب الورع ، الحديث ١/١٦٢١ .

(٦) بحار الأنوار : ١٢١/٧٥ ، موعظة منه عليه السلام ، و : ٢٨٥/٦٧ .

٤ ـ وقال عليه السلام : « اقرئوا مَن لقيتم من أصحابكم السلام ، وقولوا لهم : إنّ فلان ابن فلان يقرئكم السلام ، وقولوا لهم : عليكم بتقوى الله عزّ وجلّ ، وما ينال به ما عند الله. إنّي والله ما آمركم إلّا بما نأمر به أنفسنا ، فعليكم بالجدّ والاجتهاد ، وإذا صلّيتم الصبح وانصرفتم فبكّروا في طلب الرزق ، واطلبوا الحلال ، فإنّ الله عزّ وجلّ سيرزقكم ويعينكم عليه »[1].

(١) الكافي : ٧٩/٥ ، باب الحثّ على الطلب والتعرّض للرزق ، الحديث ٨.



الإيمـان

١ ـ معنـاه:

قيل: إنّ الإيمان لغة: «الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة»[1]. وأصله الأمن ضدّ الخوف، وكأنّ المؤمن باعتقاده وعمله وما يظهره على لسانه ممّا يعتقد به قد أمن في الدنيا والآخرة، أو أنّ الله سبحانه قد ائتمنه على هذا الاعتقاد[2]، أو أنّه يؤمّن على الله فيجيز أمانه[3].

وللإيمان في لغة التشريع الإسلامي معنى حدّدته الأخبار المرويّة عن الهداة المعصومين عليهم السلام، أذكر منها:

---

(١) القاموس المحيط: ١١٧٦، مادة «أمن».

(٢) و (٣) المصدر المتقدّم بتصرّف.

وفي بعض الأخبار ما يؤكّده، فعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «لا تزهدوا في فقراء شيعتنا، فإنّ الفقير ليشفع يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر.. إنّما سمّي المؤمن مؤمناً لأنّه يؤمّن على الله فيجيز أمانه، أما سمعت الله يقول في أعدائكم إذ رأوا شفاعة الرجل منكم لصديقه يوم القيامة: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان ١٠٠ و ١٠١]، وعلى هذا ينزل قوله صلى الله عليه وآله: «ما استفاد امرئ مسلم فائدة بعد الإسلام مثل أخ يستفيده في الله». انظر وسائل الشيعة: ١٢/٢٣٣، باب استحباب استفادة الاخوان في الله، الحديث ٢/١٦١٧٠.

١ ـ عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان** »(١) .

٢ ـ وعن جعفر الصادق عليه السلام ، قال : « **الإيمان : إقرار ، وعمل ، ونيّة** »(٢) .

٣ ـ وعن الرضا عليه السلام ، قال : « **الإيمان... معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان** »(٣) .

٤ ـ وعن أبي بصير أنّه قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : إنّ خيثمة أخبرنا أنّه سألك عن الإيمان فقلت : « **الإيمان بالله ، والتصديق بكتاب الله ، وأن لا يعصي الله** » ، فقال عليه السلام : « **صدق خيثمة** »(٤) .

٥ ـ وعن جميل بن درّاج ، قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الإيمان ، فقال : « **شهادة أن لا إله إلّا الله ، وأنّ محمّداً رسول الله** » ، فقلت : أليس هذا عمل ؟ قال : « **بلى** » ، قلت : فالعمل من الإيمان ؟ قال : « **لا يثبت له الإيمان إلّا بالعمل ، والعمل منه** »(٥) .

ويبدو من كلّ هذه الأخبار وغيرها من أمثالها أنّ مقومات الإيمان ثلاث : المعرفة ، وإظهار ما يعرفه من معتقدات على لسانه وبخاصّة الشهادتين ، وطاعة الله في أركان الشريعة المقدّسة .

وفيما يأتي اُضفي على هذه المقوّمات بعض الايضاحات :

١ ـ المعرفة بالقلب

يبدو من تعريف الإيمان في الأخبار بالمعرفة دون تعريفه بالعلم ، أنّ العلم

---

(١) الخصال : ١/١٧٩ ، الإيمان ثلاثة أشياء ، الحديث ٢٤١ .

(٢) تحف العقول : ٢٧١ ، في قصار ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام .

(٣) الوسائل : ١٥/٣٢٩ ، باب تعيين الكبائر ، الحديث ٢٠٦٦٠/٣٣ .

(٤) الكافي : ٢/٦٤ ، باب في أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها ، الحديث ١٥١٨/٥ .

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ١٥١٩/٦ .

وإن اقترن بالإقرار اللساني ، والعمل بالأركان لا يتحقّق به معنى الإيمان ، فربّ عالم بأُصول دينه وضروريّات تشريعه مقرّ بلسانه بما علم به مواظب على الأركان ، بل على جميع الواجبات والمندوبات ، ولكنّه منافق ومراءٍ ومخادع !! فالعلم النظري لا يستلزم الجري على ما يقتضيه النظر ، وإن جرى عليه اسم العالم فلا يستلزم جريه هذا الإخلاص في العمل .

ولعلّ هذا هو ما أشار إليه الإمام جعفر الصادق عليه‌السلام حين قال : « **الإيمان إقرار وعمل ونيّة** » ، ممّا يفيد أنّ الإيمان حالة في النفس وليست معلومة من معلوماتها ، وهذه الحالة تستلزم الالتزام بما انطوت عليه النفس من معرفة ، وأنّ هذه الحالة لا تتّصف بها النفس ما لم تكن مؤهّلة لها ، فالنفس الملوّثة وإن علمت بجميع ما يعرفه المؤمن وزيادة ، بَيْد أنّها لا يتحقّق منها الالتزام بما يلتزم به العارف الذي انطوت نفسه على نور لا يحقّقه العلم النظري فيمن لم تستعدّ نفسه لقبول نور المعرفة .

ففي الخبر : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن** »[(١)]. والحال أنّ العارف والعالم يشتركان في الاعتقاد بقبح الزنا والسرقة ، وبما يترتّب عليهما من عقاب الدنيا والآخرة ، ولدى ارتكابه لأحدهما يزول الإيمان ـ وهو نور المعرفة ـ ولا يزول العلم بقبحه ؛ لأنّ العلم لا ينافي المعصية ، أمّا المعرفة فإنّها التزام وحال ، ولا يكون المرء في حال الالتزام غير ملتزم ؛ لذا يقول أبو عبدالله عليه‌السلام تعقيباً على قول رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **لا يزني الزاني وهو مؤمن ...الخ** » « **ينزع منه روح الإيمان** »[(٢)].

ومن هنا ندرك سرّ العدول في تعريف الإيمان عن تعريفه بالعلم أو بالاعتقاد إلى تعريفه بالمعرفة ؛ لأنّ المعرفة تؤثّر في السلوك أثرها في فعل الصالحات وكشفها عن

---

(١) الوسائل : ١٥/٣٢٥ ، باب تعيين الكبائر ، الحديث ٢٠٦٤٦/١٩ .

(٢) المصدر المتقدّم : باب وجوب اجتناب الكبائر ، الحديث ٢٠٦٢٧/٩ .

جميل الصفات. أمّا العلم فحتى لو بلغ درجة الاعتقاد فهو قد لا يؤثّر هذا الأثر، ويكون حينئذٍ حمل العالم للعلم كحمل الحمار للأسفار دون أن ينتفع بما فيها. قال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[1].

٢ ـ الإقرار باللسان

وهو مفسّر في بعض الأخبار بإظهار الشهادتين، والإقرار بهذا المعنى هو مرحلة باتّجاه الإيمان، فما لم يكن المرء مقرّاً بالشهادتين لم يحكم بإسلامه، وما لم يسلم لا يمكنه الوصول إلى الإيمان؛ لأنّ الإسلام أعمّ من الإيمان، فربّ مسلم غير مؤمن، ولكنّ المؤمن لا بدّ أن يكون مسلماً، وقد شبّه الإمام الصادق عليه السلام الإسلام والإيمان بالمسجد الحرام أو الحرم والكعبة، فمن لم يدخل المسجد أو الحرم لم يدخل الكعبة، ومن دخل الكعبة لا بدّ أن يكون قد اجتاز الحرم والمسجد لدخولها. قال عليه السلام: «**الإيمان والإسلام مثل الكعبة الحرام من الحرم، قد يكون في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتّى يكون في الحرم**»[2].

وعن علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديث: «**والإسلام غير الإيمان، وكلّ مؤمن مسلم، وليس كلّ مسلم مؤمناً**»[3].

وبإظهار الشهادتين وإن لم يستتبعهما عمل يتحقّق الإسلام الذي هو إحدى مقوّمات الإيمان.

ففي رواية سماعة عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**الإسلام شهادة أن لا إله إلّا الله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى**

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٤.

(٢) الكافي: ٢/٥٣، باب آخر منه وفيه أنّ الإسلام قبل الإيمان، الحديث ٢/١٥١٠.

(٣) تحف العقول: ٣١٠، جوابه للمأمون في جوامع الشريعة.

ظاهره جماعة الناس ، والإيمان : الهدى ، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام »[(١)].

فإظهار الشهادتين فحسب تترتّب عليه من الأحكام الشرعيّة ما يخرج بها المسلم عن أحكام الكفر ، فيحكم بطهارة بدنه ، ويحقن دمه وماله وعرضه ، ويصحّ تزويجه أو التزويج منه للمسلمة أو للمسلم ويرث مورّثه المسلم ، وما إلى ذلك من أحكام ظاهريّة مهما كان باطنه ، ما لم يتظاهر بإنكار ضرورة من ضرورات الدين[(٢)].

وهذه مرحلة نحو الهدى وثبات القلب والالتزام بما تظاهر به ليكون في المراحل اللّاحقة مؤمناً . وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم حيث قال تعالى : ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِن أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[(٣)].

فالآية تفرّق بين الإيمان والإسلام ، بأنّ الإيمان معنى قائم بالقلب ، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح ، وربّما حتّى مع العمل بالأركان ، ولكن بدون صدق النيّة ، وربّما يكون مع العلم ولكن بدون عقد القلب الطاهر على حقيقة المعرفة واتّباع الرسول فيما جاء به .

والإسلام بدون إيمان لا فائدة فيه سوى ما ذكرناه من آثار من حقن الدماء وغيرها ، وسوى كونه خطوة نحو الإيمان ، وإلّا فهو غير مجدٍ في القرب من الله سبحانه أو نيل الكرامة منه ، وإلى هذا المعنى يشير تعالى بقوله : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ**

---

(١) الكافي : ٢/٤٩ ، باب الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشارك الإيمان ، الحديث ١/١٥٠٤ .

(٢) الضرورة من الدين ما أجمع المسلمون عليه ، وكان معروفاً من الدين عندهم جميعاً ، كوجوب الصلاة مثلاً وغيرها .

(٣) سورة الحجرات : الآيتان ١٤ و ١٥ .

أَسْلَمُوا قُل لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١].

فاعتبر تعالى أنّ نعمته التي يمنّ بها على عباده هي الهداية للإيمان وما يترتّب عليها، أمّا الإسلام وحده فلم تعتبره الآية كذلك؛ إذ هو وحده لا يحقّق إخلاص العبادة التي هي غاية خلق الله للجنّ والإنس، فلا ثواب إلّا على الإيمان لقول أبي عبدالله عليه السلام: «**إنّ الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون، وعليه يتناكحون، والإيمان عليه يثابون**»[٢].

ومع هذا فالإسلام بإظهار الشهادتين مرحلة مهمّة نحو الإيمان؛ إذ أنّها تزيل الحواجز التي يفعلها الكفر بصاحبه فتمنعه من الاختلاط مع المسلمين، والتزاوج معهم، وتبادل الثقة بينه وبينهم، وما إلى ذلك ممّا يحقّقه الإسلام من الاندماج الذي يستفيد به المسلم من المؤمنين بمخالطتهم، إن كانت آثار الإيمان ظاهرة في تصرّفاتهم، وإلّا فبعده عنهم ربّما يكون أفضل له؛ ليعرف الإيمان ممّا أثر على الصالحين، ممّن كانت سيرتهم دعوةً للحقّ بلسان الحال قبل لسان المقال.

٣ ـ العمل بالأركان

الظاهر من ملاحظة كثير من الأخبار التي تعرّضت لبيان معنى الإيمان، أو الأخبار التي تحدّثت عن بعض مكارم الأخلاق، أنّ المقصود بالأركان التي يكون العمل بها مقوّماً لمعنى الإيمان في النفس، هي الواجبات التي أوعد الله تعالى على تركها بالنّار، أو المحرّمات التي أوعد على فعلها بالنّار.

أمّا بعض الخطايا التي لم يرد على فعلها هذا الوعيد فلا ينافي فعلها الإيمان وإن نافى تمام الإيمان.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٧.

(٢) الكافي: ١/١٩٤، باب الاضطرار إلى الحجّة، الحديث ٤/٤٣٠.

وفيما يأتي طائفة من الأخبار التي يمكن أن نحصل منها على تصوّر تامّ لمعنى العمل بالأركان :

١ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه الأصبغ بن نباتة ، فيقول : جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ أُناساً زعموا أنّ العبد لا يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ، ولا يأكل الربا وهو مؤمن ، ولا يسفك الدم الحرام وهو مؤمن ؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : « **صدقت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : والدليل كتاب الله** ـإلى أن قال : ـ **وقد تأتي عليه حالات في قوته وشبابه ، فيهمّ بالخطيئة فيشجعه روح القوّة ، ويزيّن له روح الشهوة ، ويقوده روح البدن ، حتّى توقعه في الخطيئة ، فإذا لامسها نقص من الإيمان وتفصّى منه ، فليس يعود فيه حتّى يتوب ، فإذا تاب تاب الله عليه ، وإن عاد أدخله الله نار جهنّم** »[1].

٢ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن** »[2].

٣ ـ وعن زرارة بن أعين ، قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أرأيت قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « **لا يزني الزاني وهو مؤمن ؟ قال : ينزع منه روح الإيمان** »[3].

٤ ـ وقال عليه السلام : « **قد سمّى الله المؤمنين بالعمل الصالح مؤمنين ، ولم يسمّ من ركب الكبائر وما وعد الله عزّ وجلّ عليه النّار مؤمنين في قرآن ولا أثر ، ولا نسمّهم بالإيمان بعد ذلك الفعل** »[4].

---

(١) الكافي : ٢/٢٩٩ ، باب الكبائر ، الحديث ١٦/٢٤٤٩.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٢١/٢٤٥٤.

(٣) الوسائل : ١٥/٣١٧ ، باب وجوب اجتناب الكبائر ، الحديث ٩/٢٠٦٢٧.

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/٢٠٦٢٥.

ويبدو من قوله عليه السلام: «**لا نسمّهم بالإيمان بعد ذلك الفعل**» أنّ عدم تسميتهم به ما لم يتوبوا عنه؛ لدلالة ما روي عن:

٥ ـ أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام ـ في حديث الإسلام والإيمان ـ قال: «**والإيمان مَن شهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأقرّ بما جاء من عند الله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام شهر رمضان، وحجّ البيت، ولم يلق الله بذنب أوعد عليه... النّار ولم يتب منه**»(١).

ويستفاد من مفهوم ذيل الخبر أنّ مَن تاب من الذنب الذي أوعد عليه النّار يمكن أن يتّصف بالإيمان.

٦ ـ وفي كثير من المباحث السابقة نفت الأخبار صفة الإيمان عن مَن تلبّس ببعض الصفات الذميمة أو ترك التلبّس ببعض الأخلاق الكريمة، وممّا سبق أن رويناه متفرّقاً:

١ ـ «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً**».

٢ ـ «**أنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب**».

٣ ـ «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخلّ العسل**».

٤ ـ «**من تعصّب أو تعصّب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه**».

٥ ـ «**حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتّى تزهد في الدنيا**».

٦ ـ «**لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنّ الضارّ النافع هو الله عزّ وجلّ**».

٧ ـ وفي جواب مَن سأل عمّا يُخرج العبد من الإيمان؟ أجاب الإمام عليه السلام: «**الطمع**»(٢).

---

(١) معاني الأخبار: ٣٨١، باب نوادر المعاني، الحديث ١٠.

(٢) الكافي: ٢/٣٣٤، باب الطمع، الحديث ٤/٢٥٩٦. الوسائل: ١٦/٢٤، باب كراهة الطمع، الحديث ٤/٢٠٨٦٧.

هذا ونخلص من استحضار هذه النماذج إلى :

١ ـ أنّ كلّ ذنب استحقّ به صاحبه دخول النّار فهو منافٍ للإيمان ؛ لعدم توفّر شرط العمل بالأركان .

٢ ـ الذنوب التي نصّت أخبار خاصّة بها على أنّها تنافي الإيمان ، كالزنا ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأكل الربا ، والأمن من مكر الله ، والحسد ، والغضب ، والتعصّب ، وترك الزهد ، وإنكار القضاء والقدر ، والطمع ، وغيرها .

٣ ـ ترك الواجبات التي هي من ضرورات الدين ، مثل : الصلاة ، والصيام ، والحجّ ، وأداء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

٤ ـ الكبائر التي لم يتب عنها فاعلها ، فما دام غير تائب فليس بمؤمن ، فإذا تاب منها جميعاً اتّصف بالإيمان ، ومتى صدرت منه واحدة منها ـ ولم يتب منها ـ خرج عنه الإيمان ، وهكذا .

٥ ـ إذا كانت الخطيئة من الصغائر لا تُخرج من الإيمان ، إلّا أنّ الإصرار عليها بما أنّه كبيرة فإنّه يخرج صاحبه من الإيمان حتّى يتوب منه ، ولعلّ هذا المعنى هو المقصود بما روي عن الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام في جواب مَن سأله عن الكبائر تخرج من الإيمان ؟ فأجاب عليه السلام : « نعم ، وما دون الكبائر . قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن »[(١)] .

ويبدو أنّ استشهاده عليه السلام بما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله إنّما هو لإخراج الكبائر عن الإيمان ، وليس للتدليل على إخراج ما دون الكبائر ؛ لأنّ هذه الأمثلة من مصاديق الكبائر قطعاً ، إلّا أن يكون عليه السلام مثّل بها في حالة عدم التوبة والإصرار عليها ، ومعلوم أنّ الإصرار على الذنوب ، كبائرها وصغائرها ، مخرج من الإيمان ؛ لأنّه بنفسه كبيرة ، فالاستشهاد لبيان منافاة الكبيرة للإيمان طبقاً للسؤال .

---

(١) الوسائل : ٣٢٥/١٥ ، باب تعيين الكبائر التي يجب اجتنابها ، الحديث ١٨/٢٠٦٤٥ .

إذن فما انتهينا إليه هو أنّ الإيمان يتكوّن من ثلاث مقوّمات: الإقـرار بـاللسان، بالتوحيد، والنبوّة وبما جاء بـه مـحمّد ﷺ، والعـمل بـالأحكام الشـرعيّة بـحيث لا يخالف ركناً منها، وإن خالف بادر للتوبة.

والمعرفة القلبيّة للاعتقادات المعبّر عنها بأُصول الدين الإسلامي:

٢ ـ درجات الإيمان

الإيمان ـ وهو الصفة المتقوّمة بالاعتقاد والعمل والقول ـ على درجات ومراتب، فهو من المفاهيم التي تقبل الشدّة والضعف. ولعلّ أوّل مراتبه ما يحصل بعد الإسلام ـ الذي هو قبول ظواهر الأوامر والنواهي بتلقّي الشهادتين لساناً وإن خالف القلب ـ وأوّل ما يحصل بعد مرتبة الإسلام هذه هو أوّل مراتب الإيمان، وهو الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً مع العمل في غالب الفروع. ثمّ المرتبة الثانية من الإيمان وهي الاعتقاد التفصيلي في سبيل الله بـبذل النـفس والمـال. قـال تـعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[1].

وممّا دلّ على وجود مرتبة ثانية للإيمان قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ** ﴾[2].

فقوله تعالى: ﴿ **أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ... تُؤْمِنُونَ...** ﴾ خطاب للمؤمنين، فلو كان الإيمان الذي دلّ المؤمنين عليه هو الإيمان الأوّل لكان تحصيلاً للحاصل.

فإذا لم يجد المؤمن في باطنه وسرّه إلّا الانقياد الكامل لأوامر الله ونواهيه دون أن يحسّ في باطنه بأيّ حرج في التطبيق، وعبد الله كأنّه يراه، كانت هذه الحالة أعلى

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٥.

(٢) سورة الصفّ: الآيتان ١٠ و ١١.

من الأُولى والثانية ، ولعلّ ما يشير إليها في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾[1] ، ومن لوازم هذه المرتبة الإعراض عن اللغو ، والتخلّق بالأخلاق الفاضلة من رضا وتسليم واحتساب وصبر في الله وزهد وورع ، وحبّ وبغض في الله تعالى ؛ لأنّ الأخلاق صدور الأفعال بسهولة ، وهي لا تحصل بدون هذا النوع من الإيمان الذي لا يجد معه المؤمن حرجاً في نفسه ممّا يتلقّاه من تعاليم وانقياده لها ، وقد يرتقي المؤمن إلى حالة العبوديّة لله سبحانه واليقين بأنّ العبد لا استقلال له أو لغيره من الموجودات عن الله تعالى ، ولا تأثير لسبب من الأسباب إلّا بإذنه ، وحينئذٍ لا يحزن من مكروه ولا يخاف من محذور محتمل الوقوع ، وهذا النوع من الرؤية والمعرفة تشدّ المؤمن إلى ربّه إلى الحدّ الذي لا يتصرّف ـ معه ـ إلّا لرضاه تعالى ولا ينقاد إلّا له ، ولعلّ خبر حارثة الأنصاري يشير إلى هذه المرتبة .

فعن الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام فيما يروى عنهما : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله استقبل حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري ، فقال له : « **كيف أنت يا حارثة بن مالك النعماني ؟** » ، فقال : يا رسول الله ، مؤمن حقّاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « **لكلّ شيء حقيقة ، فما حقيقة قولك ؟** » ، فقال : « **يا رسول الله ، عزفَت نفسي عن الدنيا ، فاسهرت ليلي ، واضمأتُ هواجري ، وكأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد وضع للحساب ، وكأنّ أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون في الجنّة ، وكأنّي أسمع عواء أهل النّار في النّار ، فقال رسول الله** صلى الله عليه وآله : **عبد نوّر الله قلبه ، أبصرت ، فاثبت** »[2] .

---

(١) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٢) الكافي : ٢/٨٠ ، باب حقيقة الإيمان واليقين ، وهذا الحديث لم يرو عن الإمام الكاظم عليه السلام ، الحديث ٣/١٥٤٦ .

هذه نماذج لمراتب الإيمان ودرجاته، ذكرتها لا على نحو تحديد المرتبة، وإنّما لبيان تدرّج الإيمان وتعدّد مراتبه.

وفي أخبار أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ على مراتب الإيمان، وفي بعضها ما يحدّد درجاته بعشر، ومن هذه الأخبار:

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**إنّ الله وضع الإيمان على سبعة أسهم: على البرّ، والصدق، واليقين، والرضا، والوفاء، والعلم، والحلم. ثمّ قسّم ذلك بين النّاس، فمن جعل فيه السبعة أسهم فهو كامل محتمل، وقسم لبعض الناس السهم، ولبعضهم السهمين، ولبعضهم الثلاثة، حتّى انتهوا إلى سبعة**».

ثمّ قال عليه السلام: «**لا تحملوا على صاحب السهم سهمين، ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهظوهم**»، ثمّ قال كذلك حتّى انتهى إلى السبعة[1].

٢ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتّى ينتهي إلى العاشرة، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت مَن هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ مَن كسر مؤمناً فعليه جبره**»[2].

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ستّ، ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة اثنتين لم يقوَ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقوَ، وعلى صاحب الثلاث أربعاً لم يقوَ، وعلى صاحب الأربع خمساً لم يقوَ، وعلى صاحب الخمس ستّاً لم يقوَ، وعلى صاحب الستّ سبعاً لم يقوَ.**

---

(١) الوسائل: ١٦/١٥٩، باب استحباب الرفق بالمؤمنين في أمرهم، الحديث ٢/٢١٢٤١

(٢) المصدر المتقدّم: ١٦٢، الحديث ٥/٢١٢٤٤.

وعلى هذه الدرجات»[١].

٤ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ما أنتم والبراءة يبرء بعضكم من بعض ، إنّ المؤمنين بعضهم أفضل من بعض ، وبعضهم أكثر صلاة من بعض ، وبعضهم أنفذ بصراً (بصيرة) من بعض ، وهي الدرجات** »[٢].

٥ ـ وعن عمّار بن أبي الأحوص ، قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : إنّ عندنا قوماً يتولّون بأمير المؤمنين عليه السلام ويفضّلونه على النّاس كلّهم ، وليس يصفون ما نصف من فضلكم ، أنتولّاهم ؟ فقال لي : « **نعم في الجملة ، أليس عند الله ما لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولرسول الله صلى الله عليه وآله عند الله ما ليس لنا ، وعندما ليس عندكم ، وعندكم ما ليس عند غيركم . . .** »[٣].

هذا ولا تنافي بين روايتي السبع ورواية العشر؛ لأنّ روايتي السبع ـ وإن قصد بالمنازل أو السهام الواردة فيهما الدرجات ـ لا دلالة فيها على الحصر بهذا العدد . ورواية العشرة مؤيّدة بغيرها من أخبار بيان درجات الإيمان ، ودرجات الإيمان يمتاز بعضها عن البعض باختلاف المعرفة ؛ اذ يرى من كان في درجة أعلى ما لا يراه من هو في درجة أدنى ، بل يرى الأعلى أنّ إيمان الأدنى شرك بالله بالنسبة إليه ، فإيمان الأدنى مع تعلّقه بالأسباب هو شرك بالنسبة إلى حال المتوكّلين ، وإن كان إيماناً بالنسبة لمن دونهم ،كما أنّ الأدنى إيماناً قد يرى مَن هو أعلى درجة منه متجاوزاً للمعقول أو هو على نحو من أنحاء الكفر، ومن هذه الرؤية ما ورد : « **لو علم أبو ذرّ ما في قلب سلمان لقتله** » ، أو لقال : « **رحم الله قاتله** » ، أو ما ورد : « **لو عرض سلمان علمه على المقداد لكفر**»[٤].

---

(١) الوسائل : ١٦/١٦٣ ، باب استحباب الرفق بالمؤمنين في أمرهم ، الحديث ٦/٢١٢٤٥ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/٢١٢٤٦.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٩/٢١٢٤٨.

(٤) الاختصاص : ١١ ، ذكر السابقين المقربين من أمير المؤمنين عليه السلام .

إلّا أنّ النبيّ ﷺ كان يكلّم كلّ ذي درجة بما يناسب حاله وما يتحمّله عقله. ومن هذا ورد عنه ﷺ قوله: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم النّاس على قدر عقولهم**»(١)، ولهذا أمر المعصومون: برفق الأعلى إيماناً بالأدنى ليرفعه إلى درجته ولا يحمّله ما لا يطيق فيبهضه أو يكسره(٢). ومع هذا الاختلاف بين النّاس في درجة الإيمان، فإنّ بين المؤمنين منهم جميعاً قاسماً مشتركاً وجامعاً واحداً هو طاعة الله في اطار ما شرعه لهم، وإن اختلفت دواعي الطاعة واختلفت الغاية منها.

٣ ـ خصال المؤمن

في عدّة من الأخبار وردت للمؤمن خصال، وهي وإن كان في بعضها عنوان ينبغي الذي لا يفيد اللزوم، وفي بعضها الآخر أنّ بعض هذه الخصال يحصل بها كمال الإيمان، إلّا أنّ الكثير منها وردت فيها الخصال من لوازم مطلق الإيمان، ممّا يفيد لزومها في حصول الإيمان ولو بأدنى درجاته.

ويستبعد أن يراد هذا الإطلاق؛ لأنّه يستلزم ندرة وجود المؤمن، بخاصّة في هذا الزمان الذي يندر فيه اجتماع هذه الخصال في شخص واحد، وبالتالي يلزم رجوع النّاس إلى ماكان عليه بعض الأعراب الذين وصفهم القرآن بـ: ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾(٣).

ومن يطّلع على خصال المؤمن التالية سيشاركني الرأي بأنّها خصال ذوي الدرجات العالية من الإيمان، أو أنّ معظمها كذلك. والأخبار المتضمّنة للخصال هي:

١ ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**ثلاث خصال مَن كنّ فيه استكمل خصال الإيمان: إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحقّ، وإذا قدر**

(١) راجع الصفحة ١١٧ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٢.
(٢) راجع الصفحة ١١٦ من هذا الكتاب.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٤.

لم يتعاط ما ليس له»[١] .

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن صفة المؤمن ، فقال : « **عشرون خصلة في المؤمن ، فإن لم تكن فيه لم يكمل إيمانه ، إنّ من أخلاق المؤمنين يا عليّ : الحاضرون الصلاة ، والمسارعون إلى الزكاة ، والمطعمون للمسكين ، الماسحون لرأس اليتيم ، المطهّرون أطمارهم ، المتّزرون على أوساطهم ، الذين إن حدّثوا لم يكذّبوا ، وإن وعدوا لم يخلفوا ، وإن ائتمنوا لم يخونوا ، وإن تكلّموا صدقوا ، رهبان الليل أُسد بالنهار ، صائمون النهار قائمون الليل ، لا يؤذون جاراً ولا يتأذّى بهم جار ، الذين مشيهم على الأرض هون ، وخطاهم على بيوت الأرامل وعلى أثر الجنائز ، جعلنا الله وإيّاكم من المتّقين**»[٢] .

٣ ـ وعن الحسين عليه السلام ، قال : « **إيّاك وما تعتذر منه ، فإنّ المؤمن لا يُسيئ ولا يعتذر ، والمنافق كلّ يوم يسيئ ويعتذر**»[٣] .

٤ ـ وعن عليّ بن الحسين عليهما السلام ، قال : « **إنّ من أخلاق المؤمن الانفاق على قدر الإقتار ، والتوسّع على قدر التوسّع ، وإنصاف الناس وابتداؤه إيّاهم بالسلام عليهم**»[٤] .

٥ ـ وقال عليه السلام : « **المؤمن ينصت ليسلم ، وينطق ليغنم ، لا يحدّث أمانته الأصدقاء ، ولا يكتم شهادته من البعداء ، ولا يعمل شيئاً من الخير رياءً ولا يتركه حياءً ، إن زكّي خاف ما يقولون ، ويستغفر الله لما لا يعلمون ، لا يغرّه قول من جهله ، ويخاف إحصاء ما عمله**»[٥] .

---

(١) الوسائل : ١٩٠/١٥ ، باب استحباب ملازمة الصفات الحميدة ، الحديث ٢٠/٢٠٢٤٦.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٥/٢٠٢٤١.

(٣) الوسائل : ١٥٩/١٦ ، باب كراهة التعرّض لما لا يطيق ، والدخول فيما يوجب الاعتذار ، الحديث ٣/٢١٢٣٨.

(٤) الكافي : ٢٦٧/٢ ، باب المؤمن وعلاماته وصفاته ، الحديث ٣٦/٢٣٠٧.

(٥) الوسائل : ١٨٦/١٥ ، باب استحباب ملازمة الصفات الحميدة ، الحديث ١٢/٢٠٢٣٨.

٦ ـ وقال عليه السلام: «**ما أحبّ أنّ لي بذلّ نفسي حمر النعم**»(١).

٧ ـ وفي وصيّة أبي جعفر عليه السلام لجابر الجعفي، قال: «**يا جابر، مَن دخل قلبه خالص حقيقة الإيمان شُغل عمّا في الدنيا من زينتها، إنّ زينة زهرة الدنيا إنّما هو لعب ولهو... يا جابر، إنّ المؤمن لا ينبغي له أنْ يركن وطمئنّ إلى زهرة الدنيا، واعلم أنّ أبناء الدنيا هم أهل غفلة وغرور وجهالة، وأنّ أبناء الآخرة هم المؤمنون العاملون الزاهدون، أهل العلم والفقه وأهل فكرة واعتبار، لا يملّون من ذكر الله**».

إلى أن يقول: «**فانزل نفسك من الدنيا كمثل منزل نزلته ساعة ثمّ ارتحلت عنه، أو كمثل مال استفدته في منامك، ففرحت به وسررت ثمّ انتبهت من رقدتك وليس في يدك شيء، وإنّي إنّما ضربت لك مثلاً لتعقل وتعمل به إن وفّقك الله له**»(٢).

٨ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثماني خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانعاً بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والنّاس منه في راحة، إنّ العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل أمير جنوده، والرفق أخوه، والبرّ [اللين] والده**»(٣).

٩ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**المؤمن له قوّة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وحرص في فقه، ونشاط في هدى، وبرّ في استقامة، وعلم في حلم، وكيس [شكر] في رفق، وسخاء في حقّ، وقصد في غنىً، وتحمّل في فاقة، وعفو في قدرة، وطاعة لله في نصيحة، وانتهاء في شهوة، وورع في رغبة، وحرص في جهاد، وصلاة في شغل، وصبر في شدّة، وفي الهزاهز وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور،**

---

(١) الكافي: ١٣٨/٢، باب كظم الغيظ، الحديث ١/١٧٩١.
(٢) تحف العقول: ٢٠٥، من كلام الإمام الباقر عليه السلام لجابر أيضاً.
(٣) الكافي: ٧٣/٢، باب خصال المؤمن، الحديث ١/١٥٣٢.

ولا يغتاب ولا يتكبّر ، ولا يقطع الرحم ، وليس بواهن ولا فظّ ولا غليظ ، ولا يسبقه بصره ، ولا يفضحه بطنه ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يحسد النّاس ، يعيَّر ولا يعيِّر ، ولا يسرف ، ينصر المظلوم ، ويرحم المسكين ، نفسه منه في عناء ، والنّاس منه في راحة ، ولا يرغب في عزّ الدنيا ، ولا يجزع من ذلّها ، للنّاس همّ قد أقبلوا عليه وله همّ قد شغله ، لا يرى في حلمه نقص ولا في رأيه وهن ولا في دينه ضياع. يرشد من استشاره ، ويساعد من ساعده ، ويكيع عن الخنا والجهل »(١).

١٠ ـ وقال عليه‌السلام : « المؤمن حليم لا يجهل ، وإن جهل عليه يحلم ، ولا يظلم ، وإن ظُلم غفر ، ولا يبخل ، وإن بُخل عليه صبر »(٢).

١١ ـ وقال عليه‌السلام : « المؤمن مَن طاب مكسبه ، وحسنت خليقته ، وصحّت سريرته ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من كلامه ، وكفى النّاس شرّه ، وأنصف النّاس من نفسه »(٣).

١٢ ـ وقال عليه‌السلام : « المؤمن حسن المعونة ، خفيف المؤونة ، جيّد التدبير لمعيشته ، ولا يُلسع من جحرٍ مرّتين »(٤).

١٣ ـ وقال عليه‌السلام : « إنّ الله فوّض إلى المؤمن أموره كلّها ، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً ، أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٥) ، فالمؤمن يكون عزيزاً ، ولا يكون ذليلاً » ، ثمّ قال : « إنّ المؤمن أعزّ من الجبل ، إنّ الجبل يستقلّ منه بالمعاول ، والمؤمن لا يستقلّ من دينه شيء »(٦).

---

(١) الوسائل : ١٨٧/١٥ ، باب استحباب ملازمة الصفات الحميدة... ، الحديث ١٤/٢٠٢٤٠.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٧/٢٠٢٤٣.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٨/٢٠٢٤٤.

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٢٩/٢٠٢٥٥.

(٥) سورة المنافقون : الآية ٨.

(٦) الوسائل : ١٥٦/١٦ ، باب كراهة التعرّض للذلّ ، الحديث ١/٢١٢٣٢.

١٤ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى المؤمن كلّ شيء إلّا إذلال نفسه** »(١).

١٥ ـ وقال عليه السلام : « **لا ينبغي للمؤمن أنْ يذلّ نفسه** » ، قيل له : وكيف يذلّ نفسه ؟ قال : « **يتعرّض لما لا يطيق** »(٢).

١٦ ـ وعن مفضّل بن عمر ، قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « **لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه** » ، قلت : بما يذلّ نفسه ؟ قال : « **[لا] يدخل فيما يعتذر منه** »(٣).

١٧ ـ وعن الرضا عليه السلام ، قال : « **لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون فيه ثلاث خصال : سنّة من ربّه ، وسنّة من نبيّه صلى الله عليه وآله ، وسنّة من وليّه عليه السلام ، فأمّا السنّة من ربّه فكتمان السرّ ، وأمّا السنّة من نبيّه فمداراة النّاس ، وأمّا السنّة من وليّه فالصبر في البأساء والضراء** »(٤).

١٨ ـ وقال عليه السلام : « **لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتّى تكون فيه خصال ثلاث : التفقّه في الدين ، وحسن التقدير في المعيشة ، والصبر على الرزايا** »(٥).

١٩ ـ وعن الإمام العسكري عليه السلام ، قال : « **ما أقبح بالمؤمن أنْ تكون له رغبة تذلّه** »(٦).

هذه خصال وصفات المؤمن فهل شاركتني الرأي في أنّها لو كانت خصالاً للمؤمن ـ وإن كان من ذوي الدرجة الأُولى ـ يندر وجود المتّصف بها ؟ ! وبالتالي يندر وجود المؤمن في هذا الزمان ؟ !

---

(١) الوسائل : ١٥٧/١٦ ، باب كراهة التعرّض للذلّ ، الحديث ٣/٢١٢٣٤.

(٢) المصدر المتقدّم : باب كراهة التعرّض لما لا يطيق ، الحديث ١/٢١٢٣٦.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٢/٢١٢٣٧.

(٤) مستدرك الوسائل : ٣٧/٩ ، باب استحباب مداراة النّاس ، الحديث ٥/١٠١٣٨.

(٥) بحار الأنوار : ٢١٣/١ ، باب ٦ : العلوم التي أمر النّاس بتحصيلها وينفعهم وفيه تفسير الحكمة ، الحديث ١١.

(٦) تحف العقول : ٣٦٣ ، قصار المعاني.

ولكن يمكن القول بأنّها صفات كاملي الإيمان أو مقاربي الكمال؛ ليتسنّى لنا القول بوجود بعض المؤمنين اليوم.

والله اسأل أن ينوّر قلوبنا بالإيمان، ويوفّقنا لأعلى درجاته وأرفع سماته.

٤ ـ حقوق المؤمن

تمهيد

قد عرفت المؤمن وما يتشخّص به من خصال، أمّا الحقوق فهي جمعٌ مفرده الحقّ، والحقّ له عدّة معانٍ[1]، والمقصود منها في العنوان: ما ثبت لصاحبه استيفاؤه ممّن هو عليه بمقتضى الشرع.

وهو بهذا المعنى ينقسم إلى واجب كنفقة من تجب نفقته، كالزوجة، ومستحبّ، كسلام الواحد على الجماعة.

وقد شرع الله سبحانه جميع أحكامه التكليفيّة الأربعة[2] للقيام بأداء الحقوق، سواء أكانت حقوقاً لله سبحانه أو لنفس المكلّف على نفسه أو للموجودات الأُخرى بما فيها الحيوان والإنسان وكلّ ما يتصرّف به.

وفيما يتعلّق بحقوق الإنسان ـ موضوع البحث ـ جعل سبحانه وتعالى متعلّق الحقّ عنواناً ووصفاً يتعنون به ويتّصف به من جعل الله له ذلك الحقّ، مثل عنوان الإنسانيّة والإسلام والإيمان والأُبوّة والبنوّة والزوجيّة والقرابة والصداقة والرفقة والعالمية والإمامة والحاكميّة والأُستاذية، وغيرها من الأوصاف التي جُعلت موضوعاً للإلزام بالحقّ أو الندب إليه.

---

(١) انظر القاموس المحيط: ٨٧٤، مادة «حقق».

(٢) وهي الوجوب والتحريم والندب والكراهة، فإنّها جميعاً تشترك في رعاية حقّ الله على عباده وتتوزّع على رعاية بعضهم لبعض.

وقد تجتمع في مصداق واحد عدّة عناوين تقتضي استحقاقه للحقوق المتعلّقة بها ، كأن يكون عالماً مسلماً مؤمناً أباً رفيقاً أُستاذاً مربّياً . . . الخ من العناوين التي رتّب الشارع المقدّس لكلّ وصف منها حقّاً أو حقوقاً ، فيكون المتلبّس بهذه الأوصاف جميعاً وغيرها يستحقّ جميع مالها من حقوق .

وإذ نتحدّث عن حقوق المؤمن ، فإنّما نتحدّث عمّا جعله الله تعالى له من حقوق بلحاظ عنوان الإيمان فحسب ، وإن كان المتّصف به يتّصف بعناوين أُخرى هي أيضاً ممّا تستدعي حقوقاً إضافيّة بحسب عناوينها التي جعل الله سبحانه لها حقوقها الخاصّة بها .

وفيما يأتي أورد جملة من الأخبار التي تضمّنت بيان حقوق المؤمن ، وهي حقوق كثيرة وجليلة ؛ لما لهذه الصفة عند الله سبحانه من فضل وكرامة .

وسأُصنّف هذه الأخبار على أنواع الحقوق وفق تصنيفها الوارد في كتب الحديث ، وهو :

١ ـ إكرام المؤمن

والإكرام من أكرم أو كرّم بمعنى عظّم ونزّه[1] . فإكرام المؤمن تعظيمه وتنزيهه ممّا ينافي ما يتّصف به من صفة الإيمان العظيمة التي تُنزّه النفس من كلّ شين وشائبة .

والإكرام بهذا المعنى لا ينحصر بفعل محدّد ، بل له مبرزات ومظاهر كثيرة ، أذكر من مصاديقه ما تضمّنته بعض الأخبار الآتية :

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **أيّما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفاً بحقّه ، كتب الله له بكلّ خطوة حسنة ، ومُحيت عنه سيّئة ، ورفعت له درجة** » ـ إلى أن قال : ـ « **فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا أقبل الله عليهما بوجهه ، ثمّ باهى بهما الملائكة ، فيقول : انظروا**

---

(١) القاموس المحيط : ١١٥٣ ، مادة « كرم » .

إلى عبدي تزاوروا وتحاباً فيّ ، حقّ علَيّ أن لا أُعذّبهما بالنار بعد ذلك الموقف »[١] .

٢ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إنّ المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة ، فإذا التزما لا يريدان بذلك إلّا وجه الله ، ولا يريدان غرضاً من أغراض الدنيا ، قيل لهما مغفور لكما فاستأنفا ، فإذا أقبلا على المساءلة قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحّوا عنهما ، فإنّ لهما سرّاً وقد ستره الله عليهما »**[٢] .

٣ ـ وعنه عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **مَن أكرم أخاه المؤمن بكلمة يلطّف بها ، وفرّج عنه كربته ، لم يزل في ظلّ الله الممدود عليه من الرحمة ما كان في ذلك »**[٣] .

٤ ـ وعنه عليه السلام فيما يرويه عنه المفضّل قال : « **إنّ المؤمن ليتحف أخاه التحفة** » ، قلت : وأي شيء التحفة ؟ قال : « **مَن مجلس وَمُتّكأ وطعام وكسوة وسلام ، فتطاول الجنة مكافأة له »**[٤] .

٥ ـ وقال عليه السلام : « **مَن أتاه أخوه المسلم**[٥] **فأكرمه ، فإنّما أكرم الله عزّ وجلّ »**[٦] .

٦ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **مَن قال لأخيه مرحباً ، كتب الله له مرحباً إلى يوم القيامة »**[٧] .

٧ ـ وقال عليه السلام : « **مَن أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاة ، كتب الله عزّ وجلّ له عشر حسنات ، ومَن تبسّم في وجه أخيه كانت له حسنة »**[٨] .

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٣١ ، باب استحباب المعانقة للمؤمن ، الحديث ١٦١٦٦/١ .
(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦١٦٧/٢ .
(٣) الوسائل : ١٦/٣٧٦ ، باب استحباب إكرام المؤمن ، الحديث ٢١٨٠٥/٢ .
(٤) المصدر المتقدّم : باب استحباب ألطاُ المؤمن واتحافه ، الحديث ٢١٨٠٣/٤ .
(٥) المقصود بـ« أخوه المؤمن » هو المؤمن؛ لأنّ الاخوّة تكون بالإيمان لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ سورة الحجرات : الآية ١٠ .
(٦) الوسائل : ١٦/٣٧٦ ، باب استحباب إكرام المؤمن ، الحديث ٢١٨٠٤/١ .
(٧) المصدر المتقدّم : باب استحباب الطاف المؤمن واتحافه ، الحديث ٢١٨٠١/٢ .
(٨) المصدر المتقدّم : الحديث ٢١٨٠٠/١ .

٢ ـ إدخال السرور على المؤمن:

وفي الحثّ عليه وبيان فضله أخبار كثيرة أذكر منها:

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَن سرّ مؤمناً فقد سرّني، ومن سرّني فقد سرّ الله عزّ وجلّ**»[١].

٢ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**تبسّم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرفه القذى عنه حسنة، وما عُبد الله بشيء أحبّ إلى الله من إدخال السرور على المؤمن**»[٢].

٣ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنّه عليه أدخله فقط، بل والله علينا، بل والله على رسول الله صلى الله عليه وآله**»[٣].

٤ ـ وقال عليه السلام: «**من أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ إدخال السرور على المؤمن: إشباع جوعته، أو تنفيس كربته، أو قضاء دَينه**»[٤].

٥ ـ وقال عليه السلام: «**من سرّ امرئ مؤمناً سرّه الله يوم القيامة، وقيل له تمنّ على ربّك ما أحببت، فقد كنت تحبّ أن تسرّ أوليائي في دار الدنيا، فيعطى ما تمنّى ويزيده الله من عنده ما لم يخطر على قلبه من نعيم الجنّة**»[٥].

٦ ـ وعن الرضا عليه السلام، قال: «**مَن تبسّم في وجه أخيه المؤمن كتب الله له حسنة، ومَن كتب الله له حسنة لم يعذّبه**»[٦].

٧ ـ وعن أبان بن تغلب، قال: سألت أبا عبدالله عن حقّ المؤمن على المؤمن

---

(١) الوسائل: ٣٤٩/١٦، باب استحباب إدخال السرور على المؤمن، الحديث ١/٢١٧٣٣.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٢/٢١٧٣٤.

(٣) المصدر المتقدّم: الحديث ٣/٢١٧٣٥.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ٦/٢١٧٣٨.

(٥) الوسائل: ٣٥٥/١٦، باب استحباب إدخال السرور على المؤمن، الحديث ١٦/٢١٧٤٨.

(٦) الوسائل: ١٢٠/١٢، باب استحباب التبسّم في وجه المؤمن، الحديث ١/١٥٨٢١.

فقال : « **حقّ المؤمن على المؤمن أعظم من ذلك ، لو حدّثتكم لكفرتم ...** »[١] ..

٣ ـ تفريج كرب المؤمن :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **مَن أغاث أخاه المؤمن اللهفان عند جهده فنفّس كربته ، وأعانه على نجاح حاجته ، كتب الله عزّ وجلّ له بذلك ثنتين وسبعين رحمة من الله ، يعجّل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته ، ويدّخر له إحدى وسبعين رحمة لإفزاع يوم القيامة وأهواله** »[٢].

٢ ـ وعنه عليه‌السلام ، قال : « **أيمّا مؤمن نفّس عن مؤمن كربة وهو معسر ، يسّر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة. ومَن ستر على مؤمن عورة يخافها ، ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة** » ، قال : « **والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه ، فانتفعوا بالعظة ، وارغبوا في الخير** »[٣].

٣ ـ وقال عليه‌السلام : « **مَن نفّس عن مؤمن كربة نفّس الله عنه كرب الآخرة ، وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد ، ومَن أطعمه من جوع أطعمه الله من ثمار الجنّة ، ومَن سقاه شربة سقاه الله من الرحيق المختوم** »[٤].

٤ ـ وقال عليه‌السلام فيما رواه عن آبائه عليهم‌السلام ، عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، قال : « **مَن فرّج عن مؤمن كربة فرّج الله عنه اثنتين وسبعين كربة من كُرب الآخرة ، واثنتين وسبعين كربة من كُرب الدنيا ، أهونها المغص** »[٥].

٥ ـ وعن الرضا عليه‌السلام ، قال : « **مَن فرّج عن مؤمن فرّح الله قلبه يوم القيامة** »[٦].

---

(١) الكافي : ٢/٢٢٠ ، باب إدخال السرور على المؤمنين ، الحديث ٢١٢٩/١٠

(٢) الوسائل : ١٦/٢٧٠ ، باب استحباب تفريج كرب المؤمن ، الحديث ٢١٧٨٩/١.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٢١٧٩٠/٢.

(٤) الكافي : ٢/٢٢٩ ، باب تفريج كرب المؤمن ، الحديث ٢١٦٣/٣.

(٥) الوسائل : ١٦/٣٧٢ ، باب استحباب تفريج كرب المؤمن ، الحديث ٢١٧٩٥/٧.

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٢١٧٩٤/٦.

٤ ـ السعي في قضاء حاجته:

١ ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**مَن قضى لأخيه المؤمن حاجة، كان كمن عبدَ الله دهره**»[(١)].

٢ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إنّ المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه، فلا تكون عنده، يهتمّ بها قلبه، فيدخله الله بهمّه الجنّة**»[(٢)].

٣ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: إنّ من عبادي لمن يتقرّب إليّ بالحسنة فاحكمه في الجنّة. قال موسى: يا ربّ، وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قُضيت أمْ لمْ تُقض**»[(٣)].

٤ ـ وقال عليه السلام: «**إنّ لله عباداً يحكّمهم في جنّته**». قيل: ومَن هم؟ قال: «**مَن قضى لمؤمن حاجة بنيّة**»[(٤)].

٥ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**مشي الرجل في حاجة أخيه المؤمن يكتب له عشر حسنات، وتُمحى عنه عشر سيّئات، وتُرفع له عشر درجات**»[(٥)].

٦ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**ومَن قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله له يوم القيامة مئة ألف حاجة، من ذلك أوّلها الجنّة، ومن ذلك أنْ يدخل قرابته ومعارفه وإخوانه الجنّة، بعد أن لا يكونوا نصّاباً**»[(٦)].

٧ ـ وعنه عليه السلام فيما روى عنه إسماعيل بن عمّار، قال الراوي: «المؤمن رحمة

---

(١) الوسائل: ٣٦١/١٦، باب استحباب قضاء حاجة المؤمن، الحديث ١١/٢١٧٦٣.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٣/٢١٧٥٥.

(٣) المصدر المتقدّم: الحديث ٨/٢١٧٦٠.

(٤) الوسائل: ٣٦٢/١٦، باب استحباب قضاء حاجة المؤمن والاهتمام بها، الحديث ١٥/٢١٧٦٧.

(٥) المصدر المتقدّم: باب استحباب السعي في قضاء حاجة المؤمن، الحديث ١/٢١٧٧٥.

(٦) المصدر المتقدّم: باب استحباب قضاء حاجة المؤمن والاهتمام بها، الحديث ١/٢١٧٥٣.

على المؤمن ؟ ». قال : « **نعم** ». قلت : وكيف ذاك ؟ قال : « **أيّما مؤمن أتى أخاه في حاجة فإنّما ذلك رحمة من الله ساقها إليه وسبّبها له ، فإنْ قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها ، وإنْ ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها ، فإنّما ردّ عن نفسه رحمة من الله عزّ وجلّ ساقها إليه وسبّبها له . وذخر الله عزّ وجلّ تلك الرحمة إلى يوم القيامة ، حتّى يكون المردود عن حاجته هو الحاكم فيها ، إن شاء صرفها إلى نفسه ، وإن شاء صرفها إلى غيره** »(١) .

٨ ـ وقال عليه‌السلام : « **تنافسوا في المعروف لاخوانكم ، وكونوا من أهله ، فإنّ للجنّة باباً يقال له « المعروف » ، لا يدخله إلّا مَن اصطنع المعروف في الحياة الدنيا ، فأنّ العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكّل الله عزّ وجلّ به ملكين : واحد عن يمينه وآخر عن شماله ، يستغفران له ربّه ، ويدعوان بقضاء حاجته** » ، ثمّ قال : « **والله لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أسرّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة** »(٢) .

٩ ـ وعنه عليه‌السلام قال لأحد أصحابه : « **يا عثمان ، إنّك لو علمت ما منزلة المؤمن من ربّه ، ما توانيت في حاجته ، ومَن أدخل على مؤمن سروراً فقد أدخل على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وقضاه حاجة المؤمن ، يدفع الجنون والجذام والبرص** »(٣) .

١٠ ـ وعنه عليه‌السلام ، قال : « **يؤتى بعبد يوم القيامة ليست له حسنة ، فيقال له : اذكر هل لك من حسنة ؟ فيقول : ما لي من حسنة إلّا أنّ فلاناً عبدك المؤمن مرّ بي فطلب منّي ماءً يتوضّأ به ليصلّي فأعطيته ، فيدعى بذلك المؤمن فيذكّره ذلك ، فيقول : نعم يا ربّ ، فيقول الربّ تبارك وتعالى : قد غفرت لك ، ادخلوا عبدي الجنّة** »(٤) .

---

(١) الكافي : ٢/٢٢٣ ، باب قضاء حاجة المؤمن ، الحديث ٥/٢١٤٠ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٢٢٤ ، الحديث ١٠/٢١٤٥ .

(٣) الوسائل : ١٦/٣٥٩ ، باب استحباب قضاء حاجة المؤمن والاهتمام بها ، الحديث ٧/٢١٧٥٩ .

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٤/٢١٧٦٦ .

١١ ـ وقال عليه السلام : « لقضاء حاجة امرئ مؤمن أحبّ إلى الله من عشرين حجّة ، كلّ حجّة ينفق فيها صاحبها مئة ألف »[١].

١٢ ـ وقال عليه السلام : « مَن طاف بالبيت اسبوعاً كتب الله عزّ وجلّ له ستّة آلاف حسنة ، ومحا عنه ستّة آلاف سيّئة ، ورفع له ستّة آلاف درجة... وقضى له ستّة آلاف حاجة ».

ثمّ قال : « وقضاء حاجة المؤمن أفضل من طواف وطواف » ، حتّى عدّ عشراً[٢].

٥ ـ برّ المؤمن وإعانته ونصحه :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « إنّ ممّا خصّ الله به المؤمن أن يعرّفه برّ إخوانه وإن قلّ ، وليس البرّ بالكثرة ؛ وذلك أنّ الله عزّ وجلّ يقول في كتابه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . ثمّ قال : « ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٣] ، ومَن عرفه الله عزّ وجلّ بذلك أحبّه ، ومَن أحبّه الله تبارك وتعالى وفّاه أجره يوم القيامة بغير حساب »[٤].

٢ ـ وقال عليه السلام لإسحاق بن عمّار : « أحسن يا إسحاق إلى أوليائي ما استطعت ، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا أعانه إلّا خمش وجه إبليس وقرح قلبه »[٥].

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة »[٦].

٤ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « أيّما مؤمن مشى في حاجة أخيه فلم يناصحه ،

---

(١) الوسائل : ٣٦٣/١٦ ، باب استحباب اختيار قضاء حاجة المؤمن ، الحديث ٢/٢١٧٦٩.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٣/٢١٧٧٠.

(٣) سورة الحشر : الآية ٩.

(٤) الوسائل : ٣٧٧/١٦ ، باب استحباب البرّ بالمؤمن والتعاون على البرّ ، الحديث ١/٢١٨٠٦.

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٢/٢١٨٠٧.

(٦) المصدر المتقدّم : باب وجوب نصيحة المؤمن ، الحديث ٣/٢١٨١٩.

فقد خان الله ورسوله »[١].

٥ ـ وعنه عليه‌السلام ، قال : « **يجب للمؤمن على المؤمن أن يناصحه** »[٢].

٦ ـ حقوق أُخرى متفرّقة

وردت في حقوق المؤمن أخبار تتضمّن عدّة حقوق ، ممّا يتعذّر جمعها في عنوان واحد غير ما ذكرته ، وهو (حقوق متفرّقة) ، وسأنتقي من هذه الأخبار ما يأتي :

١ ـ عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، قال : « **المؤمن مرآة أخيه يميط عنه الأذى** »[٣].

وإنّما يكون مرآةً إذا ذكر له عيوبه ونصحه ليتركها ، وبهذا فقد جنّبه الأذى في الدنيا والآخرة ، أمّا إذا لم يكن كذلك وجامله ولم يذكر له عيوبه ، ولم ينصحه بتركها ، بل ربّما أطرى عليه وأغراه بما هو عليه من عيوب ، فقد غشّه وخانه ولم يكن مرآة له ، وبالتالي فهو ليس أخاً وليس مؤمناً ؛ للتلازم بين الإيمان والاخوّة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[٤].

ولقول أبي عبدالله عليه‌السلام : « **المؤمن أخو المؤمن ، عينه ودليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ، ولا يغشّه ، ولا يعده عِدةً فيخلفه** »[٥].

ومن الإيمان والاخوّة أن يكشف لأخيه عيوب ليتجنّبها ولا يحدّث بها أحداً حتّى لو كانت من كبائر الذنوب ، ما لم يتوقّف إصلاحه على إعلام من يؤثّر عليه بتركها فيقتصر في الحديث عنه على مَن يرجى منه إصلاح هذا المؤمن ، وإلّا فمن

---

(١) الوسائل : ١٦/٣٨٣ ، باب تحريم ترك نصيحة المؤمن ومناصحته ، الحديث ٢١٨٢٥/٢.

(٢) المصدر المتقدّم : باب وجوب نصيحة المؤمن ، الحديث ٢١٨١٧/١.

(٣) الوسائل : ١٢/٢١٠ ، باب وجوب أداء حقّ المؤمن ، الحديث ١٦١٠٨/١٨.

(٤) سورة الحجرات : الآية ١٠.

(٥) الوسائل : ١٢/٢٠٥ ، باب وجوب أداء حقّ المؤمن ، الحديث ١٦٠٩٦/٦.

حقّه الستر عليه ما لم تخرجه هذه الذنوب عن صفة الإيمان فينتفي الحقّ بانتفاء موضوعه.

وبهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**يجب للمؤمن على المؤمن أن يستر عليه سبعين كبيرة**»(١).

ورقم السبعين يستعمل في لغة العرب للمبالغة في الكثرة لا للتحديد بهذا العدد، ومنه قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾(٢).

هذا كلّه إذا ثبت عليه صدور عدد من الكبائر، فعندئذٍ يجب الستر عليه وتنبيهه ونصحه والاستعانة بالمؤمنين عليه ليقلع عنها، وحينئذٍ نكون مرآته النقيّة التي تكشف له عيوبه بستر وصمت عن التشهير به، وبذلك نميط عنه الأذى.

أمّا لمجرّد سماع أو استماع أقاويل النّاس فيه فإشاعة هذه الأقاويل عنه ممّا حذّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾(٣).

بل إنّ حقّ المؤمن على المؤمن أن لا يصدّق النّاس في أقاويلهم عن أخيه، فضلاً عن تحريم إشاعة هذه الأقاويل.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**أيّها النّاس، مَن عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعنّ فيه أقاويل الرجال. أما أنّه قد يرمي الرامي وتخطئ السهام، ويحيل الكلام وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد، أما إنّه ما بين الحقّ والباطل إلّا أربع أصابع**»، **وجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه، ثمّ قال: «الباطل أن تقول سمعت،**

---

(١) الوسائل: ٣٧٩/١٦، باب وجوب الستر على المؤمن، الحديث ١/٢١٨١٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٣) سورة النور: الآية ١٩.

والحقّ أن تقول رأيت »[١].

وقال عليه‌السلام : « **ليس من العدل القضاء على الثقة بالظنّ** »[٢].

وقال عليه‌السلام : « **لا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوء وأنت تجد لها في الخير محتملاً** »[٣].

وكما أنّ المؤمن مرآة أخيه ، فهذه الأحاديث أيضاً مرآة يُرى فيها الإيمان ، فمن لم يجد نفسه في إطارها فليصلح نفسه ويستغفر الله من ذنبه ويتوب منه إلى ربّه علّه يسترجع صفة الإيمان إن كانت فيه سابقاً ، وكما أنّ هذه الأحاديث مرائي ، فكذا الأحاديث الآتية :

٢ ـ عن أبي جعفر عليه‌السلام ، قال : « **من حقّ المؤمن على أخيه المؤمن : أن يشبع جوعته ، ويواري عورته ، ويفرّج عنه كربته ، ويقضي دَينه ، فإذا مات خلفه في أهله وولده** »[٤].

٣ ـ وعن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **إنّ من حقّ المؤمن على المؤمن : المودّة له في صدره ، والمواساة له في ماله ، والخلف له في أهله ، والنصرة له على مَن ظلمه ، وإن كان نافلة في المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبه ، وإذا مات الزيارة إلى قبره ، وأن لا يظلمه ، وأن لا يغشّه ، وأن لا يخونه ، وأن لا يخذله ، وأن لا يكذبه ، وأن لا يقول له أُفّ ، وإذا قال له أُفّ فليس بينهما ولاية ، وإذا قال له : أنت عدوّي فقد كفر أحدهما ، وإذا اتّهمه إنماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء** »[٥].

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٤١ ، من كلام له عليه‌السلام في النهي عن سماع الغيبة ، وفي الفرق بين الحقّ والباطل.

(٢) المصدر المتقدّم : ٥٠٧ ، حِكَم أمير المؤمنين عليه‌السلام ، الرقم ٢٢٠.

(٣) المصدر المتقدّم : ٥٣٨ ، الرقم ٣٦٠.

(٤) الكافي : ٢/١٩٧ ، باب حقّ المؤمن على أخيه وأداء حقّه ، الحديث ١/٢٠٤٨.

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/٢٠٥٤.

٤ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً في جواب سؤال المعلّى بن خنيس عن حقّ المؤمن ؟ قال : « **سبعون حقّاً لا أُخبرك إلّا بسبعة ، فإنّي عليك مشفق ، أخشى أن لا تحتمل** ». فقلت : بلى إن شاء الله ، فقال : « **لا تشبع ويجوع ، ولا تكتسي ويعرى ، وتكون دليله ، وقميصه الذي يلبسه ، ولسانه الذي يتكلّم به ، وتحبّ له ما تحبّ لنفسك ، وإن كانت لك جارية بعثتها لتمهّد فراشه ، وتسعى في حوائجه بالليل والنهار ، فإذا فعلتَ ذلك وصلتَ ولايتك بولايتنا ، وولايتنا بولاية الله** »(١).

٥ ـ وعنه عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **للمؤمن على المؤمن سبعة حقوق واجبة من الله عزّ وجلّ : الإجلال له في غيبته ، والودّ له في صدره ، والمواساة له في ماله ، وأن يحرّم غيبته ، وأن يعوده في مرضه ، وأن يشيّع جنازته ، وأن لا يقول فيه بعد موته إلّا خيراً** »(٢).

٦ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ما عُبد الله بشيء أفضل من أداء حقّ المؤمن** »(٣).

٧ ـ وعن أبان بن تغلب ، قال : « كنت أطوف مع أبي عبدالله عليه السلام ، فعرض لي رجل من أصحابنا كان سألني الذهاب معه في حاجته فأشار إليّ ، فرآه أبو عبدالله عليه السلام ، **فقال : يا ابان ، إيّاك يريد هذا** ؟. قلت : نعم . قال : **هو مثل ما أنت عليه** ؟. قلت : نعم . قال : **فاذهب إليه واقطع الطواف**. قلت : وإن كان طواف الفريضة ؟ قال : **نعم**. قال : فذهبت معه ، ثمّ دخلت عليه بعد فسألته عن حقّ المؤمن ؟ فقال : **دعه لا ترده** ، فلم أزل أرد عليه ، قال : **يا ابان ، تقاسمه شطر مالك** ، ثمّ نظر إليّ فرأى ما دخلني فقال : **يا ابان ، أما تعلم أنّ الله قد ذكر المؤثرين على أنفسهم** ؟ قلت : بلى . قال : **إذا أنت قاسمته فلم تؤثره وإنّما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر**(٤).

---

(١) الكافي : ٢٠٢/٢ ، باب حقّ المؤمن على أخيه وأداء حقّه ، الحديث ١٤/٢٠٦١.

(٢) الوسائل : ٢٠٨/١٢ ، باب وجوب أداء حقّ المؤمن ، الحديث ١٣/١٦١٠٣.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١/١٦٠٩١.

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦/١٦١٠٦.

هذه جملة من حقوق المؤمن ، وكما هي له فهي عليه أيضاً لغيره من إخوانه المؤمنين ، ومن أقبح الخصال أن يستوفي الرجل حقّه ولا يوفي الآخرين حقوقهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه : « **ما أقبح بالرجل أن يعرف أخوه حقّه ، ولا يعرف حقّ أخيه** »(١).

وقال عليه السلام ـ فيمن حبس حقّاً من حقوق أخيه ـ: « **إنّ مَن حبس حقّ المؤمن أقامه الله خمسمائة عامَ على رجليه ، حتّى يسيل من عرقه أودية ، ثمّ ينادي منادٍ من عند الله جلّ جلاله ، هذا الظالم الذي حبس عن الله حقّه ، قال : فيوبّخ أربعين عاماً ، ثمّ يؤمر به إلى نار جهنّم** »(٢).

أقول : هذا عقاب من حبس حقّ المؤمن ، فكيف بمن حبس حقّ الله عزّ وجلّ وحقّ رسوله صلى الله عليه وآله وحقّ آل بيته : ؟ ثمّ كيف يكون عقاب مَن آذاه أو أهانه أو انتقصه أو ما إلى ذلك ممّا نهى الله عنه ؟ أعاذنا الله جميعاً من المهلكات ! !

ولكن الدعاء ليس دعاء القلم ولا دعاء اللسان ، وإنّما هو دعاء القلب ، وآية صدقة : العمل على أداء هذه الحقوق ، ولو كان الدعاء قائماً مقام العمل لبطل العمل واكتفى المقصّرون بدعاء اللسان.

هذا ، وكما وجبت للمؤمن حقوق ، فقد حرّمت بحقّه أفعال تتنافى وما كرّمه الله تعالى به ، وقد وزّعت ما ورد من الأخبار التي اخترتها فيما يحرم بحقّه على العناوين التالية :

١ ـ هجر المؤمن بدون موجب :

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه ثلاثة أيّام ، والسابق**

---

(١) الوسائل : ١٢/٢١٠ ، باب وجوب أداء حقّ المؤمن ، الحديث ١٦١٠٧/١٧.

(٢) المصدر المتقدّم : ٢١٠ ، الحديث ١٦١١٠/٢٠.

سبق إلى الجنّة »[١] ، أي السابق إلى قطع الهجر باللقاء .

٢ ـ وعنه ﷺ ، قال : « **لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة** »[٢] .

ولا منافاة بين التحديدين في هذين الخبرين ، فحيث لا يحلّ الهجر ثلاثة ، لا يحلّ فوق الثلاثة ، لا سيّما على القول بانتفاء مفهوم العدد ، أي لا يلزم من قوله ﷺ : « **لا يحلّ فوق ثلاثة** » ، أنّه يحلّ دونها ، كي يلزم منافاة هذا المفهوم للحديث الآخر المحرّم للثلاثة .

ويمكن ـ على القول بمفهوم العدد وحجّيّته ـ أن يكون حديث الثلاثة ناظراً إلى الهجر دون مبرّر ، وحديث ما فوق الثلاثة ناظراً إلى الهجر الحاصل بمبرّر ، فيكون ما بعد الثلاثة حينئذٍ محرّماً ولو مع المبرّر ، وإن كان ما دونها جائزاً معه .

ويؤيّد هذا الوجه :

٣ ـ ما ورد في حديث المناهي عن الإمام الصادق عليه‌السلام ، قال : « **إنّ رسول الله ﷺ : نهى عن الهجران ، فمن كان لا بدّ فاعلاً ، فلا يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيّام ، فمن كان هاجراً لأخيه أكثر من ذلك ، كانت النّار أوْلى به** »[٣] .

ولا غرابة في هذا النوع من العقوبة على هجر المؤمن ؛ لأنّ الهجر عزم على القطيعة وإعراض عن التواصل ، وهو ينافي الاخوّة ، وبالتالي فهو ينافي الإيمان ؛ لأنّ هجر المؤمن لصفته لا لذاته كما تقدّم من لحاظ الوصف العنواني في موضوع الحقّ ثبوتاً وسلباً .

٢ ـ إذلال المؤمن واحتقاره :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عزّ وجلّ : « **مَن استذلّ**

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٦٣ ، باب تحريم هجر المؤمن بغير موجب ، الحديث ١١/١٦٢٦١ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/١٦٢٥٧ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٢٦٢ ، الحديث ٨/١٦٢٥٨ .

عبدي المؤمن ، فقد بارزني بالمحاربة »[١].

وقال : « **وليأذن بحرب منّي مَن أذلّ عبدي المؤمن ، وليأمن غضبي مَن أكرم عبدي المؤمن** »[٢].

وقال : « **قد نابذني مَن أذلّ عبدي المؤمن** »[٣].

٢ ـ وعن الرضا عليه‌السلام ، عن آبائه عليهم‌السلام : أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، قال : « **مَن استذلّ مؤمناً أو حقّره لفقره أو قلّة ذات يده ، شهره الله يوم القيامة** ». وفي رواية : « **على رؤوس الأشهاد** »[٤].

٣ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **مَن حقّر مؤمناً ـ مسكيناً أو غير مسكين ـ لم يزل الله عزّ وجلّ حاقراً له ماقتاً حتّى يرجع عن محقّرته إيّاه** »[٥].

٣ ـ إيذاء المؤمن وإهانته :

١ ـ عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « يقول الله عزّ وجلّ : « **ليأذن بحرب منّي مَنْ أذلّ عبدي المؤمن ، وليأمن غضبي مَن أكرم عبدي المؤمن** »[٦].

٢ ـ وعن أبي جعفر عليه‌السلام ، قال : « **لمّا أسري بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، قال : يا ربّ ، ما حال المؤمن عندك ؟ قال : يا محمّد ، مَن أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي** »[٧].

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٧٠ ، باب تحريم إذلال المؤمن واحتقاره ، الحديث ٣/١٦٢٨٠.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١/١٦٢٧٨.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٦/١٦٢٨٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه‌السلام : ٢/٣٣ ، باب ٣١ : باب فيما جاء عن الرضا عليه‌السلام من الأخبار المجموعة ، الحديث ٥٨.

(٥) الوسائل : ١٢/٢٧٠ ، باب تحريم إذلال المؤمن واحتقاره ، الحديث ٥/١٦٢٨٢.

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ١/١٦٢٧٨.

(٧) المصدر المتقدّم : باب تحريم إهانة المؤمن وخذلانه ، الحديث ١/١٦٢٦٦.

وتفيد الإجابة عن السؤال عن حال المؤمن بـ: « **مَن أهان لي وليّاً** »، فأنّ المؤمن هو الولي، ومعنى الوليّ ما ورد في خبر آخر عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « **لقد أسرى ربّي بي، فأوحى إليَّ من وراء الحجاب ما أوحى، وشافهني أن قال لي: يا محمّد، مَن أذلّ لي وليّاً فقد أرصد لي بالمحاربة، ومَن حاربني حاربته. قلت: يا ربّ، ومَن وليّك هذا؟ فقد علمت أنّ مَن حاربك حاربته. فقال: ذاك مَن أخذت ميثاقه لك ولوصيّك ولذرّيّتكما بالولاية** »[1].

٤ ـ الاستخفاف بالمؤمن:

فعن أبي عبدالله عليه السلام، قال ـ في حديث مع نفر ممّن حضر مجلسه ـ: « **ما لكم تستخفّون بنا؟** ». فقام إليه رجل من خراسان فقال: معاذ لوجه الله أن نستخفّ بك أو بشيء من أمرك. فقال: « **بلى، إنّك أحد من استخفّ بي** »! فقال: معاذ لوجه الله أن استخفّ بك. فقال له: « **ويحك، ألم تسمع فلاناً ـ ونحن بقرب الجحفة ـ وهو يقول لك: احملني قدر ميل، فقد والله عييت. والله، ما رفعت به رأساً، لقد استخففت به، ومن استخفّ بمؤمن فبنا استخفّ، وضيّع حرمة الله عزّ وجلّ** »[2].

والرواية تذكر من مصاديق الاستخفاف الإعراض عن إجابة طالب الحاجة، وهو واحد من كثير، ويجمع المصاديق كلّها عنوان أن لا يرى له وزناً معنوياً فلا يبالي به، والحال أنّ فيه صفة الإيمان التي بها يمتاز المقرّبون من الله سبحانه، فالاستخفاف بالمؤمن استخفاف بصفة الإيمان، لذا فهو من الكبائر.

٥ ـ إحصاء عثراته وتعييره وتأنيبه:

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: « **إنّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل**

---

(١) الوسائل: ١٢/٢٧٠، باب تحريم إذلال المؤمن واحتقاره، الحديث ٢/١٦٢٧٩.

(٢) الوسائل: ١٢/٢٧٢، باب تحريم الاستخفاف بالمؤمن، الحديث ١/١٦٢٨٦.

الرجل على الدين فيحصي عليه زلّاته ليعنّفه بها يوماً ما »[١].

٢ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **أبعد ما يكون العبد من الله أن يكون الرجل يؤاخي الرجل وهو يحفظ زلّاته ، فيعيّره بها يوماً ما »[٢].**

٣ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يؤاخي الرجل الرجل على دينه ، فيحصي عليه عثراته وزلّاته ليعيّره بها يوماً ما »[٣].**

٤ ـ وقال عليه السلام : « **مَن عيّر مؤمنا بذنبٍ لم يمت حتّى يركبه »[٤].**

٥ ـ وعنه عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **مَن أذاع فاحشة كان كمبتدئها ، ومَن عيّر مؤمناً بشيء لم يمت حتّى يركبه »[٥].**

٦ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **مَن أنّب مؤمناً أنّبه الله عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة »[٦].**

وقال عليه السلام : « **مَن لقي أخاه بما يؤنّبه أنّبه الله في الدنيا والآخرة »[٧].**

٦ ـ إذاعة سرّه ورواية ما يعيبه :

١ ـ روى عبدالله بن سنان ، قال : « قلت لأبي عبدالله عليه السلام : عورة المؤمن على المؤمن حرام ؟ قال : **نعم** . قلت : يعني سفالته ؟ قال : **ليس هو حيث تذهب ، إنّما هو إذاعة سرّه »[٨].**

---

(١) الوسائل : ٢٧٤/١٢ ، باب تحريم إحصاء عثرات المؤمن ، الحديث ٢/١٦٢٩٢.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١/١٦٢٩١.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/١٦٢٩٤.

(٤) الكافي : ٣٦٥/٢ ، باب التعيير ، الحديث ٣/٢٧٤٤.

(٥) المصدر المتقدّم : الحديث ٢/٢٧٤٣.

(٦) الوسائل : ٢٧٧/١٢ ، باب تحريم تعيير المؤمن وتأنيبه ، الحديث ٣/١٦٢٩٧.

(٧) المصدر المتقدّم : الحديث ٤/١٦٢٩٨.

(٨) المحاسن : ١٠٤/١ ، باب ٤٣ : عقاب من تتبّع عثرة المؤمن ، الحديث ٨٣.

٢ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **مَن روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط من أعين النّاس ، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان ، فلا يقبله الشيطان** »[١] .

٣ ـ وقال عليه السلام في معنى الحديث الوارد : « **عورة المؤمن على المؤمن حرام** » ، قال : « **ما هو أن تنكشف فترى منه شيئاً ، إنّما هو أن تروي عليه أو تعيبه** »[٢] .

٤ ـ وعن محمّد بن الفضيل ، عن أبي الحسن موسى عليه السلام ، قال : قلت له : جعلت فداك ، الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه ، فأسأله عنه فينكر ذلك ، وقد أخبرني عنه قوم ثقات ؟ فقال لي : « **يا محمّد ، كذّب سمعك وبصرك عن أخيك ، فإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولاً فصدّقه وكذّبهم ، ولا تذيعنّ عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروءته فتكون من الذين قال الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾**[٣] »[٤] .

٧ ـ سبّه وطعنه :

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية لله ، وحرمة ماله كحرمة دمه** »[٥] .

٢ ـ وعنه عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «**سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة** »[٦] .

٣ ـ وقال عليه السلام : « **ما شهد رجل على رجل بكفر قطّ إلّا باء به أحدهما ، إن كان**

---

(١) الكافي : ٣٦٧/٢ ، باب الرواية على المؤمن ، الحديث ١/٢٧٥٣ .
(٢) الكافي : ٢٩٥/١٢ ، باب تحريم إذاعة سرّ المؤمن ، الحديث ٣/١٦٣٤٢ .
(٣) سورة النُّور : الآية ١٩ .
(٤) الوسائل : ٢٩٥/١٢ ، باب تحريم إذاعة سرّ المؤمن ، الحديث ٤/١٦٣٤٣ .
(٥) المصدر المتقدّم : ١٨١ ، باب تحريم اغتياب المؤمن ، الحديث ١٢/١٦٣١١ .
(٦) المصدر المتقدّم : ٢٩٨ ، باب تحريم سبّ المؤمن ، الحديث ٤/١٦٣٥٠ .

شهد على كافر صدق ، وإن كان مؤمناً رجع الكفر عليه ، فإيّاكم والطعن على المؤمنين »[١] .

٤ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **ما من إنسان يطعن في عين مؤمن إلّا مات بشرّ ميتة ، وكان قمناً أن لا يرجع إلى خير »**[٢] .

٥ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **إذا قال الرجل لأخيه المؤمن أُفّ خرج من ولايته ، وإذا قال أنت عدوّي كفر أحدهما ، ولا يقبل الله من مؤمن عملاً وهو يضمر على أخيه سوءاً »**[٣] .

٦ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **إنّ الله عزّ وجلّ خلق المؤمنين من نور عظمته وجلال كبريائه ، فمن طعن عليهم وردّ عليهم فقد ردّ على الله في عرشه ، وليس من الله في شيء ، وإنما هو شرك الشيطان »**[٤] .

٨ ـ اتّهام المؤمن وإخافته والإعانة عليه :

١ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك ما يغلبك منه ، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً »**[٥] .

٢ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **مَن اتّهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما ، ومَن عامل أخاه بمثل ما عامل به النّاس فهو بريء ممّا ينتحل »**[٦] .

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٩٨ ، باب تحريم الطعن على المؤمن ، الحديث ١٦٣٥٢/١.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ١٦٣٥٤/٣.

(٣) المصدر المتقدّم: ٢٩٩ ، الحديث ١٦٣٥٣/٢.

(٤) المصدر المتقدّم: ٣٠٠ ، الحديث ١٦٣٥٥/٤.

(٥) المصدر المتقدّم: ٣٠٢ ، باب تحريم تهمة المؤمن وسوء الظنّ به ، الحديث ١٦٣٦١/٣.

(٦) المصدر المتقدّم: الحديث ١٦٣٦٠/٢.

٣ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**إذا اتّهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء**»[1].

٤ ـ وقال عليه السلام: «**مَن روّع مؤمناً بسلطان ليصيبه منه مكروه فلم يصبه فهو في النّار، ومَن روّع مؤمناً بسلطان ليصيبه منه مكروه فأصابه، فهو مع فرعون وآل فرعون في النّار**»[2].

٥ ـ وعنه عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَن نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله عزّ وجلّ يوم لا ظلّ إلّا ظلّه**»[3].

٦ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**مَن أعان على مؤمن بشطر كلمة لقي الله عزّ وجلّ وبين عينينه مكتوب: آيس من رحمة الله**»[4].

٩ ـ البهتان على المؤمن:

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**مَن بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله يوم القيامة على تلٍّ من نار حتّى يخرج ممّا قال فيه**»[5].

٢ ـ وعن ابن أبي يعفور، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**مَن بهت مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه بعثه الله في طينة خبال حتّى يخرج ممّا قال**».

قلت: وما طينة خبال؟ قال: «**صديد يخرج من فروج المومسات**»[6].

---

(١) الوسائل: ١٢/٣٠٢، باب تحريم تهمة المؤمن وسوء الظنّ به، الحديث ١٦٣٥٩/١.

(٢) المصدر المتقدّم: باب تحريم إخافة المؤمن ولو بالنظر، الحديث ١٦٣٦٣/٢.

(٣) الكافي: ٢/٣٧٥، باب من أخاف مؤمناً، الحديث ٢٧٨٩/١.

(٤) الوسائل: ١٢/٣٠٤، باب تحريم المعونة على قتل المؤمن وأذاه، الحديث ١٦٣٦٦/٢.

(٥) المصدر المتقدّم: باب تحريم البهتان على المؤمن والمؤمنة، الحديث ١٦٣٢٣/٢.

(٦) المصدر المتقدّم: الحديث ١٦٣٢٢/١.

١٠ ـ غِيبة المؤمن :

الغيبة من كبائر الذنوب إجماعاً ، وهي أشدّ من الزنا ،كما في الحديث عن رسول الله ﷺ [(١)] ، وهي وإن لم تكن أشدّ من البهتان وأمثاله ممّا هو محرّم بحقّ المؤمن ، إلّا أنّ تهاون النّاس فيها ـ مع كبير جرمها ـ بحيث يندر من نزّه نفسه منها أو من استماعها ، دعاني أن أتناولها بشيء من التفصيل ، عسى أن ينتفع به من ينتفع ، وسأتحدّث عن حدّها وحكمها ومستثنياتها واستماعها وسماعها وتكفيرها .

١ / حدّها :

الغيبة لغة واصطلاحاً :

قيل إنّ معناها : « أن يتكلّم خلف إنسان مستور بما يغمّه لو سمعه »[(٢)] .

ويقال : « غابَهُ غيبة واغتابه اغتياباً ، أي عابه وذكره بما فيه من السوء »[(٣)] .

وعرّفها البعض بـ« ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه »[(٤)] .

وفي الحديث : « **إذا ذكرت الرجل بما فيه ممّا يكرهه الله فقد اغتبته ، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه** »[(٥)] .

في حديث آخر : الغيبة : « **ذكرك أخاك بما يكره** »[(٦)] .

ويلاحظ على هذه التعريفات أنّ بعضها فيه من الإطلاق ما يحتاج إلى التقييد ،

---

(١) الوسائل : ٢٨٠/١٢ ، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً ، الحديث ٩/١٦٣٠٨ .

(٢) مختار الصحاح : ٥٧٨ ، مادة « غ ي ب » .

(٣) القاموس المحيط : ١٢١ ، مادة « غيب » .

(٤) مجمع البيان : ٢٢٨/٩ ، تفسير الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٥) المصدر المتقدّم .

(٦) الوسائل : ٢٨١/١٢ ، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً ، الحديث ٩/١٦٣٠٨ .

فالتعريف الأوّل يشمل ما لو تكلّم خلف إنسان بما يغمّه لو سمعه ، غير أنّ الكلام إن كان نوعاً من الفحش والمنكر وليس فيه ذكر لهذا الإنسان من قريب أو بعيد ، فهو كلام يغمّ الإنسان المؤمن لكراهته لكلّ منكر ، إلّا أنّه ليس غيبة قطعاً .

والتعريف الثاني فيه إطلاق الضمير يشمل الإنسان وغير الإنسان حتّى الجماد ، كما أنّه يشمل الغائب والحاضر معاً ، والحال أنّ الغيبة مختصّة بالإنسان الغائب .

أمّا التعريف الثالث فهو وإن تخلّص من هذه الإطلاقات بقيد « على وجه تمنع الحكمة منه » ، إلّا أنّ هذا التقييد لم يحدّد صورة الغيبة إلّا لدى من يميّز ما تمنع الحكمة منه ، وهو ما يتوقّف على معرفة أحكام الغيبة ومستثنياتها قبل معرفة موضوعها .

والحديثان الشريفان مفادهما واحد ؛ لأنّ الأوّل منهما قيّد ذِكر الرجل بما يكرهه الله ، وثانيهما قيّد الذِّكر بما يكرهه أخوه ، وإذا علمنا بالتلازم بين الإخوّة والإيمان من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[1] علمنا أنّ الغيبة ـ كما عرّفها بعض الفقهاء ـ : « أن يُذكر المؤمن بعيب في غيبته »[2] ؛ لدلالة أخبار كثيرة على أنّ المحرّم من الغيبة هو غيبة المؤمن ، فغير المؤمن ممّن خرج بفسقه عن الإيمان لا حرمة له ، بل يخرج ذكره موضوعاً عن عنوان الغيبة في الاصطلاح ؛ لما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : « **إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة** »[3] . ومَن تجاوز الفسق إلى الكفر وغيره كان خروجه بالأولويّة .

والغيبة بمقتضى الحديثين السابقين والتعريف الذي نقلته عن بعض الفقهاء ، تشمل العيب الذي فيه وما ليس فيه ، وفي الأخبار ما يفيد هذا الشمول أيضاً .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٢) راجع منهاج الصالحين / السيّد الخوئي : ١١/١ ، في ذكر الكبائر .

(٣) الوسائل : ٢٨٩/١٢ ، باب المواضع التي تجوز فيها الغيبة ، الحديث ٤/١٦٣٢٧ .

فعن رسول الله ﷺ ، قال : « **مَن اغتاب مؤمناً بما فيه لم يجمع الله بينهما في الجنّة أبداً ، ومَن اغتاب مؤمناً بما ليس فيه فقد انقطعت العصمة بينهما ، وكان المغتاب في النّار خالداً فيها وبئس المصير** »(١) .

إلّا أنّ ذكر المؤمن بما ليس فيه وإن كان غيبة بمعناها العام ـ كما دلّت عليه بعض النصوص اللغوية ـ إلّا أنّه قد تحوّل إلى ما هو أعظم منها بالافتراء والبهت حتّى صار حقيقة أُخرى أخصّ من الغيبة ، أطلقت عليها بعض الأخبار اسم (البهتان) .

فعن رسول الله ﷺ قال في وصيّته لأبي ذرّ ؓ : « **اعلم أنّك إذا ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته ، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهته** »(٢) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام ، قال ـ فيما روي عنه ـ : « **إنّ من الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه ، وإنّ من البهتان أن تقول في أخيك ما ليس فيه** »(٣) .

والمحصّل من مجموع هذه النصوص أنّ تعريف الغيبة هو : « ذكر المؤمن بعيبه أو بعيب ما يتعلّق به في غيبته ، سواء أكان بقصد الانتقاص أم لم يكن ، وسواءٌ أكان العيب في بدنه ، أم في خُلقه ، أم في فعله ، أم في قوله ، أم في دينه ، أم في دنياه ، أم في غير ذلك ممّا يكون عيباً مستوراً عن النّاس ، كما لا فرق في الذِّكر بين أن يكون بالقول أم بالفعل الحاكي عن وجود العيب »(٤) .

أمّا ما ورد في تعريفات أُخرى مختلفة عن الفقهاء فيرجع إلى اختلاف مصاديق الغيبة عندهم سعة وضيقاً(٥) .

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٨٥ ، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً ، الحديث ١٦٣١٩/٢٠ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٢٨١ ، الحديث ١٦٣٠٨/٩ .

(٣) الوسائل : ١٢/٢٨٢ ، الحديث ١٦٣١٣/١٤ .

(٤) منهاج الصالحين / السيّد الخوئي : ١/١١ ، في ذكر الكبائر .

(٥) راجع كشف الريبة / الشهيد الثاني : ٥ .

٢ / حكم الغيبة:

الغيبة من كبائر الذنوب، وقد نصّ الكتاب المجيد والسنّة المتواترة فضلاً عن إجماع المسلمين على تحريمها.

فمن الكتاب المجيد[(١)]:

قوله تعالى: **﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾**[(٢)].

ومن الأخبار:

١ ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**المؤمن حرام على المؤمن: أن يظلمه، أو يخذله، أو يغتابه، أو يدفعه دفعةً**»[(٣)].

٢ ـ وعنه ﷺ، قال: «**الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه**»[(٤)].

٣ ـ وقال ﷺ، قال: «**الغيبة أشدّ من الزنا**»، فقيل: يا رسول الله، ولِمَ ذلك؟ قال: «**أمّا صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه، وأمّا صاحب الغيبة فيتوب فلا يتوب الله عليه، حتّى يكون صاحبه الذي يحلّه**»[(٥)].

٤ ـ وقال ﷺ في وصيّته لأبي ذرّ ﵁: «**يا أبا ذرّ، إيّاك والغيبة، فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا**»، قلت: لِم ذاك يا رسول الله ﷺ؟ قال: «**لأنّ الرجل يزني فيتوب إلى الله فيتوب**

---

(١) من الفقهاء من استفاد الحكم بتحريم الغيبة أيضاً من الآية: **﴿ لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ ﴾** [سورة النساء: الآية ١٤٨].

ومن آية: **﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾** [سورة ق: الآية ١٨].

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٣) الوسائل: ٢٧٨/١٢، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً، الحديث ١/١٦٣٠٠.

(٤) المصدر المتقدّم: الحديث ٧/١٦٣٠٦.

(٥) المصدر المتقدّم: الحديث ١٨/١٦٣١٧.

الله عليه ، والغيبة لا تُغفر حتّى يغفرها صاحبه . يا أبا ذرّ ، سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معاصي الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه » .

قلت : يا رسول الله ، وما الغيبة ؟ قال : « **ذكرك أخاك بما يكره** » . قلت : يا رسول الله ، فإن كان فيه الذي يذكر به ؟ قال : « **إعلم أنّك إذا ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته ، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه** »[١] .

٥ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **كذب مَن زعم أنّه ولد من حلال وهو يأكل لحوم النّاس بالغيبة** »[٢] .

٦ ـ وعنه عليه السلام ، قال : « **اجتنب الغيبة فإنّها أدام كلاب النار** »[٣] .

٧ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله ، لا يخونه ، ولا يخدعه ، ولا يظلمه ، ولا يكذّبه ، ولا يغتابه** »[٤] .

٨ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **مَن قال في مؤمن ما رأته عيناه ، وسمعته أُذناه ، فهو من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٥]** »[٦] .

٩ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **المؤمن من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، والمسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ، والمهاجر من هجر السيّئات وترك ما حرّم الله ، والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه ، أو يخذله ،**

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٨٠ ، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً ، الحديث ١٦٣٠٨/٩ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦٣١٥/١٦ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦٣١٥/١٦ .

(٤) الكافي : ٢/١٩٥ ، باب اخوّة المؤمنين بعضهم لبعض ، الحديث ٢٠٣٨/٥ .

(٥) سورة النور : الآية ١٩ .

(٦) الكافي : ٢/٣٦٦ ، باب الغيبة والبهت ، الحديث ٢٧٤٧/٢ .

أو يغتابه، أو يدفعه دفعة»[١].

١٠ ـ وعن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام، قال: «**علامات ولد الزنا ثلاث: سوء المحضر، والحنين إلى الزنا، وبغضنا أهل البيت**»[٢].

١١ ـ وقال عليه السلام فيما روي عنه: «**مَن اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شرك شيطان**»[٣].

١٢ ـ وعنه عليه السلام، قال: «**الغيبة حرام على كلّ مسلم، وأنّها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[٤].

هذا وأتذكّر مقولة للشهيد الثاني رحمه الله في مقدّمة كتابه (كشف الريبة في أحكام الغيبة)، مضمونها: إنّ من يروي هذه الأخبار أو يقرؤها وهو يثق بصدورها، وبخاصّة الخبر المتضمّن: «**الغيبة أشدّ من الزنا**»، ومع ذلك تجده يُقدم على الغيبة ولا يُقدم على الزنا، وهذا ما يكشف عن أنّ مقياسه في عظم الذنب هو النّاس وليس الله تعالى!! إذ لو كان مقياسه هو الله لأقدم على ما هو الأدنى عنده وهو الزنا، دون ما هو أعظم وهو الغيبة، ومن كان كذلك فعبادته للنّاس لا لله عزّ وجلّ، هي للنّاس من حيث الدواعي، وهي للنّاس كذلك بانتقال حسناته إليهم باغتيابه لهم.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدي الله ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي، ليس هذا كتابي، فإنّي لا أرى فيها طاعتي، فيقال: إنّ ربّك لا يضلّ ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب النّاس، ثمّ يؤتى بآخر ويدفع إليه**

---

(١) الوسائل: ٢٧٨/١٢، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً، الحديث ١/١٦٣٠٠.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ١٥/١٦٣١٤.

(٣) الوسائل: ٣٤٤/١٥، باب جملة ممّا ينبغي تركه من الخصال المحرّمة، الحديث ١٥/٢٠٦٩٨.

(٤) كشف الريبة / الشهيد الثاني: ٩.

كتابه ، فيرى فيه طاعات كثيرة ، فيقول : إلهي ، ما هذا كتابي ، فإنّي ما عملت هذه الطاعات ، فيقول : إنّ فلاناً اغتابك فدفعت حسناته إليك »[١].

٣ / مستثنيات الغيبة

بعد أن مرّ بنا أنّ الغيبة في المصطلح الفقهي إنّما هي ذكر المؤمن في غيبته . . .الخ ، تبيّن أنّ غير المؤمن خارج عن حدّ الغيبة تخصّصاً . فذكره ليس غيبة ـ اصطلاحاً ـ كي يكون مشمولاً بحكمها التحريمي ، وعليه فلا ينبغي عدّ الفاسق المتجاهر أو الكافر من المستثنيات بعد خروجه عن صفة الإيمان .

ومع هذا تجد بعض علماء الفقه والأخلاق بعد تحديدهم لمفهوم الغيبة بالمؤمن ، يستثنون غير المؤمن ، ولعلّه من أجل التوضيح ، وجرياً على طريقتهم هذه أنقل ما نصّ به بعضهم على جملة من المستثنيات إذ قال : وقد تجوز الغيبة في موارد : **منها** : المتجاهر بالفسق ، فيجوز اغتيابه في غير العيب المستتر به . **ومنها** : الظالم لغيره ، فيجوز للمظلوم غيبته ، والأحوط استحباباً الاقتصار على ما لو كانت الغيبة بقصد الانتصار لا مطلقاً . **ومنها** : نصح المؤمن ، فتجوز الغيبة بقصد النصح ، كما لو استشار شخص في تزويج امرأة فيجوز نصحه ولو استلزم إظهار عيبها ، بل لا يبعد جواز ذلك ابتداءً بدون استشارة ، إذا علم بترتّب مفسدة عظيمة على ترك النصيحة . **ومنها** : ما لو قصد بالغيبة ردع المغتاب عن المنكر فيما إذا لم يمكن الردع بغيرها . **ومنها** : ما لو خِيف على الدين من الشخص المغتاب ، فتجوز غيبته لئلا يترتّب الضرر الديني . **ومنها** : جرح الشهود . **ومنها** : ما لو خيف على المغتاب الوقوع في الضرر اللازم حفظه عن الوقوع فيه ، فتجوز غيبته لدفع ذلك عنه . **ومنها** : القدح في المقالات الباطلة وإن أدّى ذلك إلى نقص في قائلها ، وقد صدر من جماعة

---

(١) مستدرك الوسائل : ١٢١/٩ ، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً ، الحديث ١٠٤١٨/٣٠ ، وقد ورد : « فيرى فيها » بدل « فيرى فيه » ، وما أثبتناه موافق للأصل .

كثيرة من العلماء القدح في القائل بقلّة التدبّر والتأمّل وسوء الفهم ونحو ذلك ، وكان صدور ذلك منهم لئلا يحصل التهاون في تحقيق الحقائق ، عصمنا الله تعالى من الزلل ، ووفّقنا للعلم والعمل ، إنّه حسبنا ونِعم الوكيل[1].

ومَن تتبّع هذه المستثنيات وغيرها في الأخبار وفي أقوال الفقهاء وعلماء الأخلاق وبعض المفسّرين ، يدرك أنّ الغيبة إنّما حرّمت لما يترتّب عليها من فساد اجتماعي ؛ وذلك لأنّ ذكر عيوب النّاس مدعاة لكراهية بعضهم لبعض ، فالمذكور بعيب إذا بلغه ذلك سيكره ذاكره ويكره مَن سمعه ولم يدفع عنه ، كما أنّ المذكور عنده إذا انكشفت لديه عيوب المغتاب ونقائصه قد يصل به الأمر إلى استقذاره وكراهيّته ، فإذا تفشّت الكراهية في المجتمع انقطعت صِلاتهم وروابط الإخوّة بينهم ، وتفكّك اجتماعهم ، مضافاً إلى سقوط صلاحيّة المغتاب عن التأثير في المجتمع ، من كان معروفاً بالعدل والنزاهة كان مقبولاً في المجتمع ومؤثّراً فيه ، وقد ستر الله عليه عيوبه ، ما لم يكن في هذه العيوب خطر على المجتمع ، فإذا تناولته الألسن بذكر نواقصه سقطت صلاحيّته في التأثير في المجتمع فيما يصلحهم فيه من أُمور دينهم ودنياهم .

وبملاحظة حكمة التشريع هذه يمكننا أن ندرك ما لتحريم الغيبة من أهمّية اجتماعيّة ، كما يمكننا أن ندرك موجبات الاستثناء .

وقد استنبط الفقهاء حالات الاستثناء من بعض الآيات الكريمة والأخبار الشريفة على نحو العموم أو الخصوص ، وممّا استفيد منه الاستثناء ، مثلاً : قوله تعالى : ﴿ **لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ** ﴾[2] ، حيث دلّ قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا مَن ظُلِمَ** ﴾ على جواز اغتياب المظلوم لمن ظلمه .

---

(١) راجع منهاج الصالحين / الخوئي : ١١/١ الموارد التي يجوز فيها الغيبة .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤٨ .

ومن الأخبار التي دلّت على بعض المستثنيات ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال :

١ ـ « **إذا جاهر الفاسق بفسقه ، فلا حرمة له ولا غيبة** »[١].

٢ ـ « **ثلاثة ليس لهم حرمة : صاحب هوىً مبتدع ، والإمام الجائر ، والفاسق المعلن بالفسق** »[٢].

٣ ـ « **مَن أضاف قوماً فأساء ضيافتهم فهو ممّن ظلم ، فلا جناح عليهم فيما قالوا فيه** »[٣].

٤ ـ « **إنّ الضيف ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته ، فلا جناح عليه أن يذكر سوء ما فعله** »[٤].

وهناك أخبار عامّة حاكمة على أخبار حرمة الغيبة ، كأدلّة وجوب نصح المؤمن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجرح الرواة ، وجرح الشهود ، وردع المبتدع ، وأمثالها .

والجامع لجميع هذه الاستثناءات هو المصلحة الغالبة على مفسدة الغيبة . على أن يكون داعي المغتاب هو هذه المصلحة ، أمّا لو غلف قصده السيئ بإظهار داعي المصلحة ، كمن يريد الانتقاص من المؤمن فيغتابه مُظهراً للنّاس أنّه يريد بذلك إصلاحه أو دفع مفسدة تخشى منه ، فهذا قد ارتكب ما هو أعظم من الغيبة ؛ لأنّه يريد أن يعصي الله تعالى ، ويظهر للنّاس أنّه مطيع ، وهو الرياء أعاذنا الله منه ومن كلّ دخائل النفس الخفيّة .

---

(١) الوسائل : ٢٨٩/١٢ ، باب المواضع التي تجوز فيها الغيبة ، الحديث ١٦٣٢٧/ ٤.

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٥/١٦٣٢٨.

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ٦/١٦٣٢٩.

(٤) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/١٦٣٣٠.

٤ / الاستماع أو سماع الغيبة وحكم الردّ

الاستماع هو الإصغاء إلى المتحدّث وإن لم يكن هو المقصود بالحديث ، والسماع هو ما يحصل في السمع من حديث دون إصغاء ، ومثلهما ما يكون من الغيبة بغير القول ، كالتمثيل والمحاكاة وأشباههما ، ممّا يندرج تحت مفهوم ذكر الغيبة بما يكره ، فقد يكون المشاهد متوجّهاً لهذا الذِّكر وقد يكون مشاهداً له دون توجيه له . ويبدو من عموم الأدلّة حرمة الاستماع والسماع وما بحكمهما ممّا ينطبق عليه الذِّكر المحرّم ، كما يجب ردّ المغتاب دفاعاً عن المؤمن المذكور بالغيبة ونصره له ما أمكن ذلك .

ومن هذه العمومات :

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « **مَن اغتيب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه ، نصره الله وأعانه في الدنيا والآخرة ، ومَن لم ينصره ولم يعنه ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه ، إلّا خفضه الله في الدنيا والآخرة** »[١] .

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وآله في وصيّته لعليّ عليه السلام ، قال : « **يا عليّ ، مَن اغتيب عنده أخوه المسلم فاستطاع نصره فلم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة** »[٢] .

٣ ـ وعنه صلى الله عليه وآله في وصيّته لأبي ذرّ رحمه الله ، قال : « **يا أبا ذرّ ، مَن اغتيب عنده أخوه المؤمن وهو يستطيع نصره فنصره ، نصره الله عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة ، وإن خذله وهو يستطيع نصره خذله الله في الدنيا والآخرة** »[٣] .

٤ ـ وعنه صلى الله عليه وآله ، قال : « **مَن ردّ عن أخيه غيبة سمعها في مجلس ردّ الله عنه ألف باب**

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٩١ ، باب وجوب ردّ غيبة المؤمن ، الحديث ١٦٣٣٣/٢ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦٣٣٢/١ .

(٣) المصدر المتقدّم : الحديث ١٦٣٣٨/٧ .

من الشرّ في الدنيا والآخرة ، فإن لم يرد عنه وأعجبه كان عليه كوزر مَن اغتاب »[١] .

٥ ـ وقال ﷺ : « **مَن ردّ عن عرض أخيه المسلم كتب من أهل الجنّة البتّة** »[٢] .

وقال ﷺ : « **مَن ردّ عن عرض أخيه كان له حجاباً من النّار** »[٣] .

٦ ـ وقال ﷺ : « **مَن ذبّ عن أخيه المؤمن الغيبة كان حقّه على الله عزّ وجلّ أن يعتقه من النّار** »[٤] .

٧ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « **ما من مؤمن يعين مؤمناً مظلوماً إلّا كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام ، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلّا نصره الله في الدنيا والآخرة ، وما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلّا خذله الله في الدنيا والآخرة** »[٥] .

فالمقصّر عن الردّ بموجب هذه الأخبار شريك للمغتاب في إثم الغيبة ، أمّا مقدار حصّته من هذا الإثم فالحديث الرابع صريح في قوله ﷺ : « **فإن لم يرد وأعجبه كان عليه كوزر مَن اغتاب** » .

أمّا القاصر العاجز عن الردّ كمن يخشى من الردّ لسبب وآخر ، فيتعيّن عليه أن يغادر مجلس الغيبة ، فإن عجز عن الفرار من مجلس الإثم ، فيتعيّن عليه حينئذٍ أن لا يعود لهكذا مجلس يعصى فيه الله تعالى وهو لا يقدر على تغييره ؛ لورود عدّة أحكام تحرّم معاشرة أهل البدع والمعاصي[٦] ، ويدلّ عليه بالذات ما روي عن

---

(١) الوسائل : ٢٩٢/١٢ ، باب وجوب ردّ غيبة المؤمن ، الحديث ٥/١٦٣٣٦ .

(٢) أمالي الطوسي ـ المجلس التاسع : ٢٣٣ ، الحديث ٦/٤١٤ .

(٣) المصدر المتقدّم ـ المجلس الرابع : ١١٥ ، الحديث ٣١/١٧٧ .

(٤) المصدر المتقدّم ـ المجلس التاسع عشر : ٥٣٧ ، الحديث ١/١١٦٢ .

(٥) الوسائل : ٢٩٢/١٢ ، باب وجوب ردّ غيبة المؤمن وتحريم سماعها ، الحديث ٤/١٦٣٣٥ .

(٦) وقد رويت عدّة أحاديث عن المعصومين عليهم السلام في الجزء الأوّل من هذا الكتاب بعنوان : « معاشرة أهل البدع والمعاصي » : ١٥٥ ـ ١٥٧ ، فراجع .

عليّ بن الحسين عليه‌السلام ، قال : « **إيّاكم وصحبة العاصين ، ومعونة الظالمين ، ومجاورة الفاسقين ، إحذروا فتنتهم ، وتباعدوا من ساحتهم** »[١] .

وعن أبي عبدالله عليه‌السلام ، قال : « **مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس مجلساً ينتقص فيه إمام أو يعاب فيه مؤمن** »[٢] .

٥ / تكفير الغيبة وحكمه

التكفير في المعاصي كالإحباط في الثواب[٣] ، فهو فعل يسبّب مغفرة الذنب أو العفو عنه ، كما تسبّب بعض الذنوب إحباط بعض الطاعات ومحو الثواب المترتّب عليها .

ومن المعلوم بالضرورة في الشريعة الإسلامية أنّ لبعض الذنوب كفّارة لو فعلها الإنسان غفر الله له أو عفى عنه ، مثل كفّارة مَن أفطر في شهر رمضان عمداً بغير عذر ، أو كفّارة حنث اليمين ، وأمثالهما . والكفّارات تختلف باختلاف الذنب ، وهي مفصّلة في كتب الحديث والفقه .

أمّا كفّارة الغيبة فإنّها تختلف عن كفّارة الإفطار وحنث اليمين ؛ لأنّ فيها حقّ الله سبحانه وتعالى حيث نهى العبد عن الغيبة فعصاه ، وحقّ للمغتاب حيث انتقصه من اغتابه أو مَن سمع أو استمع هذا الانتقاص ، وعليه فكفّارة حقّ الله تعالى هي التوبة والاستغفار .

وقد مرّ بنا معنى التوبة ومقوّماتها وشروطها[٤] ، وأمّا حقّ المغتاب فهو استرضاؤه ليبرء ذمّة مَن ذكره أو ذكر عنده ممّا له عليهما من حقّ انتقاصه ، بل أنّ التوبة لا تصحّ

---

(١) الوسائل : ١٦/٢٦٠ ، باب تحريم المجالسة لأهل المعاصي ، الحديث ٣/٢١٥١١ .

(٢) المصدر المتقدّم : الحديث ٧/٢١٥١٥ .

(٣) القاموس المحيط : ٤٧٠ ، مادة « كفر » .

(٤) راجع الصفحة ٢٠٩ ـ ٢١٨ من هذا الكتاب .

بدون استرضائه ؛ لما تقدّم من أنّ المتلبّس بظلم الآخرين لا تقبل توبته ، ولقوله ﷺ في تعليل كون الغيبة أشدّ من الزنا : « **بأنّ المغتاب لا يتوب الله عليه حتّى يكون صاحبه الذي يحلّه** » ، أو قوله ﷺ : « **الغيبة لا تغفر حتّى يغفرها صاحبه** »(١).

وعليه يجب على المغتاب والسامع والمستمع -إن لم يدافعا عن أخيهما - أن يذهبوا إليه ، ويعتذروا عنده ، ويتودّدوا إليه ، ويكرّروا عليه ، إن استلزم الأمر ذلك حتّى يطيّبوا قلبه ويسترضوه ليحلّهم ممّا له عليهم من الحقّ .

فإن تعنّت ولم يحلّهم فلعلّ اعتذارهم هذا وتودّدهم فيه حسنة تقابل سيّئة الغيبة يوم القيامة .

أمّا إذا كان في الاعتذار وبيان سببه مظنّة لإيذاء المؤمن والإساءة إليه بإعلامه بما قالوا فيه ، وقد تترتّب على ذلك عداوة وفتنة ، أو كان الوصول إليه معتذراً لموته أو لجهالة مكانه ، أو جهل شخصه ، أو نسيانه ، فحينئذٍ يتعيّن الاستغفار والدعاء له ، فإنّ فيهما من الأجر والمثوبة ما ربّما عادلت سيّئة الغيبة .

وقد سُئل النبيّ ﷺ : ما كفّارة الاغتياب ؟ قال : « **تستغفر الله لمن اغتبته كلّما ذكرته** »(٢).

وهو محمول على ما إذا تعذّر الوصول إليه لأحد أسباب التعذّر السابقة ، بقرينة ما مضى من الحديثين الدالّين على اشتراط صحّة التوبة من الغيبة بأن يكون صاحبه الذي يحلّه أو يغفرها له . مضافاً لما روي عنه ﷺ : « **مَن كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلّلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم ، إنّما يؤخذ**

---

(١) الوسائل : ١٢/٢٨٤ ، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً ، الحديث ١٦٣٠٨/٩ و : ١٦٣١٧/١٨ .

(٢) الوسائل : ١٢/٢٩٠ ، باب وجوب تكفير الاغتياب باستحلال صاحبه ، الحديث ١٦٣٣١/١ .

من حسناته ، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيّئات صاحبه فزيدت على سيّئاته »[١] .

وكذا ما روي عن الإمام الصادق عليه‌السلام ، قال : « **وإن اغتبت فبلغ المغتاب فاستحلّ منه ، فإن لم تبلغه ولم تستحلّه فاستغفر الله** »[٢] .

والأمر بالاستغفار في حديث الإمام عليه‌السلام يشمل الاستغفار من الذنب والاستغفار لصاحب الحقّ .

وإذا تعرّفت على طريق الخلاص من آثام الغيبة ، فهل تستحضر من اغتبتهم أو اغتيبوا أمامك فاستمعت أو سمعت غيبتهم كي تذهب إليهم وتستحلّهم من حقوقهم عليك ؟! وهل تتذكّر مَن مات منهم أو مَن لا تستطيع الوصول إليه أو مَن لا تستطيع مواجهته بما ذكرته فيه لتستغفر لهم وتدعو لهم لعلّ الله سبحانه يعوّضهم بما يرضيهم عنك يوم القيامة ؟!

لعلّ أمرك وأمري لا تسعه إلّا رحمة الله تعالى ؛ لأنّها وسعت كلّ شيء ، وإلّا فقد بلغ السيل الزبى ، اللّهمّ اغفر لكلّ من ظلمناه وأرضه عنّا بفضلك الواسع ليرضى عنّا يوم نلقاك ، إنّك على كلّ شيء قدير ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

وإذا ما علمنا أنّ صعوبة الخلاص من حقوق النّاس إنّما هو من نفوسنا الأمّارة بالسوء ، فعلينا بعد هذه الرحلة في شؤونها وفي معرفة هدى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهل بيته المعصومين عليهم‌السلام في مجاهدتها أن نختم حديثنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب بحديثين شريفين : أحدهما عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، والآخر عن وصيّه أمير المؤمنين عليه‌السلام .

١ ـ عن كتاب عوالي اللآلي : أنّه دخل على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله رجل اسمه مجاشع ، فقال : يا رسول الله ، كيف الطريق إلى معرفة الحقّ ؟ فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **معرفة النفس** » .

---

(١) بحار الأنوار : ٧٢/٢٤٣ ، باب الغيبة ، الحديث ٤ .

(٢) مصباح الشريعة : ٢٠٤ ، الباب المائة في الغيبة .

فقال : يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى موافقة الحقّ ؟ قال : « **مخالفة النفس** » .

قال : يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى رضا الحقّ ؟ قال ﷺ : « **سخط النفس** » .

فقال : يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى وصل الحقّ ؟ قال ﷺ : « **هجرة النفس** » .

فقال : يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى طاعة الحقّ ؟ قال : « **عصيان النفس** » .

فقال : يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى ذكر الحقّ ؟ قال ﷺ : « **نسيان النفس** » .

فقال: يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى قرب الحقّ ؟ قال ﷺ: «**التباعد عن النفس**».

فقال: يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى أُنس الحقّ ؟ قال ﷺ: «**الوحشة من النفس**».

فقال : يا رسول الله ، فكيف الطريق إلى ذلك ؟ قال ﷺ : « **الاستعانة بالحقّ على النفس** »[١] .

٢ ـ عن كتاب ناصح الدين ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « **النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة حسن الأدب ، والنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة ، والعبد يجهد بردّها عن سوء المطالبة ، فمتى أُطلق عنانها فهو شريك في فسادها ، ومَن أعان نفسه في هوى نفسه فقد أشرك نفسه في قتل نفسه** »[٢] .

اللّهمّ أنت الحقّ وحدك ، فأعنّا على أنفسنا لئلّا نعينها على هواها فنردى

والحمد لله على كلّ حال

وقد تمّ الجزء الثاني في تهذيب النفس ، بعدما أتممنا الجزء الأوّل في آداب المعاشرة . والحمد لله سبحانه وتعالى أوّلاً وآخراً

---

(١) عوالي اللآلي: ٢٤٦/١ ، الفصل العاشر: في أحاديث تتضمّن شيئاً من الآداب الدينيّة ، الحديث ١ .

(٢) مستدرك الوسائل: ١٣٧/١١ ، أبواب جهاد النفس ، باب وجوبه ، الحديث ١٢٦٤٢/٤ .

المصادر

القرآن الكريم

٢ ـ **الاختصاص** / الشيخ المفيد = محمّد بن محمّد بن النعمان (ت : ٤١٣هـ) : مؤتمر الشيخ المفيد ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى ١٤١٣هـ .

٣ ـ **إرشاد القلوب** / الحسن بن أبي الحسن الديلمي (ت : ٨٤١هـ) : نشر دار الشريف الرضي ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى : ١٤١٢هـ .

٤ ـ **الاستبصار** / شيخ الطائفة = أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت : ٤٦٠هـ) : تحقيق : محمدّ جعفر شمس الدين ، الناشر دار التعارف ـ بيروت : ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .

٥ ـ **أُصول الفقه** / الشيخ محمّدرضا المظفّر (ت : ١٣٨٨هـ) : الناشر دفتر تبليغات اسلامى ـ قم المقدّسة ، ط . الرابعة : ١٣٧٠هـ . ش .

٦ ـ **الأُصول العامّة للفقه المقارن** / السيّد محمّدتقي الحكيم : الناشر مؤسّسة آل البيت عليهم‌السلام لإحياء التراث ، ط . الثانية : ١٣٩٠هـ . ق .

٧ ـ **أُصول الكافي** / محمّد بن يعقوب الكليني الرازي (ت : ٣٢٨ ـ ٣٢٩هـ) : الناشر دار الأُسوة للطباعة والنشر ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى : ١٤١٨هـ . ق ـ ١٣٧٦هـ . ش .

٨ ـ **أضواء على دعاء كميل** / السيّد عزّالدين بحر العلوم : ط . الثالثة : ١٩٨٧م .

٩ ـ **أعلام الدين** / الحسن بن أبي الحسن الديلمي (ت : ٨٤١هـ) : تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، ط . الأُولى : ١٤٠٨هـ .

١٠ ـ **إقبال الأعمال** / السيّد عليّ بن طاووس الحلّي (ت ٦٦٤هـ) : الناشر دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران ، ط . الثانية : ١٣٦٧هـ . ش .

١١ ـ **الأمالي** / أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي = الصدوق (ت ٣٨١هـ) : تحقيق ونشر : مؤسّسة البعثة ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى : ١٤١٧هـ .ق .

١٢ ـ **الانتصار** / الشريف المرتضى علم الهدى عليّ بن الحسين الموسوي البغدادي (ت ٤٣٦هـ) : تحقيق ونشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، ط . الأُولى : ١٤١٥هـ .

١٣ ـ **بحار الأنوار** / العلّامة المجلسي ، الشيخ محمّدباقر (ت ١١١٠هـ) : الناشر مؤسّسة الوفاء ـ بيروت ، ط . الرابعة : ١٤٠٤هـ .

١٤ ـ **البحر الرائق في شرح كنز الدقائق** / العلّامة الشيخ زين الدين بن إبراهيم بن محمّد = ابن نجيم المصري الحنفي (ت ٩٧٠هـ) : الناشر دار الكتب العلميّة ـ بيروت ، ط . الأُولى : ١٤١٨هـ . ق ـ ١٩٩٧م .

١٥ ـ **بصائر الدرجات** / الثقة الجليل أبو جعفر محمّد بن الحسن بن فروخ (الصفّار) (ت ٢٩٠هـ) : الناشر مؤسّسة الأعلمي ـ طهران ، ط . الثانية ، ١٣٧٤هـ . ش .

١٦ ـ **التبيان في تفسير القرآن** / شيخ الطائفة = أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) : تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي ، الناشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط . الأُولى : ١٤٠٩هـ .

١٧ ـ **تحف العقول** / الشيخ الثقة أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع) : الناشر مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، ط . السادسة :

١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٨ ـ **تذكرة الموضوعات** / محمّد طاهر بن عليّ الفتني (ت٩٨٦هـ) .

١٩ ـ **تفسير الثعالبي** = جواهر الحسان في تفسير القرآن / عبدالرحمن بن محمّدبن مخلوف = أبو زيد الثعالبي المالكي (ت ٨٧٥هـ) : تحقيق : د . عبدالفتاح أبو سنه ـ **الشيخ عليّ** محمّد معوض ، الناشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط . **الأولى : ١٤١٨هـ.**

٢٠ ـ **تفسير الصافي** / المولى محسن الملقّب بـ الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ) : تحقيق الشيخ حسين الأعلمي ، الناشر مكتبة الصدر ـ طهران ، ط . الثانية : ١٤١٦هـ.

٢١ ـ **تنقيح الأُصول** / آقا ضياء الدين العراقي (ت ١٣٦١هـ) (تقرير آية الله الحاج السيّد رضا الطباطبائي) : الناشر المطبعة الحيدريّة ـ النجف الأشرف ، ١٣٧١هـ . ق .

٢٢ ـ **التنقيح في شرح العروة الوثقى** (أبحاث الخارج السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي) ، (تقرير الميرزا علي الغروي) : الناشر مؤسّسة إحياء آثار الإمام الخوئي ﷺ ـ قم المقدّسة .

٢٣ ـ **تهذيب الأحكام** / شيخ الطائفة = أبو جعفر محمّد بن الحسن **الطوسي** (ت ٤٦٠هـ) : تحقيق محمّدجعفر شمس الدين ، الناشر دار التعارف ـ بيروت : ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٤ ـ **التوحيد** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه **القمّي** (ت ٣٨١هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم المقدّسة ، ط . الثامنة : ١٤٢٣هـ . ق .

٢٥ ـ **ثواب الأعمال** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : الناشر دار الشريف الرضي ـ قم المقدّسة ، ط . **الثانية** : ١٤٠٦هـ . ق .

٢٦ ـ **جامع السعادات** / محمّد مهدي النراقي (ت ١٢٠٩هـ) : الناشر مؤسّسة **الأعلمي**

ـ بيروت، ط. السابعة /١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٧ ـ **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير** / جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) : الناشر دار الفكر ـ بيروت، ط. الأُولى /١٤٠١هـ.

٢٨ ـ **جمهورية افلاطون** / ترجمها إلى العربيّة حنّا الخبّاز، الناشر دار العلم ـ بيروت، ط. الثانية /١٩٨٠م.

٢٩ ـ **جواهر الكلام** / الشيخ محمّدحسن النجفي : تحقيق الشيخ عبّاس القوچاني، الناشر دار الكتب الإسلاميّة ـ قم المقدّسة، ط. الثانية /١٣٦٥هـ. ش.

٣٠ ـ **حقائق الأُصول** / السيّد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩١هـ) : الناشر مكتبة بصيرتي ـ قم المقدّسة، ط. الخامسة /١٤٠٨هـ. ق.

٣١ ـ **الخصال** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ط. الثانية /١٤٠٣هـ. ق.

٣٢ ـ **الدرّ المنثور** / جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) : الناشر دار الفكر ـ بيروت.

٣٣ ـ **الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة** / صدرالدين السيّد عليّ خان المدني الشيرازي الحسيني (ت ١١٢٠هـ ـ ١٧٠٨م) : الناشر مكتبة بصيرتي ـ قم المقدّسة، ط. الثانية /١٣٩٧هـ.

٣٤ ـ **دلائل الصدق** / العلّامة الشيخ محمّد حسن المظفّر (ت ١٣٧٥هـ. ق) : نشر وتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط. الأُولى /١٤٢٣هـ.

٣٥ ـ **ذرائع البيان في عوارض اللسان** / محمّدرضا الطبسي النجفي : الناشر مطبعة النعمان /١٣٧٧هـ. ق.

٣٦ ـ **ذكرى الشيعة** / الشهيد الأوّل = محمّد بن جمال الدين مكّي العاملي الجزيني

(ت٧٨٦) : نشر وتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المقدّسة ، ط . الأولى /١٤١٩هـ .

٣٧ـ **رسائل الشهيد الثاني كشف الريبة عن أحكام الغيبة** /الشهيد الثاني = زين الدين عليّ البجعي العاملي (ت٩٦٥هـ) : الناشر مكتبة بصيرتي ـ قم .

٣٨ ـ **رسائل الشريف المرتضى** / علم الهدى عليّ بن الحسين الموسوي البغدادي (ت٤٣٦هـ) : تحقيق السيّد مهدي الرجائي ، الناشر دار القرآن ـ قم المقدّسة /١٤٠٥هـ .

٣٩ ـ **رسائل الكندي الفلسفيّة** : تحقيق محمّد عبدالهادي أبو ريده .

٤٠ ـ **الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة** / الشهيد الثاني = زين الدين عليّ البجعي العاملي (ت٩٦٥هـ) : الناشر مؤسّسة اسماعيليان ـ قم المقدّسة ، ط . الثانية /١٣٧٤هـ . ش ـ ١٤١٦هـ . ق .

٤١ ـ **روضة الكافي** / محمّد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٨ ـ ٣٢٩هـ) : تحقيق محمّد جعفر شمس الدين ، الناشر دار التعارف ـ بيروت ، ط . الثانية /١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

٤٢ ـ **رياض المسائل** / السيّد عليّ بن السيّد محمّد علي الطباطبائي (ت١٢٣١هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، ط . الأولى /١٤١٨هـ .

٤٣ـ **سنن النسائي** (بشرح السيوطي) /أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ) : الناشر دار الفكر ـ بيروت ، ط . الأولى /١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م .

٤٤ ـ **شرائع الإسلام** / المحقّق الحلّي = أبوالقاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلّي (ت٦٧٦هـ) : الناشر انتشارات استقلال ـ طهران ، ط . الرابعة /١٤١٥هـ .

٤٥ ـ **شرح الأسماء الحسنى** / الحاج ملّا هادي السبزواري (ت١٣٠٠هـ) : الناشر مكتبة بصيرتي ـ قم المقدّسة .

٤٦ ـ **شرح ابن عقيل** / بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت٧٦٩هـ) : الناشر انتشارات ناصر خسرو ـ طهران .

٤٧ ـ **شرح التجريد** / علاء الدين القوشجي (٨٧٩هـ) : الناشر منشورات دار الشريف الرضي ـ قم المقدّسة .

٤٨ ـ **شرح مئة كلمة** / كمال الدين ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني (من علماء القرن السادس) : تحقيق مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدّث ، الناشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم المقدّسة .

٤٩ ـ **صحيح البخاري** / أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ) : الناشر دار الفكر ـ بيروت ، ط . بالأُوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول /١٤٠١هـ.

٥٠ ـ **صفات الشيعة** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : الناشر مؤسّسة الأعلمي ـ طهران .

٥١ ـ **الطبقات الكبرى** / محمّد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) : الناشر دار صادر ـ بيروت .

٥٢ ـ **العدّة في أُصول الفقه** / شيخ الطائفة = أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت : ٤٦٠هـ) : تحقيق محمّدرضا الأنصاري ، ط . الأُولى /١٤١٧هـ.

٥٣ ـ **علم النفس** / د . أحمد حسن الرحيم ، ط . بغداد /١٩٦٤م .

٥٤ ـ **عوالي اللآلي** / ابن أبي جمهور الأحسائي (توفّي في القرن العاشر الهجري) : الناشر دار سيّد الشهداء عليه السلام ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى /١٤٠٥هـ.

٥٥ ـ **عيون أخبار الرضا** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : الناشر دار العالم للنشر (جهان) /١٣٧٨هـ . ش .

٥٦ ـ **غرر الحكم ودرر الكلم** /الآمدي = عبدالواحد بن محمّد التميمي (ت ٥٥٠هـ) : الناشر مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى /١٣٦٦هـ.

٥٧ ـ **فرائد الأُصول** / الشيخ الأعظم = مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ) : تحقيق لجنة تراث الشيخ الأعظم ، الناشر مجمع الفكر الإسلامي ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى /١٤١٩هـ.

٥٨ـ **فروع الكافي** / محمّد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٨ـ ٣٢٩هـ) : تحقيق محمّد جعفر شمس الدين ، الناشر دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت /١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

٥٩ ـ **فقه الإمام الرضا** عليه‌السلام / عليّ بن بابويه القمّي (٣٢٩هـ) : تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم‌السلام لإحياء التراث ، الناشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه‌السلام ـ مشهد المقدّسة ، ط . الأُولى /١٤٠٦هـ.

٦٠ ـ **القاموس المحيط** / مجدالدين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) : الناشر مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ، ط . السادسة /١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

٦١ـ **قوانين الأُصول** / الميرزا أبو القاسم القمّي (ت ١٣٣١هـ) : الناشر مكتبة العلميّة الإسلاميّة ـ قم المقدّسة /١٣٧٨هـ .

٦٢ـ **كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد** /العلّامة الحلّي =أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف (ت٧٢٦هـ) : الناشر مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، ط . الأُولى /١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٦٣ ـ **كفاية الأُصول** / الآخوند = الشيخ محمّدكاظم الخراساني (ت١٣٢٩هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم المقدسة ، ط . السادسة /١٤٢٢هـ.

٦٤ـ **لسان العرب** /أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) : الناشر نشر أدب الحوزة ـ قم المقدّسة ، الأُولى /١٤٠٥هـ.

٦٥ ـ **مجمع البيان** / أمين الإسلام =أبو عليّ الفضل بن الحسن الطوسي (من أعلام القرن السادس الهجري ، ت٥٥٢هـ) : الناشر مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، ط . الأُولى /١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

٦٦ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** / الحافظ نورالدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ) : الناشر دار الكتب العلميّة ـ بيروت / ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٦٧ـ **المحاسن** / أحمد بن محمّد بن خالد البرقي (٢٧٤هـ) : الناشر دار الكتب الإسلاميّة ـ قم المقدّسة ـ ط . الثانية /١٣٧١هـ .

٦٨ـ **المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء** / محمّد بن مرتضى الفيض الكاشاني : الناشر مكتبة الصدوق ، ط . طهران /١٣٣٩هـ . ش .

٦٩ـ **محاضرات في العقيدة الإسلاميّة** /أحمد كاظم البهادي : الناشر مطبعة الآداب في النجف الأشرف ، الأولى /١٩٧٢م .

٧٠ـ **محاضرات في أُصول الفقه** (تقرير لأبحاث آية الله العظمى السيّد أبي القاسم الخوئي ﷺ ، قرّرها آية الله الشيخ إسحاق الفيّاض) : الناشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ، ط . الأُولى /١٤١٩هـ .

٧١ـ **المحكم في أُصول الفقه** /آية الله العظمى السيّد محمّد سعيد الحكيم : الناشر مؤسّسة المنار ـ قم المقدّسة ، ط .الأُولى /١٤١٤هـ .

٧٢ـ **المحلّى** / أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) : تحقيق أحمد محمّد شاكر ، الناشر دار الفكر ـ بيروت .

٧٣ـ **مختار الصحاح** / محمّد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي : تحقيق أحمد شمس الدين ، الناشر دار الكتب العلميّة ـ بيروت ، ط . الأُولى /١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .

٧٤ـ **مختصر بصائر الدرجات** / الشيخ حسن بن سليمان الحلّي (توفّي في القرن التاسع) : الناشر المطبعة الحيدريّة ـ النجف الأشرف ، ط . الأُولى /١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م .

٧٥ـ **مدارك الأحكام** / السيّد محمّد بن عليّ الموسوي العاملي (ت١٠٠٩هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى /شعبان ١٤١٠هـ .

٧٦ـ **مسالك الأفهام** / الشهيد الثاني = زين الدين بن عليّ البجعي العاملي (ت٩٦٥هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة المعارف الإسلاميّة ـ قم المقدّسة /١٤١٣هـ .

٧٧ـ **مستدرك الوسائل** / الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ) : نشر

وتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المقدّسة ، ط . الأولى /١٤٠٨هـ.

٧٨ـ **المصباح** / الكفعمي = إبراهيم بن عليّ العاملي الحارثي (ت ٩٠٥هـ) : الناشر دار الشريف الرضي وزاهدي ـ قم المقدّسة ، ط . الثانية /١٤٠٥هـ.

٧٩ـ **مصادقة الاخوان** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : الناشر مطبعة الكرماني ـ قم المقدّسة /١٤٠٢هـ.

٨٠ـ **مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة** (المنسوب إلى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام : الناشر مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ، ط . الأُولى /١٤٠٠هـ .

٨١ـ **معاني الأخبار** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : الناشر مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، ط . الأُولى /١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

٨٢ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** / محمّد فؤاد عبدالباقي : الناشر دار الفكر ـ بيروت ، ط . الرابعة /١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

٨٣ـ **معالم الأُصول** = معالم الدين وملاذ المجتهدين / الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني قدس سره : الناشر دار الفكر ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى /١٣٧٤هـ .

٨٤ـ **معجم رجال الحديث** / آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي قدس سره : الناشر دار إحياء آثار الإمام الخوئي قدس سره ، ط . الخامسة /١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

٨٥ـ **المفردات في غريب القرآن** / أبو القاسم الحسين بن محمّد = الراغب الاصفهاني (ت ٥٢٠هـ) : الناشر دار المعرفة ـ بيروت ، ط . الثانية /١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

٨٦ـ **المكاسب** / الشيخ الأعظم = مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ) : الناشر دهقاني (اسماعيليان) ، ط . الرابعة /١٣٧٦هـ . ش .

٨٧ـ **مكارم الأخلاق** / الشيخ الجليل رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري) : تحقيق الشيخ حسين الأعلمي ، الناشر

مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، ط . الأولى /١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

٨٨ ـ **الملل والنحل** / الشيخ جعفر السبحاني : الناشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم المقدّسة ، ط . الخامسة /١٤٢٣هـ .

٨٩ ـ **منهاج الصالحين** / آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي ﷺ : الناشر مدينة العلم ـ السيّد أبوالقاسم الخوئي ﷺ ـ قم المقدّسة ، ط . الثامنة والعشرون /١٤١٠هـ .

٩٠ ـ **من لا يحضره الفقيه** / الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت٣٨١هـ) : تحقيق محمّد جعفر شمس الدين ، الناشر دار التعارف ـ بيروت /١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

٩١ ـ **المنطق** / الشيخ محمّدرضا المظفّر : الناشر دار الغدير ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى /١٤٢٠هـ .

٩٢ ـ **مناقب آل أبي طالب** / محمّد بن شهرآشوب المازندراني (ت٥٨٨هـ) : الناشر مؤسّسة العلّامة للنشر ـ قم المقدّسة /١٣٧٩هـ .

٩٣ ـ **منية المريد** / الشهيد الثاني = زين الدين بن عليّ البجعي العاملي (ت٩٦٥هـ) : تحقيق رضا المختاري ، الناشر مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى /١٤٠٩هـ ـ ١٣٦٨هـ . ش .

٩٤ ـ **المنجد في اللغة** : الناشر دار المشرق ـ بيروت ، ط . الخامسة والثلاثون /١٩٩٦م .

٩٥ ـ **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم** / العلّامة محمّد عليّ التهانوي : تحقيق د . عليّ حروج ، الناشر مكتبة لبنان ناشرون ـ بيروت ، ط . الأُولى /١٩٩٦م .

٩٦ ـ **الموسوعة الفلسفيّة المختصرة** (المترجمة من الإنجليزيّة) : نقلها إلى

العربيّة نجيب محمود وفؤاد جلال العشري وعبد الرشيد الصادق ، الناشر مكتبة الإنجلو المصريّة ـ القاهرة .

٩٧ ـ **ميزان الحكمة** / الشيخ محمّد الريشهري : نشر وتحقيق دار الحديث ـ قم المقدّسة ، ط . الأُولى ـ التنقيح الثاني /١٤١٦هـ .

٩٨ ـ **الميزان في تفسير القرآن** / العلّامة محمّدحسين الطباطبائي : تحقيق الشيخ حسين الأعلمي ، الناشر مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، ط . الأُولى المحقّقة /١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

٩٩ ـ **نهج البلاغة** : خطب أمير المؤمنين عليه السلام ، جمعها الشريف الرضي رحمه الله ، تحقيق د . صبحي الصالح ، الناشر دار الهجرة ـ قم المقدّسة ، ط . الخامسة .

١٠٠ ـ **النفس الإنسانيّة** / محمّد فرحان چلوب : الناشر جامعة الموصل ـ مديريّة دار الكتب /١٩٨٦م .

١٠١ ـ **وسائل الشيعة** / الحرّ العاملي = محمّد بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن الحسين (ت ١١٠٤هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ بيروت ، ط . الأُولى /١٤١٣هـ . ق ـ ١٩٩٣م .

١٠٢ ـ **الوشاح على الشرح المختصر لتلخيص المفتاح** / الشيخ محمّد الكرمي : ط . ايران .

الفهارس الفنية

١ ـ فهرس الآيات الكريمة

الفاتحة ـ ١

البقرة ـ ٢

آل عمران ـ ٣

النساء ـ ٤

المائدة ـ ٥

الأنعام ـ ٦

الأعراف ـ ٧

الأنفال ـ ٨

التوبة ـ ٩

يونس ـ ١٠

هود ـ ١١

يوسف ـ ١٢

الرعد ـ ١٣

إبراهيم ـ ١٤

الحجر ـ ١٥

مريم ـ ١٩

طه ـ ٢٠

الأنبياء ـ ٢١

الحجّ ـ ٢٢

المؤمنون ـ ٢٣

النور ـ ٢٤

الفرقان ـ ٢٥

الشعراء ـ ٢٦

النمل ـ ٢٧

القصص ـ ٢٨

العنكبوت ـ ٢٩

الروم ـ ٣٠

لقمان ـ ٣١

السجدة ـ ٣٢

الأحزاب ـ ٣٣

سبأ ـ ٣٤

فاطر ـ ٣٥

الصافّات ـ ٣٧

ص ـ ٣٨

الزُّمر ـ ٣٩

غافر ـ ٤٠

فصّلت ـ ٤١

(٥٣) ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ	٢: ١٨، ٢: ١٩

الشورى ـ ٤٢

(١١) ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ	٢: ١٦٢
(٣٠) ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ	٢: ٩٩، ٢: ١٠٠
(٣١) ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ	٢: ٩٩
(٣٦) ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ	٢: ١٦٢
(٣٧) ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ	٢: ٨٠، ٢: ١٦٢
(٤٠) ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ	١: ١١٤
(٤١) ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِن سَبِيلٍ	٢: ١٨٦
(٤٢) ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ	٢: ١٨٦
(٤٣) ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ	٢: ١٨٦
(٥٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَا	٢: ٢٨

الزخرف ـ ٤٣

(٣٢) ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ	١: ٤٩٦
(٨٩) ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ	١: ٢٠١

الجاثية ـ ٤٥

(١٣) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً	١: ٣١
(١٧) ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ	٢: ٢٩٥
(٢٣) ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ	٢: ٢٩٥

الأحقاف ـ ٤٦

محمّد ﷺ ـ ٤٧

الفتح ـ ٤٨

الحجرات ـ ٤٩

ق ـ ٥٠

الذاريات ـ ٥١

النجم ـ ٥٣

الرحمـٰن ـ ٥٥

الواقعة ـ ٥٦

الحديد ـ ٥٧

المجادلة ـ ٥٨

الحشر ـ ٥٩

الممتحنة ـ ٦٠

الصفّ ـ ٦١

الجمعة ـ ٦٢

المنافقون ـ ٦٣

التغابن ـ ٦٤

الطلاق ـ ٦٥

التحريم ـ ٦٦

الملك ـ ٦٧

القلم ـ ٦٨

المعارج ـ ٧٠

المزّمّل ـ ٧٣

المدّثّر ـ ٧٤

القيامة ـ ٧٥

المرسلات ـ ٧٧

النبأ ـ ٧٨

النازعات ـ ٧٩

التكوير ـ ٨١

المطفّفين ـ ٨٣

الفجر ـ ٨٩

البلد ـ ٩٠

الشمس ـ ٩١

الشرح ـ ٩٤

العلق ـ ٩٦

القارعة ـ ١٠١

العصر ـ ١٠٣

الهُمَزة ـ ١٠٤

٢ ـ فهرس الأحاديث الشريفة

أئمة أهل البيت عليهم السلام

النبيّ ﷺ

الإمام علي

الإمام الحسن (ع)

الإمام الحسين (ع)

الإمام السجّاد

الإمام الباقر

الإمام الصادق

الإمام الكاظم

الإمام الرضا

الإمام الجواد عليه السلام

الإمام الهادي (ع)

الإمام العسكري (ع)

المحتويات



موسوعة أخلاقية متكاملة تشتمل على كل تفاصيل و دقائق الحياة الإنسانية، حيث علاقة الانسان مع الله جلّ جلاله و الناس والطبيعة، وهي مستوحاة من الأحاديث الشريفة الواردة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و آله الاطهار (عليهم السلام)، و قد رتّبها المؤلف وفق منهج رصين لتكون دستوراً أخلاقياً للإنسان المسلم و معالم تضيء له الطريق.



نشر باقيات

مركز التوزيع:



أصالة الماضي وحداثة الحاضر

قم - ايران - شارع صفائيه - پاساژ الامام المهدي

هاتف: ٧٧٣٣٦٣١ - ٧٨٣٣٦٢٤ فاكس: ٧٧٤٧٦٩٥

ISBN 964-9635-11-4



ISBN:964-9635-19-X